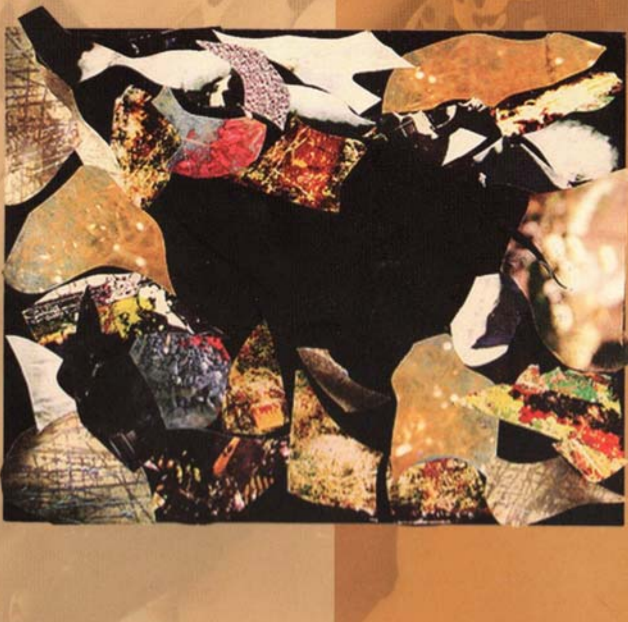
توماس إيلوي مارتينث

سانتا إيفيتا

رواية



ترجمة
صالح علماني

دار الحوار

توماس إيلوي مارتينث

سانتا إيفيتا

رواية

دار الحوار

سانتا إيفيتا

● سانتا إيفيتا
● توماس إيلوي مارتينث
● ترجمة: صالح علماني

● الطبعة الأولى 7 / 2010
● الناشر: دار الحوار للنشر والتوزيع
سورية ـ اللاذقية ـ ص. ب: 1018
هاتف وفاكس: 422339 41 963
البريد الإلكتروني: daralhiwar@gmail.com

تم تنفيذ التنضيد والإخراج الضوئي في القسم الفني بدار الحوار

❁ ❁

العنوان الأصلي للكتاب

Tomás Eloy Martínez, 1995

Santa Evita

الإهداء

إلى سوزانا روكر،

مثلما هو كل شيء.

«الموت
فن مثل أي فن آخر.
وأنا أمارسه بأقصى حدود الجودة.»

سيلفيا بلاث،

«ليدي لازاروس»، 23 ـ 29 تشرين الأول 1962

«أريد أن أطل على العالم
مثل من ينظر إلى مجموعة بطاقات بريدية.»

إيفيتا دوارتي،

من مقابلة مع مجلة أنتينا، 13 حزيران 1944

- 1 -

«حياتي لكم»

عند استيقاظها من غيبوبة استمرت أكثر من ثلاثة أيام، أيقنت إيفيتا أخيراً أنها ستموت. كانت وخزات الألم الفظيعة في البطن قد تلاشت وصار بدنها نظيفاً من جديد، في توحد مع نفسها، في طوباوية بلا زمان ولا مكان. وحدها فكرة الموت هي التي لم تتوقف عن إيلامها. فما هو أسوأ من الموت ليس حدوث الموت. الأسوأ من الموت هو البياض، الخواء، الوحدة في الجانب الآخر: الجسد الهارب مثل حصان يعدو خبباً.

وعلى الرغم من أن الأطباء لا يتوقفون عن القول لها إن فقر الدم آخذ بالتراجع وإنها ستسترد عافيتها خلال شهر، إلا أنها لم تكن تجد من القوة ما يكفيها لفتح عينيها. لم يكن بمقدورها النهوض عن السرير مهما ركزت طاقتها في مرفقيها وكعبيها، بل إن الجهد الخفيف للانقلاب إلى هذا الجانب أو ذاك، من أجل تخفيف الألم، يقطع أنفاسها.

لم تكن تبدو أنها الشخص نفسه الذي وصل إلى بوينس آيرس في العام 1935 بيدٍ من وراء ويد من قدام، ومن كانت تمثل في مسرحيات لا رجاء منها مقابل ثمن فنجان قهوة بالحليب. لقد كانت آنذاك لا شيء أو أقل من لا شيء: عصفور دوري مبلل، قطعة كراميلا مقضومة، نحيلة إلى حدّ يثير الرثاء. وأخذت تكتسب الحسن مع العاطفة، مع الذاكرة، مع الموت.

حاكت لنفسها شرنقة جمال راحت تحتضن ملكة، من كان يمكنه أن يصدق ذلك.

«كان شعرها أسود عندما تعرفتُ إليها»، هذا ما قالته ممثلة قدمت لها مأوى. ثم أضافت: «كانت عيناها الكئيبتان تنظران كما لو أنهما تودعان. لا يُرى لونهما. أنفها فج بعض الشيء، نصف ثقيل، وأسنانها بارزة قليلاً. ومع أنها ملساء الصدر، إلا أن قوامها يخلف انطباعاً جيداً. لم تكن من أولئك النساء اللاتي يجعلن الرجال يلتفتون إليهن: تبدو لطيفة، ولكنها لا تسبب الأرق لأحد. والآن، عندما ألاحظ المدى الذي حلّقت إليه، أقول لنفسي: أين تعلمت تلك المرأة الهشة التحكم بالسلطة، وماذا تراها فعلت لتتوصل إلى كل تلك الطلاقة والسهولة في الكلام، ومن أين أتت بالقوة لتلامس أشد قلوب الناس ألماً؟ أي حلم نزل لها بين الأحلام، أي ثغاء حَمَل حرك دمها ليحولها بين ليلة وضحاها إلى ما صارت إليه: إلى ملكة؟»

«ربما كان المرض هو السبب»، قال عامل المكياج في فلمها الأخير. «فمن قبل، مهما وضعنا لها من طبقة أساس وألوان، كان يبدو عن بُعد فرسخ أنها امرأة عادية، ولم تكن هناك طريقة لتعليمها الجلوس بظُرف ولا استخدام أدوات المائدة، أو الأكل وفمها مطبق. ولم تكن قد انقضت أربع سنوات عندما عدتُ لرؤيتها، وماذا أقول لك؟ إنها ربة. فقد تجملت ملامحها كثيراً حتى إنه كانت تشع حولها هالة أرستقراطية وحساسية حكاية حوريات. نظرتُ إليها بثبات لأرى أي طلاء إعجازي تضع على وجهها. ولكن لم يكن هناك شيء: كانت لها أسنان الأرنب نفسها التي لا تسمح لها بإطباق فمها، والعينان شبه المدورتين وغير المثيرتين بأي حال، والأدهى من ذلك كله أنها أضخم أنفاً مما كانت عليه. أما الشعر، هذا أجل، فكان مختلفاً: إنه مشدود، ومصبوغ باللون الأشقر، مع عقيصة بسيطة. كان الجمال ينمو من داخلها دون استئذان.»

لم يكن هناك من ينتبه إلى أن المرض يزيدها نحولاً، ولكنه يقلص

حجمها كذلك. ولأنهم سمحوا لها أن تلبس حتى النهاية بيجامات زوجها، فقد كانت إيفيتا تطفو طليقة أكثر فأكثر في رحابة تلك الأقمشة. «ألا ترون أنني أشبه بفلاح، بقزم؟»، كانت تقول للوزراء الذين يحيطون بسريرها. فيردون عليها بالمديح المتملق: «لا تقولي هذا يا سيدتنا. إذا كنتِ أنت قزماً، فماذا سنكون نحن؟ قملاً، ميكروبات؟». ويحولون موضوع الحديث. أما الممرضات بالمقابل، فكن يُعدنها إلى الواقع: «أترين كيف أنك أكلت جيداً اليوم؟»، يرددن بينما هن يرفعن الأطباق التي لم تُمس. «إنك تبدين وقد سمنتِ قليلاً يا سيدتي.» يخدعنها كما يخدعن طفلة. الغضب الذي يتوقد في أعماقها، دون مخرج، هو أكثر ما يخنقها: أكثر من المرض، من التردي، من الخوف الأخرق من استيقاظها ميتة وهي لا تعرف ما عليها عمله.

قبل أسبوع - أمضى أسبوع على ذلك؟ - انطفأ تنفسها لحظة (مثلما يحدث لجميع مرضى فقر الدم، أو هذا ما قالوه لها على الأقل). وعندما استعادت الوعي، وجدت نفسها في مغارة سائلة، شفافة، وبقناع يغطي عينيها وقطن في أذنيها. بعد محاولة أو اثنتين، تمكنت من انتزاع الأنابيب والمسابر. وأثار استغرابها أنه في تلك الحجرة، حيث لا تُحرك الأشياء من مكانها إلا نادراً، توجد جوقة راهبات جاثيات أمام صوان الزينة، ومصابيح نور غائمة فوق خزائن الملابس، وأسطوانتا أوكسجين ضخمتان تنتصبان متوعدتين إلى جانب السرير. لقد اختفت علب الكريمات وقوارير العطور عن الرفوف. وكانت تُسمع على السلّم تضرعات تخفق بأجنحتها كالخفافيش.

– ما سبب هذا الازدحام؟ - قالت وهي تعتدل في السرير.

جمّدت المفاجأة الجميع. واقترب منها طبيب أصلع تكاد لا تتذكره وقال لها في أذنها:

– لقد أجرينا لكِ للتو عملية جراحية صغيرة يا سيدتي. فقد انتزعنا العصب الذي يسبب لك الكثير من الألم في رأسك. لن تشعري بمزيد من

الألم.

– إذا كنتم تعرفون ما هو السبب، فلا أفهم لماذا تأخرتم كل هذا الوقت ـ ورفعت صوتها بالنبرة الآمرة التي ظنت أنها فقدتها ـ: هيا، ساعدني. أرغب في الذهاب إلى الحمام.

نزلت عن السرير حافية، وبالاستناد إلى إحدى المرضات، ذهبت لتجلس على مقعد المرحاض. ومن هناك سمعت أخاها خوان يركض في الممرات ويردد بانفعال: «لقد نجت إيفا! الرب كبير، لقد نجت إيفا!». في تلك اللحظة بالذات غفت من جديد. وظلت مستنفدة إلى حدّ لا تستيقظ معه إلا لحظات فقط لتشرب رشفات من الشاي. فقدت الإحساس بالوقت، بالساعات، وحتى بمن يتناوبون على العناية بها. وقد سألت في إحدى المرات: «في أي يوم نحن؟». فقيل لها: «الثلاثاء 22»، ولكنها بعد لحظات، حين أعادت السؤال، أجابوها: «السبت 19»، ففضلت نسيان السؤال عن ذلك الشيء ضئيل الأهمية للجميع.

في إحدى لحظات صحوها أمرت باستدعاء زوجها وطلبت منه أن يبقى قليلاً معها. لاحظت أنه أكثر سمنة وله أكياس لحمية كبيرة تحت عينيه. بدا مرتبكاً وبه رغبة في الانصراف. وهذا طبيعي: فمنذ سنة تقريباً لم يلتقيا على انفراد. أمسكت إيفيتا يديه وأحست أنه قد ارتعش.

– ألا يخدمونك جيداً يا خوان؟ ـ قالت له ـ لقد زادتك المشاغل سمنة. دعك من العمل كثيراً وتعال في الأمسيات لزيارتي.

– ماذا أفعل يا تشينيتا؟ ـ قال الزوج معتذراً ـ إنني أقضي النهار في الرد على الرسائل التي يرسلونها إليكِ. إنها أكثر من ثلاثة آلاف رسالة، وفيها جميعها يطلبون منكِ شيئاً: منحة للأبناء، جهاز عروس، طقم حجرة نوم، وظيفة حارس ليلي، وما أدراني أنا. عليكِ أن تنهضي بسرعة قبل أن أسقط أنا أيضاً مريضاً.

– لا تتظارف. أنت تعلم أنني سأموت غداً أو بعد غد. وإذا كنتُ قد طلبت مجيئك فلأنني بحاجة إلى توصيتك على بعض الأشياء.

– اطلبي ما تشائين.

– لا تتخلَّ عن الفقراء، عن شحومي الصغيرة. فجميع هؤلاء الذين يتجولون هنا ويلعقون حذاءك سيديرون لك ظهورهم ذات يوم. أما الفقراء فلن يفعلوا يا خوان. إنهم الوحيدون الذين يعرفون كيف يكونون أوفياء ـ داعب الزوج شعرها. فأبعدت يديه عنها ـ: هناك شيء واحد لن أغفره لك أبداً.

– أن أتزوج من جديد ـ حاول أن يمازحها.

– تزوج كيفما تشاء. سيكون ذلك أفضل بالنسبة لي. لأنك ستدرك ما الذي فقدته. ما لا أريده يا خوان هو أن ينساني الناس. لا تسمح بأن ينسوني.

– اطمئني. فكل شيء قد رُتب. ولن ينسوكِ.

– طبعاً. كل شيء قد رُتب ـ كررت إيفيتا.

في صباح اليوم التالي استيقظت بحماسة كبيرة وبخفة جعلتها تتصالح مع جسدها. فهي تكاد لا تشعر به الآن، بعد كل الآلام التي عانتها. ليس لها جسد وإنما مجرد أنفاس، رغبات، متع بريئة، صور لأمكنة تريد الذهاب إليها. مازالت نقاط الوهن في الصدر واليدين، ولكنها ليست أشياء من عالم آخر، ليست شيئاً يمنعها من النهوض. عليها أن تفعل ذلك بأسرع ما يمكن، كي تفاجئ الجميع. وإذا ما حاول الأطباء منعها، فسوف تكون قد ارتدت ملابسها من أجل الخروج، وستوقفهم عند حدهم بصرختين. هيا، قالت لنفسها، هيا بنا الآن. وما كادت تحاول النهوض، حتى أعادها أحد مثاقب الألم الرهيبة التي تثقب رقبتها إلى وعي المرض. كان ألماً مقتضباً جداً، ولكنه شديد بما يكفي لتنبيهها إلى أن الجسد لم يتبدل. وما أهمية ذلك؟ قالت لنفسها. سوف أموت، أليس كذلك؟ وبما أنني سأموت فكل شيء مباح. وفي الحال غطاها دثار آخر من الراحة. لم تكن قد انتبهت حتى ذلك الحين إلى أن أفضل علاج للتخلص من عائق ما هو في تقبل وجوده. ملأها هذا الكشف الجديد بالبهجة. لن تعترض بعد

اليوم على شيء: لا على المسابر والأنابيب، ولا على التغذية عبر الأوردة، ولا على الإشعاعات التي تُفَحِّم ظهرها ولا على الحزن لموتها.

لقد قيل لها ذات يوم ليس الجسد هو الذي يمرض وإنما الكيان بكامله. فإذا ما تمكن الكيان من التعافي (ولا شيء أصعب من ذلك، لأن علاجه يستدعي رؤيته)، يصبح ما سوى ذلك مسألة وقت وقوة إرادة. ولكن كيانها كان سليماً. وربما لم يكن في أي وقت بحالة أفضل مما هو عليه. كان يؤلمها الانزياح على السرير من جانب إلى آخر، ولكنها ما إن تزيح عنها الملاءات، حتى يصير الخروج سهلاً. قامت بالتجربة، ووجدت نفسها في الحال واقفة على قدميها. وعلى الكنبات المحيطة بها كانت تنام الممرضات وأمها وأحد الأطباء. كم كانت ترغب في أن يروها! ولكنها لم توقظهم خوفاً من أن يجبروها جميعهم معاً على التمدد في الفراش من جديد. مشت على رؤوس أصابعها باتجاه النوافذ المطلة على الحديقة التي لم تتوافر لها الفرصة قطّ للإطلال منها. رأت شجيرات لبلاب السور المشعثة، وذرى أشجار الجاكاراندا والمغنوليا في منحدر الحديقة، والشرفة الفسيحة الخاوية، ورماد العشب؛ ورأت الرصيف وانحناءة القوس الخفيفة للجادة التي تسمى الآن جادة بطل التحرير، وألياف الرطوبة في الظل، كما لو أنها خارجة للتو من سينما. وفجأة وصلها فوران الأصوات. أم إنها ليست أصواتاً؟ كان هناك شيء في الهواء الذي يعلو ويسقط كما لو أن الضوء يتفادى عوائق أو كما لو أن الظلمة تلويات لامتناهية.. انزلاق إلى لا مكان. وجاءت لحظة سمعت فيها حروف اسمها، ولكن منفصلة بعضها عن بعض بفواصل صمت اضطراري: «إيـ ـفيـ ـتا». كان الضياء آخذاً بالارتفاع من الشرق، من منخفض النهر، بينما المطر ينزع عنه أبخرته الرمادية وينبعث بنور ألماسي. وكان الرصيف مزروعاً بمظلات، بطرحات، بعباءات بونتشو، بوميض شموع، بمصلوبي مواكب دينية، وبرايات أرجنتينية. في أي يوم نحن؟ قالت لنفسها، أو ربما أنها قالت لنفسها: لماذا الرايات؟ اليوم هو السبت، قرأت في التقويم المعلق على الجدار. سبت

اللا مكان. السابع والعشرون من حزيران عام ألف وتسعمئة واثنين وخمسين. ليس يوم النشيد الوطني ولا يوم مانويل بيلغرانو ولا يوم عذراء لوخان ولا أي عيد بيروني مقدس آخر. ولكن شحومها الصغيرة كانوا هناك، يذهبون ويجيئون من جهة إلى أخرى، مثل أرواح محزونة. تلك التي تصلي جاثية هي دونيا إليسا تيخيدور، تضع على رأسها منديل الحداد نفسه الذي كانت تضعه عندما طلبت مني عربة الحليب والحصانين اللذين سُرقا من زوجها في ليلة عيد الميلاد؛ وذاك الذي يقترب من حواجز الشرطة، بقبعة مائلة جانباً، هو بيثنتي تالياتي الذي أمنتُ له عملاً كمساعد معلم نقاش؛ وأولئك الذين يشعلون شموعاً هم أبناء دونيا ديونيسيا ريبويني التي طلبت مني بيتاً في لوغانو وماتت قبل أن تتمكن من تدشين البيت في ماتاديروس. ولماذا يبكي دون لويس ليخيا؟ لماذا يتعانقون جميعهم، لماذا يرفعون أيديهم إلى السماء، يلعنون المطر، ييأسون؟ أيقولون ما أسمعه: «إيـ ـفيـ ـتا، لا تغادرينا»؟ أنا لا أفكر في المغادرة يا أحبائي المهلهلين، يا شحومي الصغيرة، اذهبوا للراحة، تحلوا بالصبر. سوف يطمئنون إذا ما استطاعوا رؤيتي. ولكنني لا أستطيع السماح بأن يروني وأنا بهذه الحال، بهذه الهيئة، بهذا النحول. لقد اعتادوا على ظهوري لهم بمظهر مهيمن، بأثواب احتفالية، وكم سأخيب أملهم وأنا مهزولة هكذا، بفرح مستنزف وروح شديدة الميل إلى البؤس.

يمكن لها أن تسجل لهم رسالة عبر الإذاعة وأن تقول لهم وداعاً على طريقتها، وتوصيهم بزوجها مثلما اعتادت أن تفعل دوماً، ولكن مازال لديها الصباح بطوله من أجل تصليب صوتها، والأمر بأن يضعوا مكبرات الصوت، ولتمسك منديلاً بيدها تحسباً من جموح عواطفها مثلما جرى آخر مرة. لديها الصباح بطوله، ولكن لديها المساء أيضاً، واليوم التالي، وأفق جميع الأيام المتبقية على موتها. أعادتها هبّة ضعف أخرى إلى السرير، أطفأ الجسد الضوء وملأ النعاس سعادة خفتها، انتقلت من حلم إلى آخر ثم إلى آخر غيره، ونامت كما لو أنها لم تنم قطّ من قبل.

أكانت الساعة التاسعة، أو ربما التاسعة والربع ليلاً؟ كان الكولونيل كارلوس إوخينيو دي موري كينيك يلقي في مدرسة مخابرات الجيش درسه الثاني حول طبيعة السر واستخدام الإشاعة. «الإشاعة - قال - هي الاحتياط الذي تتخذه الأحداث قبل تحولها إلى حقيقة». وكان قد استشهد بأعمال وليم ستانتون حول بنية المحافل السرية الصينية ودروس الفيلسوف البوهيمي فريتز ماوثنر حول قصور اللغة عن الإحاطة بتعقيد العالم الواقعي. ولكن اهتمامه كان منصباً الآن على الإشاعة. «كل إشاعة تكون بريئة من حيث المبدأ، مثلما تكون كل حقيقة مذنبة، لأنها لا تسمح بأن تُلوث، لا يمكن تناقلها من فم لفم.» راجعَ ملاحظاته المدونة باحثاً عن اقتباس لإدمون بيرك، ولكن أحد ضباط الحراسة قاطعه في تلك اللحظة كي يخبره بأن زوجة رئيس الجمهورية قد ماتت للتو. جمع الكولونيل ملفات أوراقه، وبينما هو يغادر القاعة قال بالألمانية: «الحمد لله أن كل شيء قد انتهى».

في السنتين الأخيرتين، كان الكولونيل قد تجسس على إيفيتا بأمر من جنرال في المخابرات ينفذ، بدوره، أوامر بيرون. وكان واجبه الغريب يتمثل في رفع تقارير يومية حول نزيف الرحم الذي يعذب السيدة الأولى، والتي يتوجب أن يكون الرئيس مطلعاً عليها أكثر من أي شخص آخر. ولكن الأمور كانت على هذه الحال في تلك الحقبة: الجميع يرتابون بالجميع. كان كابوس الطبقات المتوسطة اللجوج يتمثل في شراذم الهمج الذين ينحدرون من الظلمة ليستولوا على بيوتهم، ووظائفهم، ومدخراتهم، مثلما تخيل الأمر خوليو كورتاثر في قصته القصيرة «بيت محتل». أما إيفيتا بالمقابل، فكانت ترى الواقع مقلوباً: يقض مضجعها الأوليغارشيون وباعة الوطن الذين يسعون إلى سحق الشعب المهلهل بأحذيتهم (هكذا كانت تتكلم: تلامس في خطاباتها كافة مستويات التفخيم) وتطلب العون من الجماهير من أجل «إخراج الخونة من جحورهم القذرة». وكتعويذة مضادة لهجمات الفقراء، كانوا في صالونات الطبقة الراقية يقرؤون الحكمة

الحضارية في *ورقة في مهب الريح* للين يوتانغ، ودروساً حول المتعة والأخلاق لجورج سانتيانا، وأهاجي شخوص ألدوس هكسلي. إيفيتا لم تكن تقرأ طبعاً. وعندما تحتاج إلى الخروج من مأزق، تقتبس من بلوتارك أو كارليل، بتوصية من زوجها. إنها تفضل الثقة بالحكمة الفطرية. وقد كانت مشغولة جداً. تتلقى بين خمسة عشر وعشرين وفداً نقابياً في الصباح، وتزور مستشفيين وبعض المصانع في المساء، تفتتح مقاطع من طرق، وجسوراً، وبيوتاً لرعاية الأمومة، تسافر مرتين أو ثلاث مرات في الشهر إلى الأقاليم، وتلقي في كل يوم خمسة أو ستة خطابات، أو كلمات حماسية مقتضبة، وشعارات نضالية: تعلن حبها لبيرون حتى ست مرات في الجملة نفسها، حاملة نبرات صوتها في كل مرة إلى مدى أبعد ثم تعود بها بعد ذلك إلى نقطة البداية مثل مقطوعة فوغا لباخ: «مثلاي الأعليان هما بيرون وشعبي»؛ «أرفع رايتي في سبيل قضية بيرون»؛ «لن أستطيع أبداً أن أفي بيرون حقه من الشكر على ما أنا عليه وما أملكه»؛ «حياتي ليست لي، وإنما هي لبيرون ولشعبي، وهما مثلاي الأعليان الثابتان». كان ذلك مرهقاً ومضنياً.

لم يكن الكولونيل يستخف بأي عمل تجسسي، وكي يراقب إيفيتا خدم لبعض الوقت ضمن فريق مرافقيها. السلطة ليست سوى نسيج معطيات، هذا ما كان يردده، ومن يدري أية معلومة مما أجمعه هي التي ستفيدني ذات يوم لأهداف أعلى. كان يكتب تقارير بالغة التفصيل بقدر ما هي غير لائقة برتبته العسكرية: «السيدة تخسر الكثير من الدم ولكنها لا ترفض استدعاء طبيب. ///تنزوي في حمام مكتبها وتستبدل لفائف القطن خفية. /// تفقد الدم في دفقات. من المستحيل تحديد متى يكون المرض هو السبب ومتى يكون الطمث. إنها تشكو، ولكنها لا تفعل ذلك أبداً في العلن. خادماتها يسمعنها تئن وهي داخل الحمام ويعرضن عليها المساعدة، لكنها ترفض ذلك. /// تقدير الفاقد من الدم في 19 آب 1951: خمسة سنتيمترات مكعبة وثلاثة أرباع السنتيمتر. /// تقدير

الفاقد في 23 أيلول 1951: تسعة سنتيمترات مكعبة وسبعة أعشار السنتيمتر». كل تلك الدقة تشير إلى أن الكولونيل كان يستجوب الممرضات، وينبش في صفائح القمامة، ويشق الضمادات المستعملة. وقد كان، على حدّ قوله، يُشَرِّف بذلك لقب أسرته الأصلي الذي هو موري كينيك: ملك المستنقع.

أطول تقاريره مؤرخ في 22 أيلول. ففي مساء ذلك اليوم قايضه ضابط من السفارة الأمريكية معلومات طبية سرية بقائمة كاملة لحالات النزف، مما أتاح للكولونيل إعداد وثيقة بلغة أشد صرامة في دقتها. فقد كتب: «لدى اكتشاف قرحة في عنق رحم السيدة بيرون، أُخذت خزعة وشُخصت إصابة بسرطان باطني، ولهذا سيجري، كإجراء أولي، تدمير المنطقة المتضررة بإشعاعات الراديوم داخل التجويف، وسيُبادر بعد وقت قصير إلى إجراء مداخلة جراحية. أي أن هناك، بعبارة عامية، سرطان رحم بيّن. وبسبب اتساع حجم الضرر، يُستشف أن إجراء العملية الجراحية لها سيستدعي القيام بتفريغ أجهزتها النسائية. ويقدر لها الاختصاصيون الذين يشرفون على علاجها ستة شهور من الحياة، أو سبعة شهور على أبعد تقدير. وقد أجروا اتصالاً عاجلاً مع مستشفى السرطان في نيويورك من أجل تأكيد ما لم تعد هناك حاجة إلى تأكيده».

منذ أن وُضعت إيفيتا تحت رقابة الأطباء، لم يعد لدى الكولونيل عمل مهم يقوم به. فطلب إعفاءه من مهمته في فريق المرافقين والسماح له بأن ينقل إلى صفوة الضباط الشباب الكثير الذي يعرفه عن مكافحة التجسس، والتغلغل، والكتابة المشفرة، ونظريات الإشاعة. وقد عاش حياة أكاديمي راض بينما كانت ألقاب التكريم تتراكم على إيفيتا المحتضرة: حاملة راية البؤساء، سيدة الأمل، قلادة وسام بطل التحرير الجنرال سان مارتين، الزعيمة الروحية ونائبة الشرف لرئيس الأمة، شهيدة العمل، شفيعة إقليم لابامبا، ومدينة لابلاتا، وبلدات كيلميس، وسان رافائيل، ومادري دي ديوس.

في السنوات الثلاث التالية، عرف تاريخ الأرجنتين أحداثاً من كل نوع، ولكن الكولونيل ظل جانباً، مستغرقاً في دروسه وأبحاثه. ماتت إيفيتا وجرى السهر على جثمانها طوال اثني عشر يوماً تحت قبة الزرافة في أمانة العمل، حيث نزفت وهي تستجيب لتوسلات الحشود. نصف مليون شخص قبّلوا تابوتها. وكان لا بد من سحب بعضهم بالقوة لأنهم حاولوا الانتحار عند قدمي الجثة بسكاكين أو بكبسولات سموم. عُلق حول مبنى المأتم ثمانية عشر ألف إكليل من الزهر. وكان هناك مثلها في الحجرات الجنائزية التي أقيمت في عواصم الأقاليم والمدن الرئيسية في المحافظات، حيث عُرضت المتوفاة في صور فوتوغرافية بطول ثلاثة أمتار. حضر الكولونيل أمام النعش مع مرافقيها الاثنين والعشرين الذين خدموا لديها، وكان يضع وشاح الحداد الحريري الإجباري. ظل واقفاً عشر دقائق، رتل صلاة وانسحب خافضاً رأسه. وفي صباح يوم الجنازة ظل في الفراش، وتابع تحركات الموكب الجنائزي من خلال الوصف الإذاعي. وُضع النعش على عربة حربية يجرها قطيع من خمسة وثلاثين ممثلاً نقابياً بقمصان قصيرة الأكمام. سبعة عشر ألف جندي اصطفوا في الشوارع كي يقدموا مراسم التكريم. وأُلقي من الشرفات مليون ونصف مليون زهرة من الورود الصفراء، ومنثور الأنديز، والقرنفل الأبيض، وأوركيديا الأمازون، وجلبان بحيرة ناهويل هوابي، وأقحوان أرسله إمبراطور اليابان في طائرات حربية. «أرقام»، قال الكولونيل، «لم يعد لهذه المرأة علاقة بالواقع إلا من خلال الأرقام».

مضت شهور وظل الواقع، مع ذلك، مشغولاً بها. ومن أجل تحقيق توسلها بألا ينساها الناس، أمر بيرون بتحنيط الجسد. وقد عُهد بالمهمة إلى بيدرو آرا، وهو عالم تشريح إسباني، اشتهر بأنه حافظ على يديّ الموسيقي مانويل دي فايّا كما لو أنهما مازالتا تعزفان لحن *حب ساحر* على البيانو. أقيم في الطابق الثاني من الاتحاد العام للعمل مخبر معزول بأقصى احتياطات الأمن.

ومع أنه لم يكن بإمكان أحد رؤية الجثة، فقد كان الناس يتخيلون أنها ترقد هناك، في سكون مصلى صغير. فكانوا يتوافدون في أيام الآحاد ليصلوا صلاة المسبحة ويحملوا إليها زهوراً. وشيئاً فشيئاً راحت إيفيتا تتحول إلى قصة لا تنتهي قبل أن تولّد قصة أخرى. لم تعد ما قالته أو ما فعلته، بل تحولت إلى ما يقولون إنها قالته وما يقولون إنها فعلته.

وبينما ذكراها تتحول جسداً، والناس ينشرون في ذلك الجسد تعرجات ذكرياتهم، كان جسد بيرون - وهو يزداد بدانة، ويزداد اضطراباً - يُفرغ من التاريخ. فمن بين الإشاعات التي جمعها الكولونيل كوسيلة إيضاح لتلاميذه جاءت الإشاعة عن أن انقلاباً عسكرياً سيقع بين حزيران وأيلول من عام 1955. وقد فشل انقلاب حزيران. وفي أيلول، انهار بيرون وحده.

وبينما هو هارب، ومعزول في زورق عسكري بارغوائي يجري إصلاحه في ترسانات بوينس آيرس، كتب بيرون خلال ثلاث ليال من السهر، وهو ينتظر أن يغتالوه، قصة حبه لإيفا دوارتي. وهذا هو نصّ حياته الوحيد الذي يبني الماضي بنسيج مشاعر وليس كأداة سياسية، وإن كان تأثيره (الإرادي دون شك) توجيه عذاب إيفيتا كهراوة إلى وجوه خصومه.

أكثر ما يثير الاستغراب في تلك الصفحات هو أن كلمة حب لا تظهر فيها أبداً، على الرغم من أنها مكرسة للحب. يقول بيرون: «كنا نفكر متوافقين، نفكر بالعقل نفسه، ونشعر بالروح نفسها. فكان من الطبيعي في مثل هذه المشاركة في الأفكار والمشاعر أن تولد تلك العاطفة التي قادتنا إلى الزواج». تلك العاطفة؟ إنه ليس نمط التعبير الذي يتخيله أحدنا من فم إيفيتا. فأقل ما اعتادت أن تقوله لمهلهليها : «أنا أحب الجنرال بيرون من أعماق روحي ولا أتوانى عن إحراق حياتي من أجله مرة وألف مرة». ولو كان للمشاعر وحدة قياس معينة، وأمكن تطبيق وحدة القياس تلك على الجملتين المذكورتين أعلاه، فسيكون من السهل تمييز المسافة العاطفية التي تفصل بين إيفيتا وزوجها.

في أيام الانقلاب ضد بيرون تلك، كان اهتمام الكولونيل منصباً على أنفاس أخرى من الواقع. أشدها ابتذالاً هي الأنفاس الدلالية: ذلك أن أحداً لم يعد يسمي الرئيس السابق باسمه أو برتبته العسكرية التي سرعان ما جُرد منها. فاللقب الذي صارت تذكره به البيانات الرسمية هو «الطاغية الفار» و«الديكتاتور المخلوع». ويقال عن إيفيتا «تلك المرأة»، وإن كانت نعوت أشد قسوة تُطلق عليها في المجالس الخاصة. إنها الفرس أو المهرة، وهو ما يعني في اللغة الدارجة في تلك الحقبة: عاهرة، قحبة، ساقية، مجنونة. لم يرفض المهلهلون تلك المَسَبَة بالكامل، ولكنهم قلبوا معناها. فإيفيتا بالنسبة إليهم هي الفرس الأم، ودليل القطيع.

بعد سقوط بيرون تعرضت المراتب العسكرية إلى التمزيق في عملية تطهير لا ترحم. وكان الكولونيل يخشى أن يعلنوا عن استقالته بين يوم وآخر لأنه خدم مرافقاً للسيدة، ولكن صداقته لبعض القادة الثوريين ـ ممن كان معلماً لهم وموضع ثقتهم في مدرسة المخابرات ـ وخبرته المعروفة في كشف المؤامرات أبقته طافياً لعدة أسابيع في مكاتب الاتصال في وزارة الجيش. ووضع هناك خطة معقدة لاغتيال «الدكتاتور الفار» في باراغواي، وخطة أخرى تهدف إلى مفاجأته في فراشه وقطع لسانه. ولكن بيرون لم يكن يثير قلق الجنرالات المنتصرين. لأن وجع الرأس الذي يؤرقهم هو رفات «تلك المرأة».

كان الكولونيل في مكتبه يكتب مذكّرة حول استخدام الجواسيس حسب أسلوب سون تزو ويستمع بأعلى صوت إلى موسيقى مغنيفاكت لباخ، عندما أمر رئيس الجمهورية المؤقت باستدعائه. حدث ذلك في الساعة الحادية عشرة ليلاً، وكان المطر يهطل دون توقف منذ أسبوع. والهواء يغص بالبعوض، وبزعيق القطط ورائحة العفونة. لم يستطع الكولونيل تخيل سبب حاجتهم إليه، فدوّن بعض المعلومات حول مهمتين أو ثلاث مهمات حساسة ربما سيعهدون بها إليه. ربما اقتفاء أثر المحرضين الوطنيين الذين أُبعدوا في ذلك الأسبوع بالذات من المناصب الحكومية؟ أو التحري عمن

سيكلفه العسكريون برئاسة حكومة البرازيل بعد الاستقالة المتسرعة التي قدمها الرئيس كافيه فيلهو؟ أو أمر أكثر سرية من ذلك كله، أشد كهوفية، مثل اكتشاف الأعشاش التي تلعق فيها جراحها قطعان البيرونيين الهاربين؟ غسل وجهه، حلق ذقنه التي لم يحلقها منذ يوم ونصف اليوم، وتوغل في متاهة دار الحكومة. كان الاجتماع في قاعة ذات جدران من المرايا وتماثيل نصفية رمزية تمثل العدالة والجمهورية والعناية الإلهية. وكانت المناضد مترعة بساندويتشات متيبسة ورماد سجائر. بدا رئيس الجمهورية المؤقت متوتراً، على وشكٍ فقدان التحكم بنفسه. كان رجلاً شاحباً، له وجه مدور، يفصل بين الجمل بوقفات صمت ربوية. له شفتان رفيعتان، شبه بيضاوين، يظللهما أنف ضخم. وكانت هيئة نائب الرئيس المنحنية وانقباض فكيه تذكر بالنمل. كما إنه يستعمل نظارة كبيرة لا يخلعها حتى في الظلام. تكلم بصوت أبح آمراً الكولونيل بأن يظل واقفاً. ونبهه إلى أن المقابلة ستكون قصيرة.

– إنها مسألة تلك المرأة ـ قال له ـ نريد أن نعرف إن كانت هي نفسها.

تأخر الكولونيل في فهم ما قيل له.

– بعض الأشخاص رأوا الجسد في الاتحاد العام للعمل ـ أخبره ضابط بحري كان يدخن سيجاراً ـ. يقال إنها مذهلة. لقد انقضت ثلاث سنوات ومازالت تبدو سليمة تماماً. أمرنا بأن تؤخذ لها صور أشعة. انظر الصور، ها هي. كل أحشائها موجودة. قد يكون الجسد خدعة، أو أنه جسد أخرى. مازال موجوداً هنا نحات إيطالي كلفوه بمشروع تمثال مع ناووس وكل شيء. لقد صنع الإيطالي نسخة شمعية عن الجثة. يُعتقد أنها نسخة متقنة تماماً، ولا يمكن لأحد أن يميز أيهما الجثة الحقيقية.

– تعاقدوا مع مُحَنِّط ـ أضاف نائب الرئيس ـ. دفعوا له مئة ألف دولار. البلاد في حالة متردية بينما هم يبددون الأموال على تلك القمامة.

وتمكن الكولونيل من القول:

– ما هي الأوامر؟ وأنا سأتولى تنفيذها.

– يمكن أن يحدث تمرد في المصانع في أي لحظة ـ أوضح جنرال بدين ـ. نعرف أن قادة العمال يريدون الدخول إلى الاتحاد العام للعمل وأخذ المرأة. يريدون عرضها في المدن. سيضعونها على مقدمة سفينة ممتلئة بالزهور وينزلون بها عبر نهر بارانا لاستنهاض قرى الضفاف.

تخيل الكولونيل الموكب اللامتناهي والطبول الصاخبة بجوار النهر. المشاعل المتماوجة، وأساطيل الزهور. نهض نائب الرئيس وقال:

– هذه المرأة وهي ميتة أشد خطورة مما كانت عليه وهي حية. الطاغية يعرف ذلك، ولهذا تركها هنا، كي تسبب لنا جميعنا المرض. في كل كوخ تظهر صور لها. الجهلة يوقرونها كقديسة. يعتقدون أنها قد تنبعث في يوم لا يخطر على بال لتحوّل الأرجنتين إلى دكتاتورية متسولين.

– كيف ذلك وهيٍ ليست سوى جثة؟ ـ تمكن الكولونيل من السؤال.

بدا الرئيس ضجراً من كل تلك الهذيانات؛ وكان يريد الذهاب للنوم.

– في كل مرة تكون هناك جثة تعرقل الطريق في هذه البلاد، يتحول التاريخ إلى جنون. تولَ أمر تلك المرأة أيها الكولونيل.

– لم أفهم جيداً أيها الجنرال. ما الذي يعنيه أن أتولى أمرها؟ إنني أعرف ما الذي يتوجب علي فعله في الظروف الطبيعية. ولكن هذه المرأة ميتة منتهية.

وجه إليه نائب الرئيس ابتسامة جليدية:

– أخفِها من الوجود ـ قال ـ. أنهِ أمرها. حوّلها إلى ميتة مثل أي ميتة أخرى.

أمضى الكولونيل تلك الليلة ساهراً، يحوك خططاً ويستبعدها على الفور لأنها غير نافعة. الاستيلاء على المرأة سيكون سهلاً. أما الصعوبة ففي العثور على مصير لها. فعلى الرغم من أن الأجساد التي تموت تخلف مصيرها وراءها، إلا أن مصير هذه المرأة لم يكتمل بعد. إنها بحاجة إلى مصير أخير، ولكن الوصول إليه يتطلب اجتياز ما لا يدريه من المصائر

الأخرى.

راجع مرة بعد أخرى التقارير حول عملية حفظ الجثة التي لم تتوقف منذ ليلة وفاتها. كانت رواية المُحَنِّط حماسية. يؤكد فيها أن بشرة إيفيتا، بعد الحقن والمثبتات، صارت مشدودة وفتية، كما لو أنها في العشرين من عمرها. وفي شرايينها يسري تيار من الفورمالهيد والبارافين وكلورور الزنك. الجسد كله يطلق رائحة خفيفة كرائحة اللوز والخزامى. ولم يستطع الكولونيل رفع عينيه عن الصور التي تصور مخلوقة سرمدية وعاجية، ذات جمال يُنسي سعادات الكون كلها. الأم نفسها، دونيا خوانا إبارغورين، أغمي عليها خلال إحدى الزيارات حين خُيِّل إليها أنها تسمع أنفاس ابنتها. والأرمل نفسه قبلها مرتين من شفتيها ليكسر سحراً ربما هو سحر الجميلة النائمة. كان ينبعث من مسامات الجسد نور سائل منيع على الرطوبة، على العواصف، على تأثيرات الثلج والحر. لقد كانت محفوظة جيداً إلى حدّ تظهر معه الأوعية الدموية مرسومة تحت البشرة الخزفية مع تورد لا يزول في هالة الحلمتين.

وكلما تقدم الكولونيل في القراءة، كانت حنجرته تزداد جفافاً. وفكر: سيكون من الأفضل إحراقها. فبأنسجة جسدها المترعة بمواد كيميائية، ستطير بمجرد تقريب عود ثقاب منها. ستشتعل مثل اشتعال غروب شمس. ولكن الرئيس حظر إحراقها. فكل جسد مسيحي يجب أن يُدفن في مقبرة مسيحية، هذا ما قاله. ومع أن هذه المرأة عاشت حياة دنسة، إلا أنها اعترفت وماتت في نعمة الرب. من الأفضل إذاً تغطيتها بإسمنت طري وجعلها ترسو في مكان سري من النهر، مثلما يرغب نائب الرئيس. من يدري، فكر الكولونيل. ومن يعرف ما هي القدرات الخفية لتلك المواد الكيماوية. فربما ستدخل في تفاعل غليان فور ملامستها الماء، وتخرج المرأة طافية وأشد قوة من أي وقت آخر.

كان الجزع يستنفده. وقبل أن يطلع الفجر، اتصل بالمُحَنِّط وطالبه بلقاء معه. «أنلتقي في مقهى أم في بيتي؟»، سأله الطبيب وهو لا يزال عالقاً في

ضبابية النعاس. «إنني بحاجة إلى فحص الجسد»، قال له الكولونيل، وأضاف: «سأذهب إلى حيث تحتفظ بها.» فقال الطبيب: «هذا محال يا سيدي. من الخطورة رؤيتها. مواد الجسد الكيماوية لم تخمد بعد. إنها مواد سامة، لا يمكن استنشاقها.» ولكن الكولونيل قاطعه بحزم: «سأتوجه إلى هناك الآن فوراً».

لقد كان هناك خوف على الدوام من أن يستولي متعصب على إيفيتا. فالانقلاب العسكري يمنح أجنحة كذلك لمن يرغبون في رؤيتها محترقة أو مدنسة. وفي الاتحاد العام للعمل لم يكن هناك من ينام مطمئناً. رقيبان تجاوزا عمليات تطهير البيرونيين من الجيش كانا يتناوبان على الحراسة في الطابق الثاني. وفي بعض الأحيان كان طبيب التحنيط يسمح بدخول موظفين من البعثات الدبلوماسية، على أمل أن يطلقوا الصراخ حتى عنان السماء إذا ما حاول العسكريون إتلاف الجثة. ولكن ما كان يتوصل إلى انتزاعه منهم لم يكن وعوداً بالتضامن وإنما لعثمات مستهجنة. فالزائرون الذين يأتون مستعدين لرؤية أعجوبة علمية، ينسحبون مقتنعين بأن ما عرضه عليهم هو عمل من أعمال السحر. لقد كانت إيفيتا في وسط قاعة فسيحة جداً مبطنة بقماش أسود. تقبع ممددة فوق منصة كريستال سميك معلقة إلى السقف بحبال شفافة، لمنح الانطباع بأنها تطفو في النشوة الأبدية. وعلى جانبي الباب عُلقت الشرائط البنفسجية التي كانت على الأكاليل الجنائزية، ومازالت الكتابة عليها سليمة: «ارجعي يا إيفيتا حبي. أخوكِ خوان»، «إيفيتا الخالدة في قلب الشعب. أمكِ المفجوعة». وأمام أعجوبة الجسد الطافي في الهواء، يخر الزائرون على ركبهم وينهضون دائخين.

كانت الصورة مهيمنة، لا تُنسى، إلى حدّ أن ينتهي الأمر بحس الأشخاص السليم إلى التحول من مكانه. ما الذي يحدث، لا أحد يدري. إن شكل العالم يتبدل بالنسبة إليهم. فخبير التحنيط، على سبيل المثال، لم يعد يعيش إلا من أجلها. إنه يحضر كل صباح في الثامنة تماماً إلى

مخبر الاتحاد العام للعمل، ببدلة كشمير زرقاء وقبعة متصلبة الحافة، تحيط بها شريطة سوداء. ولدى دخوله إلى الطابق الثاني يخلع القبعة كاشفاً عن صلعة لامعة وعن شعر رمادي على الصدغين، مثبت بمادة صمغية. يرتدي المريلة، ويستغرق خلال عشر دقائق إلى خمس عشرة دقيقة في تفحص الصور الفوتوغرافية والصور الشعاعية التي تسجل أدنى التحولات اليومية التي تطرأ على الجثة. وفي إحدى ملاحظات عمله يُقرأ ما يلي: «15 آب 1954. فقدتُ كل فكرة عن الزمن. أمضيتُ الليل في السهر على السيدة والتحدث إليها. كان الأمر كما لو أنني أطل على شرفة حيث لا يوجد أي شيء. ولكن ذلك غير ممكن. فهناك شيء، يوجد شيء. عليّ أن أكتشف الطريقة لرؤيته».

أيفترض أحدٌ أن الدكتور آرا يسعى إلى رؤية شموس المطلق، لغة الفردوس الأرضي، الرعشة الحليبية للحبل دون دنس؟ لا شيء من هذا. فكافة المعطيات عنه تؤكد سلامته العقلية، وقصور مخيلته، وورعه الديني. لا تشوبه أي شبهة ميول باطنية وبارا بسيكولوجية. بعض ملاحظات الكولونيل ـ ولديّ نسخة منها ـ تصيب الهدف: ما يهم المُحَنِّط هو معرفة ما إن كان السرطان يواصل انتشاره في الجسد حتى بعد قيامه بتطهيره. فحدود فضوله فقيرة، ولكنها علمية. كان يدرس الحركات الخفيفة في المفاصل، والانحرافات في لون الغضاريف والغدد، ونُسج الأعصاب والعضلات بحثاً عن ندبة ما. لم يبق شيء من ذلك. فما كان ذاوياً قد امحى. والموت هو الشيء الوحيد الذي يتنفس في الأنسجة.

من يقرأ مذكرات الدكتور بيدرو آرا التي نُشرت بعد وفاته (*حالة إيفا بيرون*، منشورات CVS، مدريد 1974) سيكتشف أنه كان قد حطّ عينه على إيفيتا قبل وقت طويل من موتها. إنه يشكو مرة بعد أخرى ممن يفكرون في ذلك. ولكن لا يمكن إلا لمؤرخ عادي أن يأخذ ما تقوله مصادره بحرفيته. انظر على سبيل المثال الفصل الأول. إنه بعنوان «أهي قوة القدر؟»، ونبرته، مثلما يتيح ملاحظتها هذا السؤال البلاغي، هي نبرة

خضوع وارتياب. فهو يكتب أنه لم تخطر له قطّ من قبل فكرة تحنيط إيفيتا. وقد أبعد عنه أكثر من مرة من جاؤوا يطلبون منه ذلك. ولكن ما الذي يستطيع فعله أستاذ تشريح مسكين ضد القدر، ضد الرب؟ ويُلمح إلى أنه ربما يكون صحيحاً أنه ليس هناك من هو مهيأ مثله لهذه المهمة. فهو عضو المجمع الأكاديمي وبروفيسور متميز. وإنجازه البارع – فتاة من قرطبة في الثامنة عشرة ترقد جامدة في حركة راقصة – تجعل الخبراء يفغرون أفواههم دهشة. لكن تحنيط إيفيتا هو أشبه بالقفز إلى القبة السماوية. هل اختاروني أنا؟ بسبب أية مزايا؟، هكذا يتساءل في مذكراته. لقد قال لا عندما توسلوا إليه أن يفحص جثة لينين في موسكو. فلماذا يقول نعم في هذه المرة؟ بسبب القدر بتفخيم. أجل: القدر. «من يمكنه أن يكون متكبراً وطائشاً إلى حدّ الاعتقاد بأنه قادر على الخيار؟»، يتنهد في الفصل الأول، ويضيف: «لماذا بعد كل هذه العصور من التآكل، مازالت فكرة القدر في أوجها؟».

لقد عرف الدكتور آرا إيفيتا في العام 1949، «ليس اجتماعياً»، مثلما ينبه، وإنما في ظل زوجها، في إحدى التجمعات الشعبية التي كان شديد الافتتان بها. كان قد ذهب إلى دار الحكومة كمبعوث من سفير إسبانيا، وانتظر في قاعة انتهاء الخطابات وطقوس التحيات. موجة من المتملقين جرفته إلى الشرفة التي تقف عليها إيفيتا وبيرون، وكانا يرفعان أذرعهما عالياً، تذهب وتجيء بهما رياح النشوة المتصاعدة من الحشود. ظل لحظة وراء ظهر السيدة، قريباً جداً منها إلى حدّ تمكن معه من الإعجاب برقصة أوردة عنقها: صخب واختناق فقر الدم.

ويؤكد في مذكراته أن ذلك اليوم كان آخر أيام إيفيتا دون قلق صحي. فقد كشف تحليل للدم أن لديها ثلاثة ملايين كرية دم حمراء فقط في المليمتر المكعب. لم يكن الداء العضال قد أنشب مخالبه بعد، ولكنه كان موجوداً، هذا ما كتبه آرا. «ولو أنني رأيتها أكثر قليلاً من الثواني القليلة في ذلك المساء، لكنت التقطت زخم الأزهار في أنفاسها، وضياء قرنيتها،

والطاقة المنيعة لسنوات عمرها الثلاثين. ولكنتُ تمكنت من استنساخِ تلك التفاصيل دون نقصان في الجسد الميت الذي كان في حالة متردية جدا حين وصل إلى يديّ. ووفقاً لما جرت به الأمور، كان عليّ أن استفيد فقط من صور فوتوغرافية وأحاسيس داخلية. وبالرغم من ذلك، حوّلتها إلى تمثال جمال سامٍ، مثل *بيتا* أو *فيكتوريا دي ساموترسيا*. ولكنني أستحق ما هو أكثر، أليس صحيحاً؟ أنا أستحق أكثر من ذلك.»

في شهر حزيران 1952، قبل سبعة أسابيع من وفاة إيفيتا، استدعاه بيرون إلى القصر الرئاسي.

– لا بد أنكَ علمتَ أنه لم يعد أمام زوجتي من سبيل للنجاة ـ قال له ـ المشرعون يريدون أن يُشيد لها في ساحة مايو تمثال بارتفاع مئة وخمسين متراً، ولكنني لا أهتم بمثل هذه التبجحات. إنني أُفضل أن يظل الشعب يراها مفعمة بالحياة مثلما هي الآن. ولديٍ معلومات أنكَ أفضل مُصبِّر حيوانات في العالم. فإذا كان ذلك صحيحاً، فلن تجد صعوبة في إثباته على من لم تكمل الثالثة والثلاثين من عمرها بعد.

– لستُ مُصبِّر حيوانات ـ صحح له آرا ـ وإنما أنا حافظ أجساد. جميع الفنون تتطلع إلى الخلود، ولكن فني هو الوحيد الذي يحوّل الخلود إلى شيء مرئي. أخلده كفرع من الشجرة الأصلية.

أربكت لُزوجة اللغة بيرون وأغرقته في انعدام ثقة مفاجئ.

– أخبرني بكل ما تحتاج إليه وسأضعه تحت تصرفك. فمرض زوجتي يكاد لا يترك لي وقتاً لعمل كل ما يتوجب عليّ عمله.

– أحتاج إلى رؤية الجسد ـ أجابه الطبيب ـ. أخشى أن تكونوا قد لجأتم إليّ بعد فوات الأوان.

– تفضل حين تشاء ـ قال الرئيس ـ ولكن من الأفضل ألا تعلم هي بزيارتك. سآمر الآن بالذات أن ينوموها بالمهدئات.

بعد عشر دقائق، أُدخل المُحَنِّط إلى مخدع المحتضرة. كانت هزيلة، بارزة العظام، ظهرها وبطنها محروقين بخراقة استعمال الإشعاعات. بشرتها الشفافة

بدأت تغطيها حراشف. ولشدة غضبه من الإهمال الذي تُعامل به، في جناحها الخاص، تلك المرأة كانت موقرة أمام الملأ، طالب آرا بوقف التعذيب بالأشعة وقدم خليطاً من الزيوت البلسمية يجب تدليك جسدها بها ثلاث مرات يومياً. لم يأخذ أحد نصائحه على محمل الجد.

في السادس والعشرين من تموز 1952، وعند حلول الليل، جاء مبعوث من الرئاسة بحثاً عنه في سيارة رسمية. فقد دخلت إيفيتا في احتضار لا رجعة منه ويُنتظر أن تموت من لحظة إلى أخرى. في الحدائق المجاورة للقصر، كانت مواكب طويلة من نساء يتقدمن على ركبهن، متضرعات إلى السماء أن تؤخر ذلك الموت. وعندما ترجل المُحَنِّط من السيارة، أمسكت إحدى المؤمنات بذراعه وسألته باكية: «هل صحيح يا سيدي أن المصيبة آتية إلينا؟». فردّ عليها آرا بكل جدية: «الرب يعرف ما يفعله، وأنا هنا لإنقاذ ما يمكن إنقاذه. وأقسم لك إنني سأفعل ذلك».

لم يكن يتخيل العمل الشاق الذي ينتظره. عهدوا إليه بالجسد في الساعة التاسعة ليلاً، بعد صلاة جناز مقتضبة. كانت إيفيتا قد ماتت في الساعة الثامنة وخمس وعشرين دقيقة. وكانت ما تزال دافئة ومرنة، غير أن قدميها آخذتان بالتحول إلى الزرقة وأنفها ينهار كحيوان متعب. أدرك آرا أنه ما لم يتصرف فوراً فسوف ينتصر الموتُ عليه. فقد كان الموت يتقدم برقصته على البيض، وحيثما يضع قدمه، يزرع عشاً. كان آرا يُخرجه من هنا فيومض الموت من هناك، سريعاً جداً بحيث لا يمكن لأصابع المحنّط أن تكبحه. فتح المُحنط الشريان الفخذي بين الساقين، تحت قوس فالوب، ودخل في الوقت نفسه في السرة بحثاً عن الطمي البركاني الذي يهدد المعدة. ودون أن ينتظر تصريف الدماء بالكامل، حقن دفقاً من الفورمالديهيد، بينما كان المبضع يشق طريقه بين فجوات العضلات، باتجاه الأحشاء؛ وحين وصل إليها لفها بخيوط من البرافين وغطى الجراح بسدادات من الجبس. كان اهتمامه يطير محلقاً من العينين الآخذتين بالتراخي إلى الفكين الآخذين بفصل الشفتين الآخذتين باكتساب لون

رمادي. وقد فاجأه الفجر وهو مستغرق في اختناقات المعركة تلك. وفي الدفتر الذي يحفظ فيه حساب المحاليل الكيميائية وجولات المبضع، كتب يقول «*الأعمال بخواتيمها*». لقد صارت جثة إيفا بيرون مطلقة وغير قابلة للتفسخ نهائياً».

بدا له من الوقاحة أن يأتوا بعد ثلاث سنوات من تلك المأثرة ليطالبوه بالحساب. الحساب على أي شيء؟ على عمل بارع يحفظ الأحشاء كلها؟ يا للخراقة، رباه، يا لاختلاط القدر. سيسمع ما يريدون قوله له وبعد ذلك يأخذ أول سفينة متوجهة إلى إسبانيا حاملاً معه ما يملكه.

فاجأه الكولونيل مع ذلك بسلوكه المهذب. طلب فنجاناً من القهوة، وأفلت كما لو سهواً بضعة أبيات من شعر غونغورا عن الفجر، وعندما تحدث أخيراً عن الجثة، كانت هواجس المحنط قد تلاشت. وهو يصف الكولونيل في مذكراته بحماسة، ويقول: «بعد أن بحثتُ عن توءم لروحي طيلة شهور، وجدته أخيراً في الرجل الذي كنت أظنه عدوي».

– تصل إلى الحكومة إشاعات خرقاء حول الجثة ـ قال الكولونيل. وكان قد أخرج غليوناً بعد القهوة، لكن الطبيب رجاه أن يمتنع عن التدخين. لأنه يمكن لتسلل لهب، أو شرارة طائشة، أن يحولا إيفيتا إلى رماد ـ لا أحد يصدق أن الجسد مازال سليماً بعد انقضاء ثلاث سنوات. أحد الوزراء يفترض أنك خبأت الجسد في مشكاة في المقبرة واستبدلته بتمثال من الشمع.

هز الطبيب رأسه بيأس:

– وما الذي سأكسبه من ذلك؟

– الشهرة. أنت نفسك أوضحتَ في الأكاديمية الطبية أن منح الإحساس بالحياة لجسد ميت هو أشبه باكتشاف حجر الفلاسفة. وقلت إن الدقة المضبوطة هي عقدة العلم الأخيرة. وما سوى ذلك أنقاض، بغلة بلا وجه. لم أفهم هذه الاستعارة. أفترض أنها تنطوي على تلميح مبطن.

– إنني مشهور منذ زمن بعيد أيها الكولونيل. لدي كل الشهرة التي

أحتاج إليها. لم يبق في قائمة اختصاصيّ التحنيط سوى اسمي. لقد استدعاني بيرون لهذا السبب: لأنه لم يجد خياراً آخر.

كانت الشمس قد بدأت تطل من بين تعرجات النهر. وحطت بقعة ضوء على صلعة الطبيب.

– لا أحد يجهل جدارتك يا دكتور. ولكن الغريب هو أن خبيراً مثل حضرتك تأخر ثلاث سنوات في عمل كان يجب إنجازه في ستة شهور.

– إنها مجازفات السعي إلى الدقة. ألم تتحدث حضرتك عن ذلك؟

– لكنهم يقولون أشياء أخرى للرئيس. واعذرني لو أخبرتك بما يقولون، لأنه كلما كانت الصراحة بيننا أكبر، سيكون تفاهمنا أفضل ـ وأخرج من حافظة الأوراق وثيقتين أو ثلاث وثائق ممهورة بخاتم: «سري». تنهد وهو يتصفحها في إشارة استياء ـ أرغب في ألا تعطي للاتهامات أهمية أكبر مما تتضمنه يا دكتور. وهي هكذا: اتهامات، وليست أدلة. هنا يؤكدون أنك استبقيت جثة السيدة لأنهم لم يدفعوا لك المائة ألف دولار المتفق عليها.

– هذا كلام مخزٍ. فقبل يوم من هرب بيرون من البلاد، دفعوا كل ما يدينون به إليّ. إنني رجل مؤمن، كاثوليكي ملتزم. ولن أضيع روحي باستخدام امرأة ميتة كرهينة.

– أوافقك الرأي. ولكن عدم الثقة كامن في طبيعة الدول بالتحديد ـ بدأ الكولونيل اللعب بالغليون وضرب أسنانه بمبسمه ـ اسمع هذا التقرير. إنه مخجل. «الغاليسي يهيم حباً بالجثة»، هذا ما يقوله. والغاليسي هو حضرتك دون ريب. «إنه يداعبها، يلمس نهديها. وقد فاجأه أحد الجنود وهو يمد يده ما بين ساقيها.» أتصور أن هذا الكلام غير صحيح ـ أغمض المُحَنِّط عينيه. فواصل الكولونيل ـ أم إنه صحيح. أخبرني. إننا في مصارحة ثقة.

– لا سبب لدي لإنكار ذلك. فخلال سنتين ونصف السنة، كنت أترك الجسد ناضراً في الليل وأجده ذاوياً في الصباح. فأدركتُ أن إعادة الجمال

إليه يتطلب تقويم أحشائه ـ حرف بصره، وثبت خصر البنطال تحت أضلاعه ـ لم تعد هناك حاجة إلى مواصلة معالجته باليد. لقد اكتشفت مادة مثبتة تبقي الجسد ثابتاً في كينونته، مرة وإلى الأبد.

استوى الكولونيل على الكرسي.

– المسألة التي يصعب حلها ـ قال وهو يخبئ الغليون ـ هي التي يدعوها الرئيس «الملكية». إنه يرى أنه لا يمكن للجثة أن تبقى بين يديك يا دكتور. فأنت لا تملك الوسائل لحمايتها.

– وقد طلبوا منك أن تنتزعها مني أيها الكولونيل؟

– أجل. لقد أمرني الرئيس بذلك. وعينني للتو رئيساً لجهاز المخابرات بهذا الهدف. لقد خرج خبر التعيين في الصحف هذا الصباح.

أطلت ابتسامة ازدراء من شفتي المحنِّط.

– لم يحن الوقت بعد أيها الكولونيل. فهي ليست جاهزة. إذا ما أخذتها الآن، فلن تجدها غداً. ستضيع في الهواء، ستتحول إلى غبار، وزئبق، وكحول.

– أظن أنك لم تفهمني يا دكتور. إنني ضابط في الجيش. أنا لا أنصاع للحجج العقلية وإنما للأوامر.

– سأقدم لك بعض الحجج القليلة فقط. وبعد ذلك افعل ما تشاء. الجسد مازال بحاجة إلى حمام تدليك بمحلول بلسمي. مازال فيه أنبوب تصريف صغير. يجب عليّ انتزاعه. ولكنني بحاجة إلى وقت قبل أي شيء آخر، أحتاج إلى يومين أو ثلاثة أيام. وما هي ثلاثة أيام لرحلة سوف تستمر الأبدية كلها؟ هناك في الجسد مفاتيح يتوجب إغلاقها، شقوق لم تُلحم بعد. أضف إلى ذلك أيها الكولونيل أن الأم لا تريد أن ينتزعه أحد مني. لقد أوكلت إليّ مهمة الصيانة القانونية. إذا ما أخذتموه سوف تسبب لكم فضيحة صاخبة. سوف تلجأ إلى البابا. وكما ترى أيها الكولونيل، لا بد من التعامل مع الحجج قبل طاعة الأوامر.

بدأ يتأرجح. غرس إبهاميه في حمالتي السروال الموجودتين بالتأكيد

تحت الروب. استعاد الفتور، ومزاج التفوق، والمكر: كل ما كان قد بدده للحظات دخول الكولونيل إلى المشهد.

- أنت تعرف جيداً على أي شيء يجري اللعب - قال الكولونيل ونهض بدوره - ليس على جثة هذه المرأة وإنما على مصير الأرجنتين. أو على الأمرين معاً، لأنهما يبدوان الشيء نفسه لأناس كثيرين. ومن يدري كيف حدث أن جسد إيفا دوارتي الميت وغير المجدي قد راح ينصهر بمصير البلاد. ليس في نظر الأشخاص الذين مثلك أو مثلي. بل في نظر البائسين، في نظر الجهلة، في نظر من هم خارج التاريخ. إنهم مستعدون للموت من أجل الجثة. لو كان الجسد قد تعفن وتحلل، فإن الأمر سينقضي وينتهي. ولكنك بتحنيطه حركت تاريخ المنطقة. تركت التاريخ في داخله. فمن يمتلك المرأة يمتلك البلاد في قبضته، هل تدرك ذلك؟ لا يمكن للحكومة أن تسمح لجسد كهذا أن يمضي على غير هدى. أخبرني بشروطك.

- أنا لست مؤهلاً لفرض شروط - أجابه الطبيب - مسؤوليتي الوحيدة هي إرضاء أم إيفيتا وأخواتها - قرأ بعض الملاحظات الموجودة على منضدته - إنهن يردن، كما قلن لي، أن تُدفن في مكان ديني وأن يعرف الناس أين هي، كي يتمكنوا من زيارتها.

- لا تقلق بشأن المكان الديني. أما البند الثاني فغير مقبول. لقد طلب مني الرئيس إنجاز كل شيء بالسرية القصوى.

- ولكن الأم ستصر.

- لا أدري ماذا أقول لك. ولكن إذا عرف أحد بمكان الجسد، فلن تكون هناك قوة بشرية قادرة على حمايته. هناك متعصبون من الجانبين. سيسرقونه يا دكتور. سيجعلونه يختفي أمام أنوفنا.

- كن حذراً إذاً - قال الطبيب بخبث - لأنها عندما تُنقل من تحت بصري، لن يجد أحد طريقة لمعرفة إذا ما كانت هي نفسها. أولم تحدثني حضرتك عن تمثال من الشمع؟ إنه موجود. لقد كانت إيفيتا تريد مدفناً مثل

مدفن نابليون بونابرت. وعندما أعدّوا النماذج المصغرة، جاء النحات إلى هنا، واستنسخ الجسد. لقد رأيتُ النسخة التي صنعها. وقد كانت مطابقة تماماً. أتدري ما الذي جرى؟ لقد رجع النحات في إحدى الليالي إلى محترفه وكانت النسخة قد اختفت. لقد سرقوها. هو يظن أن الجيش قد استولى عليها. ولكن الجيش لم يفعل ذلك، أليس صحيحاً؟

– لا ـ وافقه الكولونيل.

– توخَ الحذر إذاً. أنا سأغسل يدي من الأمر.

– لن تغسلهما بهذه السرعة يا دكتور. أين هو الجسد؟ أريد أن أرى إن كان تلك الأعجوبة التي تتحدث عنها ملاحظاتك. دعني أر ما تقوله ـ يُخرج بطاقة من جيبه ويقرأ ـ: «إنها شمس سائلة». ألا يبدو لك هذا مبالغة؟ تخيل، شمس سائلة.

- 2 -

«سأكون ملايين»

عندما خرجت إيفيتا آخر مرة إلى الهواء الطلق، كان وزنها سبعة وثلاثين كيلوغراماً. وكانت آلامها تتأجج كل دقيقتين أو ثلاث دقائق قاطعة أنفاسها. ولكنها لم تكن قادرة مع ذلك على منح نفسها ترف المعاناة. في الساعة الثالثة من بعد ظهر ذلك اليوم، كان زوجها سيذهب لأداء القسم، للمرة الثانية على التوالي، كرئيس للجمهورية، وكان المهلهلون يتدفقون على بوينس آيرس لرؤيتها هي، وليس لرؤيته. فقد كانت هي الاستعراض. وكانت قد انتشرت في كل الأنحاء إشاعة أنها آخذة بالموت. كان الناس اليائسون في مزارع سانتياغو دل إستيرو وتشوبوت يقطعون أعمالهم ليتضرعوا إلى الله أن يبقيها حية. وفي كل بيت بائس أقيم مذبح صغير تضاء عليه بالشموع صورٌ لإيفيتا، منتزعة من المجلات، وتزين بأزهار برية. وفي الليل، تُحمل الصور في مواكب من مكان إلى آخر لتعريضها للهواء وضوء القمر. لم تكن تُستبعد أي وسيلة من أجل استعادتها العافية. كانت المريضة تعرف هذه الأمور ولا تريد التغيب عن الناس، وقد أمضت الليل مضطربة تريد رؤية الموكب وتحيته من بعيد.

لقد حاولت النهوض مرتين ولم يسمح لها الأطباء بذلك. وفي المرة

الثالثة، أضناها الألم الذي كان يثقب قذالها وانهارت في الفراش. وعندئذ اتخذت القرار بالخروج كيفما كان، لأنه إذا كان عليها أن تموت في ذلك اليوم، فإنها تريد أن تموت على مرأى من الجميع. استدعت أمها والمرضات وزوجها، وطلبت منهم مساعدتها على ارتداء ملابسها. «احقنوني بالمهدئات كي أتمكن من البقاء واقفة»، كانت تقول. «دثروني، شاغلوني، لا تتركوني وحيدة.» لم يسمعوها تتوسل من قبل قط، وهم يروها الآن جاثية على الفراش، ويداها مضمومتان.

كان الزوج مرتبكاً. يراقب من باب الحجرة نوبة التمرد تلك دون أن يدري ما هو الرد الأكثر ملاءمة. كان يرتدي زي المراسم وعباءة شتوية قاتمة. وقد علق تحت الوشاح الرئاسي باقة من الميداليات. «هل جننتِ يا تشينيتا؟» يقول لها وهو يهز رأسه. وكانت إيفا تعذبه بنظرتها اليائسة. «لا يمكنكِ الخروج. الصقيع لم يذب بعد. ستسقطين منهارة.» فكانت تصر: «اسحبوا الألم من رقبتي وسوف ترون كيف أنني سأصمد. أعطوني مخدراً في الكاحلين. إنني قادرة. أما إذا ما ظللتُ هنا في هذه العزلة فسوف أموت. أفضل أن يقتلني الألم على أن يقتلني الحزن. أليس هناك من هو راغب في إرضائي؟». أمر الزوج بأن يلبسوها ثيابها وغادر الحجرة متمتماً: «الأمر نفسه دائماً يا تشينيتا. إنك تنتهين دوماً إلى تنفيذ ما ترغبين فيه».

حقنوها بحقنتين، واحدة كيلا تتألم والأخرى كي تظل واعية. وأخفوا الزرقة المحيطة بعينيها بأساس فاتح وخطوط من البودرة. ولأنها كانت تلح على مرافقة الرئيس واقفة في قسوة سيارة مكشوفة، فقد صنعوا لها على وجه السرعة مشداً للصدر من جبس وأسلاك كي تظل منتصبة القامة. وكان الأسوأ هو عذاب الملابس الداخلية والتنانير التحتانية، فحتى ملامسة الحرير كانت تحرق بشرتها. ولكنها بعد تلك العملية العصيبة، وقد استغرقت نصف ساعة، تحملت واقفة بثبات خشونة الثياب، والقبعة المطرزة التي زينوا بها رأسها لإخفاء نحولها،

والحذاء المغلق ذا الكعب العالي، ومعطف فراء الفيزون الذي يتسع لإيفتاتين اثنتين. ومع أنها نزلت الأدراج على كرسي ذي عجلات حمله الجنود، فقد وصلت على قدميها إلى بوابات القصر وابتسمت لدى الخروج كما لو أنها في زهرة عافيتها. كانت تشعر بدوار الوهن وبملامسة الهواء الطلق الذي ابتعدت عنه منذ ثلاثة وثلاثين يوماً. ومتشبثة بذراع زوجها، وقفت وسط الزحام على مدرجات الكونغرس، وباستثناء إغماءة خفيفة أجبرتها على الراحة في حجرة إسعاف مجلس النواب، تحملت بأناقة، كما في أفضل أزمنتها، مراسم أداء القسم الرئاسي ومبايعة الوزراء. وبعد ذلك، أثناء الاستعراض في الشوارع في سيارة الكاديلاك المكشوفة الخاصة بالمراسم الكبرى، وقفت على رؤوس أصابعها كيلا يُلحظ أن جسدها قد تقلص مثل جسد عجوز. رأت للمرة الأخيرة الشرفات المنخورة للنزل الذي نامت فيه وهي مراهقة، ورأت أطلال المسرحِ الذي مثلت فيه دوراً اقتصر على أربع كلمات «لقد صار الفطور جاهزاً»؛ ورأت كافتيريا الأوبرا، حيث كانت تتسول كل شيء: فنجان قهوة بالحليب، بطانية، مكان صغير في الفراش، صورة لها في المجلات، مقطع حواري بائس في تمثيلية بعد الظهر الإذاعية. رأت البناء القديم الضخم بالقرب من المسلة، حيث كانت تغتسل، مرتين في الشهر، بماء جليدي من حوض قذر؛ ورأت نفسها في فناء نباتات متسلقة في شارع سارمينتو تعالج شرث الأصابع بكحول ممزوج بالكافور، وجائحة القمل بغسول كيروسين؛ رأت نفسها تجفف تحت الشمس تنورة القطن وبلوزة الكتان الحائلة اللون اللتين كانتا قطعتي ملابسها الوحيدتين طوال عام؛ رأت سراويل تحتانية فضفاضة منسلة الخيوط، وحاملات جوارب بلا مطاط، وجوارب من الموسلين، وتساءلت كيف ارتفع وجهها من المذلة والغبار كي تمضي الآن في عرش تلك الكاديلاك وذراعاها مرفوعان عالياً وهي تقرأ في عيون الناس توقيراً لم تعرف مثله من قبل أي ممثلة، إيفيتا، إيفيتا الحبيبة، يا أم قلبي. سوف تموت

غداً، ولكن ما أهمية ذلك. لا يمكن لمائة موت أن يعادل حياة مثل هذه الحياة.

في اليوم التالي كانت منهوكة من جديد بآلام أشد قسوة من آلام القديسة خوانا في المحرقة. كانت تلعن العناية الإلهية لأنها تعذبها، وتلعن الأطباء لأنهم ينصحونها بالبقاء هادئة. تريد أن تموت، تريد أن تعيش، تريد أن يعيدوا إليها الكيان الذي فقدته. أمضت ليلتين على ذلك النحو، إلى أن أفقدتها المهدئات الوعي، وتراجع المرض إلى ظلمات الجسد متعباً من هجومه الطويل. تناوبت الأم والأختان السهر عليها إلى جانب السرير، ولكن دونيا خوانا وحدها هي التي كانت إلى جانبها في المساء الذي استعادت فيه إيفيتا الوعي. تناولتا فنجان شاي وظلتا متعانقتين لوقت طويل، بصمت، إلى أن خطر لإيفيتا أن تسأل، كعادتها، في أي يوم هم، ولماذا لم يأتوها بالصحف.

كانت أمها تضع ضمادات مشدودة على ربلتي ساقيها، وبين حين وآخر تخلع حذاءها وترفع قدميها إلى سرير ابنتها. وكانت تتسلل من النافذة شمس دافئة، وبالرغم من أن الفصل شتاء، فقد كان يُسمع في الخارج هديل الحمائم*.

– إنه السادس من تموز ـ أجابت الأم ـ، والأطباء لا يعرفون ما يفعلون معك يا تشوليتا. يشدون رؤوسهم، ولا يفهمون لماذا لا تريدين أن تشفي.

– لا تهتمي بهم. فالمرض أصابهم بالتشوش. إنهم يلقون المسؤولية عليّ لأنهم لا يستطيعون إلقاءها على أنفسهم. إنهم لا يعرفون سوى البتر

* "لقد كانت نهاية إيفيتا حزينة مثل روايات الأربعينيات الإذاعية"، قالت لي دونيا خوانا في المرة الوحيدة التي التقيتها، "الأمور التي تحدثنا عنها في ذلك اليوم كانت مثل الأحاديث التي تتبادلها أليسيا، الفتاة المشلولة، مع مدبرة منزلها في عمل إذاعي يدعى، على ما أعتقد، *حلم حب*." لقد أدت إيفيتا دوارتي دور أليسيا في الرواية الإذاعية *وعد حب*، لمارتينيلي ماسا، وقد بثتها إذاعة راديو موندو في حزيران 1942.

والخياطة. وما بي لا يمكن قطعه ولا خياطته يا أماه. إنه شيء أكثر عمقاً ـ وللحظة زاغ بصرها ـ. والصحف، ماذا قالت الصحف؟

– وماذا ستقول يا تشوليتا؟ قالت إنك كنت رائعة في الكونغرس، لا تبدين مريضة. وقد أعجبهم معطف فراء الفيزون وعقد الزمرد. نشروا في جريدة *ديموكراثيا* صورة أسرة جاءت من تشاكو لرؤيتك، ولأنهم لم يجدوا لهم مكاناً في موكب الاستعراض، انتظروا قبالة واجهة كاسا أميركا إلى أن ظهرتِ في التلفزيون. وقد انفجروا في البكاء متأثرين، وكانوا على تلك الحال عندما فاجأهم المصور. السيئ في الأمر أن الصورة جعلتني أبكي أنا أيضاً. وما سوى ذلك، لا أدري. أتظنين أن الأخبار الأخرى تهمك؟ انظري قصاصات الصحف هذه. في مصر مازال العسكريون يهددون بتوجيه ركلة إلى الملك. فليركلوه، أليس كذلك؟ يا له من بدين مقرف. إنه أصغر منك بسنة ويبدو عجوزاً.

– لا بد أنهم يقولون عني الشيء نفسه، بسبب نحولي.

– أأنت مجنونة؟ الجميع يرونك باهرة الجمال. زيادة كيلوغرامين اثنين في وزنك لن يكونا سيئين، لماذا إنكار ذلك. ولكن هكذا مثلما أنت، لا توجد امرأة أجمل منك. إنني أنظر إلى نفسي في المرآة أحياناً وأتساءل: من أين خرجت مني هذه الابنة؟ وتصوري لو أننا ظللنا في خونين وتزوجتِ من ماريو، صاحب متجر الهدايا، لكان ذلك تبديداً للفرص.

– أنت تعرفين أنني لا أحب تذكر تلك الأزمنة يا أماه. فأولئك الناس سببوا لي آلاماً أشد من المرض. وبمجرد تذكرهم أشعر بجفاف في حلقي. إنهم براز يا عجوزي. ولا يمكنك أن تتخيلي ما كانوا يقولونه عنكِ.

– أتخيل ذلك ولكنه لا يهمني. وهم يموتون لهفة الآن لأن يكونوا مكاني. كم هي غريبة الحياة، أليس كذلك؟ تذكري حين كنت خطيبة مدير تلك المجلة، ما اسمه؟ وكنت تظنين أنك قد لامستِ السماء بيديكِ. كانت أختك المسكينة إليسا تطلب مني بيأس أن نقنعكِ بقطع تلك الخطوبة لأنهم يسببون الجنون لزوجها في الموقع العسكري بالتقولات.

بالقول له إنهم يصورون أخت زوجتك بالمايوه، يقبلونها في كواليس في المسرح، يستخدمونها للكنس والجلي. وكنت أنا من وقف في وجههم، أتتذكرين؟ أوضحت لهم: تشولا ليست مثلكن. إنها فنانة. وظلت إليسا تتذمر، تقول لي: أين رأسك يا أماه؟ تشولا تعيش مع رجل متزوج، والأدهى أنه يهودي. فأقول لهن: إنها عاشقة، اتركوها بسلام.

– لم أكن عاشقة يا أماه. لم أعشق قط إلى أن تعرفت إلى بيرون. لقد أحببت بيرون قبل أن أراه، بسبب أعماله التي كان يحققها. وهذا لا يحدث مع النساء كلهن. ليس النساء جميعهن ينتبهن إلى أنهن أحببن رجلاً صنع خصيصاً لهن، وأنه لا وجود لآخر سواه على الإطلاق.

– أعرف أن بيرون مختلف، ولكن الحب الذي منحتِه إياه لا يشبه كذلك أي حب آخر.

– لماذا نتحدث في هذه الأمور يا أماه؟ حياتك لم تكن مثل حياتي، وقد ننتهي إلى عدم التفاهم. لو أنك أحببت رجلاً ليس أبي فربما كنت ستصيرين امرأة أخرى. لقد أخرج بيرون أفضل ما في أعماقي، وإذا كنتُ إيفيتا فإنما بسببه. ولو أنني تزوجت من ماريو أو من ذلك الصحفي لكنت التشولا أو إيفا دوارتي وحسب، ولكن ليس إيفيتا، أتلاحظين ذلك؟ لقد أتاح لي بيرون أن أكون كل ما يريده. فأنا أندفع وأقول: أريد هذا يا خوان، أريد ذاك، فلا يرفض لي طلباً أبداً. لقد استطعت أن أشغل كل مكان رغبتُ فيه. ولم أشغل المزيد لأنني لم أجد الوقت لذلك. ولأنني تعجلت كثيراً، أصابني المرض. ما الذي كان سيقوله لي الرجال الآخرون؟ اذهبي إلى المطبخ، حوكي كنزة أيتها التشولا. أنت لا تعرفين كم من الكنزات حكت في قاعات الانتظار في المجلات. أما مع بيرون فلا شيء من ذلك. لقد أكلت الرياح، هل تفهمينني؟ وفي كل مرة سمعتني أقول فيها: أحب بيرون من أعماق روحي، وبيرون هو أكثر من حياتي، كنت أقول أيضاً: إنني أحب نفسي، أحب نفسي.

– أنت لا تدينين له بشيء يا تشولا. فما في أعماقكِ لكِ وليس لأحد

غيرك. إنك أفضل منه ومنا جميعاً.

– أتقدمين لي جميلاً؟ ـ فكت من عقدها مفتاحاً ذهبياً، خفيفاً مثل ظفر، ذا انحناءات مثلمة ـ: افتحي بهذا المفتاح الدرج الأيمن في خزانة المكتب. فوق كل شيء، أمام النظر تماماً، ستجدين رسالتين. أحضريهما. أريد أن أريكِ شيئاً.

ظلت هادئة في السرير، تمسد الملاءات. لقد كانت سعيدة، ولكن ليس مثل الأشخاص الآخرين. لا أحد يعرف ما هي السعادة بالضبط. الجميع يعرفون كل شيء عن الكراهية، عن المصيبة، عن الفقدان، ولكن ليس عن السعادة. أما هي فتعرف ذلك. إنها تعي في كل لحظة من الحياة ما كان يمكن لها أن تكونه وما صارت إليه. مع كل خطوة تخطوها كانت تردد: هذا لي، هذا لي، وأنا سعيدة. والآن حانت لحظة الأسى: أبدية من الأسى من أجل التعويض عن ست سنوات من الرضا. أهذه هي الحياة، أهذه هي وحسب؟ خيل إليها أنها تسمع من بعيد موسيقى أوركسترا، كما في ساحة شعبها. أم إنه المذياع، في حجرة الممرضات المجاورة؟

– رسالتان ـ قالت الأم ـ: أهاتان هما؟

– اقرئيهما لي.

– فلنر... النظارة: *عزيزتي تشيفيتا*.

– لا، الرسالة الأخرى أولاً.

– *عزيزي خوان*. أهذه: *عزيزي خوان؟ إنني حزينة لأني لا أستطيع العيش بعيداً عنك*...

– لقد كتبتُها في مدريد، في اليوم الأول من رحلتي إلى أوروبا. أو ربما في الطائرة، عندما كنت على وشك الوصول. لم أعد أتذكر. أترين الخط، كم هو متنافر، كم كنت عصبية؟ لم أكن أدري ماذا أفعل، كنت أريد الرجوع. لم تكن الرحلة قد بدأت بعد وكنت أريد الرجوع. هيا، واصلي القراءة.

– *... أحبكَ إلى حدّ الشعور نحوك بنوع من العبادة الوثنية. لا*

أدري كيف أعبر عما أشعر به ولكنني أؤكد لك أنني ناضلت بصلابة شديدة في حياتي متطلعة إلى أن أكون شيئاً يُذكر وعانيت الكثير، وعندئذ جئتني أنتَ وأسعدتني إلى حد ظننتُ معه أنني أحلم، ولأنه لم يكن لدي ما أقدمه لك سوى قلبي وروحي، فقد قدمتهما إليك بالكامل، ولكنني خلال سنوات السعادة الثلاث تلك لم أتوقف قط عن عبادتك ساعة واحدة أو عن شكر السماء على كرم الرب معي بمنحي التعويض في حبك لي... لن أواصل القراءة يا تشولا. إنكِ تبكين وتجعلينني أبكي أيضاً.

- اقرئي القليل فقط، هيا. إنني ضعيفة.

- *إنني وفية لك يا حبي، وإذا شاء لي الرب ألا أظل في هذه السعادة وأخذني إليه، سأبقى وفية في الموت وسأعبدك من السماء*. لماذا كتبتِ هذا يا تشوليتا؟ ما الذي كان يدور في رأسك؟

- كنتُ خائفة يا أماه. كنت أفكر أنني عندما أعود من بعيد، لن يكون هو موجوداً. ولن يكون هناك أي شيء. وأنني سأستيقظ في غرفة النزل، مثلما كانت الحال وأنا صبية صغيرة. كنت أموت خوفاً. الجميع يظنون أنني جسورة وأنني وصلتُ إلى ما لم تصله أي امرأة. ولكني لم أكن أعرف ما الذي علي عمله يا أماه. الشيء الوحيد الذي كان يهمني هو الرجوع.

- هل أقرأ لك الرسالة الأخرى؟

- لا، أنهِ قراءة هذه. اقرئي المقطع الأخير منها.

- *... كل ما قالوه لكَ عني في خونين مجرد تشويه لسمعتي، أقسم لك. يجب أن تعرف ذلك في ساعة موتي. إنها أكاذيب. غادرتُ خونين وأنا في الثالثة عشرة من عمري، وما الفظاعة الرهيبة التي يمكن لفتاة فقيرة أن تفعلها في مثل تلك السن؟ يمكنك الإحساس بالفخر بزوجتك يا خوان، لأنني حافظتُ على الدوام على اسمك*

وأحببتك حتى العبادة...[*]»

– أي تقولات وصلت إليه؟

– مسألة ماغالدي، أنت تعلمين. ولكنني لا أريد التحدث في هذا الأمر.

– كان عليك أن تخبريني به يا تشوليتا، وكنتُ سأحضر عندئذ إلى هنا لأوضح الأمور. لا أحد يعرف أفضل مني أنكِ غادرتِ خونين نقية طاهرةً. لماذا تذللتِ بالتحدث بتلك الطريقة؟ إذا ما بدأت الشكوك تخامر رجلاً، فلا يمكن حتى للرب أن يعيد إليه الثقة. أما بشأنكِ، فهو...

– اقرئي الرسالة الثانية. ولا تواصلي الكلام.

– *عزيزتي تشيفيتا*. انظري، لقد كتبها على آلة كاتبة. رسائل الحب المكتوبة على آلة كاتبة أقل قيمة من الأخريات. وربما يكون قد أملاها على سكرتير، وربما لا تكون منه.

– لا تقولي هذا الكلام. اقرئي.

– *أنا أيضا حزين جدا لفراقك وأعد الساعات بفارغ الصبر لعودتك. ولكنني إذا كنت قد قررت أن تسافري إلى أوروبا، فلأنني لا أرى شخصاً آخر أفضل منك لنشر أفكارنا والتعبير عن تضامننا مع كل تلك الشعوب التي خرجت للتو من أتون الحرب. إنك تقومين بعمل عظيم والجميع هنا يفكرون في أنه ما كان يمكن لأي سفير أن يقوم بالعمل بهذه الروعة. لا تضعفي بسبب التقولات. فأنا لا أعيرها أي اهتمام وهي لا تؤثر فيَّ. لقد أرادوا ملء رأسي بالإشاعات عندما كنا على وشك الزواج، ولكني لم أسمح لأحد أن يرفع الصوت ضدك. عندما اخترتُكِ فعلت ذلك لما أنت عليه، ولم أهتم قط بماضيك. لا تظني أنني*

---

[*] تبدو الرسالة أشبه بسخرية، ولكنها ليست كذلك. لقد استُنسخت في *بيرون الأخير* لإستيبان فيكوفيتش (منشورات بلانيتا، برشلونة 1976)، وفي *إيفا بيرون* لنيتشولا فراسيس وماريسا نافارّو (منشورات دبليو. دبليو نورتون، نيويورك، 1980)، وفي *بيرون وعصره، الجزء الأول، كانت الأرجنتين حفلة* لفيلكس لونا (منشورات سودأميريكانا، بوينس آيرس 1984).

لا أقدر كل ما فعلتِه من أجلي. فأنا أيضاً ناضلت كثيراً ويمكنني فهمك. لقد ناضلتُ كي أكون ما أنا عليه وتكوني ما أنت عليه. اطمئني إذاً، وانتبهي لصحتك ولا تطيلي السهر. أما بخصوص دونيا خوانا، فلا تقلقي بشأنها. العجوز شجاعة جدا وتعرف كيف تدافع عن نفسها بنفسها، ولكنني أعدك بكل ما هو مقدس بأنني سأهتم بألا ينقصها أي شيء. لكِ قبلاتي وتحياتي، خوان.

– أترين الآن لماذا أحبه كثيراً يا أماه؟

– أنا أرى أنها رسالة عادية.

– لقد أرسلها إليّ وأنا في طليطلة، في اليوم التالي لتلقيه رسالتي. وإذا كان قد ردّ على رسالتي، فليس ذلك لأن الردّ ضروري. ولماذا يكون ضرورياً إذا كنا قد أمضينا تلك الليلة في التحدث هاتفياً؟ لقد أرسل الرد بدافع اللياقة، وكي أشعر بالراحة.

– وأنت تستحقين ذلك. فلا يمكن لأي امرأة أن تكتب إليه ما كتبته أنت.

– وهو يستحق ذلك. أنت تعرفين الآن يا أماه أنني كنت سعيدة. كل ما عانيته كان يستحق العناء. إذا كنت ترغبين، احتفظي بالرسالتين. لقد رأيتني عارية مرات ومرات، ولا مانع في أن تريني مرة أخرى.

– لا. لم أرك قط عارية كما في هذه المرة.

– إنك الوحيدة. أنت وبيرون. ليس عري الروح هذا هو الذي يقلقني. ففي هذا الشأن، عشتُ عارية. ما يقلقني هو العري الآخر. عندما أفقد الوعي أو يحدث لي ما هو أسوأ، لا أريد أن يغسلني أو يعريني أحد، أتفهمينني؟ لا أطباء ولا ممرضات ولا أحد غريب. أنت وحدك فقط. إنني أخجل من أن يروني يا أماه. فأنا نحيلة جداً، وفي حالة بالغة الانحطاط! إنني أحلم أحياناً بأني ميتة وأنهم يحملونني عارية إلى ساحة مايو. يضعونني على مقعد والجميع يأتون في صف ليلمسوني. ومهما صرختُ وصرخت، لا يأتي أحد لنجدتي. لن تسمحي بأن يحدث لي ذلك يا

عجوزي. إياكِ أن تتركيني.

كانت دونيا خوانا قد أمضت عدة ليال من النوم السيئ، ولكن ليلة العشرين من أيلول 1955 كانت الأسوأ: لم تستطع إغماض عينيها. نهضت عدة مرات لتتناول المتة وتسمع الأخبار من المذياع. فبيرون، صهرها، قدم استقالته، وصارت البلاد في أيدي لا أحد. عادت الدوالي تزعجها من جديد. وكانت هناك وذمة زرقاء وبركانية فوق الكاحلين توشك أن تنفجر.

لا حديث في نشرات الأخبار إلا عن تنقلات الجيش المتمرد. يمكن أن يحدث لإيفيتا أي شيء، كانت الأم قد قالت للمُحَنِّط. أي شيء. «سيأخذونها ليمزقوها يا دكتور. ما لم يستطيعوا فعله بها وهي حية يريدون أن يتقاضوه الآن من الميتة. لقد كانت مختلفة، وهذا شيء لا يغتفر في هذه البلاد. منذ صغرها أرادت أن تكون مختلفة. وبعد أن صارت الآن عزلاء، سيجعلونها تدفع الثمن».

«لا تقلقي يا سيدتي»، قال لها الطبيب، «هدئي من روع قلبك كأم. ففي مثل هذه الأوقات، لا أحد يحتدم بشراسة من أجل الموتى.» كان رجلاً زيتياً، مداهناً. وكلما بذل مزيداً من الجهد في تهدئتها، كانت تزداد ارتياباً.

ومن هو غير المريب في بوينس آيرس؟ فمنذ انتقال دونيا خوانا إلى المدينة، صار كل شيء يخيفها. في البدء، أذهلتها تسهيلات الحياة وتملقات السلطة. لقد كانت إيفيتا كلية القدرة، وصارت أمها كذلك. ففي كل مرة تراهن فيها على الروليت في كازينو مار دل بلاتا، يضيف الموظفون إلى أرباحها بعض الفيشات من فئة الألف بيزو، وعندما تلعب البلاكجاك مع الوزراء يحالفها الحظ على الدوام، كما في المعجزات، بالحصول على ملكتين. كانت تعيش في منزل أميري في حي بيلغرانو، وسط أشجار نخيل وغار. ولكن بوينس آيرس انتهت إلى بتر أعضاء من أسرتها، وإصابتها بداء الربو. لقد زرعوا غرف البيت بالميكروفونات. ومن

أجل التحدث إلى بناتها، كانت تدون ملاحظات قصيرة على دفتر مدرسي. وبعد موت إيفا لم تعد تجد الحماسة لزيارة صهرها، كما إن الصهر لم يعد يدعوها إليه. الرابطة الوحيدة التي ظلت تربطها بالسلطة تمثلت في خوانثيتو، ابنها الذكر، ولكن عشيقة مغتاظة اتهمته باختلاسات تافهة، فانتهى الأمر بخوانثيتو، وقد أذله العار، إلى الانتحار. خلال أقل من تسعة شهور تحللت الأسرة في تلك الأجواء اللعينة. إن غدد بوينس آيرس تفرز موتاً. كل شيء فيها خسة وغرور. لا أحد يدري من أين ينبثق لدى الناس كل ذلك الغرور. مسكينة إيفا. لقد نزفت حباً وهم يدفعون الثمن هجراناً. يا للمسكينة. ولكن أعداءها سيتخوزقون. ففي حياتها، كانت تلقي على الدوام تراباً على نارها، كيلا تحول زوجها إلى ظل. أما في موتها فسوف تتحول إلى حريق.

نظرت من النافذة. كانت تظهر من وسط سكون النهر أولى خيوط الفجر. سمعت فجأة المطر وسمعت في الوقت نفسه مطر الساعات السابقة. وفي الإذاعة أعلنوا أن أسطول البحرية، المتمرد ضد الحكومة، قد دمر للتو خزانات البترول في مار دل بلاتا وأنه سيقصف الرصيف الجنوبي بين لحظة وأخرى. وأن الأميرال روخاس، الذي يقود المتمردين، يعد بأنه لن يترك حجراً على حجر ما لم يعلن بيرون استقالته دون شروط. روخاس؟ تساءلت دونيا خوانا. أليس هو ذلك المرافق الذي كان يستبق على الدوام نزوات إيفا؟ أليس الزنجي الصغير، السيد الصغير ذا النظارة السوداء؟ أهو أيضاً أدار لها ظهره؟ إذا ما اشتعل الرصيف الجنوبي، ستعلق ابنتها في اللهيب. فمبنى الاتحاد العام للعمل قريب من الرصيف وستصله النار خلال ساعة أو ساعتين.

حاولت النهوض من الفراش ولكن التشنج أقعدها عن الحركة. إنها الدوالي. ففي الأسابيع الأخيرة ازداد سوء حالتها بارتكابها حماقة بعض المشاوير التي لا تنتهي إلى أي شيء. تمشي مرتين في اليوم حتى قاعات انتظار النواب البرلمانيين كي تتوسل إليهم زيادة معاشها التقاعدي مقابل

خدماتها للوطن. ولكن الجاحدين أنفسهم الذين كانوا يغمرونها بأزهار الأوركيدا والشكولاتة صاروا يتجاهلونها الآن ويجعلونها تنتظر. تجوب متاجر الشارع الحادي عشر بحثاً عن أقمشة وحرير مموج من أجل حجرة ابنتها المأتمية. تتوغل في المساء عبر متاهات المقبرة حيث دُفن خوان، ابنها المنتحر، كيلا يفتقد قبره الزهور اليانعة. لم تكن تتجرأ على الصعود في سيارات التاكسي خوفاً من أن يحملوها ويلقوا بها ميتة على إحدى المزابل. هذه التحركات البائسة هي حياتها الآن.

تناولت أحد المسكنات التي تحتفظ بها دوماً على الكوميدينو بجوار السرير، ودلكت ساقيها. وعلى الرغم من أن الألم كان يعذبها، إلا أنها تريد التغلب عليه. لقد وعدت إيفيتا بأن تغسل جسدها وتدفنه، ولكنهم لم يسمحوا لها بذلك. وهي الآن تريد إنقاذه من الحريق. ومن سيفعل ذلك ما لم تكن هي؟ أيكون الطبيب الذي يطلي إيفيتا بالشمع والبرافينات المنوية كل صباح؟ أم الحراس الذين لا يفكرون إلا بالنجاة بجلودهم؟

أشعرتها الهواجس الخبيثة بالاختناق، فاستدعت ابنتها التي كانت تنام في الحجرة المجاورة، وطلبت منها أن تضمد لها كاحليها. ثم خرجت بعد ذلك بصمت من البيت ومشت حتى موقف الترام في جادة لويس ماريا كامبوس. كانت مصممة على أن يعيد إليها المُحَنِّطُ إيفيتا. ولا تهمها أية لعنة يمكن أن تحدث بعد ذلك. ستوسد الجسد الميت في سريرها بالذات وتسهر عليه دون راحة إلى أن تنطفئ اضطرابات الأرجنتين وتعود الأمور إلى مسارها الطيب. وإن لم تعد، فستظل لديها وسيلة اللجوء. ستطلب اللجوء. ستجتاز البحر. وسيكون أي عذاب أفضل من قضاء ليلة أخرى في عدم اليقين.

صعدت إلى ترام لاكروث الذي يقوم بجولة واسعة عبر شوارع باليرمو قبل التوجه إلى الباخو. ثمن تذكرة الركوب عشرة سنتافو. أغمدتها بحذر في عروة القفاز المصنوع من جلد الماعز. كان صباحاً كريهاً، رطباً، وسخاً. بحثت عن علبة البودرة وغطت خطوط العرق التي أطلت من جبينها.

أحست بالندم لأنها استجابت منذ يومين لحجج الدكتور آرا. وفكرت: على المرأة ألا تستقبل أحداً عندما تكون وحيدة. عليها أن تغطي وجهها بضعفها بالذات والانتظار، الانزواء، إلى أن تمر العاصفة. لقد اقترفت كل أخطاء حياتها بسبب الوحدة وغياب الحب، وربما يكون هذا الخطأ هو الأسوأ: لقد حضر آرا إلى بيتها مع انتشار أول أخبار الانقلاب العسكري. كان الغم يسبب لها الصمم من الداخل، بينما الجرس يرن في الخارج. انعطف الترام عبر شارع سولير نحو الجنوب، وهناك رأته، خيل إليها أنها تراه. اجتاز ذلك النابليون الإسباني الصغير دهليز بيتها بخطوتين واسعتين. كان خصر بنطاله فوق أضلاعه، وشعره القليل المتهدل تتخلله قشرة، وقبعة أوريون بين أظفاره اللامعة، وتحيط به هالة من كولونيا غاث آند تشافيز. ففكرت: رباه، لقد تحوّل مُحَنِّطنا هذا إلى مخنث. «جئتُ لطمأنتك»، قال آرا. وكرر الجملة نفسها ثلاث أو أربع مرات خلال الزيارة. كان الترام يهتز بين أشجار شارع الباراغواي، مجتازاً خواء المدينة الكئيبة اللامتناهية. سآخذ إيفيتا بعيداً عن هنا إن استطعت، سآخذها إلى الريف، ولكن عزلة الريف ستعيد قتلها.

«يوم أمس ـ أخبرها الطبيب ـ مثلتُ في المنزل الرئاسي للتحدث إلى صهرك. لم يستدعني طيلة السنوات الماضية، وقد أثار استغرابي كل ذلك الصمت. وصلت إلى هناك عند الغروب. استبقوني لوقت لا بأس به في الممرات وقاعات الانتظار إلى أن جاء نقيب ليسألني: بماذا يمكنني مساعدتك. فقدمت إليه بطاقتي وأجبته: أريد رؤية الجنرال بيرون. ففي هذه الظروف أحتاج إلى تعليمات حول ما يجب علينا عمله بجسد زوجته. فقال لي النقيب إن الجنرال مشغول جداً، وحضرتك تتفهم ذلك. وسوف أرى ما الذي أستطيع عمله. أمضيت ساعات من الانتظار. كان هناك جنود يذهبون ويجيئون بحقائب وحزم ملاءات. شيء يوحي بأنهم ينقلون البيت. وأخيراً رجع النقيب بخبر: لا يمكن للجنرال اتخاذ أي قرار حالياً، قال لي. اترك لنا رقم هاتفك وسوف نتصل بك.

ولكن لم يتصل بي أحد حتى الآن. ولدي إحساس بأنهم لن يتصلوا. هناك إشاعات بأن بيرون سيسافر يا دونيا خوانا. وأنه يطلب تصريحاً للخروج إلى المنفى. لن يبقى هنا إلا حضرتك وأنا. وعلينا أنت وأنا أن نقرر ما الذي سنفعله بالجسد.

نظرت من النافذة إلى الحديقة المبللة، إلى اللبلاب المزهر، وما الذي يمكن عمله غير ذلك؟، كانت تمسح على تنورتها في كل لحظة عرق يديها. «أنا من جهتي أود إحضارها يا دكتور آرا، ووضعها في الصالة»، قالت، وأحسست بالخجل لأنها قالت ذلك. وما الذي ستفعله إيفيتا في الصالة؟ «ولكن انظر دوالي قدميّ. إنها في حالة مزرية. لم يعد بإمكان حقن الساليثلاتو ولا الجوارب المطاطة أن تهدئها.»

استغل الطبيب تلك اللحظة من المحادثة ليطلب منها توكيلاً: «أظن أن هذه هي الوسيلة الأفضل» قال، «بتوكيل منكِ، أستطيعُ التصرف بالجسد بصورة مقدسة.»

«توكيل؟»، ذُعرت الأم، «لا يا دكتور. التوكيلات أدت إلى ضياعي. كل توكيل قدمته مكتوباً تحول ضدي. فما كان لابنتي أخذه الصهر. لم يترك لي حتى الذكريات.» انكسر صوتها واضطرت إلى السكوت لحظة كي يعود الفتات إلى الالتئام. ثم سألته: «آه، وبين معترضتين: ماذا جرى لشبك الألماس الذي وضعناه في كفن إيفيتا؟ أحد أحجاره، ذاك الضارب إلى الحمرة، ثُمِّن بنصف مليون بيزو. وبما أننا سندفنها الآن، لا أريد إبقاء مثل هذه الجوهرة على جسدها. سيكون ذلك إغواء للصوص. ماذا تنصحني أن أفعل لأستردها؟».

انعطف الترام ببطء في شارع كورينتس، كما لو أنه متردد. كانت المتاجر ترفع بواباتها المعدنية والباعة ينظفون الأرصفة. كانت تقوم في الجانب المظلم من الشارع مواخير اليهود المشهورة، ونُزل على شرفاته أزهار، أقامت فيه ابنتها لبعض الوقت. «ألم أحسن صنعاً بمغادرة خونين يا أماه؟ ألا ترين أنني صرت أخرى مختلفة؟» كانت إيفيتا تظن أن تلك هي

السعادة. ولكنها اضطرت قبل موتها إلى الاعتراف: لقد كان ذلك حزناً وحسب.

توغل الترام في غمامة مقاهٍ ودور سينما. لم تكن قد شاهدت أياً من الأفلام التي يُعلن عنها فوق أفاريز المداخل: لم تشاهد فيلم *نافورة الرغبة*، حيث يخيل للمشاهدين أنهم يزورون روما، بتأثير السينما سكوب، ولا فيلم *الملاك العاري* الذي تظهر فيه، أول مرة، ممثلة أرجنتينية مكشوفة النهدين، وإن كانت تظهر بصورة مواربة. أصابتها إحدى ماركات العطور بالنعاس، وبينما هي على ضفاف الإغفاء أطل الطبيب من جديد: «ممتلكات المتوفاة مازالت حيث رأيتِها حضرتك يا سيدتي: خاتم الزفاف، المسبحة المهداة من الحبر الأعظم، وكذلك المشبك الماسي. ولكنني أرى أنك على حق. من الخطر إبقاء تلك الأشياء. سوف أطلب أن يسلموها هذا المساء بالذات».

وكان عليها أن تكتب له التوكيل: *الدكتور السيد بيدرو آرا. بصفتي والدة ماريا إيفا دوارتي دي بيرون، أرجو، ما لم يكن أرملها قد ترك أية تعليمات بشأن جثة ابنتي، أن تكون حضرتك، أيها الدكتور، من يتولى التدابير الضرورية لوضعها بمنجى من أية أحداث طارئة.*

«جيد»، قال الدكتور موافقاً. «ضعي توقيعك هنا، وكذلك التاريخ: 18 أيلول 1955».

لم تتلق دونيا خوانا مشبك إيفيتا في ذلك المساء ولا في الأيام التالية. دائماً يحدث لها الشيء نفسه: الرجال يخدعونها، يدورون بها، لا تدري كيف، ولكنهم يتملقونها. وما أهمية ذلك الآن؟ اجتاز الترامُ تقاطعَ المسلة برشاقة وانزلق إلى بحر ظلمات منطقة الباخو المنخفضة، حيث مازال الدخان يتصاعد من متاريس أنصار صهرها. رأت رخام قصر وزارة المالية وقد ملأته ثقوب الرصاص، وأشجار النخيل وقد حوّلتها الرشاشات أليافاً، وصور إيفيتا تحترق دون رحمة، وتماثيلها النصفية مجدوعة الأنوف ومشعثة الشعور، وقد تحولت حطاماً. لقد انقسمت ذكرى ابنتها إلى

نصفين، ولا تتبدى الآن إلا ذاكرة من يكرهونها. وفكرت: لا بد أنهم يكرهونني أنا أيضاً. أنزلت خمار القبعة وغطت وجهها. إن الماضي يثقل على روحها. حتى أفضل ماض لم يكن سوى نكبة. كل ما تتركه إحدانا وراءها يؤلم، ولكن السعادة أشد ايلاماً.

إنه تافه وفظ من الخارج، ومن الداخل كان مبنى الاتحاد العام للعمل متوالية من الممرات التي تصب في أدراج متاهية. لقد جابته دونيا خوانا أكثر من مرة حين كانت تحمل أزهاراً لإيفيتا، ولكنها كانت تفعل ذلك على الدوام عبر الطريق نفسه: المدخل، المصعد، حجرة التسجية. كانت تعرف أن مختبر الدكتور آرا يطل على النوافذ الغربية وأنها ستجده هذا الصباح يرمم الجسد.

لمحت صلعة المُحَنِّط وراء الزجاج الملمع ودخلت دون أن تطرق الباب. لقد كانت مهيأة لكل شيء باستثناء رعب مفاجأة إيفيتا في حوض أبخرة وأعضاء حيائها مكشوفة. ومن الشعر ذي العقيصة السليمة كانت تنبعث الرائحة البشرية الوحيدة في الجسد كله، كما لو أنه مازال شجرة مليئة بالأفكار؛ أما من الرقبة إلى أسفل فلم تكن إيفيتا هي نفسها: يبدو أن هذا الجزء من الجسد يتأهب لرحلة طويلة لا يفكر في العودة منها.

كان المُحَنِّط يدلك فخذي الجثة بمرهم له لون العسل عندما فاجأه دخول دونيا خوانا. رآها تستولي، بصورة صاعقة، على رداء طبيب معلق على المشجب وتغطي به الجسد المستسلم وهي تتذمر: «هاأنذا هنا يا تشوليتا، ما الذي فعلوه بكِ؟».

رفع الطبيب صلعته وحاول إمساكها من ذراعها. كان عليه أن يسترد وقاره الطبي بأسرع ما يمكن.

– اخرجي يا دونيا خوانا ـ قال محاولاً أن يبدو مقنعاً ـ ألا تشمين رائحة المواد الكيميائية؟ إنها مؤذية بصورة رهيبة للرئتين.

حاول دفعها برفق. ولكن الأم لم تتحرك. لا يمكنها ذلك. كانت مفعمة بالسخط، والسخط ثقيل الوطأة جداً.

- دعك من حكاياتك هذه يا دكتور آرا. إنني عجوز ولكنني لست بلهاء. إذا كانت موادك الكيميائية لا تؤذيك، فلن تؤذيني أنا أيضاً.

- إنه يوم سيئ يا سيدتي - قال. وفوجئت دونيا خوانا بأنه لا يضع قفازات مطاطية مثل الأطباء الآخرين - سيأتي العسكريون بين لحظة وأخرى ليأخذوا ابنتك. ومازلنا لا ندري ما الذي سيفعلونه بها.

- لقد أعطيتك توكيلاً كي تحميها لي يا دكتور. ماذا فعلت به؟ لا شيء مما تقوله لي صحيح. وعدتَ بأن ترسل لي المشبك ومازلتُ أنتظر.

- فعلت ما أستطيعه يا سيدتي. لقد سرقوا المشبك. من؟ لا أحد يدري. رقباء الحراسة يقولون إن من سرقه هم زعماء الثورة المدنيون. والزعماء الذين تحدثتُ إليهم ينكرون ذلك ويقولون إن الرقباء قد سرقوه. وأنا أظن أن صهرك هو من أخذه. إنني مشوش جداً. تبدو هذه البلاد أراضي لا أحد.

- كان عليك أن تتصل بي هاتفياً.

- كيف؟ الخطوط مقطوعة. لا يمكنني التحدث حتى إلى أسرتي. صدقيني أنني أرغب في الخلاص دفعة واحدة من هذا الكابوس.

- لقد وصلتُ في الوقت المناسب إذاً - تركت دونيا خوانا العكاز على كرسي. فقد تلاشى ألم دوالي قدميها. عليها أن تنقذ ابنتها وتبعدها عن الفورمول، وعن الراتينج، وعن كافة شرور الخلود الأخرى. قالت: - سوف آخذها... لفها لي جيداً في الكفن ريثما أطلب من وكالة خدمات الدفن أن يأتوني بسيارة إسعاف. لقد أخرجتها في الحياة من مآزق أكبر. يجب ألا تبقى إيفيتا هنا ولو ليوم واحد آخر.

هز المُحَنِّط رأسه. وكرر تقريباً ما سيقوله للكولونيل بعد شهرين من ذلك:

- ليست جاهزة بعد. مازال ينقصها تدليك أخير بمرهم بلسمي. إذا ما أخذتِها في هذه الحال، فسوف تتحلل بين يديك.

- لا يهمني - ردّت الأم - فالموت، في نهاية المطاف، قد أتلفها.

أنزل الطبيب ذراعيه كالمهزوم.

– إنك تجبرينني على ما لا أريده ـ قال.

أقفل باب المخبر بالمفتاح، وخلع المـريلة، ثم اقتادها عبر ممر قصير يضيئه نور شاحب، تقدم مع دونيا خوانا نحو المصلى. وبالرغم من أنه كان للظلام في ذلك المكان عمق بلا قرار، إلا أن الأم عرفت على الفور أين هي. فأكثر من مرة ظلت تصلي هناك، قبالة الناووس الزجاجي المهيب الذي تُسجى فيه ابنتها، وكانت قد قبّلت شفتيها المتلئتين اللتين تبدوان دوماً كما لو أنهما على وشك العودة إلى الحياة. كانت ظلمة المكان مترعة رائحة غم ودماء لا أحد.

– لماذا تجيء بي إلى هنا؟ ـ سألت بصوت يتيم ـ أريد الرجوع إلى حيث إيفيتا.

أمسكها الطبيب من ذراعها وأجابها:

– انظري هذا.

أضاءت الكشافات الناووس الجنائزي في الوقت نفسه الذي أضيئت فيه أنابيب نيون في أجزاء قالب السقف. وأثقل على دونيا خوانا وميض منعها من التنفس، ارتابت بالواقع الذي راح يرتسم أمام عينيها. كان أول ما رأته هو توءم لابنتها يرقد فوق البلاطة الزجاجية، شبيه بها إلى حدّ تطابق لا يمكن لها هي نفسها أن تميز بينهما. وكانت نسخة أخرى متقنة من إيفيتا ممددة على وسائد من ساتان أسود، عند قوائم كرسي تجلس عليه إيفيتا ثالثة، ترتدي الثوب الأبيض الفضفاض كالاثنتين الأخريين، وتقرأ بطاقة بريدية مرسلة قبل سبع سنوات من بريد مدريد. بدا للأم أن هذه الأخيرة تتنفس، فقربت رؤوس أصابعها من فتحتي أنفها.

– لا تلمسيها ـ قال الطبيب ـ إنها أكثر هشاشة من ورقة خريفية.

– أيهم هي إيفيتا؟

– يسعدني أنك لا تلحظين الفرق. ابنتك ليست هنا. لقد رأيتِها للتو في حوض المخبر – أدخل إبهاميه تحت حمالتي سرواله وتأرجح على رؤوس أصابع قدميه فخوراً بنفسه – عندما بدأت حكومة صهركِ بالانهيار، طلبتْ

أن يصنعوا لي هذه النسخ، على سبيل الاحتياط. قلتُ لنفسي: إذا ما سقط بيرون، فسوف تكون إيفيتا هي الغنيمة الأولى التي سيبحث المنتصرون عنها. عملت نهاراً وليلاً مع النحات، مستبعداً تمثالاً بعد آخر. أتدرين أية مواد هي هذه؟ - كانت دونيا خوانا تسمع كلمات المُحَنِّط، ولكنها لا تتمكن من تقويمها بأي معنى. لقد كانت مرعوبة، مختنقة: إنها بحاجة إلى حياة أخرى كي تستوعب كل ذلك الحداد - شمع وراتينج إضافة إلى صباغ لا يتحلل من أجل رسم الأوردة. إيفيتا الجالسة على الكرسي هي نسخة محسنة: فيها ألياف زجاجية. إنها *opus magna*.* عندما سيأتي الكولونيلات لأخذها، ستكون ابنتكِ في مكان آمن وما سأعطيهم إياه سيكون إحدى هذه النسخ. ولا بد أنك أدركتِ الآن أنني لم أخنكِ.

– ما يقلقني - قالت الأم - هو أنني أنا أيضاً لن أعرف أيها هي الحقيقية.

– لا بد من تعريضها لأشعة إكس. الحقيقية ستظهر أحشاؤها. أما في الأخريات فلا يظهر إلا العدم. ما الذي يفعله الفيزيائيون عندما يريدون وقف التدفق الطبيعي للأشياء؟ أمر بسيط: إنهم يُكثّرونها - كان المُحَنِّط المستثار قد رفع رنة صوته درجة أو اثنتين - يجب مواجهة أي نسيان بكثير من الذاكرة، وتغطية أي قصة حقيقية بقصص زائفة. لم يكن لابنتك، في حياتها، من مثيل، ولكن ما أهمية أن يكون لها ذلك بعد موتها؟ ففي موتها يمكن أن تكون مكرورة بصورة لانهائية.

– قليل من الماء - طلبت الأم.

– خذي الآن إحدى النسخ - واصل الطبيب دون أن يسمعها - وادفنيها بمهابة في مقبرة ريكوليتا. وأنا سأرسل نسخة أخرى إلى الفاتيكان. وأخرى إلى الأرمل، في أوليفوس أو حيثما يكون. أما الحقيقية فسندفنها أنا وأنت، على انفراد، ولن نخبر أحداً بأي شيء.

---

* باللاتينية في الأصل: «عمل بارع»

أحست دونيا خوانا بأن الدنيا تغادرها بطبيعية غيبوبة الدوخة. لم يعد هناك عالم وصار الغم يشغل كل الأمكنة الفارغة. وفي أعماقها يذهب النحيب ويجيء بلا قرار، وبلا بروفيل. لا يمكن لها أبداً أن تعتمد على آرا ولا على بيرون ولا على أحد باستثناء اعتمادها على نفسها بالذات، وهي نفسها ليست سوى شيء ضئيل تافه. استندت إلى جدران الظلمات وبصقت في وجه المُحَنِّط بالجملة التي كانت تدور في رأسها منذ بعض الوقت:

– فلتذهب إلى البراز.

في هذا الرواية المسكونة بشخصيات واقعية، الشخصيتان الوحيدتان اللتان لم أتعرف إليهما هما إيفيتا والكولونيل. فإيفيتا رأيتها من بعيد فقط، في مدينة توكومان، في صباح يوم عيد وطني؛ أما الكولونيل موري كينيك فوجدتُ له صورتين وبعض الآثار القليلة. جرائد تلك الحقبة تذكره بصورة مقتضبة، وفي معظم الأحيان بازدراء. احتجت لشهور كي أجد أرملته، وكانت تعيش في شقة متواضعة في شارع آريناليس، وقد وافقت على اللقاء بي بعد تأخير إثر آخر.

استقبلتني وهي ترتدي السواد، وسط قطع أثاث تبدو مريضة في حالة حرجة. المصابيح توفر نوراً خفيفاً إلى حدّ تتلاشى معه النوافذ، كما لو أنها لا تنفع إلا للنظر إلى الداخل. هكذا تعيش بوينس آيرس، بين العتمة والرماد، ممددة على ضفة نهر عريض متوحد. فالمدينة أدارت ظهرها للماء وفضلت المضي في التوسع على دوار سهوب البامبا، حيث يستنسخ المشهد ذاته بلا نهاية.

إنهم يحرقون في مكان ما من البيت ألياف خشب الصندل. كانت الأرملة وابنتها الكبرى، وهي ترتدي السواد أيضاً، تعبقان برائحة ورود قوية. سرعان ما شعرتُ بالدوار، بالسكر، بأنني على حافة خطأ لن يكون له علاج. بينتُ لهما أنني أكتب رواية حول الكولونيل وإيفيتا وأني بدأت بعض التحريات. أريتهما ملف خدمة الكولونيل الذي استنسخته من أرشيف عسكري، وسألتهما إن كانت تلك المعطيات صحيحة.

– تاريخ الميلاد وتاريخ الوفاة صحيحان ـ وافقت الأرملة ـ. أما المعطيات الأخرى فلا يمكننا أن نقول بشأنها أي شيء. فقد كان، وربما حضرتك تعرف ذلك، متعصباً للسرية.

حدثتهما عن قصة قصيرة لرودولفو والش بعنوان «تلك المرأة»، بينما الأرملة تهز رأسها موافقة. القصة تتحدث عن ميتة لا يُذكر اسمها أبداً، وعن رجل يبحث عن الجثة ـ والش ـ وعن كولونيل خبأها. وفي إحدى اللحظات تدخل إلى المشهد زوجة ذلك الكولونيل: طويلة القامة، متكبرة، لها تكشيرة عُصاب؛ ليس فيها أي شبه بالسيدة البدينة المستسلمة التي تسمع أسئلتي دون أن تخفي ارتيابها. شخصيات القصة تتبادل الحديث في صالون ذي نوافذ كبيرة، يظهر من خلالها انسدال الغروب على نهر لابلاتا. هناك بين الأثاث أطباق من كانتون ولوحة مائية ربما هي من أعمال فيغاري. هل رأيتما ذات مرة قاعة مثل تلك؟ سألتهما. أطل شيء من البريق من عيني الأرملة، ولكنها لم تبد أي إشارة تدل على أنها ستساعدني في أبحاثي.

الكولونيل في قصة «تلك المرأة»، قلتُ معلقاً، يشبه التحري في قصة «المرأة والبوصلة». كلاهما يحل رموز لغز يدمرهما. لم تكن الابنة قد سمعت من قبل أي ذكر لقصة «المرأة والبوصلة». إنها لبورخيس، قلتُ لها. جميع القصص التي ألفها بورخيس في ذلك العهد تعكس عدم مبالاة شخص أعمى حيال التهديدات البربرية للبيرونية. فمن دون إرهاب بيرون، ستفقد متاهات بورخيس ومراياه جزءاً مهماً من مغزاها. فمن دون بيرون ما كانت كتابة بورخيس لتجد دوافع، ولا دقة مفرطة في الإيحاء، ولا استعارات منحرفة. أوضحتُ لهما كل ذلك، وقلت، لأن كولونيل قصة والش أيضاً ينتظر عقاباً سيأتي رهيباً، ولكنه لا يعرف من أين سيأتي. يعذبونه بلعنات وشتائم عبر الهاتف. أصواتُ مجهولة تخبره أن ابنته ستصاب بالشلل، وأنهم سيخصونه هو نفسه. وكل ذلك لأنه استولى على إيفيتا.

– ما رواه والش ليس قصة قصيرة ـ صححت لي الأرملة ـ. لقد حدث. أنا كنت أستمع إليهما وهما يتحدثان. لقد سجل زوجي المحادثة على آلة تسجيل ماركة جيلسو وترك لي بكرات الشريط. إنها الشيء الوحيد الذي تركه لي.

فتحت الابنة الكبرى خزانة صغيرة وعرضت الأشرطة: كانا شريطين اثنين في مغلف شفاف من البلاستيك.

بين حين وآخر كان ينفتح صمت مفاجئ، مزعج، لا أدري كيف أكسره. كنتُ أخشى ألا تتمكن المرأتان من مواصلة المواجهة مع الماضي الذي تسبب لهما بضرر كبير وتجبراني على الانصراف. رأيت أن الابنة تبكي. كانت دموعاً بلا صوت ولا انفعال، تنبثق منها كما لو أنها آتية من وجه آخر أو أنها تنتمي إلى شخص آخر. وحين لاحظت أنني أنظر إليها، أفلتت هذا البوح:

– لو أنك تدري كم أخفقتُ في حياتي!

لم أدرِ بماذا أردّ عليها. بدا أنه كلما انقضى مزيد من الزمن، تشعر بمزيد من التفهم لنفسها.

– لم أستطِع قطّ عمل ما أرغب فيه ـ قالت ـ وأنا في هذا الشأن مثل أبي. فهو أيضاً كان يأتي، عندما كبرت، ليجلس على سريري ويقول لي: إنني رجل فاشل يا ابنتي. إنني فاشل. ولم نكن نحن من جعلناه يشعر بذلك. وإنما إيفيتا.

كررتُ لهما ما تعرفانه دون ريب: كولونيل القصة يقول إنه دفن إيفيتا في حديقة. حديقة يهطل فيها المطر طوال اليوم ويتعفن كل شيء: أحواض الورد، خشب التابوت، الحزام الفرانسيسكاني الذي وضعوه للمتوفاة. وقد دُفن الجسد، كما يقال في القصة، واقفاً، مثلما دُفن فاكوندو كيروغا.

توقفتُ. وفكرت: لم يدفن أحدٌ فاكوندو واقفاً. أحسست أنني فقدت أنفاسي.

– هذه القصة مطابقة لما حدث ـ همست الأرملة، وكانت لها العادة السيئة بابتلاع أجزاء من الكلمات ـ عندما كنا نعيش في بون، ظلت الجثة طوال أكثر

من شهر في سيارة إسعاف اشتراها زوجي. كان يقضي الليالي في حراستها من النافذة. وفي أحد الأيام أراد دفنها في البيت. عارضتُ ذلك مثلما يمكن لك أن تتصور. وكنتُ حازمة. قلت له: إما أن تأخذ هذه القمامة بعيداً من هنا، وإلا سأذهب أنا وابنتي. انزوى في حجرته وراح يبكي. في تلك الفترة كان الأرق والكحول قد ليّناه. وفي تلك الليلة بالذات خرج في سيارة الإسعاف. وعندما رجع قال لي إنه دفن الجسد. أين؟ سألته. فأجاب: من يدري. في غابة، حيث يهطل مطر كثير. ولم يشأ التحدث أكثر.

أحضرت الابنة صورة فوتوغرافية للكولونيل ملتقطة عام 1955. كانت الشفتان خطاً رفيعاً مرسوماً بقلم رصاص، وعلى الوجنتين خطوط أوردة قاتمة، والصلع يشوه بالجبهة العريضة، الدهنية، المائلة إلى الخلف في زاوية مفاجئة.

- بعد عشر سنوات من هذه الصورة كان رجلاً محطماً - قالت الأرملة - يترك الساعات تمضي دون أن يفعل شيئاً، دون أن يتكلم، ويظل شارد الذهن. في بعض الأحيان كان يفقد البصر لعدة أسابيع، يتنقل من حانة إلى أخرى إلى أن يسقط غائباً عن الوعي. أصابه الهذيان. وصار يتعرق بغزارة. كان عرقاً زنخاً لا يطاق. قبل موته بقليل شوهد على مقعد في ميدان رودريغث بينيّا يستدعي الموت صارخاً.

- وأنتم؟ - أردتُ أن أعرف - أين كنتم أنتم؟

- لقد هجرناه - أجابت الابنة - جاءت لحظة لم تعد فيها أمي قادرة على تحمل المزيد وطلبت منه أن يغادر.

- إيفيتا هي المسؤولة - كررت الأرملة - كل من كانت له علاقة بالجثة انتهى نهاية سيئة.

- أنا لا أؤمن بهذه الأمور - سمعتُ نفسي أقول.

نهضت الأرملة واقفة، فشعرتُ أن وقت ذهابي قد حان.

- لا تؤمن؟ - لم تعد لهجتها ودوية - فليحمكِ الرب. توخَ الحذر حين تبدأ برواية هذه القصة. ففور بدئك بها لن تجد أنت أيضاً الخلاص.

- 3 -

«رواية قصة»

«تطويب إيفا بيرون على يد البابا، وجان
جينه على يد سارتر (وهو بابا آخر)
هما حدثا هذا الصيف الصوفيان».
جان كوكتو، اليوميات، الماضي المحدّد

بعد ذلك اللقاء أمضيت عدة أسابيع في أرشيفات الصحف. إذا كان الشؤم الذي ذكرته أرملة الكولونيل حقيقياً، فسوف أجد، عاجلاً أو آجلاً، حدثاً ما يؤكده. راحت كل حقبة تحولني إلى أخرى، وهكذا وصلت إلى روافد لم ينتبه إليها أحد. وقد مرر رودولفو والش نفسه بعض الآثار في «تلك المرأة»، حين ذكر سوء طالع ضابطين من المخابرات: «سمعت من يقول ـ يلمح والش ـ أن الرائد إكس. قتل زوجته وأن النقيب ن. أصيب وجهه بالتشوه في حادث». ولكن كولونيل القصة القصيرة يسخر من ذلك الشؤم الذي يُنسب إلى الغموض والصدفة. «قبر توت عنخ آمون ـ يعدد ـ، اللورد كارنفون. يا للبراز».

ومع استغراقي المتمادي في أكداس الورق، اكتشفتُ المزيد والمزيد من المؤشرات على أن الجثث لا تتحمل تحولها إلى رحالة. فجثة إيفيتا التي

تقبلت باستسلام أي نوع من القسوة، كانت تتمرد كما يبدو عند نقلها من مكان إلى آخر. ففي شهر تشرين الثاني 1974، أُخرج جسدها من القبر في مدريد ونُقل إلى بوينس آيرس. وبينما هم يحملونه في عربة شاحنة إلى مطار باراخاس، راح حارسان أهليان يتجادلان حول ديون رهان بينهما. ولدى الدخول في جادة الجنرال سانخورخو، قبالة صهاريج الماء، تبادلا الهجوم بالرصاص فاصطدمت الشاحنة الخارجة عن السيطرة بسور نادي السيارات الملكي. احترقت كابينة الشاحنة ومات الحارسان. وعلى الرغم من ضخامة الأضرار، لم يتعرض تابوت إيفيتا لأي أذى، حتى إنه لم يُصب بأية خدوش.

شيء مشابه حدث في شهر تشرين الأول 1976، عندما نُقلت الجثة من مقر الإقامة الرئاسي في أوليفوس إلى مقبرة ريكوليتا. كانت إيفيتا تُنقل في سيارة إسعاف زرقاء تابعة لمستشفى بوينس آيرس العسكري، بين جنديين يحملان بندقيتين، مع الحربتين مركّبتين على البندقيتين ـ الله أعلم لماذا ـ أما السائق، وهو رقيب يدعى خوستو فرنانديث، فقد اجتاز جادة ليبرتادور من أولها إلى آخرها وهو يصفر أغنية «السعادة / ها ها ها». وقبل قليل من اجتياز شارع تاغلي، مات السائق بسكتة قلبية مفاجئة ظن معها مرافقه أن «فرنانديث قد اختنق بالصفير»، فشد المكبح اليدوي وأوقف سيارة الإسعاف حين كانت على وشك الاصطدام بسياج نادي سيارات آخر، نادي بوينس آيرس. وكانت إيفيتا سليمة، أما جنديا الحراسة فاخترقت أوردة عنقيهما حربتا البندقيتين في لحظة شد المكبح وسقطا متشابكين فوق بركة من الدم.

للأرواح قوة جاذبيتها الخاصة: فهي تستاء من السرعة، ومن الهواء الطلق، ومن اللهفة. وعندما يكسر أحدهم زجاج بُطئها، فإنها ترتبك، وتطور إرادة سحر مشؤوم لا يمكنها التحكم به. للأرواح عاداتها، واهتماماتها، ونفورها، ولحظات جوعها وشبعها، ورغباتها في الذهاب للنوم أو البقاء وحيدة. وهي لا تريد أن يأتي من يُخرجها من روتينها لأن

الأبدية هي هكذا: روتين، عبارات تتوالى بلانهاية، مرساة تقيدها إلى أشياء معروفة. ولكنها مثلما تمقت نقلها من مكان إلى آخر، تتطلع الأرواح أيضاً إلى أن يكتبها أحدهم. إنها تريد أن تُروى، أن توشم على صخور الخلود. لأن الروح التي لم تُكتب تكون كما لو أنها لم توجد قط. فالحرف مضاد للزوال، وحكاية القصة مضادة للموت.

منذ حاولتُ أن أروي إيفيتا أدركت أنني، إذا ما اقتربت منها، سأبتعد عن نفسي. كنت أعرف ما أرغب في روايته وما هو البناء الذي ستتخذه روايتي. ولكنني لا أكاد أقلب الصفحة، حتى تضيع إيفيتا عن نظري وأظل قابضاً على الهواء. أو إذا كانت معي، فيّ، تنسحب من أفكاري وتتركني في الفراغ. لا أعرف في بعض الأحيان إذا ما كانت حية أم ميتة، وإذا ما كان جمالها يبحر نحو الأمام أم نحو الوراء. كان اندفاعي الأول رواية قصة إيفيتا متبعاً خيط الجملة التي يفتتح بها كلفتون ويب أحجيات *لورا*، في فيلم أوتو بريمينغر: «لن أنسى أبداً نهاية الأسبوع الذي ماتت فيه لورا». وأنا أيضاً لم أنس نهاية الأسبوع الضبابية التي ماتت فيه إيفيتا. لم يكن هذا هو التوافق الوحيد. فقد انبعثت لورا على طريقتها: بعدم الموت؛ وفعلت إيفيتا ذلك أيضاً: بتعددها.

في نسخة طويلة استُبعدت من هذه الرواية، سردتُ قصة الرجال الذين حكموا على إيفيتا بترحال بلا نهاية. كتبتُ بعض المشاهد المرعبة التي لم أعرف كيف أخرج منها. رأيت المُحَنِّط يتقصى بيأس في أركان ماضيه بالذات بحثاً عن لحظة توافق مع ماضي إيفيتا. وصفته بأنه يرتدي بدلة قاتمة، ويضع مشبكاً من الماس، ويداه في قفازين، يمارس إلى جانب الأكاديمي ليوناردو ديلا بينيّا تقنيات حفظ الجثث. أشرتُ إلى نسيج المؤامرات العنكبوتي الذي حاكه الكولونيل وأتباعه في مدرسة الجاسوسية، على مناضد رمل ملونة مثل رقع الشطرنج. لم يكن لشيء من ذلك أي مغزى ولم يبق شيء منه في النسخ التي تلت. بعض الجمل والعبارات التي عملتُ أسابيع في صياغتها، تبخرت كلها تحت شمس القراءة الأولى،

مقطعة بقسوة قصة لا تحتاج إليها.

لقد تأخرت في تجاوز تلك الإخفاقات. كنت أردد: إيفيتا، إيفيتا، أملاً في أن يواتني الاسم بكشف ما: أن تكون هي نفسها، في نهاية المطاف، اسمها نفسه. لكن الأسماء لا تقدم أي تواصل: إنها مجرد أصوات وحسب، إنها ماء لغة. تذكرتُ الزمن الذي مضيت فيه وراء بقايا ظلها، أنا أيضاً كنت أبحث عن جسدها الضائع (مثلما هو مروي في بعض فصول *رواية بيرون*)، وتذكرتُ فصول الصيف التي أمضيتها في جمع الوثائق لسيرة كنت أفكر في كتابتها على أن يكون عنوانها، مثلما كان مقدراً، *الخسارة*. وبدافع من ذلك الظمأ، تحدثتُ إلى الأم، وإلى كبير خدم المنزل الرئاسي، وإلى مصفف الشعر، وإلى مخرجها السينمائي، وعاملة المنيكور، والخياطات، وممثلتين من فرقتها المسرحية، والموسيقي المهرج الذي حصل لها على عمل في بوينس آيرس. تحدثت إلى الأشخاص الهامشيين وليس إلى الوزراء ولا المتملقين في بطانتها لأنهم لم يكونوا مثلها: لا يمكنهم رؤية الحدَّ ولا الحافة اللذين مشت عليهما إيفيتا دوماً. كانوا يتحدثون عنها بعبارات شديدة التنميق. ما كان يستهويني، بالمقابل، هو هوامشها، مناطقها المظلمة، وما هو مسكوت عنه في إيفيتا. وفكرت، مقتدياً بفالتر بنجامين، أنه حين يكون الكائن التاريخي قد استُرد، يصير بالإمكان اقتباس ماضيه كله: بما فيه من تمجيد أو أسرار. وربما يكون هذا هو السبب في أنني لم أُصب في *رواية بيرون* إلا في سرد أشد خصوصيات بيرون، وليس مآثره العامة: عندما كنتُ أحاول الإحاطة به كاملاً، كان النص يتفلت من بين يديٍ. لكن الأمر لم يكن كذلك مع إيفيتا. فإيفا هي طائر أيضاً: ما يُقرأ سوياً يكون له المعنى نفسه حين يُقرأ معكوساً. وما الذي أريده أنا أكثر من ذلك؟ لم أعد بحاجة إلا إلى التقدم. ولكنني حين حاولت التقدم، ظلت شلل خيوط الأصوات والملاحظات التي جمعتها من العدم، تتعفن في مغلفات ضاربة إلى الصفرة رحتُ أحملها معي من منفى إلى آخر.

لقد كان إخفاقاً أشد عمقاً هو ما منح أصلاً لهذا الكتاب. ففي منتصف العام 1989 كنتُ أرقد في فراش تكفيري في بوينس آيرس، أتطهر من نكبة رواية ولدت لدي ميتة، عندما رنّ الهاتف وحدثني أحدهم عن إيفيتا. لم أكن قد سمعتُ من قبل ذلك الصوت، ولم أرغب في مواصلة سماعه. وربما كنت سأقطع المكالمة لولا خمول الاكتئاب. لكن الصوت اللجوج جعلني أنهض من الفراش، وأدخلني في مغامرة لولاها ما كانت *سانتا إيفيتا* ستوجد. لم يحن الوقت بعد لرواية هذه القصة، ولكن عندما أرويها سيُفهم السبب.

مضت بضع ليال وحلمتُ بها. كانت فراشة هائلة معلقة في أبدية سماء بلا رياح. جناح أسود ينتفخ إلى الأمام، فوق صحراء من الكاتدرائيات والمقابر؛ وكان الجناح الآخر أصفر، يطير إلى الوراء، مخلفاً تساقط حراشف تلمع فيها مقاطع من حياتها في ترتيب معاكس لتسلسل القصة، كما في أبيات إليوت الشعرية: *في مبتداي تكمن النهاية./ ولا تسموا ذلك جموداً:/ فالماضي هناك والمستقبل يتحدان./ لا حراك من هنا ولا إلى ذاك،/ لا صعود ولا هبوط./ باستثناء هذه النقطة، نقطة الثبات*.

إذا كانت هذه الرواية شبيهة بجناحي فراشة ـ قصة الموت تطفو نحو الأمام، وقصة الحياة تتقدم إلى الوراء ـ فلا بد لها أيضاً من أن تكون شبيهة بي، ببقايا الأسطورة التي رحتُ أتصيدها عبر الطريق، بالأنا الذي كانته هي، بمحبات وعداوات كلبنا، بما كانه وطني وما أراد أن يكونه لكنه لم يستطع. أسطورة أيضاً هو اسم طائر لا يمكن لأحد أن يراه، وقصة تعني بحثاً، تقصياً: النص هو بحث عما هو غير مرئي، عن سكون ما يطير.

تأخرتُ سنوات في الوصول إلى هذه الثنايا في الوسط الذي أنا فيه الآن. وكيلا يخلط أحد بين «*سانتا إيفيتا*» و«*رواية بيرون*» كتبتُ بين الروايتين قصة عائلية طويلة عن مغن ذي صوت مطلق يخوض حرباً ضد والدته ومعها قبيلة من القطط. وانتقلت من هذه الحرب إلى أخرى. أعدت تعلم الكتابة، مهنتي، بحمى مراهق. هل ستكون *سانتا إيفيتا* رواية؟ لم أكن

أعرف ذلك، ولم يكن يهمني أن أعرفه أيضاً. كانت الحبكات تفلت مني، وكذلك ثبات وجهات النظر، وقوانين المكان والأزمنة. الشخصيات تتبادل الحديث بصوتها الخاص أحياناً وفي أحيان أخرى بصوت آخر غريب، كي أوضح فقط أن ما هو تاريخي ليس تاريخياً على الدوام، وأن الحقيقة ليست أبداً مثلما تبدو. أمضيتُ شهوراً وشهوراً في ترويض الفوضى. بعض الشخصيات قاومت. كانت تدخل المشهد لصفحات قليلة ثم تنسحب من الكتاب إلى الأبد: يحدث في النص الشيء نفسه الذي يحدث في الحياة. ولكنهم عندما ينصرفون، لا تعود إيفيتا هي نفسها: يكون قد هطل عليها غبار طلع الرغبات والذكريات الأخرى. وبتحولها إلى أسطورة، صارت إيفيتا ملايين.

الأرقام الوفيرة، الملايين، كانت على الدوام هالة تحيط باسمها. في *مسوغ حياتي* تُقرأ هذه الجملة الغامضة: «أفكر في أنه يمكن لبشر كثيرين مجتمعين أن يكونوا أشبه بروح واحدة، بدل أن يكونوا آلاف وآلاف الأرواح المتفرقة». لقد اقتنص الميثولوجيون الفكرة سريعاً وحولوا الآلاف إلى ملايين. «سأعود وسأكون ملايين»، هذا ما تعد به أشهر جملة لإيفيتا. ولكنها لم تقل هذه الجملة قطّ، مثلما يدرك ذلك أي شخص يتوقف لحظة عند عبقها بعد الوفاة «سأعود» من أين؟، «وسأكون ملايين» ملايين ماذا؟ وعلى الرغم من استنكار هذه الخدعة مرات كثيرة، إلا أن الجملة مازالت تظهر في أسفل الملصقات التي تحيي ذكراها كل عام. إنها جملة لم توجد قطّ، ولكنها حقيقية.

حتى قداسة البابا راح يقتنع، مع مرور الوقت، بأن هناك عقيدة إيمان. فبين شهر أيار 1952 - قبل شهرين من وفاتها - وشهر تموز 1954، تلقى الفاتيكان قرابة أربعين ألف رسالة من علمانيين ينسبون إلى إيفيتا عدة معجزات ويطالبون البابا بتطويبها. وكان رئيس مجمع دعاوى القديسين يرد على كافة الطلبات بالصيغ المعهودة: «كل كاثوليكي يعرف أنه كي يصير المرء قديساً يجب أن يكون ميتاً». وكان الردّ في ما بعد،

عندما بدؤوا بتحنيطها: «الإجراءات طويلة، تمتد لمئات السنين. فاعتصموا بالصبر». وراحت الرسائل تتخذ نبرة أكثر إلحاحاً. فكانت تتذمر من أن ماريا غوريتي لم تنتظر، كي تصير قديسة، سوى ثمانية وأربعين عاماً، وأن تيرز دي ليسيو لم تنتظر إلا أكثر قليلاً من خمسة وعشرين عاماً. والأكثر لفتاً للأنظار هي حالة القديسة كلارا دي آسيس التي أراد فاقد الصبر، البابا أنوسنسيو الرابع، أن يطوبها وهي على فراش الموت. إيفيتا تستحق ما هو أكثر من ذلك: فمريم العذراء وحدها هي التي تفوقها في الورع والفضيلة. وتأخر الحبر الأعظم في تقبل قداسة واضحة كل ذلك الوضوح، ما هو إلا ـ قرأتُ في الصحف ـ «إهانة لإيمان الشعب البيروني».

في تلك السنوات بالذات، كانت مراهقات الأرجنتين الفقيرات جميعهن يرغبن في التشبه بإيفيتا. نصف البنات اللاتي ولدن في محافظات الشمال الشرقي سُمين إيفا أو ماريا إيفا، ومن لم يُسمين بهذين الاسمين كن يستنسخن رموز جمالها. كن يصبغن شعورهن باللون الأشقر الأوكسجيني ويسرحنه إلى الوراء مشدوداً ومعقوداً في عقيصة أو اثنتين. يلبسن تنانير جَرَسية الشكل، مصنوعة من أقمشة تتقبل التنشية، وينتعلن أحذية لها سوار عند الكاحل. لقد كانت إيفيتا هي الفيصل في أساليب السلوك الوطني. نمط تلك التنانير والأحذية لم يعد يُستخدم منذ أواخر الخمسينيات، ولكن الشعر المصبوغ بالأشقر أغوى الطبقات الراقية وتحول، مع الزمن، إلى ملمح مميز لنساء الحي الشمالي في بوينس آيرس.

في الشهور الخمسة الأولى من العام 1951، أهدت إيفيتا ألف بيت وحوالي ثلاثة ملايين علبة تتضمن أدوية، أو أثاثاً، أو ملابس، أو دراجات هوائية وألعاباً. كان الفقراء يصطفون منذ ما قبل الفجر من أجل رؤيتها، ويتوصل بعضهم إلى ذلك في فجر اليوم التالي. كانت تستجوبهم حول مشاكلهم العائلية، أمراضهم، أعمالهم، وحتى حول غرامياتهم. في العام 1951 نفسه، كانت اشبينة زفاف ألف وستمائة عريس وعروس، نصفهم كانوا قد أنجبوا أبناء قبل الزواج. فقد كان الأبناء غير الشرعيين

يهزون مشاعر إيفيتا حتى الدموع، لأنها عانت من عدم شرعيتها كعذاب.

في قرى منطقة توكومان المنسية، كان أناس كثيرون، كما أتذكر، يؤمنون أنها مرسلة من الرب. وقد سمعت كذلك أن الفلاحين في مناطق البامبا وقرى ساحل باتاغونيا اعتادوا رؤية وجهها مرسوماً في السماء. وكانوا يخشون موتها، لأنه يمكن للعالم أن ينتهي حين تلفظ نفسها الأخير. وكان شائعاً أن يحاول أشخاص بسطاء لفت انتباه إيفيتا إليهم كي يتوصلوا بذلك إلى نوع من الخلود. «أن يكون أحدنا في ذهن السيدة ـ قالت مريضة مصابة بشلل الأطفال ـ هو أشبه بلمس الرب باليدين. وما الذي تحتاج إليه إحدانا أكثر من ذلك؟».

فتاة في السابعة عشرة من عمرها سمّت نفسها «إيفيلينا الجميلة» ولم يُعرف اسمها الحقيقي قطّ، كتبت إلى إيفيتا ألفي رسالة في العام 1951، بمعدل خمس أو ست رسائل في اليوم. وكانت جميع الرسائل تتضمن النص نفسه، أي أن عمل إيفيلينا الجميلة الوحيد تلخص في استنساخ الرسالة وإلقاء المغلف في أحد صناديق بريد مار دي بلاتا، المدينة التي كانت تعيش فيها، إضافة إلى الحصول على النقود لشراء الطوابع. في تلك الفترة كانت إيفيتا ضحية تدفق مراسلات كثيرة، ولكنها لم تكن معتادة على رسائل تكون قطعاً فنية صغيرة كذلك:

> *عزيزتي إيفيتا، لن أطلب منك شيئاً مثلما يفعل الجميع هنا، لأن الشيء الوحيد الذي أتطلع إليه أن تقرئي هذه الرسالة وأن تتذكري اسمي، فأنا أعرف أنكِ إذا ما أمعنت النظر باسمي ولو لحظة واحدة، فلن يصيبني أي مكروه وسأكون سعيدة بلا أمراض ولا فقر. عمري 17 سنة وأنام على الفراش الذي قدمتِه في عيد ميلاد السنة الماضية لبيتنا. أحبك كثيراً، إيفيلينا الجميلة.*

عندما انتشرت الإشاعة بأنه يمكن لإيفيتا أن تكون مرشحة لمنصب

نائب رئيس الجمهورية وأن الجنرالات يعارضون ذلك مستائين حيال إمكانية تلقيهم الأوامر من امرأة، أرسلت إيفيلينا الجميلة رسالة أخيرة أضافت إليها ثلاث كلمات: أجل، *فلتحيَ الفساء*. وعلى الفور عرضت نفسها في واجهة محل مفروشات، مستلقية على صندوق كبير، بنية الصيام إلى أن يتخلى الجنرالات عن موقفهم. توافد أناس كثيرون لرؤيتها فانكسر زجاج الواجهة وأوقف صاحب محل المفروشات العرض في الحال. حافظت إيفيلينا الجميلة على الصيام طوال ليلة على الرصيف في العراء، إلى أن تنازل المعتمد الاجتماعي في المدينة وقدم إليها إحدى خيام شاطئ بريستول، ولم تكن الخيام تُستخدم لأن موسم الاصطياف كان قد انتهى. وعلى مدخل الخيمة، علقت إيفيلينا لوحة تحمل شعارها، *فلتحيَ الفساء*، وبدأت المرحلة الثانية من صيامها. ستة كتّاب بالعدل كانوا يتناوبون على التحقق من الحفاظ الصارم على القواعد. كان يُسمح للصائمة بأن تتناول كأس ماء في الصباح وآخر عند الغروب، ولكن إيفيلينا لم تعد تتقبل مع انتهاء الأسبوع الأول سوى كأس الماء الأخير. خرج الخبر في الصحف وقيل إن إيفيتا ستمر على مار دل بلاتا كي تلقي نظرة. لم تستطع الذهاب، لأنها عانت من آلام في أسفل البطن وأجبرها الأطباء على الراحة. كان الترشيح لنيابة الرئاسة مازال معرقلاً وبدا أن إيفيلينا الجميلة، التي لم يعد هناك من يسميها الجميلة، قد حُكم عليها بالصيام المؤبد. راح فضول الأيام الأولى يتلاشى. وعندما هطلت أمطار الخريف اختفى الزوار عن الشاطئ وبدأ الكتّاب بالعدل يهربون. الوحيدة التي كانت تشفق على إيفيلينا الجميلة هي ابنة عم لها بمثل عمرها، تأتي في الموعد الدقيق كل ليلة حاملة إليها كأس الماء، ثم تنسحب من الخيمة باكية.

لقد شهدت القصة نهاية مشؤومة. فعشية أسبوع الآلام انفلتت عاصفة جامحة حبست الناس في بيوتهم واقتلعت الأشجار من جذورها. وعندما صفا الجو، لم تبق على شاطئ بريستول ولو خيمة واحدة، ولم يبق أدنى

أثر للجميلة إيفيلينا. وحين ذاع الخبر، مررت جريدة *لاراثون* هذه السخرية: «حادثة بريستول تُثبت بوضوح أن شاطئ مار دل بلاتا لا يتمتع بمناخ مناسب للصائمين».

لم تذهب تضحية إيفيلينا الجميلة هباء. فسرعان ما ظهر آلاف المقلدين الذين حاولوا شق طريق لهم إلى مخيلة إيفيتا، وإن يكن ذلك بمجازفات أقل تهلكة. عاملان في مصنع للصفائح الفنية، وكانا يدافعان أيضاً عن ترشيح إيفيتا لمنصب نائب الرئيس، حطما الرقم القياسي في العمل المتواصل بنقشهم صفائح لتزيين واجهات المباني طوال ثمان وتسعين ساعة متواصلة، ولكنهم لم يتوصلوا إلى تذوق لذه المأثرة لأن سبعة رؤساء عمال في مصنع آخر تفوقوا عليهما حين عملوا لمائة وتسع ساعات متواصلة في تركيب سلندرات وتلميعها. وقد نشرت جريدة *ديموكراثيا* في صفحتها الأولى صورة للستة، وقد أنهكهم النعاس تحت خلية أنابيب ضخمة.

كانت حياة إيفيتا في أثناء ذلك تغرق أكثر في المحنة. كان عليها أن تتخلى عن الترشح أمام مليون شخص يبكون ويمرون زاحفين على ركبهم قبالة شرفتها؛ وبعد شهر أدخلوها المستشفى مصابة بفقر دم صاعق، وكان ذلك عارضاً آخر من أعراض سرطان الرحم. وفور ذلك تقريباً انتقلت إلى عمليتين جراحيتين رهيبتين جرى فيهما تفريغها وتجريفها إلى أن اعتقدوا أنها تخلصت من الخلايا الخبيثة. نحلت وانخفض وزنها أكثر من عشرين كيلوغراماً، وانطبع على وجهها حزن لم يعرفه فيها أحد من قبل، ولا حتى في أزمنة الجوع والمذلة.

لم يدفع ذلك أعداءها، وهم بالآلاف أيضاً، إلى الشفقة عليها. فالأرجنتينيون الذين يعتقدون أنهم حاملو الحضارة كانوا يرون في إيفيتا انبعاثاً فاحشاً للبربرية. فالهنود، والزنوج ذوو الطبول، والأشرار، وقوادو آرلت، والغاوتشيون المتوحشون، والعاهرات المسلولات اللاتي يجري تهريبهن في السفن البولونية، وراقصات الميلونغا الريفيات: جميع هؤلاء أبيدوا أو أُبعدوا إلى أقبيتهم الظلامية. حين يأتي الفلاسفة الأوربيون في

زيارة، يكتشفون بلاداً أثيرية وروحانية يظنونها قابلة للتبخر. ولكن دخول إيفيتا دوارتي فجأة إلى المشهد يقوض قالب حلوى الأرجنتين المتحضرة. فتلك الخليلة الرخيصة، تلك الساقية فاسدة الأصل، تلك البراز ـ كما كانت تُسمى في مزادات الملكيات الزراعية ـ كانت فص البربرية الأخير. وأينما ما مشت، يتوجب إغلاق الأنف.

وفجأة، علم زعماء التحضر براحة أن سكاكين السرطان تحفر في رحم «تلك المرأة». في مجلة جنوب، الملجأ الوديع للانتلجنسيا الأرجنتينية، ترصد الشاعرة سيلفيا أوكامبو نهاية الكابوس بمواءمة مفخمة:

فلا بزغت شمس، ولا أضاء القمر
مادام طغاة مثل هؤلاء يزرعون تعاسات جديدة،
ويخدعون الوطن. لقد حان الوقت كيلا تكون بعد
هذه السلالة الملعونة، هذا العرق الخسيس.

على الجدران التي تصب في محطة الريتيرو، ليس بعيداً جداً عن مقر الإقامة الرئاسي حيث كانت إيفيتا تحتضر، خطّ أحدهم شعاراً مشؤوماً: *فليحيَ السرطان*، ووقّعه باسم *إيفيلينا الجميلة*. وعندما أعلنت الإذاعة خبر بلوغ حال إيفيتا أقصى حدود الحرج، فتح سياسيو المعارضة زجاجات شمبانيا. والباحث إثكيل مارتينث إسترادا الذي تغطيه من رأسه حتى قدميه قشرة سوداء شخصها الأطباء على أنها عصاب جلدي أسود، شفي بأعجوبة وبدأ بتأليف كتاب سباب يشير فيه إلى إيفيتا على النحو التالي: «هي تصعيد للخراقة، للخسة، للدناءة، للخزي، للانتقام، للثعبانية، والشعب يرى فيها تجسيداً للآلهة الجهنميين».

في تلك الأيام بالذات، وحيال اليقين بأن إيفيتا ستصعد إلى السماء بين لحظة وأخرى، أقدم آلاف الأشخاص على أشد التضحيات مغالاة، حتى يتسنى لها، وهي تقدم الحساب للرب، أن تذكر أسماءهم خلال الحديث. فكل ساعة أو ساعتين كان أحد المؤمنين يصل إلى رقم قياسي عالمي جديد من العمل دون توقف، سواء في تركيب الأقفال أو طهو المعكرونة. معلم

الهلهاردو ليوبولدو كاريراس حقق ألف وخمسمائة ضربة كارمبولا في فناء كنيسة لوخان. ومحترف يدعى خوان كارلوس بابا ظل يرقص التانغو طيلة مئة وسبع وعشرين ساعة مع العدد نفسه من الراقصات. لم يكن كتاب غينس للأرقام القياسية العالمية يُنشر آنذاك، فطوى النسيان لسوء الحظ جميع تلك الإنجازات القياسية.

كانت الكنائس تغص بمن يعرضون استبدال حيواتهم بحياة إيفيتا، أو يتضرعون إلى البلاط السماوي كي يستقبلها بتشريفات ملكة. وكانت تُسجل أرقام قياسية بالطيران في طائرات شراعية، ومسيرات بأكياس ذرة محمولة على الأكتاف، وتوزيع للخبز، ورحلات على الخيل، وقفز بالمظلات، وركض على فحم مشتعل وعلى أسلاك شائكة، وحملات في عربات خيول وعلى دراجات هوائية. سائق التاكسي بيدرو كالدوس سافر ثلاثمائة كيلومتر بين بوينس آيرس وروساريو وهو يمشي إلى الخلف على برميل زيت؛ والخياطة إيما ثيبايّوس طرزت صلاة «أبانا الذي في السماء» على قطعة قماش طولها ثمانية مليمترات وعرضها ثمانية مليمترات وبخيوط من ثلاثة وثلاثين لوناً مختلفاً، وعندما أنهتها أرسلتها إلى البابا بيو الثاني عشر متوعدة إياه بأن تسحب منه طاعتها ككاثوليكية ما لم يُعد قلب يسوع المقدس العافية، بأسرع وقت، إلى «قديستنا المحبوبة».

ولكن الأشهر بين كل تلك المشاريع ما أقدم عليه صانع السروج رايموندو ماسا مع زوجته دومينغا وأبنائه الثلاثة، أصغرهم كان طفلا رضيعاً. كان ماسا قد سلّم للتو سرجين في سان نيكولاس عندما سمع بعض البغالين يتحدثون حول حالة إيفيتا الحرجة. فقرر في ذلك اليوم بالذات أن يذهب في موكب مع أفراد أسرته كلهم إلى مقام المسيح الفادي الموجود في جبال الأنديز، على بعد ألف كيلومتر إلى الجنوب، وتعهد بأن يعود مشياً على الأقدام أيضاً إذا استردت المريضة عافيتها. قدّر أن رحلة الذهاب ستستغرق شهرين، بمعدل عشرين كيلومتراً في اليوم. جمع في خروجه عدداً قليلاً من علب مسحوق الحليب، ولحماً مقدداً، وبسكويتاً، وماء مصفى،

وغيار ملابس. ثم كتب رسالة إلى إيفيتا شرح لها فيها مهمته وأخبرها بأنه سيزورها عند عودته. رجاها ألا تنسى اسمه وأن تذكره، إن استطاعت، في أحد خطاباتها، ولو بصورة مشفرة: «يكفي أن تقولي حضرتك إنك ترسلين تحيتك إلى رايموندو وأنا سأفهم».

كان يتوقف في السهب اللامتناهي مع أسرته كلها لصلاة المسبحة، دون أن يرفع بصره عن الأثر، وعلى وجهه ملامح أسى حدادي لا عزاء له. كانت دومينغا تحمل الطفل الرضيع في سلة مثبتة إلى عنقها؛ ويمضي الطفلان الآخران مربوطين بحبل إلى خصر رايموندو كيلا يضيعا. وكلما وصلوا إلى قرية يخرج لاستقبالهم كاهن الكنيسة، والصيدلي وسيدات النادي الاجتماعي بملابس أيام الآحاد المستخرجة للتو من أعشاش النفتالين. يقدمون لهم فناجين من الشوكولاتة ودوشات استحمام بماء ساخن يرفضها رايموندو بحزم كيلا يضيع الوقت، دون أن يهتم بغم ابنيه الكبيرين اللذين لم يعودا قادرين على تحمل المزيد من حمية اللحم المقدد.

بعد أربعين يوماً دخلوا في الصحراء التي بلا أمل، والممتدة بين سان لوكاس ولادورميدا، حيث هرب خوان فاكوندو كيروغا، قبل مئة عام، من نمر بتسلقه ذروة شجرة الخروب الوحيدة التي تنمو في تلك العزلات. كان المشهد لا يزال قاسياً لا رحمة فيه، تسقط عليه شمس عنيدة. ولانعدام خبرته، سمح رايموندو لأبنائه باستنفاد الماء. انحرف عن الطريق الرئيسي وتوغل في التفرعات الزائفة التي خُطت في بدايات القرن من أجل تضليل الفارين من الجيش. خارت قوى الابنين الكبيرين واضطر الأب إلى التخلي عن خروج المؤن كي يحملهما على كتفيه. في اليوم الثالث انخلع قلبه وأحس بالخوف من الموت. وبينما هو جالس عند مدخل مغارة ترابية، صلى كيلا تذهب كل تلك العذابات هباء وكي يمنح الرب إيفيتا صحتها التي فقدتها. أما دومينغا التي كانت تعاني بصمت، فقد ضايقها أن لا يبدي زوجها اهتمامه بمصير أسرته في ساعة الشؤم تلك.

– نحن لسنا سوى نحن ـ نبهها رايموندو ـ. أما إذا ماتت إيفيتا،

فسوف يصير المَهجورون آلافاً. هناك مثلنا أناس في كل مكان، أما قديسات مثل إيفيتا فلا توجد إلا واحدة.

– إذا كانت قديسة إلى هذا الحد، يمكنك أن تطلب منها إخراجنا من هذا المأزق الذي نحن فيه ـ قالت دومينغا.

– لا يمكنني ذلك، لأن القديسين لا يحققون المعجزات وهم أحياء. لا بد من الانتظار إلى أن يموتوا وينعموا بمجد الرب.

انطفأ ضوء النهار مثل عود ثقاب. وبعد ساعة هبت الريح بغضب. وما بين أبخرة الغبار سُمع نعيق بعض البط البري. عندما هدأت العاصفة، امتلأ الأفق بأنوار. فكر رايموندو في أنها أحافير فوسفورية من عظام العجول التي التهمتها النمور، وخشي أن تكون تلك النمور في أثرهم هم أنفسهم أيضاً.

– من الأفضل أن نظل هادئين ـ قال ـ وأن ننتظر طلوع الفجر.

غير أن دومينغا، في هذه المرة، كانت واثقة من النجاة.

– تلك الأنوار مصابيح كيروسين ـ صححت له ـ تُسمع أصوات بط من ذلك الاتجاه، ويجب ألا يكون الماء والبيوت بعيدين من هنا.

تقدموا زاحفين تحت القمر المتأرجح. وسرعان ما لمحوا صفاً من أشجار الخروب، وزرائب، وكوخاً من طين وقرميد. كان النور يظهر من كل النوافذ. ضرب رايموندو كفيه بجزع. لم يجبه أحد، بالرغم من أن أصواتاً رتيبة كانت تصدر من الداخل، وتُسمع موسيقى خافتة من مذياع. وجدوا تحت الطنف البارز من السقف خابية فيها ماء بارد وطاس للشرب. وعلى المناضد وجدوا خبزاً طازجاً. بادر الطفلان إلى الأكل، ولكن دومينغا أوقفتهما. وقالت محيية:

– فليتبارك الرب!

– فليكن مباركاً على الدوام ـ ردوا عليها من الداخل ـ. استخدموا ما تحتاجون إليه وانتظروا في الفناء.

عند بدء الغروب، كان رايموندو قد شعر بالبرد، برد قارس لن ينساه

إلى الأبد، ولكن الهواء ما لبث أن صار دافئاً ويبعث على الصمم بأصوات زيزان الصيف. نام الصغار. وبعد قليل تمددت دومينغا أيضاً على مقعد خشبي طويل. سمعوا وقع حوافر خيول، ولهاثاً، وارتجاف دجاج.

عندما استيقظوا، وجدوا أنفسهم من جديد في العراء. كانت أبراج القرية تُلمح من بعيد. وعند أقدامهم وجدوا خروج المؤونة التي تركوها قبل أيام في الصحراء.

– لم أكن أريد النوم ـ قالت دومينغا.

– وأنا أيضاً ـ أجابها رايموندو ـ ولكن لم يعد ثمة مخرج الآن.

ساروا في حقل مجهول وخصب، وسط زروع خضروات، وأشجار حور، وقنوات ماء. فاجأهم عدم خروج أحد لاستقبالهم عند دخولهم القرية. كانت أجراس الكنيسة ترن حداداً، ومن مكبرات الصوت المعلقة على أعمدة النور سمعوا صوتاً قبورياً يكرر دون توقف: «هذه الليلة، في الساعة العشرين وخمس وعشرين دقيقة، دخلت السيدة إيفا بيرون الخلود. فليرحم الرب روحها وروح الشعب الأرجنتيني. هذه الليلة، في الساعة العشرين وخمس وعشرين...»

توقف رايموندو جامداً.

– إنه الوقت الذي وجدنا فيه الخبز والماء – قال –. في الساعة العشرين وخمس وعشرين دقيقة. من يدري الآن إن كان بمقدورنا الرجوع.

لقد وجدتُ رواية مقتضبة لانطلاق أسرة ماسا في جريدة *ديموكراثيا*، أما تفاصيل الرحلة الكاملة، مروية بما كان يسمى آنذاك «اللغة الشعرية»، فموجودة في العدد الأخير لشهر تشرين الأول من مجلة *موندو بيرونيستا*. أمضيتُ بعض الوقت في اقتفاء أثر أبناء رايموندو ماسا وكنت على وشك العثور على أكبرهم، ويدعى رايموندو أيضاً. لقد عمل لبضعة أسابيع في مصنع نورما للصمغ القائم على الطريق من رامايّو إلى كونيسا، وبعد ذلك ـ كما علمتُ ـ هاجر إلى الجنوب. ولكن الجنوب في الأرجنتين هو كل شيء: إنه عالم رايموندو الشاسع، مثلما توضح قصيدة لدروموند دي آندرادي. في

مساء اليوم الذي تبادلتُ فيه الحديث مع شباب مصنع نورما للصمغ خيم فسق سريع على الحقول. وأخطأت الديوك في الطبيعة وأطلقت صياحاً لا ينطفئ. قالوا لي إن رايموندو روى لهم القصة نفسها التي أوردتها المجلات، ولكن لشدة ملاحقتهم له كي يخبرهم بمزيد من التفاصيل، انتهى به الأمر إلى عدم معرفة إذا كان ما حدث معجزة، أم حلماً، أم مجرد رغبة. ففي أزمنة الأرقام القياسية الكبرى تلك، كان الناس ممتلئون بالرغبات، وكانت إيفيتا تعمل على أن تتحقق تلك الرغبات كلها. لقد كانت إيفيتا شبكة واسعة تخرج لاصطياد الرغبات كما لو أن الواقع هو حقل فراشات.

لم أحصل على أخبار أخرى عن آل ماسا إلى أن اعتزلتُ في إحدى ضواحي نيوجرسي وواصلت كتابة الكتاب. ففي ظهيرة يوم من شهر كانون الأول، بعد أن انتهيت من كتابة إحدى الصفحات، خرجت بحثاً عن رسائلي. وبين حزمة النشرات الدعائية تميز مغلف مربع، مُرسل من دولافون، في تشوبوت، حيث لا وجود لأحد يعرف عنواني. ويُعرّف المرسل بنفسه بالحرفين الأولين من أسمه فقط، ر. م، وقد أرسل إليّ قائمة بعشرين رقماً قياسياً صحافياً. واستنسخ هنا بعضها لتقديم فكرة حول تلك الوثيقة الفريدة:

22 شباط 1951/ هيكتور يفراي/ رقم قياسي عالمي بالبقاء على دراجة: 118 ساعة و29 دقيقة/ «رغبة مني في الوصول إلى إيفيتا.»

25 آذار 1951/ «إيفيلينا الجميلة»/ من أجل تحطيم الرقم القياسي في الصيام الذي وصل إليه لينك فورك (22 يوماً في حمية تقتصر على الماء). اختفت المنافسة في عاصفة/ «من أجل أن تصير إيفيتا نائباً للرئيس، ولمكافحة المضاربة بالأسهم ومضاربات البورصة.»

22 آب 1951/ كارلوس دي أورو/ رقم قياسي في الدوران حول مسلة بوينس آيرس: بدأ في الساعة 23:30، وتوقف في 30 آب، بسكتة قلبية/ «كان هدفه مواصلة المشي إلى أن توافق إيفيتا على الانضمام إلى

المعادلة الرئاسية.»

6 نيسان 1952/ بلانكا ليديا ولويس آنخل كارّيثا/ الدوران على الركبتين في محيط ساحة مايو. بدأا التجربة في الساعة 5:54 وتوقفا في الساعة 10:30 لأن عظم ركبتي السيدة كارّيثا ظهر للعيان/ والدافع «طلب العافية لإيفا بيرون.»

لم أدر من عليّ أن أشكر على هذه الهدية، وأحسست بشيء من الغم طوال ما تبقى من ذلك الأسبوع، بينما أنا أتقدم في الكتابة. في يوم الأحد ذاك، اتصل بي أحد أخوتي هاتفياً ليخبرني بأن أمنا قد توفيت قبل أيام في الطرف الأقصى الآخر من القارة. وقال لي: «لقد دفناها. ولم يعد ثمة معنًى لمجيئك.» احتججتُ لأنهم لم يخبروني من قبل. ففاجأني: «لقد طلبنا رقم هاتفك. ولكن أحداً لم يعثر عليه. فقمنا بعملية بحث طويلة. كان الجميع قد فقدوه. بدا ذلك كما لو أنك ضمن دائرة سحر مشؤوم.»

أغلقت الهاتف وأنا ارتجف، لأنني كنت منذ أيام أشعر بأنني في تلك الحال بالضبط، محاصر بغدر شؤم مجهول. وربما بسبب حالة الغم التي أغرقتني فيها تلك الميتة، بدأت تداهمني حالات دوار ليلية لم يعرف الأطباء كيف يعالجونها. منذ منتصف الليل حتى الفجر أشعر بأن الكواكب تدور في رأسي وأنني أحلق من كوكب إلى آخر، بلا جاذبية ولا غريزة انتماء، كما لو أنني بدوي رحالة بلا وجه، ولا أجد هواء أتمسك به. وإذا ما تمكنت من النوم، أكتب في الأحلام مدرجات موسيقية بالأبيض، العلامة الوحيدة فيها هي وجه إيفيتا في موضع الرموز الموسيقية؛ وفي البعيد تضج السماء كلها باللحن، ولكنني لا أتوصل أبداً إلى معرفة كيف هو مهما أرهفت سمعي. أحد الأطباء شخص الحالة، بعد ثلاثة أسابيع من الفحوص، على أنها لوحة صارمة من التوتر المفرط، وحاول تهدئته بأقراص منشطة للقلب وتينورمين وغيرها من الأقراص التي نسيت أسماءها. ومع ذلك لم تتوقف حالات الدوار إلا عندما تركت الكتابة في نهاية ذلك الشهر.

وفي كل مرة كنت أحاول الخروج في رحلة إلى أي مكان، كانت تتساقط ثلوج شرسة تؤدي إلى إغلاق المطارات والطرق الرئيسية. وفي عناد الحبس، بدأت الكتابة من جديد: عندئذ طلعت الشمس وخيمت على نيوجرسي مباركة شمس ربيع مبكر. وكان أن تلقيت في تلك الفترة المغلف الثاني من دولافون في تشوبوت، وعليه في هذه المرة اسم المرسل كاملاً، رايموندو ماسا. وكان في المغلف هذه المرة رسالة خطية، موقعة بخط طفولي: *إذا كنتَ تبحث عني، فتوقف عن البحث. وإذا كنت تريد رواية القصة، فتوخَ الحذر. لأنك فور بدئك بروايتها لن تجد الخلاص*. لقد سمعت هذا التحذير من قبل وازدريته. وقد فات أوان التراجع الآن.

كان المغلف يضم أيضاً قصاصات مكسرة الحواف لمقالات للكولونيل منشورة على أنها «سبق حصري عالمي» في جريدة *العمل* الصادرة في مار دل بلاتا بين 20 و25 أيلول عام 1970، قبل أسبوع من موته. كانت المقالات الأربع الأولى موقِعة باسم مستعار، وتروي قصة اختطاف الجثة وبعض التفاصيل الصغيرة في ما يسميه الكولونيل «عملية إخفاء». وفي المقالة الأخيرة يعرض الاسم الحقيقي للمؤلف ـ كارلوس إوخينيو دي موري كينيك ـ ويميط اللثام عن وجود ثلاث نسخ متطابقة من الجسد، مدفونة بأسماء مزيفة في روتردام، وبروكسل، وروما. أما إيفيتا الحقيقية فهي مدفونة، كما يقول النص، في حقل على ضفاف نهر ألتميل، بين مدينتي آيخشتات وبليمز، جنوب شرق ألمانيا. شخص واحد يعرف السر ـ لا يخبرنا من هو ـ وهذا الشخص سيحمل السر معه إلى القبر. والتأكيد قوي إلى حد يبدو معه اعترافاً. وقد فاجأتني معرفة أن المقالات كُتبت في المستشفى، عند حدّ الموت. ومع ذلك، كان الشعور أسوأ حين قرأت الاسم المستعار الذي اختاره الكولونيل للمقالات الأربع الأولى. فقد وقّعها باسم «لورد كارنفون»، وهو اسم عالم الآثار الإنكليزي الذي أيقظ توت عنخ آمون من راحته الأبدية ودفع حياته ثمناً لتلك الجرأة.

لم أكن لأسمح للشعوذات بأن تخيفني. فأنا لن أروي قصة إيفيتا على

أنها سحر شؤم أو أسطورة. سوف أرويها بالطريقة التي أشرت إليها: مثل فراشة تخفق إلى الأمام بأجنحة موتها بينما أجنحة حياتها تطير إلى الوراء. والفراشة معلقة على الدوام في المكان نفسه من الهواء، ولهذا لم أكن أنا نفسي أتحرك أيضاً، إلى أن اكتشفت الخدعة. يجب عدم السؤال كيف يطير أحدهم أو لماذا يطير، بل البدء ببساطة بالطيران.

- 4 -

«أتخلى عن التشريفات، وليس عن النضال»

«الواجب الوحيد المترتب علينا حيال التاريخ هو إعادة كتابته»

أوسكار وايلد، الناقد كفنان.

في لحظة من العام 1948، وافقت إيفيتا على نصيحة خوليو ألكارّاث، مصفف الشعر المشهور لنجوم العصر الذهبي للسينما الأرجنتينية، وبدأت بتلوين شعرها بحثاً عن شُقرة ثابتة تؤطر ملامح وجهها. وخلال جلسة التجريب الثانية أو الثالثة احترقت أطراف شعرها، ولأنه كان عليها أن تخرج مسرعة لافتتاح مستشفى، فقد رغبت في أن تُقص تلك الأطراف. لكن مصفف الشعر فضّل أن يحل المشكلة بتسريح الشعر إلى الوراء، بكشف الجبهة وتشكيل عقيصة كبيرة تُثبت على مؤخرة الرقبة بدبابيس. هذه الصورة الشبيهة بميدالية، والتي ولدت بمحض المصادفة والتعجل ترسخت في ذاكرة الناس كما لو أن كل صور إيفيتا الأخرى كانت زائفة.

عندما تعرّفتُ إلى خوليو ألكاراث، قبل أكثر من ثلاثين سنة، لم يكن يدور في خلدي أنه يمكن لإيفيتا أن تكون بطلة روايات. لم أكن أظنها بطلة

أو شهيدة سيل. بل كانت تبدو لي ـ ولماذا الكذب؟ ـ امرأة متسلطة، عنيفة، ذات لغة خشنة، وأنها استُنزفت في الواقع. وتنتمي إلى ماضٍ وإلى ميادين السياسة التي لا علاقة لي بها.

دعوني أرجع إلى آذار 1958. كانت تلك هي الحقبة التي كنتُ ألتقي فيها ليلا لقراءة الشعر مع آميليا بياخيوني وأوغوسطو روا باستوس، أو أظل أنتظر الفجر على أرصفة كونستيتوثيون المعادية، حيث الهواء يعبق برائحة معقمات وخبز ساخن. كنتُ أفكر آنذاك في كتابة روايات عظيمة؛ لست أدري لماذا كنت أفكر في أنها يجب أن تكون عظيمة وزخمة، وتكون البلاد بأسرها خلفية لها، روايات بحجم الحياة. وكنت أفكر كذلك في النساء اللاتي صددنني، وفي الهاويات السحيقة التي تفصل بين رمز ودلالته، بين كائن والقدر الذي يُنتجه. لقد كنت أفكر في أمور لامتناهية، ولكن ليس في إيفيتا.

كان ألكاراث ضمن قائمة من المزينين ومصففي الشعر عليّ أن أكتب عنهم من أجل تاريخ مصور للسينما الأرجنتينية. كانت تُنسب إليه تسريحة ثمار الموز على شكل قوس التي تحولت بها ماريا دوفال إلى نسخة أرجنتينية من جودي غارلند، ونواصي مصاصات الدماء الملفوفة كما في تسريحة تيلدا تامار. من مقاعد صالونه المزين بملائكة من رخام مزيف وملصقات هوليود، كانت تُرى واجهات هارودس والمقاهي التي يتظاهر فيها طلاب الآداب بأنهم سارتر وسيمون دوبوفوار.

في المرة الأولى، حدد لي ألكاراث موعداً عند باب صالون الحلاقة في الساعة التاسعة ليلاً. ولكي أحرض ذاكرته، حملت له مجموعة صور تُظهره وهو يحوك خوذة من اللفافات على رأس ثولي مورينو، ويستخدم المثبتات لشعر باولينا سينخيرمان، ويمسد بشبكة تجعيدات شعر الأختين ليغراند التوءمين. كان ذلك إخفاقاً. فقد بدت ذكرياته غبشة وغير واضحة إلى حدّ أنها، وأنا أدونها، راحت تنزلق ببلاهة على بلور النص. هل كان ماريو سوفيسي يوجه الممثلات طالباً منهن أن يتخذن الوضع الملائم أم أنه

كان يشرح لهن وضع الشخصية؟ كم من المرات كان يقطع اللقطة ليأمر بترتيب وضع خصلة شعر؟ فلنر، فلنر، كان يرد عليّ، ويظل متيبساً في تعثرات الذاكرة تلك. الصورة الوحيدة التي بدلت عدم مبالاته هي صورة ألصقَ فيها شعراً مستعاراً فوق جبهة لويس ساندريني الصلعاء، خلال تصوير فيلم *أتعس أبناء الشعب*. لقد قرّب الصورة من الضوء وأشار إلى هيئة شابة مطموسة، في البعد الثاني، تضع قبعة مضحكة من الريش.

– أترى؟ ـ قال ـ هذه هي إيفيتا. صحفيون كثيرون يأتون لمقابلتي من أجلها، لأنهم يعرفون أنني كنت حافظ أسرارها.

– وماذا قلت لهم حضرتك؟ ـ سألته.

– لا شيء ـ قال ـ أنا لا أقول شيئاً.

أمضيت أكثر من سنة دون أن أعرف أية أخبار عنه. وبين حين وآخر كانت مجلات الفضائح تشير إلى تحولات إيفيتا ابتداء من سنوات مراهقتها المهلهلة حتى خريفها كإمبراطورة، وتنشر صوراً، تقارن ما قبل وما بعد، لأظفارها وشعرها. ولم يكن هناك من يذكر خوليو ألكاراث. بدا كما لو أنه قد رحل إلى أي مكان بعيد عن هذا العالم. والرسالة التي أرسلها إليّ في نيسان أو أيار 1959 فاجأتني. «أولاً وفي البدء ـ يقول ـ أود أن أشكرك على ما كتبته عني في التاريخ المصور. إننا نحتفظ بالمقطع الذي يتحدث عني ضمن إطار في صالوني للتسريحات. ولا يمكن لأحد ألا يراه لأنه ينعكس في المرآة الكبيرة. لقد فكرتُ أكثر من مرة في ما تحدثنا فيه ذلك اليوم. وقد أدركت، بعد القصص الكثيرة التي عشتُها، أنه سيكون من الحماقة عدم روايتها. ليس لي أبناء. والشيء الوحيد الذي يمكنني أن أخلفه بعدي هو ذكرياتي. لماذا لا تأتي إلى صالوني لنتبادل الحديث يوم الثلاثاء أو الأربعاء، في حوالي الساعة التاسعة، كما في المرة السابقة؟».

ذهبت إليه، لمجرد عدم إهانته. ولم أكن أنوي أن أكتب سطراً إضافياً واحداً عنه. وحتى الآن مازلت لا أعرف ما الذي حدث. قدم لي ألكاراث فنجان قهوة، وبدأ يروي قصصاً، وبعد لحظات وجدت نفسي أدون

ملاحظات. إنني أتذكر جو المحل الظليل، وإفريز المرايا الطويل، حيث تنعكس حركة ذهاب وإياب المارة العابرين. أتذكر الرائحة العدوانية لأصباغ مثبتات الشعر. أتذكر لوحة نيون إضاءة عليها رسم ببغاء يضيء وينطفئ. ومزين الشعر الذي كان أغبش قبل سنة، وقد صار يرشح ضوءاً الآن. أيكون ممكناً أن يختلف الشخص نفسه إلى هذا الحد عندما يتكلم وعندما يصمت؟ لا يختلف مثل اختلاف الليل والنهار على منظر طبيعي: إنه يختلف مثل منظرين نقيضين. فلنر، فلنر، كان يقول لي، ولكنه يقولها الآن من أجل الانتقال فقط من قصة إلى أخرى، من أجل أن يلتقط أنفاسه قبل أن يفتح دلتا ذاكرته. استذكر غسق مستنقعات وبعوض غرق فيها فرانسيسكو بتروني وإليسا كريستيان غالفيه أثناء تصوير فيلم *أسرى الأرض*، وقلد بتلذذ خبيث ذرى الهستيريا التي بلغتها ميشا أورتيز في فيلمي *سافو* و*سوناتا لكريتزر*. شعرت أننا ندخل في شاشات عدة صالات سينما في آن واحد، وفي مواض كثيرة تتدفق أمواهها بصورة متزامنة. كان ذلك في شهر نيسان أو أيار، كما قلتُ سابقاً، وكانت تهب رياح شباطية رطبة، وكانت أرصفة بوينس آيرس زرقاء بالأزهار التي تذرفها أشجار اللاباتشو في شهر تشرين الثاني. ورحنا ننزلق شيئاً فشيئاً إلى هاوية إيفيتا وعندما سقطنا فيها لم نعد نعرف كيف نخرج منها.

لقد تعرّف إليها ألكاراث في العام 1940، بالقرب من مار دل بلاتا، بينما كانوا يصورون فيلم *هجوم الشجعان*. كان فجراً، في فصل الصيف، والأبقار ترعى في ضياء بنفسجي. كانت إيفيتا تظهر بتسريحة معقدة، بإطار من حلقات شعر قاتمة تجمل ملامحها وتاج تجعيدات مدورة فوق الجبين. وقد قاطعته بينما هو يسخن مكاوي الشعر على جمر موقد المطبخ، وعرضت عليه، متجاوزة ازدرائها، بعض الصور من فيلم *انتصار مرير*.

«سرح لي شعري هكذا يا خوليتو، مثل بيت دافيس»، توسلت إليه.

«سيبدو شعري أفضل لو تجعد قليلاً، ألا ترى ذلك؟».

تفحصها مصفف الشعر من أعلى إلى أسفل بفضول مبكر. فقبل أيام من

ذلك كان قد حدد هوية إيفيتا على أنها شابة ذات ملامح كئيبة وجذع هزيل تنفع كموديل في كتاب بطاقات بورنوغرافية. صورة الغلاف التي مازال بالإمكان رؤيتها في أكشاك بيع الصحف في محطة ريتيرو، تُظهرها قبالة مرآة، بملابس داخلية قليلة ويداها إلى الوراء، موحية أنها على وشك خلع حمالة الصدر. الصور تعد بأنها ستكون مثيرة، ولكنها كانت ضعيفة بسبب سذاجة فتاة الموديل: في إحداها، تكسر ردفيها إلى الجهة اليسرى وتحاول إبراز استدارة إليتها بنظرة رعب تضيعها الوضعية الإيروتيكية المدروسة وتحولها إلى هباء. وفي صورة أخرى، تخبئ نهديها في جفنتي كفيها وتمر بلسانها على شفتيها بخراقة لا يظهر معها سوى طرف لسانها من أحد جانبي الفم، بينما تظل العينان الواسعتان المدورتان محتجبتين بنظرة خروف. ولو لم يكن ألكارات قد رأى تلك البطاقات، فربما ما كان سيتقبل أبداً تعديل تسريحة إيفيتا ولكانت حياتيهما قد انفصلتا في تلك اللحظة بالذات. ولكن قصور تلك الوضعيات في الصور أوحت له بالشفقة عليها وقرر مساعدتها. أضاع ساعة ونصف الساعة من صباحه الثمين ليحولها، ليس إلى بيت دافيس في *انتصار مرير*، وإنما إلى أوليفا دي هافيلاند في *ذهب مع الريح*.

– هكذا أنقذت شخصيتها من الدور المضحك ـ قال لي ـ. كانت تسريحة من العام 1860 هي الأكثر منطقية لملابس تعود إلى العام 1876 هي الأكثر منطقية من التسريحة الأخرى الحديثة، ذات الحواف المجعدة. لقد كانت إيفيتا في نهاية المطاف من إنتاجي. أنا من صنعتها.

بعد عشر سنوات من ذلك سيقول بيرون الكلمات نفسها.

وكي يُثبت لي أنه لا يبالغ، قادني إلى الحجرة الخلفية في الصالون. أضاء أنوار صالة صغيرة جدرانها مغطاة بمرايا. ربما هي نبوءة بأن الواقع نفسه سيتكرر مرات كثيرة وفي أزمنة متتالية. ربما هي تنبيه إلى أن إيفيتا لن تستسلم لأن تكون واحدة فقط وتبدأ بالعودة أسراباً، بالملايين، ولكنني لم أفهم الأمر على هذا النحو في ذلك الحين. لقد رأيت، أول مرة، وجها

واحداً فقط للحقيقة أو الوميض الأول ـ إن كنت تفضل ذلك ـ لحريق طويل الأمد. رأيت اثني عشر رأساً من البلور، موزعة في نصف دائرة، ومعروضة على قواعد من الجبس المطلي، تستنسخ تسريحات بالعدد نفسه لإيفيتا. إيفيتا ذات الشعر الأسود مع فرق في الوسط، حيث أطلت في مشهد قصير من فيلم هجوم الشجعان تنظر بخذلان إلى الشابة ذات الجديلتين الفاتحتين خلف الأذنين التي ترقص الزامباس في *موكب السيرك*. رأيت إيفيتا بعمامة إلى جانب إيفيتا أخرى بشعر كستنائي متهدل مع وردة ضخمة، من قماش أبيض، على ناصية الجبين. رأيت المرأة ذات تسريحة البرج العالي والحلقات على شكل براعم التي هتف لها أهالي مدريد في ساحة أورينتي، والتي صافحها البابا بيو الثاني عشر بارتباك في كنيسة السيستين. ورأيت أخيراً إيفيتا ذات الشعر الذهبي المشدود إلى الوراء التي تستنسخها إلى ما لا نهاية صور الحقبة الأخيرة، والتي كنتُ أظنُ أنها الوحيدة. ومن كل تلك الرؤوس يتدلى جراب شفاف فيه خصلات أخرى من شعر أشقر.

– إنها خصلات الشعر التي قصصتها لها حين سرحتها آخر مرة، وكانت ميتة ـ قال مصفف الشعر ـ. وأنا أحمل على الدوام خصلة مثل هذه تحت غطاء ساعتي.

أراني إياها. وكانت الساعة الثانية عشرة تقريباً. كان عطر زنخ يتصاعد من بلاط الأرضية. رأيت نفسي منعكساً في مرايا الجدار. وكنتُ أنا أيضاً أبدو شبحاً.

– رحتُ أحوّل شعرها إلى أشقر قليلاً قليلاً. زدت حدة الصباغ. وصرت أسرحها ببساطة متزايدة لأنها كانت متعجلة على الدوام. وقد تكلفتُ مشقة في إقناعها، لأنها كانت تمضي حياتها بشعر مفلت. وعندما أرادت أن تتذكر، كانت إيفيتا قد تحوّلت إلى امرأة أخرى. أنا من صنعتها – كرر –. أنا من صنعتها. لقد صنعتُ ربة من الخليلة البائسة التي عرفتها في مار دل بلاتا. ولم تلحظ هي نفسها ذلك.

بدأنا نلتقي كل يوم ثلاثاء في الساعة التاسعة. وقد اعتدت الجلوس على مقعد المانيكور، مع دفتر الملاحظات المفتوح وعلبة سجائر من نوع كوماندور، بينما ألكاراث يسترسل في ذكرياته. في بعض الأحيان كنا نتناول الجن كي نتشجع. وفي أحيان أخرى كنا ننسى أي نوع من الظمأ والرغبة. وفي تلك اللحظات، على ما أظن، ولدت هذه الرواية، دون أن أدري بذلك.

لم يعد يعرف شيئاً عن إيفيتا دوارتي حتى العام 1944، قال لي. عندما التقى بها أثناء تصوير *موكب السيرك*، وكانت قد صارت شخصاً آخر. وقد فكر آنذاك: من يدري على أية هوة بؤس أطلت تلك الفتاة البائسة. كانت نظرتها مفعمة بالقروح، وتتكلم بصوت آمر. لم تكن تسمح لأحد بامتهانها. ففي حماية علاقاتها السياسية، صارت تصل متأخرة إلى موقع التصوير، تحيط بعينيها زرقة عميقة لا تتمكن عاملات المكياج من محوها. وكانت تبدو ممزقة بين حماسة التألق في دورها والخوف من تخييب أمل الكولونيل بيرون، وزير الحرب، الذي كان عشيقها ويدفع لها أجر شقة. كان بيرون يحضر إلى استوديوهات «بامبا فيلم» مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع، يتناول المتة مع المخرج والممثلين، ثم ينزوي مع إيفيتا في حجرة استبدال الملابس، ريثما تبدل ملابسها.

– وفي تلك الحقبة ـ قال ألكاراث ـ حولتني إلى كاتم أسرارها.

لقد احتفظتُ مما تلا ذلك بكلمات متفرقة، بهيكل عظمي من لغة ميتة لم تعد تعني شيئاً عندما أقرؤها متتالية. عبارات مثل: «لونا ب.ك، مهرجان بمناسبة الزلزال، هناك بالذات قالت له شكراً كولونيل لوجودك هذه الليلة ذهبت إلى...»، لا شيء منه يمكن أن يفيد المؤرخين، ولا شيء منه أفادني وأنا أكتب *رواية بيرون*. وللحظات فقط كانت تلك الملاحظات تصبح واضحة وأستطيع أن ألمح من خلالها اللوحة كما لو أنها لعبة بزل فُقدت أجزاء منها هنا وهناك بصورة عشوائية.

لم تُنشر ذكريات مصفف الشعر قط. لم أفعل ذلك بسبب الكسل أو لأن

مخيلتي كانت بعيدة عن إيفيتا. فالكتابة لها علاقة بالصحة، وبالحظ، والسعادة، والمعاناة، ولكن لها علاقة قبل كل شيء بالرغبة. فالقصص الطويلة هي حشرات يجب على أحدنا قتلها بأسرع ما يمكن، وتلك القصص عن إيفيتا لم تكن في نظري أكثر من خفق أجنحة عبثية في الظلام.

في أواخر العام 1959 أعدت كتابة مونولوجات ألكاراث بدافع عطالة ثقافية محضة، وحملت النص إليه كي يراجعه. كنت أشعر أن مرور صوته عبر مصفاة صوتي سيؤدي إلى فقدان اعتدال نبرته والتركيب المتشنج لجمله. وكنت أفكر في أن هذه هي مصيبة اللغة المكتوبة. يمكنها أن تبعث الحياة في المشاعر، في الزمن الضائع، في المصادفات التي تربط واقعة بأخرى، ولكنها لا تستطيع أن تعيد بعث الواقع. لم أكن أعرف بعد، وكان لا يزال أمامي الكثير كي أشعر بأن الواقع لا ينبعث: إنه يولد بطريقة أخرى، يتحول، يعيد إبداع نفسه في الروايات. لم أكن أعرف أن تركيب الكلام ونبرة صوت الشخصيات تعود بهواء آخر، وأنها حين تمر في منخل اللغة المكتوبة، تتحول إلى شيء آخر.

وما يلي، رغم استيائي، هو إعادة بناء. أو أنه، إن أراد أحد ذلك، اختلاق: إنه واقع يُبعث. قبل كتابة هذه الصفحات كانت لدي شكوكي. كيف تجب رواية هذا: ألكاراث يتكلم، أم أنا أتكلم، أحد يسمع، أم جميعنا نتكلم في آن واحد، نلعب اللعبة الحرة بالقراءة ونحن نكتب؟

ألكاراث يتكلم. أنا أكتب:

لم تتوقف إيفيتا يوماً عن احترامي. كانت تصرخ بالجميع، ولكنها تظل حذرة معي. طلبت مني ذات مرة أن أعلمها كيف تقدم المائدة، لأن بيرون يأتي في أي وقت إلى بيتها لتناول الطعام ومعه أناس مهمون. يمكن القول إنني رحت أسيطر عليها. «امسكي أدوات الطعام من أطرافها»، كنت أقول لها. «اثني إصبعك الخنصر عند رفع الكأس.» ولكن أكثر ما هذبها وأكسبها المهارة هي غريزتها. يقولون إنه كانت لديها عيوب في النطق والإلقاء ولكن مشكلتها لم تكن في ذلك وإنما في الكلمات الصعبة التي

كانت، بسبب عدم الثقة، تخلط بينها خلال الحديث، مخطئة في معناها. أنا سمعتها تقول «سأذهب في طبيب الأسنان dentologo» بدل أن تقول سأذهب إلى odontologo، و«لا تكفيني الأجور los molumentos» بدل لا تكفيني los emolumentos. ولكنها راحت تتخلص من هذه الهفوات لأنها كانت تنظر بطرف عينها إلى الآخرين ولأنها، كلما صححوا لها كلمة، تكتبها في دفتر صغير.

عند انتهاء موكب السيرك أمضت بضعة شهور في حالة تردد. تبكي قبالة المرآة، دون أن تدري ماذا تفعل بنفسها. لا تدري إن كان عليها البقاء في كنف بيرون كمجرد خليلة، لأنه لم يكن يتحدث عن الزواج حتى ذلك الحين، أمٍ إن عليها مواصلة التقدم في مسيرتها كممثلة، والتي ناضلت من أجلها كثيراً. ليس من السهل أن يضع المرء نفسه محلها الآن. فأحدنا ينسى أن العذرية كانت مقدسة في تلك الأيام، والنساء اللاتي كن يعشن مع رجل دون زواج يتعرضن لأسوأ أشكال الإذلال. وبنات العائلات اللاتي تحل بهن نكبة الحمل لم يكن يسمح لهن بالإجهاض. فقد كان الإجهاض أسوأ الجرائم. كانوا يرسلونهنّ إلى مدينة مجهولة كي يضعن الوليد الذي يسلمونه إلى دار للأيتام. صحيح أنه كان يمكن لإيفيتا أن تعتمد على تفهم أمها التي مرت بكل أزمات التهميش والازدراء، ولكنها كانت تعرف أن قيادات الجيش العليا لن تسمح لوزير الحربية أن يضفي الشرعية على علاقته بامرأة مثلها. لقد كان بقاؤها إلى جانب بيرون نوعاً من الانتحار، إذ سيُطلب منه عاجلاً أو آجلاً أن يزيحها عن كاهله. ولكن إيفيتا كانت تؤمن بمعجزات المسلسلات الإذاعية. تفكر في أنه إذا كانت هناك سندريلا، فلماذا لا توجد واحدة أخرى. وبهذا الإيمان ألقت بنفسها في الفراغ. وشاءت الصدفة أن يحالفها الحظ. في أسوأ لحظات التردد كانت تبحث عن النصيحة لدى بيرون، وكان يرفض إبداء رأيه، يردّ عليها بأن تتبع مشاعرها. فكان ذلك يزيد من حيرتها، لأنها ترى إهمالاً في ما قد يكون إشارة ثقة بحسن حكمتها.

راحت القصة تجرجرها من جانب إلى آخر، وقبل أن تعي حالتها كانت السينما والإذاعة قد فقدتا أهميتهما في أفقها. وأظن أن آخر شكوكها قد تبددت في شهر تشرين الأول 1945، عندما اعتُقل بيرون، وتخلى عنها الجميع. انزوت في شقتها بانتظار أن يأتوا لاعتقالها. وقد أحست أكثر من أي وقت آخر بتطابق حالها مع حال ماري انطوانيت، بطلة سنوات مراهقتها؛ لقد كانت نورما شيرر وهي تسمع طبول المقصلة من سجن تمبل. وعندما أُطلق سراح بيرون وعاش ليلته المجيدة في ساحة مايو، كانت إيفا تموت خوفاً وهي تمشط شعرها قبالة مرآة حجرة النوم. فقد كانت شفتاها متورمتين وتعاني من جرح في كتفها. ففي صباح ذلك اليوم بالذات، وبينما هي متوجهة في سيارة تاكسي إلى شقة أخيها خوان، تعرفت إليها ثلة من الطلاب، وعلى صرخات «اقضوا على المهرة، اقتلوا ابنة دوارتي!» كسروا زجاج السيارة وضربوها بالعصي. وقد تمكنت من الهرب بمعجزة. كانت تبدو قبيحة في المرآة، ومشوهة الوجه، ولم تشأ الخروج من البيت إلى أن حملها بيرون إلى مزرعة لأحد أصدقائه في سان نيكولاس. وقد عاشت إيفيتا في تلك الأيام أسوأ أيام ترددها. لم تكن تدري ما الذي سيحل بحياتها. وذات ليلة اتصلت بي هاتفيا وقالت لي: «ألا أزعجك يا خوليو؟ هل يمكنني التحدث إليك؟» لم تطلب من قبل الإذن في أي شيء. ولن تعود لطلبه أبداً.

أنت تعرف ما الذي تلا ذلك. فقبل أن ينتهي شهر تشرين الأول، تزوج بيرون منها في الشقة التي كانا يعيشان فيها في شارع بوساداس، وبعد شهرين من ذلك كُرس الزواج دينياً في كنيسة لابلاتا. ومن أجل الطقوس الدينية سرحتُ شعر إيفيتا تسريحة بديعة، عالية، مع موجتين كبيرتين يبرز منهما زهر برتقال. وبالرغم من أنهما كانا في أوج حملة الانتخابات الرئاسية ولم يكن لديهما وقت للنوم، إلا أن إيفيتا كانت تنأى بنفسها على الدوام للحظات كي تأتي إلى محلي عند تقاطع شارع باراغواي مع شارع إسميرالدا، حيث كنت أواظب على تحويل شعرها إلى الأشقر

بتدرج بطيء، وأجرب لها تسريحات أكثر بساطة في كل مرة. كان دورها الجديد كسيدة محترمة يبلبلها. فإلى ما قبل شهور قليلة كانت ممثلة ثانوية في تمثيليات إذاعية لا يسمعها أحد، ومجرد شبح تتسول نشر صور لها في المجلات. وبين ليلة وضحاها وجدت نفسها وقد تحولت إلى سيدة متزوجة من الكولونيل الأول في الجمهورية. كان يمكن لأي شخص أن يصاب بالدوار لهذا التحول، لاسيما في حقبة كانت النساء فيها صفراً على اليسار ومجرد ظلال غير مرئية لأزواجهن. ولكن ليس إيفيتا. فحين شعرت أن لديها سلطة على مصير الناس، تعاظمت. هل رأيتها في الصورة التي التُقطت لها وهي خارجة من الكاتدرائية يوم 4 حزيران 1946، ممسكة بذراع زوجة نائب الرئيس خاسمين هورتينسيو كيخانو؟ دقق في تينك الشفتين المزمومتين في المنتصف، وفي النظرة الفاترة والمرتابة، وفي وضع الجسد كله. أنا سرحتُ شعرها في ذلك اليوم باعتدال، تاركاً لها بعض حلقات الشعر تحت القبعة ذات الخطوط العثمانية، ولكن في تلك المرات الكنسية المهيبة، حيث بيرون المكرس رئيساً للجمهورية، وحيال ترانيم القداس المهيبة، أحست إيفيتا بالإغماء. لقد فكرت للحظة أنها لن تستطيع الخروج قدماً إلى الأبد. ومع ذلك، انظر إليها بعد شهر واحد من ذلك في مسرح كولومبس، تمد ذراعيها نحو الفضوليين الذين ينتظرونها عند المدخل. ليس باستطاعة أحد أن يحدق في عينيها.

كانت تعلم أن لكل سلطة كسوفها عاجلاً أو آجلاً، وأرادت أن تعرف في سنة واحدة الخبرات التي تستغرق من آخرين حياة بطولها. كانت ترفض النوم. تتصل هاتفياً بمساعديها في الثالثة فجراً لتكلفهم بعمل ما، وفي الساعة السادسة تعود للاتصال بهم كي تعرف إن كانوا قد أنجزوا المهمة. وفي أقل من صياح ديك، نسجت شبكة من الوزراء والجواسيس والمتملقين يبقونها على اطلاع على كل ما يحدث في الحكومة. لقد كانت في هذه الأمور أبرع من بيرون؛ ولكنها إذا كانت قد اهتمت بالنسيج فليس ذلك كي تصنع مظلة له، كما يقول البعض، وإنما لأن بيرون كان ضعيفاً

في العمق.

ذات صباح من شهر شباط ذهبتُ إلى مقر الإقامة الرئاسي لأسرح شعرها وأجدل لها ضفيرة. لاحظتُ أنها خائرة القوى. حاولت تسليتها بالتحدث إليها عن ابنتي عم لي جاءتا من لوليس، في مقاطعة توكومان، بحثاً عن زوجين لهما في بوينس آيرس.

- وهل وجدتاهما؟ - سألتني.

- لن تجدا أحداً أبداً - قلتُ لها - إنهما قبيحتان جداً، أنفاهما كبيران وفيهما ثآليل، والأفضل منهما لديها تورم هائل في الغدة الدرقية لا يمكن إجراء جراحة له.

قاطعتني وذهنها في مكان آخر. وكنتُ قد اعتدت على تبدلات مزاجها التي يعزوها خصومها إلى الهستيريا. وبعذوبة غير متوقعة، أمسكت يدي وقالت:

- انتظر خارجاً لحظة يا خوليتو. عليّ أن أذهب إلى الحمام.

وبعد حوالي نصف ساعة استدعتني من جديد. كانت ترتدي ملابس الخروج، وحذاء عالي الكعب، وأرادت أن أسرح شعرها بالعقيصة المزدوجة كما في المناسبات السعيدة. وحين لمستُ رأسها شعرت أنها تتأجج بالحمى. كانت متوترة، مختنقة بواحدة من تلك العواصف الداخلية التي ستنتهي إلى قتلها. أردت العودة إلى موضوع ابنتي عمي، ولكنها أوقفتني بجفاء.

- أسرع في إنهاء التسريحة يا خوليو. إنهم ينتظرونني في الخارج. أما بشأن ابنتي عمك فلا تقلق. سأجد لهما عريساً ما. أنت تعرف أن هناك دوماً لكل قمحة مسوسة كيّالاً أعور.

وفي صالون الطابق السفلي رأيتُ قادة الاتحاد العام للعمل وممثلات الحزب النسائي البيروني مجتمعين. حيتهم إيفيتا واستمعت إلى خطاباتهم الطويلة وهي مقطبة الجبين. عرضوا عليها أن تكون المرشحة لمنصب نائب رئيس الجمهورية، أما هي، وكانت تطمح لهذا المنصب أكثر من أي شيء

في حياتها، فرّدت عليهم بأن كل شيء يعتمد على موافقة زوجها. لقد كانت السياسة في نظري آنذاك، والآن، مجرد لعبة صينية. تصور حضرتك إذاً مدى مفاجأتي عندما رأيتُ الجنرال، كما لو أنه تكهن بأنهم يذكرونه، يظهر في مقر الإقامة في تلك الساعة غير المعهودة من الصباح. كانت حرارة إيفيتا قد ارتفعت. وكان رأسها يميل في بعض اللحظات. وبينما أنا أراقبها من الطابق العلوي كنتُ أتألم معها. لم أرها تضعف ولو لحظة واحدة. وبحماسة مذهلة أخبرت زوجها بما يحدث.

– لقد قلتُ لهؤلاء الرفاق إنني لن أحرك إصبعاً دون تفويض منك.

– وهل صدقوكِ؟ ـ سألها الجنرال.

– لم أتكلم بجد قط كما تكلمت هذه المرة.

– وكيف سأعارض إرادة كل هؤلاء السادة؟ حتى كيخانو العجوز طلب مني أن أسميك نائبة للرئيس!

لقد أخطأ في هذه الجملة، فقد أوضح بيرون أنه إذا توصلت إيفيتا إلى المنصب فإن ذلك سيحصل لأنه راغب فيه. ومنذ ذلك اليوم لم أعد أراها إلا متعجلة. كانت تستدعيني سواء في الساعة السابعة صباحاً أو الحادية عشرة ليلاً من أجل بعض التعزيز لصباغ شعرها، أو للمسة ما في التسريحة. لقد صنعت لها من شعرها بالذات عقيصتين مستعارتين يمكن تثبيتهما بالدبابيس، وتجعلان رأسها متقناً دون شائبة. لقد احتفظتُ بواحدة من العقيصتين. وقد رأيتها حضرتك في التحف الصغير الذي أملكه في الحجرة الخلفية من محلي.

ظلت ابنتا العم تعيشان معي عدة شهور. كانتا تساعدانني في المساء في صالون التجميل، ترتبان لي المواعيد أو تحلان محل عاملات المانيكور. تقضيان الصباح في دار الرهون، حيث تشتريان أكثر الأشياء تفاهة وعدم جدوى: ابتداء من قبعات من العصر الفيكتوري ومرايا من قواقع السلاحف وحتى مشاجب من الفضة وشمعدانات جنائزية. لم تكونا تمران بمصاعب مالية، لأنهما تتلقيان بانتظام مردود بعض مزارع القصب. ولكنهما تعانيان

لأن شبابهما يذوي وبكارتيهما تتصلبان. وكانت ما تزال تراودهما الآمال بالتعرف على إيفيتا، ولكن الفرصة لن تتاح لهما أبداً، لأن السيدة تعيش في ساعات مستحيلة وحسب.

تعيش، لا تعيش، تغيب عن نظري. إنها قديسة، إنها ضبعة، في تلك الأسابيع قيل عن إيفيتا كل شيء. قرأتُ في مطبوعة من أورغواي أنها، من أجل إذلال بيرون، كانت تجبره على ارتداء فستان زفاف. وقرأت في منشور سري أن إيفيتا، في ماخور خونين حيث كانت أمها تعمل قوادة، أرست مزاداً على عذريتها وهي في الثانية عشرة من عمرها، في حفلة للمزارعين، لمجرد ميلها العادي والبسيط إلى الرذيلة. وفي كل نشرة هجائية تقريباً كانت هناك شتيمة تنال من ماضيها، ولكنها لم تعدم كذلك من يتكلمون بشراسة عن حاضرها. يدعونها أغريبينيا، وسيمبرونيا، نيفرتيتي؛ لم تكن تلك التشبيهات تؤثر على إيفيتا التي لم تكن لديها أدنى فكرة عما تعنيه. كانوا يتهمونها بتشجيع التملق والرقابة، وبتحويل النقابات إلى خدم لمشيئتها، وبادعاء أن بيرون هو الرب وإعلان حرب مقدسة ضد كل الكفار. وقد كان لبعض هذه الاتهامات سند في الواقع، ولكن الواقع لا يقلل قلامة ظفر من الحب الأعمى الذي يكنه لها الناس.

لا أعرف كيف تصرفت إيفيتا، ولكنها بدأت تكون فجأة في كل مكان. سمعت أنها أحبطت مؤامرتين ضد حياتها وأن زعماء المحاولتين كانوا على وشك التعرض للإخصاء من أجل تهدئة مغالاتهم في الغضب. وعرفتُ أنها دفعت بيرون إلى خصام مع الكولونيل دومينغو آ. ميركانتي الذي كان يسعى أيضاً إلى نيابة الرئيس. وقرأت أنها كانت ذات صباح في سالتا وفي صباح اليوم التالي في كوردوبا أو كاتامركا، تهدي بيوتاً، أو توزع نقوداً، أو تعلم الأبجدية لصبية المدارس الريفية بكتب تكرر الجمل اللامتناهية نفسها: «إيفيتا تحبني. إيفيتا طيبة. إيفيتا حورية. أنا أحب إيفيتا...». كانت تذرع آلاف الكيلومترات في القطار، وحيدة وظافرة مثل ملكة متهمة.

بين نيسان وأيار 1951، غُطيت بوينس آيرس من أعلاها إلى أسفلها

بأوراق تحمل صور وجهها، بل إنهم علقوا على المسلة لافتة ضخمة تدعو إلى التصويت لـ «بيرون ـ إيفا بيرون/ معادلة الوطن». وما فاجأني أن إيفيتا في كل خطاباتها تقريباً كانت تكرر مرة بعد أخرى «أريد تفويضاً»، كما لو أنها لم تكتف بوعد بيرون وتحتاج إلى دعم من النقابات. لقد كانت تعرف زوجها جيداً وتسعى جاهدة لأن تكون ظلاً له. بدأت تبالغ في العذوبة التي تغدقها عليه في الخطابات. واقرأ، إن كنت تستطيع، خطاباتها في تلك الشهور. «إنني عاشقة للجنرال بيرون وقضيته»، كانت تردد «بطل مثله لا يستحق أن يكون معه سوى شهداء ومتعصبين. وأنا مستعدة لكل شيء في سبيل حبه: الاستشهاد، الموت.»

لقد سحبوها مرتين أو ثلاث مرات مغمى عليها من المهرجانات العامة، ولكن ما إن يعاودها الوعي إلا وتسعى إلى المواصلة قدماً. شخّصوا إصابتها بفقر الدم أو عدم النوم، ولكنني بدأت اشتبه بإصابتها بالسرطان منذ ذلك الصباح من شباط في مقر الإقامة الرئاسي. جاءها الطبيب المشهور إيفانيسيفيتش ذات ليلة بجهاز لنقل الدم. فطردته إيفيتا ضرباً بحقيبتها اليدوية، ولم يجد الرجل المسكين، وهو وزير فرضته الكنيسة، مفراً من التوقيع على استقالته. «أريد تفويضاً»، كانت إيفيتا تردد. «أحتاج إلى تفويض، فحتى الأطباء صاروا يتآمرون لإبعادي عنكم يا أحبائي العمال. الكل يتآمرون: الأوليغارشيون، والغوريلات، والأطباء، وخونة الوطن، والوسطيون.» وأخيراً فهم قادة الاتحاد العام للعمل التلميح وقرروا إعلان ترشيحهم لها في مهرجان مهيب.

بدأت الاستعدادات قبل شهر تقريباً. وعشية يوم الاحتفال الذي أعلن على أنه اجتماع عام مفتوح لحزب العدالة، توقفت البلاد بأسرها. قطارات محملة بقرويين يصبون في أشداق العاصمة المجهولة وليس في جيوبهم قرش واحد، فكل شيء مجاني، بما في ذلك الكابريهات والفنادق، تصور حضرتك تلك الحشود القاتمة، ممن لم يروا من قبل عمارتين متجاورتين، وقد بهرتهم أضواء ناطحات السحاب. ولن أحدثك

عن حماسة ابنتي عمي حيال الصفوف غير المتناهية من العازبين الجريئين. أرادتا أن أحصل لهما على مكان في منصة الشرف، ولكنني كنت قد أمضيت أكثر من عشرة أيام دون أن أرى السيدة ولم أتشجع على إزعاجها. فكرت في أنها ربما لا تحتاج إلى خدماتي. كل شيء كان خارجاً عن السياق والقياس، كان الغروب فجرا، ولم تعد للكلمات علاقة بمعناها، وبدا لي أننا نغرق حتى النخاع في أكذوبة، ولكنني لم أكن أعرف ما هي تلك الأكذوبة وبأي حقائق يمكن مقارعتها. وفي الصحف يمكن لك أن ترى بوضوح أكبر انعكاسات ما كان يجري. اقرأ على سبيل المثال هذه القصاصة من جريدة كلارين:

> رجال يرتدون عباءات البونتشو والجزمات، وأشخاص منهمكون بحقائب سفر كرتونية وحزم أمتعة، يشكلون منذ صباح أمس الثلاثاء 21 آب 1951 الطليعة المتقدمة من حمولات تُسكب من الداخل في محطات القطارات والحافلات والميكروباصات. ما هو العدد الذي يمكن التحدث عنه؟ أهو مليون؟ إنهم أكثر بكثير دون شك. ستراهم هذا المساء بالذات تحت قوس النصر الذي أقيم عند تقاطع شارع التاسع من تموز وشارع مورينو. وقوس النصر المذكور، وتحته الشرفة الرسمية، يزدهي بصورتين ضخمتين، إحداهما للرئيس والثانية لزوجته. وكذلك الحروف الأولى من الاتحاد العام للعمل، والكثير من اللافتات والرايات، بينما نشرت في الجوار بعض الهيئات المؤيدة لافتات تغطي شوارع بكاملها. أهو أسبوع لهو وعربدة؟ لا. إنه أسبوع تاريخي، أسبوع مسحة زيت تمدني عميق.

في الوثائق والأوراق، كان اتحاد نقابات العمال هو من نظم المهرجان،

ولكن إيفيتا هي من حركت الآلية. فمنها ولدت فكرة القطارات والحافلات المجانية، وهي من أمرت بأيام العطلة لتسهيل تنقلات الناس، ومن خلالها فُتحت نُزل وقُدمت مأكولات بصورة متكتمة. لقد كان بيرون ممن تفتنهم المشهدية الفاشية وكانت مهرجاناته الجماهيرية مستنسخة كلها تقريباً عن مهرجانات الدوتشي. أما إيفيتا فليس لديها من ثقافة أخرى سوى السينما، وكانت تريد لمبايعتها أن تبدو مثل حفل افتتاح هوليودي، بكشافات ضوئية وموسيقى أبواق وسيول جمهور.

خرجت ابنتا العم في حوالي الساعة التاسعة صباحاً متوجهتين إلى المهرجان، متزينتين ومتبرجتين مثل شجرة عيد ميلاد. ظللتُ أنا وحدي في البيت أستمع إلى المذياع. وبين حين وآخر كانت تُبث دعوات تلح على الناس أن يستغلوا شمس يوم العطلة ويخيموا تحت أشجار الجادة. راودني هاجس أنه يمكن للسيدة أن تستدعيني في أي لحظة. وقد حدث ذلك بالفعل. ففي حوالي الساعة الثالثة رن جرس الهاتف. كانوا يستدعونني بالسرعة القصوى إلى مبنى الأشغال العامة، وهو وراء شرفة الاحتفال. سألتهم: «كيف سأتمكن من الوصول؟ الإذاعة تقول إن هناك حشوداً غير مسبوقة». «لا تقلق لهذا. خلال خمس عشرة دقيقة سنأتي لنأخذك».

أخذوني في سيارة تابعة للرئاسة دون توقف في أي حاجز. استطعت أن أرى، على هذا النحو، عدداً قليلاً من صور المدينة، دون أن أعرف إن كان عليّ أن أصدق ما أراه. تحت ضريح مانويل بيلغرانو أقاموا شاشة عرض سينمائية في الهواء الطلق، وكانوا يعرضون عليها أفلاماً دعائية حول ملاجئ المسنين، ومدن الأطفال، وبيوت الضيافة التي أسستها إيفيتا. ورأيت فيلقاً من الوطنيين ممن أخذوا الاجتماع العام المفتوح على محمل الجد، يشعلون شموعاً في مشاعل كاتدرائية العاصمة حيث قبر الجنرال خوسيه دي سان مارتين ويطالبون بحمل التابوت في موكب حتى قوس النصر في جادة التاسع من تموز. وكانت هناك عابرة محيطات تبحر تائهة بين ممرات الميناء، ومع أننا جميعنا كنا نسمع جؤار صفاراتها اليائس، إلا

أن أحداً لم يهرع لمد يد المساعدة إليها؛ وقد علمتُ في ما بعد أنها جنحت في طمي مصب النهر وأن بحارتها نزلوا إلى البر لينضموا إلى الحفلة.

وسط ذلك الصخب البهيج كله، كانت إيفيتا وحيدة. تتأمل أشجار الجكاراندا من نوافذ مكتبٍ مشرف في وزارة الأشغال العامة. كانت ترتدي بدلة قاتمة، بسيطة التفصيل، وقميصاً من الحرير، وتضع قرطين من الماس يسايران حافة صوان الأذنين. كانت شاحبة، وأشد نحولاً، وبوجنتين مشدودتين. حين اكتشفت وجودي ابتسمت بكآبة، وقالت: «آه، هذا أنت. لحسن الحظ أنهم وجدوك».

لا أدري لماذا أتذكر ذلك المشهد ضمن حجب الصمت، في حين أن الهواء كان في الحقيقة مشبعاً بالأصوات. ففي الخارج كانت تدوي أصوات الشبيبة البيرونية، ومن بعيد كانت مكبرات صوت تردد أغنية نيقولا باوني لاكافيتيرا تشي فا بلو، وفي الجادة تصب سيول من الطبول والمفرقعات السابقة للألعاب النارية التي تنتظر انطلاقها في الساعة الثانية عشرة ليلاً. ولكن كل ما تحدثتُ به مع إيفيتا في ذلك المساء ظل محفوظاً في ذاكرتي، نظيفاً من الأصوات الغريبة، كما لو أن تلك الأصوات قد قُلمت بمقص. أتذكر أنني بدل أن أحييها كما هي العادة، خرجت من أعماق روحي كذبة مشفقة: «كم أنت جميلة يا سيدتي!». وأتذكر أيضاً أنها لم تصدقني. كان شعرها مفلتاً، تثبته بشريطة، ولم تكن قد تمكيجت بعد. عرضت عليها أن أغسل شعرها بشامبو وأن أدلكها كي تسترخي. فقالت: «سرح شعري. أريد أن تبقى العقيصة ثابتة جيداً.» تهاوت على أحد مقاعد المكتب وراحت تترنم بأغنية باوني «تشي فا بلو بلو»، دون أن تفكر في ما تفعله، لمجرد حماية نفسها من الانفجار في البكاء.

– كيف يشعر الناس في الخارج؟ ـ سألتني. ودون أن تنتظر جوابي، قالت: ـ السياسة براز يا خوليو. إنهم لا يقدمون لك ما تستحقه أبداً. وإذا كنتَ امرأة، فالأمر أسوأ. يجعلونك قمامة. لقد تركوني وحيدة. وكل يوم أصير أكثر وحدة.

لم أكن بحاجة لأن أكون ثاقب الذكاء كي أدرك أنها تشكو من زوجها. ولكنها كانت ستغضب لو أنني أبديت فهمي للأمر. حاولت مواساتها.

- إذا كنت حضرتك وحيدة، فماذا تركتِ للآخرين؟ - قلتُ لها -. جميعنا ملك يديك، ولديك الجنرال. وهناك في الخارج مليون شخص جاؤوا لرؤيتك وحسب.

- ربما لن يروني يا خوليو. ربما لن أخرج ـ قالت. وفي تلك اللحظة أحسست بتوترها. كانت قبضتاها مشدودتين، وعروقها متصلبة، وعقدة في فكها السفلي ـ. ربما لن أتكلم إليهم. ولماذا سأتكلم إذا كنت لا أعرف ما عليّ أن أقوله.

- أكثر من مرة رأيتك هكذا يا سيدتي. إنها الأعصاب. ولكنك عندما تظهرين على الشرفة سوف تنسين كل شيء.

- كيف سأنسى وليس هناك أحد يكلمني بوضوح. الوحيدون الذين يتكلمون بوضوح هنا هم الشحوم الصغار. أما مع الآخرين فلا بد لك من استخدام معجم. الجنرالات يجتمعون مع بيرون سراً ليطلبوا منه عدم السماح لي بأن أكون مرشحة. أتدري بماذا أرد عليهم؟ فليدسوا المنصب في مؤخراتهم، فأنا أنا وأفعل ما أشاء. ولكنني لا أفعل ما أشاء. ففي هذه القصة يتدخل أناس كثيرون يا خوليو. إنه عش مكائد، شِراك؛ لا يمكنك أن تتصور ذلك. حتى بيرون نفسه بدأ يتعب. قبل أيام أمسكته وقلت له: هل تريدني أنت أن أرفض الترشيح؟ سأرفضه. نظر إليّ نظرة ساهية وأجابني: افعلي ما بدا لك يا تشينيتا. ما بدا لك. منذ أسبوع لم أغمض عيني. يوم أمس كنت ذاهبة للاستحمام، فشعرت ببرودة، كنتُ قد تناولت ثلاثة أو أربعة أقراص أسبرين، وفجأة رحتُ أفكر: إنه الرئيس. وإذا أراد أن أكون نائبته، عليه أن يقول ذلك للشعب. تناولت الهاتف واتصلت به في البيت الوردي. قلت له: استغل مهرجان الاجتماع العام المفتوح. ابدأ خطابك بالإعلان للجميع أنك أنت من تريدني مرشحة. أيها السادة، أنا أختارها. قل لهم ذلك. وبهذا تنتهي التقولات. فأجابني:

اختياري لكِ صار ناضجاً، ولكن أن أعلن أنا ذلك أمر آخر. فقلتُ بإصرار: إنه ليس أي أمر آخر. أنتَ وأنا نتشاجر منذ شهور حول هذا الأمر. وإذا ما ضعفنا الآن فسوف يأكلونني حية. لن يأكلوكِ أنت، بل أنا. فقال لي: يجب توخي الحذر مع الحزب. وأجبته: الحزب هو أنتَ. فقال: دعيني أفكر في الأمر يا تشينيتا. إنني مشغول الآن. إنها المرة الأولى التي لم يعرف فيها ما عليه عمله. وصباح هذا اليوم حدثت مواجهة بيننا. أنا أصررت على الموضوع. أدرك أنني سأنفجر وحاول تهدئتي. قال لي: سيبدو سيئاً أن اقترح أنا ترشيحكِ. يجب عدم الخلط أبداً بين الحكومة والأسرة. يجب أن نكون حذرين في الشكليات. فمهما كنتِ إيفيتا العظيمة، إلا أنك امرأتي: يجب أن يرشحك الحزب. فقاطعتُه: الشكليات لا تهمني قلامة ظفر. فإما أن ترشحني أنت، وإلا لن أظهر في الاجتماع العام المفتوح؛ وسيكون عليك أن تخوض المواجهة وحيداً. قال لي: أنت لا تفهمين. فأجبته: بل أفهم بالطبع. وصفقتُ الباب. وبعد قليل، كان قادة الاتحاد العام للعمل يعرفون كل شيء. توسلوا إليّ أن أحضر. قالوا لي: سيدتي، لا يمكنك أن تفعلي ذلك بالمهلهلين. لقد جاؤوا من يدري من أية أمكنة من أجلكِ أنتِ. فقلت لهم: أنا لست أحداً. إنني مجرد امرأة بائسة. لقد جاؤوا من أجل الجنرال. فأصروا: لا، لا. ترشيح الجنرال إلى الرئاسة صار معلناً. إنهم آتون من أجلكِ. وأجبتهم: لا أستطيع حضور هذا المهرجان. فقالوا لي: إذا ما طالب الناس بك، لن يكون أمامنا من مفر إلا الخروج لإحضاركِ. وقلت لهم: أنتم تعرفون ما عليكم فعله. أنا سأنظر إلى الاحتفال من وزارة الأشغال العامة. وما إن قلت ذلك حتى شعرتُ بالندم. ولكنني فكرتُ بعد ذلك: هذا الاجتماع العام المفتوح لي. لقد كسبته. وأنا أستحقه. ولن أضيعه. فليأتوا بحثاً عني.

كل قصة هي، من حيث التعريف، خيانة. فالواقع، كما قلتُ من قبل، لا يمكن أن يُروى أو يتكرر. الشيء الوحيد الذي يمكن عمله بالواقع هو اختراعه من جديد.

في البدء كنت أفكر: عندما أجمع أجزاء ما استنسختُه ذات مرة، عندما تنبعث فيْ مونولوجات مصفف الشعر، سأحصل على القصة. وقد حصلت عليها، ولكنها كانت كتابة ميتة. بعد ذلك أضعتُ الكثير من الوقت في البحث هنا وهناك عن أحافير ما حدث في الاجتماع العام المفتوح. نقبتُ في أرشيف الصحف، وشاهدت الأفلام الوثائقية لتلك الحقبة، واستمعت إلى تسجيلات الإذاعة. المشهد نفسه يتكرر، ويتكرر، ويتكرر: إيفيتا لا تدري كيف تنأى عن حب الحشود الأعمى، تقترب، تذهب؛ إيفيتا تتوسل ألا يسمحوا لها بأن تقول ما لا تريد قوله، ألا يسكتوها عن القول. لم أفهم شيئاً، لم أضف شيئاً. في أكداس الوثائق غير المجدية تلك، إيفيتا لم تكن إيفيتا قط.

بين عامي 1972 و1973، بعد أن أُخرج جسدها من قبر مجهول في ميلان وأعيد إلى الأرمل، كتبتُ سيناريو سينمائي يحاول إعادة بناء قصة الترشيح المحبطة بالاستعانة بمقاطع من نشرات أخبار ومواكب صور فوتوغرافية. أردتُ أن تكون للقصة حبكة، وأن تكون في الوقت نفسه نسيج رموز، ولكنني كنت عاجزاً عن تمييز كم من الحقيقة كانت في ذلك. ففي تلك الأثناء، كان خفق الحقيقة أساسياً في نظري. ولم تكن ثمة حقيقة ممكنة ما لم تكن إيفيتا حاضرة هناك. ليس شبحها، وإنما بكاؤها وهي طفلة، وصوتها في المسلسلات الإذاعية، خلفيتها الموسيقية، طموحها إلى السلطة، والدم، والجنون، واليأس، وما كانته هي نفسها في كل لحظات حياتها. لقد رأيت في بعض الأفلام كيف أن أموراً وأشياء تعود من الأعماق الخالدة للتاريخ. كنت أعرف أن ذلك يمكن أن يصلح أحياناً. وكنتُ أحتاج إلى مساعدة. إلى أحد يقول لي: «الوقائع كانت هكذا، مثلما رويتها أنت بالضبط». أو أن يرشدني في أي وجهة أحركها كي تتوافق مع وهم ما من الحقيقة. تذكرتُ خوليو ألكاراث، واتصلتُ به هاتفياً. تأخر في تَذكري. وحدد لي موعداً في الساعة العاشرة ليلاً في مقهى ريكس. كان قد هرم كثيراً، وكان يشكو من أزيز في طبلة أذنه وتشنج في ساقيه.

- لستُ أدري إن كنتُ قادراً على مساعدتك ـ قال لي.

- لا تجهد نفسك ـ طمأنته ـ اسمعني فقط واستسلم للتخيل. تصور أنك هناك مرة أخرى، في الاجتماع العام المفتوح، وقاطعني إذا لم يتناغم شيء مما أقوله مع ذاكرتك.

- اقرأ لي هذا السيناريو ـ قال ـ سيكون الأمر كما لو أنني على مقعد صالة سينما لأرى حياتي.

- إنه أفضل من الحياة. فهنا يمكنك النهوض في أي لحظة والانصراف. الحياة أكثر صعوبة. والآن ـ طلبتُ منه ـ انسَ الضجيج. تخيل أن الأنوار تنطفئ. وأن ستارة تنفتح.

(خارجي. بعد الظهر. شارع التاسع من تموز في بوينس آيرس)

لقطة بانورامية للحشود. من الشرفة الرسمية حتى المسلة لا لمتسع لدبوس صغير. الرايات ترفرف. اللقطات الجوية تكشف عن وجود مليون ونصف مليون شخص. غابات من الملصقات في منتصف الشارع. الإنارة فظة، وشديدة التباين. شمس دافئة مثلما يتبين من ملابس الناس. لقطات لقوس النصر فوق الشرفة الرسمية. في لقطة قريبة، صورتان ضخمتان لبيرون وإيفيتا. في لقطة عامة: أمواج مناديل تلوح. ساعة: إنها الخامسة وعشرون دقيقة مساء.	يتصاعد الهتاف بطيئاً. تضج الطبول. تشتعل، هنا وهناك، فورات غير متناسقة: «المسيرة البيرونية»

صوت المذيع (أوف):

أيها الرفاق، أيها الرفاق. إلى هذا الاجتماع العام المفتوح لتيار العدالة، يدخل الآن فخامة السيد رئيس الجمهورية الجنرال خوان دومينغو بيرون.

يتقدم بيرون إلى الصف الأول من الشرفة الرسمية فاتحاً ذراعيه. تماوج الحشود، حركة تموج خطرة للاقتراب من المعبود.

ينفجر التهليل والتصفيق (كلمة مفاجئة تشق طريقها. أهي: بيرون، بيرون؟ لا. غير معقول. ما تهتف به الجموع هو اسم إيفيتا.)

جوقة:

إيـ فيـ تا/ إيـ فيـ تا.

في لقطة قريبة، ملامح استياء على وجه الجنرال. ومضة فلاش ترفع حاجبيه. السكرتير العام لاتحاد نقابات العمال، ذو الهيئة المكورة، يتناول الميكروفون. خطابه يغص بعيوب فى النطق.

السكرتير العام خوسيه إسبيخو
(سيدعى تالياً إسبيخو):
سيدي الجنرال...

لقطة قريبة لبيرون، عابساً.

... ها هو ذا شعب الوطن مجتمع هنا كي يقول لك، وأنت زعيمه الأوحد...

لقطة قريبة لصورة إيفيتا الضخمة.

... كما يقول في كل الساعات العظيمة: رهن إشارتك سيدي الجنرال!

صور للحشود.

جوقة (للحظة):
رهن إشارتك!
(تأخذ العبارة بالتلاشي بصورة طبيعية إلى أن تتحول إلى نداء لجوج:)
إيـ فيـ تا...

يظل بيرون متجهماً، شفتاه مزمومتان، يتضاءل. هل سيكون من القسوة أن يعرض الآن معارضته ويبرزها فوق الجماهير الثملة؟ أترك

الفكرة لرأي المخرج. فالجنرال يزعجه أن يكون ممثلاً ثانوياً في أضخم تجمع في تاريخ الحركة البيرونية. يقرر لفت انتباه المهلهلين. يرفع ذراعيه، يضع يديه على قلبه. الجموع تتقافز، ترد على تحيته بإيماءات هذيانية. ولكنها لا تصرخ باسمه. بل تنادي:

جوقة:

إيـ فيـ تا/ إيـ فيـ تا...

تنطفئ شيئاً فشيئاً أنوار المساء. يستعيد بيرون تقطيبه، فظاظة البداية. يمسح رطوبة الشارب غير المرئية. يحاول إسبيخو أن يتولى التحكم بالوضع، ولكنه يدفع الأمور إلى الأسوأ:

إسبيخو:

سيدي الجنرال...

(النبرة متوسلة. الصوت يُدفن في صراخ الحشود.)

سيدي الجنرال... إننا نلحظ هنا غياباً، غياب زوجتك. غياب إيفا بيرون الفريدة في العالم...

(تصفيق.)

جوقة:

فلتحضر إيفيتا! أين هي إيفيتا؟

إسبيخو:

أيها الرفاق... ربما كان تواضعها، وهو أعظم هباتها، يمنعها من... (يتلاشى ما يلي ذلك.)

اسمح لي سيدي الجنرال أن نذهب بحثاً عنها، كي تكون حاضرة هنا.

الدوار مرة أخرى. الكاميرا تتابع إسبيخو ذاهباً. ثم تبحث بين سيقان سراويل عسكرية رمادية يميزها الخط الجانبي المذهب، إلى أن تتوقف عند حذاء جزع يعلو وينخفض. إنه بيرون. تتسلق الكاميرا الجسد، تتوقف عند عينيه سيئتي النوايا، تنتقل إلى منصة التزلج التي يشكلها شعره المصمغ. [ملاحظة: هذه اللقطة موجودة. ويمكن للمخرج إن أراد أن البحث عنها في نسخة الجريدة السينمائية الإسبانية نو دو، 22 آب 1951] يخيم الليل فوق رأس الجنرال. إنها السادسة والنصف مساء.

(خارجي. ليل. المكان نفسه، في بوينس آيرس.)

يُرى مجيء إيفيتا يتبعها إسبيخو
وموكب من الموظفين.

– إنهم من ذهبوا بحثاً عنها في مبنى الأشغال العامة ـ قال مصفف الشعر ـ أنا كنت أمشي خلفهم. لقد سرحت شعرها في عقيصتين، ووضعت لها لمسة مكياج خفيفة. كانت رائعة.

لقطة عامة للجموع في هياج نشوة. قَطع على نساء يهوين جاثيات على رصيف النادي الإسباني. قَطع لعائلات عمالية تبكي أسفل المسلة. قطع لإيفيتا نفسها وهي تلقي القبلات من الشرفة. لا تتمكن هي أيضاً من كبح دموعها. لقطة قريبة للدموع [توجد لقطة بديعة في الجريدة السينمائية الإسبانية]. يشق إسبيخو طريقه.

إسبيخو:

وأطلب أن تبايعوا الجنرال خوان بيرون مرشحاً لرئاسة الجمهورية والسيدة إيفا بيرون نائبة للرئيس.

تبحث إيفيتا عن ملجأ بين ذراعي زوجها. بعد ذلك تطل من وراء حاجز الشرفة بمزاج مرتاب. «أنا...»،

تحرك شفتيها. «أنا...» لا يُسمع شيء. وأخيراً، تبدأ خطبتها الحماسية الطويلة. [إنها طويلة حقاً. توجد نسخة كاملة منها في جريدة نو دو السينمائية وفي أحداث أرجنتينية. أقترح على المخرج أن يختار فقرة واحدة فقط، الفقرة قبل الأخيرة:]

– لماذا؟ ـ قاطعني مصفف الشعر ـ فهي لم تكن تعرف ما الذي تقوله، كانت ترى نظرة بيرون المراقبة فيزيد ذلك من ارتباكها. قارن هذا الخطاب مع خطاباتها في الشهور السابقة. في الخطابات الأخرى، كانت إيفيتا تتلاعب بصوتها على هواها. يحتل صوتها المشهد كله. أما هنا فلا. لقد كانت مشوشة الذهن. وإذا ما عرضتها حضرتك بتلك الحالة المؤسفة، فسوف تقوض التأثير البارع لما يلي.

– إنها فقرة واحدة فقط ـ أصررتُ ـ الفقرة ما قبل الأخيرة:

إيفيتا:

أنا لم أفعل شيئاً. بيرون هو كل شيء. بيرون هو الوطن، بيرون هو كل شيء، ونحن الآخرون على مسافة فلكية من زعيم الأمة. أنا، يا سيدي الجنرال، بالقوة الروحية التى يمنحنى إياها مهلهلو الوطن،

أبايعك، قبل أن يصوّت لك الشعب، رئيساً للأرجنتينيين.
(تصفيق.)

يعانقها بيرون. لقطات صاخبة على الشرفة [توجد لقطات جيدة في أرشيف أحداث أرجنتينية]. قائد نقابي غير محدد، يظهر لنا ظهره، يواجه إيفيتا [اللقطة موجودة في إحدى نسختي نو دو].

قائد نقابي:
لم تخبرينا بعد إن كنت تقبلين الترشح أم لا يا سيدتي... (يلتفت نحو الميكروفون.) *سيدتي! الشعب ينتظر.. ما هو ردك عليه؟*

تحت الشرفة، جماعة من النساء يلوحن بمناديل بيضاء.

جوقة:
فلتوافقي / إيفيتا... فلتوافقي / إيفيتا...
إسبيخو (Off):
أيها الرفاق، فلنسمع كلمة الجنرال بيرون.

لقطة لبيرون يتقدم ظافراً. تبدو الصورة فجأة وكأنها قد تجمدت، ولكنها ليست كذلك. إنه بيرون الذي تجمد من الذهول. فقد سمع للتو صرخة متحدية، ثم تلتها جوقة الحشود المدوية.

صوت (off):

لتتكلم الرفيقة إيفيتا!

جوقة (off)

فلتوافق / إيفيتا / فلتوافق / إيفيتا!

بيرون

(محاولاً السيطرة على نفسه):

أيها الرفاق... (الهتاف لا يتوقف.) *أيها الرفاق... الشعوب القوية والفاضلة وحدها هي سيدة مصائرها...*

بينما الكاميرا تصعد ببطء وتحيط بأمواج الحشود المتراصة، وخفق الرايات على الشرفات، وواحات بعض المواقد المشتعلة، يأخذ صوت الجنرال بالتلاشى. فى الأعلى،

تختلط الصور بالمشهد نفسه، فقد صار الوقت ليلاً. ضربات برجكتور تهز زبد مليون رأس. تنبثق أنهار من المشاعل، لا أحد يدري من أين.
وفجأة ينفجر السواد، الظلام المطلق.
الشفتان الدافئتان لميكروفون تتقدم باتجاه المشاهد. [هل يتذكر المخرج الصورة الأخيرة من فيلم أمبرسونز العظيم، هذا العمل البارع لأورسون ويلز والذي غطى عليه المواطن كين؟
ابحث عن الصورة، وانتحلها.]
من هذه الصورة التي ليس فيها شيء ديني ينساب الصوت الذي ينتظره الجميع:

إيفيتا (off):
أحبائي المهلهلين، أعزائي...

حين تتراجع الكاميرا، تكتشف بروفيل إيفيتا الصقري، وتبقى هناك، ثابتة، منومة بخيزرانية ذراعيها ورعشة شفتيها.

إيفيتا
أنا أطلب من النساء، من الأطفال، من العمال المحتشدين هنا، ألا يجبرونني على فعل ما لم أشأ فعله قط. بحق المحبة التي تجمعنا، أطلب منكم، قبل اتخاذ

قرار بالغ الأهمية في حياة هذه المرأة البائسة، أن تمنحوني أربعة أيام على الأقل كي أفكر في الأمر.

جوقة

(off ولكن الصوت واضح إيقاعي):

لا، لا! إيفيتا! اليوم!

– عليك أن تُظهر الآن ملامح وجوه الآخرين - قال مصفف الشعر -. فإسبيخو كان شاحباً، لا يدري ماذا يفعل. فقد بدأ يدرك، بعد فوات الأوان، أن هذا الاجتماع العام المفتوح هو واحد من حالات سوء التفاهم تلك التي يمكن لها أن تكلفه رأسه. أما بيرون فلم يكن يروقه ما يحدث بأي حال. كان الضيق وفقدان الصبر باديين عليه. فما لم يفهمه أحد قط هو السبب في وصول الأمور بعيداً إلى ذلك الحد. مليون شخص انتقلوا من كافة أرجاء الأرجنتين الشاسعة، وكل ذلك في سبيل لا شيء! هل رأيت وجه إيفيتا؟ عندما وصلت إلى المهرجان كانت مقتنعة بأن بيرون شخصياً سيعلن ترشحها. وإلا لماذا استدعاها؟ كل شيء كان تصنعاً. من أجل عدم مناقضة زوجها عليها أن تكذب. لا يمكنها أن تفعل ذلك بمهلهليها. فتدخل فجأة هي والحشود في حوار بالتلمس، قفزة سيرك قاتلة دون شبكة حماية. لم تكن إيفيتا مهيأة لقول أي كلمة من الكلمات التي ستقولها منذ الآن. لقد خرجت الكلمات من روحها، من غريزتها. لماذا لا تعيد في فيلمك الحوار كاملاً؟ إنه مؤثر.

إيفيتا

أيها الرفاق. افهموني. أنا لا أتخلى عن موقعي في النضال. إنني أتخلى عن التشريفات.

الجموع ترفع المشاعل، تلوح بمناديل. وإيفيتا تحاول التهدئة بحركات يائسة.

جوقة:

نريد جو- ا- بأ! قو- لي - نعم!

إيفيتا

أيها الرفاق... لقد فكرت في شيء آخر، ولكنني سأفعل في النهاية ما يقوله الشعب (تصفيق.) هل تظنون أنني ما كنت سأجيب بنعم لو أن منصب نائب الرئيس كان عبئاً وكنت أنا الحل؟ غداً، عندما...

جوقة:

اليوم، اليوم! الآن!

تلتفت إيفا نحو بيرون. ويهمس في أذنها.

- أتدري ماذا قال لها الجنرال؟ ـ أشار مصفف الشعر بإصبعه ـ قال لها: فليذهبوا! اطلبي منهم أن ينصرفوا.

إيفيتا

أيها الرفاق... بحق المحبة التي تجمعنا... (تخنقها إجهاشة. ترفع

يديها إلى حنجرتها. ويبدو من خلال الحركة أنها تريد التخلص من النحيب ولا تدري كيف. تتماسك.) *أطلب منكم راجية ألا تجعلوني أفعل ما لا أريد فعله. أرجوكم كصديقة، كرفيقة، أن تتفرقوا...*

جوقة:

لا! لا! (تتشابك الأصوات، تختلط.) *سنذهب إلى الإضراب أيها الجنرال! إلى الإضراب يا جنرال!*

إيفيتا:

الشعب هو السيد. وأنا أوافق...

صور للحشود التي تتقافز، ترقص، تلعب بالمشاعل، تشعل براكين من المفرقعات والأسهم النارية. ومن الشرفات تتساقط أوراق ملونة، حزمة الكشاف الضوئي تختفي وراء غابة من الرايات. كلمة «أوافق» تذهب وتجيء مثل ترنم بمزمور.

جوقة:

قالت إنها توافق! قالت إنها موافقة!

إيفيتا على الشرفة تهز رأسها

بالنفى، وتخفض ذراعيها.

إيفيتا:

لا، أيها الرفاق! لقد أخطأتم.
أردتُ أن أقول: أنا أوافق على ما
يقوله لي الرفيق إسبيخو... غداً،
الساعة الثانية عشرة ظهراً...

جوقة

(صفير، وعلى الفور بعد ذلك):
الآن، الآن! الآن فوراً، الآن!

إيفيتا:

أطلب منكم منحي القليل من
الوقت فقط. غداً...

جوقة:

لا! الآن!

تلتفت إيفيتا مرة أخرى نحو بيرون. إنها مشتتة بين الذهول والرعب. في إحدى نسختي نو دو، ترسم شفتاها بوضوح السؤال «ماذا أفعل؟».

– لقد طلب منها بيرون ألا تضعف ـ أوضح لي مصفف الشعر ـ وأن تؤجل الجواب. قال لها: «إنها مسألة عناد. وأنت تملكين الكلمة الخيرة. لا يمكن لهم إجبارك.»

– وكان محقاً – وافقته الرأي ـ لا يمكن لهم إجبارها.

– لقد أجبروها. كانوا مصممين على عدم التحرك من هناك.

إيفيتا:

أيها الرفاق... متى خيبت إيفيتا ظنكم؟ متى لم تفعل إيفيتا ما تريدونه أنتم؟ ألا تلاحظون أن القرار الذي تطالبونني باتخاذه قرار بالغ الأهمية في هذه اللحظة بالنسبة لامرأة، وبالنسبة لأي مواطن؟ وما أرجوه منكم هو ساعات من الوقت فقط...

الحشود تلتهب. بعض المشاعل تنطفئ.

تسيل حمم: «*الآن!*» وتنشر «*الآن*» المنفلتة من عقالها بأجنحتها الخفاشية، الفراشية. تدوي «الآن» من القطعان ومن الحقول؛ لا شيء يكبح جنونها، انطلاقها، صداها الناري. [مهرجان هذه الكلمة المجنون استمر، حسب إحصاءات جريدة **ديموكراثيا**، أكثر من ثماني عشرة دقيقة، أما في جريدة نو دو السينمائية فلم ينجُ منها سوى عشر ثوان. أقترحُ على المخرج أن يطيل اللقطة نفسها إلى أن يسقط المشاهدون مستنفدين. أقترح مونتاجاً إيروتيكياً، أقرب إلى الهياج الجنسي. فربما يمكن التوصل بذلك

إلى تأثير واقعي ما.]

جوقة:

الآن! الآن! الآن! الآن! [إلى آخره]

تنفجر إيفيتا في البكاء. لم يعد النحيب يُخجلها.

إيفيتا:

ومع ذلك، لا يفاجئني شيء من هذا. منذ زمن وأنا أعرف أن اسمي يتردد بإلحاح. ولم أكذب ذلك. لقد فعلت ما فعلت من أجل الشعب ومن أجل بيرون، لأنه لا وجود لمن يستطيع مداناته ولو عن مسافة كوكبية. لقد فعلت ذلك من أجلكم، من أجل أن يُعرف بذلك رجال الحزب ذوي المواهب القيادية. والجنرال، حين يستخدم اسمي، يستطيع الاحتماء آنياً من النزاعات الحزبية...

– هذه هي لحظة طقوس الأسرار القدسية في خطابها ـ قال مصفف الشعر ـ إيفيتا تتعرى. تقول: *أنا لست أنا. إنني ما يريد لي زوجي أن أكون. أسمح له أن يحيك مؤامرته باسمي. ولأنه منحني اسمه، فإنني أمنحه اسمي.* كان ذلك رهيباً، ولم ينتبه إليه أحد.

– هي نفسها لم تنتبه أيضاً إلى ما كانت تقوله ـ قلت له.

إيفيتا:

ولكنني لم أفكر قطّ في قلبي
كامرأة أرجنتينية بائسة أنه بإمكاني
تقبل هذا المنصب. أيها الرفاق...

لقد حانت اللحظة. والكاميرا أيضاً كائن حي. إنها ترتعش، ترتبك. أين تنظر الآن؟ الكاميرا تشم رائحة خوف الحشود، إنها مبللة بعرق الخوف أيضاً. تذهب، تجيء: أقيانوس المشاعل، إيفيتا.

جوقة:

لا! لا!

إيفيتا:

هذه الليلة... إنها السابعة
والربع مساء. أنا... أرجوكم... في
الساعة الحادية والعشرين وثلاثين
دقيقة من هذه الليلة، أنا، عبر
الإذاعة...

جوقة:

الآن! الآن!

في الطبعة الأخيرة من جريدة نو دو السينمائية هناك لقطة بانورامية تتناول مصادفة الأجواء المتوترة على الشرفة. يُرى إسبيخو وهو يقدم لبيرون تفسيرات مذعورة وغير

مسموعة. إيفيتا تسأل ماذا عليها أن تفعل. لم تعد تنظر إلى زوجها. عليها أن تنفجر في التأنيب. تكتم كلمات التأنيب. بيرون مديراً ظهره إلى الحشود، يشير بسبابته إلى الكاميرا:

بيرون:

أوقفوا هذا المهرجان الآن فوراً!

في اضطراب المنصة وفوضاها، ليس من السهل تمييز من هو صاحب كل صوت. وفجأة يتعالى لهاث هستيري، بالغ الحدة، لا يمكن أن يُنسب إلا إلى إيفيتا عاثرة الحظ.

إسبيخو:

أيها الرفاق... السيدة... الرفيقة إيفيتا تطلب منا ساعتين من الانتظار فقط. نحن سوف نبقى هنا إلى أن تعطينا قرارها. لن نتحرك إلى أن تعطي جواباً إيجابياً على رغبة الشعب العامل.

كما في شريط بلا نهاية، ترتفع من جديد المناديل البيضاء وشبكة المشاعل العنكبوتية.

إيفيتا:

أيها الرفاق: مثلما قال الجنرال

بيرون، أنا سأفعل ما يقوله الشعب.

تصفيق نهائي. المهلهلون يخرون راكعين على الأرض، الكاميرا تضيع في الأعالي، مبتعدة عن إيفيتا الإلهية وعن موسيقاها الرائعة، وعن المذبح الذي ضحوا بها عليه للتو، وعن المشاعل المشتعلة لليلة حدادها. *[هل وافقت؟ لا، لقد ضاع كل شيء. ولكنها لم توافق.]*

– لم أدرِ ما عليّ عمله بجملة إيفيتا الأخيرة ـ قلتُ لمصفف الشعر ـ إنها جملة غير قابلة للتفسير. أعترف لك بأنني فكرتُ في حذفها. أو في قطعها إلى جملتين، مما يبدل معناها. فكرت في إظهار إيفيتا وهي تقول: «أيها الرفاق، مثلما قال الجنرال بيرون». ثم يلي ذلك صمت، نقاط وقف، ربما لقطة للحشود المتعجلة في تلقي الجواب. هناك في الأفلام الإخبارية آلاف الأمتار بكل أشكال الانفعال. يمكن تصنيف تلك الانفعالات وإدخال لقطتين أو ثلاث لقطات من أكثرها ملاءمة. وأخيراً تعود إيفيتا في لقطة قريبة بالجزء الثاني من العبارة: «أنا سأفعل ما يقوله الشعب». ولن أوضح لك أن مثل هذه الترتيبات هي عملة رائجة في السينما. قفزة في المونتاج أو طمس بالأسود يكفيان لاختلاق ماض آخر. لا وجود في السينما لتاريخ، لا وجود لذاكرة. كل شيء فيها حياةٍ راهنة، حاضر محض. الشيء الوحيد الحقيقي هو وعي المشاهد. وجملة إيفيتا الأخيرة تلك التي هيجت الحشود كثيراً في الاجتماع العام المفتوح، تحولت مع مرور الزمن إلى هواء. فهي لا تعني شيئاً من دون انفعالات تلك اللحظة. دقق في تركيب الجملة. إنه غريب جدا. بيرون قال لي أن أفعل ما يقوله الشعب، ولكن ما يقول لي الشعب أن أفعله ليس ما قاله لي بيرون.

– جميع خطابات إيفيتا تتشابه ـ قاطعني مصفف الشعر ـ جميعها

باستثناء هذا الخطاب. لقد كانت بارعة في الانفعالات ولكنها خرقاء في الكلمات. ما إن تتوقف لتفكر حتى تقع في ورطة. ما كتبته حضرتك جهد، ماذا تريدني أن أقول لك. لقد فعلتَ ما تستطيعه. إنه القصة الرسمية القصة الأخرى مصورة سينمائياً. إنها خارج السينما. بل من غير الممكن اختلاقها، لأن الممثلة الأولى قد ماتت.

كان الفجر يبزغ. وبدأت مناضد مقهى ريكس تمتلئ بعاملات مقسم الهاتف وموظفي المصارف الذين يتناولون فطورهم هناك. وكانت الشمس تشق لها طريقاً، بصورة متقطعة، بين سحب السجائر والتغنج المتثاقل للبعوض الذي يزنّ محصناً ضد مرور الصباح والليل، الجفاف والفيضان. نهضتُ لأتبول. لحق بي مصفف الشعر ووقف يتبول إلى جانبي.

– هذا الفيلم ينقصه شيء أساسي ـ قال لي ـ شيء رأيته أنا وحدي.

أذهلني، ولكنني خفتُ من السؤال. فقلت له:

– هل ترغب في أن نتمشى قليلاً؟ لقد فارقني النعاس.

تقدمنا باتجاه نزلة شارع كورينتيس، بين باعة يانصيب وأكشاك هواة جمع الطوابع والعملات. رأيت امرأة تلبس جراباً واحداً ومتورمة الخدين تركض بين السيارات؛ رأيت ثلاثة توائم مراهقين يتكلمون وحدهم وفي آن واحد. لا أدري لماذا أدون هذه الأشياء. الأرق يملأ مخيلتي بهواجس تظهر وتختفي دون سبب. لدى المرور أمام فندق جوستين، في نهاية المنحدر تقريباً، دعاني مصفف الشعر لتناول فنجان من الشوكولاتة الساخنة. في ممرات المطعم كانت هناك مقاعد طويلة خاوية. لقد تمدد عليها كل من ألفونسينا ستورني وليوبولدو لوغونيس قبل أن يتخذا قرارهما بالانتحار. ومن أجل تبادل الحديث كان على رواد المكان أن يروا بعضهم بعضاً من خلال زهور ممشوقة ترتفع منها غابة من أزهار قرنفل بلاستيكية. لن أجرجر أحداً إلى مستنقعات الحوار الذي تلا ذلك، حيث يفيض عن الحاجة كل ما قلته أنا. وسأكتفي بتدوين معلومات مصفف الشعر التي تكمل، بالنبرة نفسها تقريباً، روايته التي رواها لي قبل خمس عشرة سنة

بعد انتهاء الاجتماع العام المفتوح، طلبت مني إيفيتا أن أرافقها إلى مقر الإقامة الرئاسي. لم تكن هناك نفس واحدة في الشوارع. اجتزنا صمت كوابيس. كانت إيفيتا ترتجف، مصابة بالحمى من جديد. صعدت معها إلى قاعة الانتظار الملحقة بمخدعها ودثرتها بدثار من الزغب.

- سأطلب أن يأتوكِ بفنجان شاي ـ قلت لها.

- وفنجان آخر لك يا خوليو. لم يحن وقت ذهابك بعد.

خلعت حذاءها وحلت عقيصة شعرها. لم أعد أتذكر ما الذي تحدثنا فيه. أظن أنني نصحتها بطلاء جديد للأظفار. وكنا على تلك الحال عندما سمعنا تردد أصوات في الطابق السفلي. تأهب الخدم الجنود، مما يعني أن الجنرال قد وصل إلى هناك. كان بيرون رجل عادات متقشفة. يأكل قليلاً، ويتسلى ببرامج الإذاعة الكوميدية، وينسحب للنوم باكراً. فاجأتني في تلك المرة حدّة صوته.

- إيفيتا، تشينيتا! ـ سمعتُه ينادي بصوت بدا لي مختلفاً.

لم أشأ الإزعاج. نهضتُ واقفاً.

- لا تغادر ـ أمرتني السيدة. وخرجت راكضة من الحجرة وهي حافية القدمين.

لا بد أن الجنرال كان على مسافة خطوات قليلة. وقد سمعته يقول:

- إيفا، يجب أن نتكلم.

- طبعاً يجب أن نتكلم ـ ردت عليه.

دخلا إلى غرفة النوم، ولكن الباب السميك المؤدي إلى قاعة الانتظار ظل موارباً. ولو لم تحدث الأمور بصورة سريعة وغير متوقعة لكنت انسحبت. السعي إلى عدم إحداث ضجة استبقاني هناك، وبينما أنا أجلس على طرف الكرسي، متيبساً، سمعت الحديث كله.

- ... لا تجادلي أكثر وأصغي إليّ ـ كان الجنرال يقول ـ بعد قليل سيعلن الحزب ترشحك. وسيكون عليك رفض الترشح.

- ولا بأي حال ـ ردّت إيفيتا ـ أنا لن يضغط عليّ أبناء القحبة الذين

أقنعوك أنت. لن يضغط عليّ الكهنة ولا أوليغاركيو وعسكريو البراز. أنت لم تشأ ترشيحي، أليس صحيحاً؟ والآن، فلتتخوزق. سيرشحني شحومي الصغار. لو لم تشأ أن أكون مرشحة ما أرسلت تستدعيني. لقد فات الوقت. فإما أن يضعوني في الصيغة أو لن يضعوا أحداً. لن أسمح لأحد بأن يرميني جانباً.

تركها الزوج تفرج عن نفسها. وبعد ذلك قال بإصرار:

– لا يناسبك أن تكوني عنيدة. لقد رشحوكِ. ولكن لا يمكنك الذهاب إلى ما هو أبعد من ذلك. وكلما سارعتِ في التخلي عن الترشح سيكون أفضل.

شعرت أنها تنهار. أم أنها كانت تتظاهر؟

– أريد أن أعرف السبب. بيّن لي السبب وسأكون مطمئنة.

– ماذا تريدين أن أبيّن لكِ؟ أنت تعرفين مثلي كيف هي الأمور.

– سأتحدث من الإذاعة الوطنية ـ قالت، وكان صوتها يرتجف ـ غداً صباحاً. سأتكلم وينتهي كل شيء.

– هذا هو الأفضل. ولا ترتجلي. اطلبي أن يُعدوا لك بعض الكلمات القليلة. تخلي عن الترشح دون أن تقدمي أية تفسيرات.

– أنت ابن قحبة ـ سمعتها تنفجر ـ أنت أسوأ الجميع. لم أكن أريد هذا الترشح. بالنسبة لي، يمكنك أن تأخذه وتدسه في مؤخرتك. ولكنني وصلت إلى هنا لأنك أنت أردت ذلك. أنت حملتني إلى الرقص، أليس كذلك؟ وأنا أرقص. غداً مع أولى ساعات الصباح سأتكلم من الإذاعة، وأقبل الترشح. لن يوقفني أحد.

ساد الصمت لحظات. سمعت أنفاس كليهما الهائجة وأحسست بالخوف من أن تكون أنفاسي مسموعة أيضاً. عندئذ تكلم هو. فصل الحروف، حرفاً حرفاً، وأطلقها:

– إنك مصابة بالسرطان ـ قال ـ إنك تموتين بالسرطان وهذا لا علاج له.

لن أنسى إلى الأبد البكاء البركاني الذي انفجر في الظلام الذي كنت أختفي فيه. كان بكاء لهيب حقيقي، بكاء هلع، وحدة، بكاء حب ضائع.

وأنت إيفيتا:

- براز، براز!

سمعتُ الخادمات يتراكضن وانصرفتُ من البيت كمن يمشي نائماً.

أدار مصفف الشعر وجهه إلى جهة أخرى. تفاديتُ نظرته عندما التقت بنظرتي. لقد كان رجلاً ممتلئاً بالكثير من الذكريات وبمشاعر قديمة، ولم أكن أريد أن يلتصق بي أي من تلك المشاعر.

- فلنذهب ـ قلت له. كنت أريد الابتعاد عن ذلك الصباح، وعن الفندق، وعما رأيته وسمعته.

- وصلتُ إلى بيتي في حوالي الثانية فجراً ـ واصل مصفف الشعر.

أحسست أنه لم يعد يتحدث إليّ.

- كانت ابنتا عمي بقميصي النوم، تنتظرانني. كانتا قد رأتا، من ملجأ في شارع ألسينا، وصول الجنرال إلى الاجتماع العام المفتوح، ولكن تدافع الحشود الذي كان يحملهما إلى الأمام والخلف أوصلهما عندما تكلمت إيفيتا إلى مكان قريب من الشرفة، على بعد عشرين أو ثلاثين خطوة. «رأينا وجهها الخزفي»، قالت لي ذات الورم الدرقي؛ «رأينا أصابعها الطويلة كأصابع عازفة بيانو، والهالة المضيئة حول شعرها»... فقاطعتها قائلاً: «ليس لإيفيتا أية هالة. لا يمكنك أن تبيعي هذه الكذبة لي أنا». فأصرت ذات الأنف الأكبر: «بل لها هالة. جميعنا رأيناها. وفي النهاية، عندما ودعت، رأيناها تطفو على ارتفاع متر، متر ونصف من الشرفة، راحت ترتفع في الهواء وظهرت هالتها بوضوح، لا بد أن يكون المرء أعمى كيلا يرى ذلك.»

-5-

«ارتضيت أن أكون ضحية»

لوحتان تزينان مكتب الكولونيل في مقر المخابرات. الكبيرة هي استنساخ لا يغيب عن أي مكان للوحة بلانيس الزيتية التي تمثل بطل التحرير سان مارتين وهو يخوض غمار الحرب. أما موضوع اللوحة الأخرى فهو النظام. رسم تخطيطي بقلم الرصاص يظهر فيه إيمانويل كانط وهو يمشي في شوارع كينيكسبرغ بينما الجيران يتأكدون من ضبط ساعاتهم. أحد أضراس الفيلسوف ملتهب، ويعصب رأسه بمنديل، لكنه يمشي بنشاط، واعياً أن كل خطوة يخطوها تعزز روتين المدينة وتُبعد محنة الفوضى. الجيران الذين يطلون من الشرفات أو أبواب المتاجر، يكررون الطقس اليومي بضبط ساعاتهم على توقيت خطوات كانط. وتحت الرسم، وهو من عمل الرسام فرديناند بيلرمان، كتابة بالألمانية تعلن: «وطني هو النظام».

كان الكولونيل معتاداً على الدقة. ففي صباح كل يوم يدون في دفتر الأعمال التي أنجزها وتلك التي ينوي البدء بها. وبين مهمات هذا اليوم ظهرت لأول مرة مفاجأة: إيفيتا. كان الكولونيل، وهو على انفراد من طبيب التحنيط في المصلى، قد رأى أخيراً الجسد في الناووس الزجاجي. لم تفاجئه رؤيته بقدر ما فاجأته صعوبة التخلص من شيء غير عادي مثل

المفاجأة. وحسب ما تقول ملاحظات الدكتور آرا، فقد كانت إيفيتا شمساً ذائبة، شعلة لهب بركاني. وفكر: في هذه الظروف سيكون من الصعب حمايتها. ما الذي يتحرك في داخلها؟ أهي أنهار من الغاز، والزئبق، وثلج جامد؟ ربما يكون المُحنِّط على حق ويتبخر الجسد في عملية النقل. لابد أن يكون سامّاً. وماذا لو كانت الجثة التي رأيتها ليست لها؟ لم يتوقف هذا الشك عن تعذيبه، مثل قطعة أثاث في غير مكانها.

لقد كتب في دفتره: *22 تشرين الثاني، كم هو عدد الأجساد؟ ربما تعرف الأم مزيدا من التفاصيل. يجب التحدث إليها. وضع علامة لا يمكن إزالتها عن المرأة: وسمها كما توسم فرس. تحديد مكان النسخ الأخرى. تحديد المكان الذي ستبقى فيه حتى تلقي أوامر أخرى. وضع خطة عملية النقل. تحديد التاريخ والساعة: أيكون ذلك في يوم 23 عند منتصف الليل؟*

هناك عمل كثير. عليه البدء بأسرع ما يمكن. تناول الهاتف واتصل بدونيا خوانا. انتظر طويلاً ريثما يجدونها : ومن خلال الخط سمع وقع خطواتها كدجاجة حاضنة، وأنفاسها الربوية، وصوتها المتهدج:

– ما الذي تريدونه الآن مني؟

– أنا الكولونيل موري كينيك ـ كان الصوت ينساب بتفخيم ـ لقد كلفني رئيس الجمهورية بأن أدفن ابنتك دفناً مسيحياً. لم يبق في البلاد أحد من أقربائها المقربين سوى حضرتكِ. إنني بحاجة إلى اللقاء معك من أجل بعض الشكليات القليلة. أيمكنك...؟

– لم تطلبوا الإذن مني في أي شيء مما فعلتموه. ولا أرى الآن سبباً...

– سأحضر إلى بيتك خلال نصف ساعة. هل أنتِ...؟

– منذ أيام وأنا أطلب جوازات سفر أسرتي ـ قالت الأم. ومع كل كلمة أو كلمتين كانت تتنحنح ـ الشرطة لم تسلمني إياها. أريد الذهاب من هنا. ستذهب أسرتي كلها. لقد صارت البلاد غير صالحة للعيش.

– غير صالحة للعيش؟ ـ كرر الكولونيل.

– هيا. لقد حان الوقت لوضع حدّ لهذه الأمور.

بحث في الصحف المكدسة على منضدة المكتب عن خبر حول الجثة فمنذ شهور لم يتسرب ولو سطر واحد. أهو التطير، أهو الخوف؟ يمكن لكل شيء أن يظهر إلى النور في أي لحظة. أما الآن، بينما الجثة على وشك الانتقال من يد إلى أخرى، لا أحد يتحكم بالسر. قرأ: **في الولايات المتحدة يبيعون أسهما للعيش على القمر.** *نيويورك (أ.ب.).* مؤسسة مشبوه أسسها الرئيس السابق لبلانيتاريو هايدن توصلت إلى اكتساب ألف وخمسمائة زبون مستعدين للاستثمار بدولار واحد من كل زبون./ **لا ارتفاع حالياً في أسعار الوقود.** هذا ما أعلنه وزير الصناعة، المهندس ألفارو كارلوس ألسوغاراي الذي يساهم في صياغة برنامج لإعادة العافية إلى اقتصاد البلاد المخرب بسياسات الدكتاتور المخلوع./ **القوات المسلحة متوحدة أكثر من أي وقت آخر.** رئيس الجمهورية المؤقت، الجنرال بيدرو إوخينيو أرامبورو، أكد يوم أمس في خطاب إذاعي على وحدة كافة الأطر العسكرية الراسخة وغير القابلة للزعزعة أمام متطلبات الثورة التحررية... راجع الكولونيل الأخبار الموجزة بمزيد من الانتباه. لا شيء. يا للراحة: لا شيء.

أطل من نوافذ مكتبه المصفحة والقاتمة وتأمل أشجار الجكاراندا في جادة كايّاو التي تمتنع أزهارها عن التفتح. كان النحل يئز فوق ذراها. سلام الأعمدة يُفسده صخب الحافلات وعربات الترام. أنحلٌ في بوينس آيرس؟ كان ربيعاً، كميات مفرطة من الورق وأوراق الشجر تغطي فتحات المجارير، لم يكن النحل يقطع نظام الحياة المتماثل.

وقد طلع الصباح أيضاً على حديقة دونيا خوانا وهي تغص بالنحل. كانت الأم قد خرجت لتشم هواء الصباح وسرعان ما اكتشفت طيران أسراب النحل في الأعالي. رجعت إلى البيت لتخبر عن الأعجوبة عندما طرق أحدهم الباب ضرباً براحة اليد. في مثل هذه الساعة؟

ومن خلال منظار الباب تعرفت على صلعة القهرمان الذي خدم إيفيتا

بورع حتى عشية موتها. إنه أتيليو رينزي. كان يحمل في يده حافظتي أوراق ويريد تركهما لها.

– ما الذي جئتني به يا رينزي؟ ماذا سأفعل بهذا؟

– إنها كتابات ابنتك. لقد أنقذتُها بصعوبة من مقر الإقامة الرئاسي.

– احتفظ بها أنت يا رينزي. إنني أغادر بوينس آيرس. احفظها لي إلى أن أعود.

– لقد جئت بها مجازفاً بحياتي يا دونيا خوانا ـ ألح الرجل ـ لا أريد أن أشعر الآن أن ما فعلته لا يساوي شيئاً.

عندما روى لي رينزي نفسه القصة، بعد أربعة عشر عاماً، لم يكن هناك من يتذكره تقريباً. كان عليّ أن أراجع أرشيفات كثيرة قبل أن أستخلص بعض آثار حياته الماضية. ومن خلال ما استشففته، كانت حياته غنية. أتيليو رينزي. في صورة مطموسة الملامح في جريدة *ديموكراثيا* يظهر وهو يطلب الصمت من نساء يصلين تحت المطر من أجل صحة السيدة عند مدخل مقر الإقامة الرئاسي. إنه رجل قصير، متثاقل، رطب: القهرمان المخلص الذي تبع إيفيتا مثل ظل وناله الخسوف معها. قرأت عنه أنه كان رقيباً في سلاح المشاة إلى أن ضمه بيرون للعمل في خدمته الشخصية، كسائق في البدء، ثم كمسؤول عن تموين القصر بعد ذلك. ولكن رينزي سرعان ما تحول إلى ديانة إيفيتا وصار يخدم بيرون بأساليبه في المجاملة وحسب. وفي كل مرة كانت إيفيتا تعنى بالبائسين، كان القهرمان يشعر أيضاً بالأسى على نفسه وتفلت منه بعض الدموع. فكانت السيدة تخجل من رؤيته في تلك الحال وتقول له: «اذهب إلى الحمام يا رينزي. لا أحب رؤيتك في استعراضات مؤثرة». وفي الحمام، كان يفكر: «يجب عليّ ألا أبكي، يجب ألا أبكي. هي تظل قوية، أما أنا بالمقابل فأبدو سخيفاً». ولكن هذا التفكير يزيد من بكائه.

وصل رينزي إلى بيت دونيا خوانا في حوالي الثامنة. كانت صلعته تتعرق، والقبعة في يده ترتعش، لا يعرف كيف يخفي نسالات معصمي قميصه. أفسحت له دونيا خوانا الطريق بين الحقائب المبعثرة في الردهة،

ولكن رينزي أشعرها بأنه لا حاجة إلى ذلك.

- يجب أن أغادر فوراً - قال، بالرغم من أن ذلك لم يكن صحيحاً.

في المناسبة الوحيدة التي تحدثتُ فيها إليه، أخبرني أن حماسته خارت. «كنت أرغب بشدة في المغادرة، رباه - قال لي -، أردتُ تسليم الأوراق والخروج من هناك».

كان قد أمضى ثلاث سنوات كمسؤول عن التموين في مقر الإقامة الرئاسي عندما وصلته إشاعة أن إيفيتا تضوي منهوكة من السرطان. ورؤيتها مستنفدة ومعروقة أيقظت في رينزي ورعاً أشد تسلطاً من الخجل: كان ينظف بولها، ويدلك بالزيت قدميها المتورمتين، يمسح دموعها ومخاطها. ولكي يصرف انتباهها عن الهزال المرعب الذي سببه لها السرطان، أخرج كل المرايا الكبيرة وثبت مؤشر الميزان على ستة وأربعين كيلوغراماً أبدية. وحين بلغ الاحتضار أقصاه، وصارت مواكب النساء تتقدم من أطراف بوينس آيرس حتى ساحة الجمهورية، متوسلات معجزة تنقذ حياتها، أقدم رينزي على تعطيل أجهزة الراديو كيلا تسمع إيفيتا بكاء الجموع الرهيب والطويل.

بعد موت السيدة، صار بيرون يختفي من مقر الإقامة لأسابيع كاملة، فكان القهرمان الذي ليس لديه ما يشغله، يجول بصمت في الممرات الخاوية، حاملاً منفضة ريش، بحثاً عن شوائب غبار مستحيلة. في ذاكرة رينزي (وهي ذاكرة جبانة، كما قال لي هو نفسه، تبددت منها اللحظات السعيدة)، كان القصر الرئاسي آخذاً بالاستسلام يوماً إثر يوم للخراب: بدأت لطخات عفونة بالظهور من القماش الدمشقي الذي يغلف الأرائك، وراحت شرابات الستائر المذهبة تنفلت، وصار يُسمع، في الليل، التقدم المهووس للنمل الأبيض في درابزينات السلالم. كان بيرون يكره البيت وكان البيت يكرهه. لم تكن هناك هدنة في تلك الكراهية إلى أن هزمته وقرر الهرب.

في صباح يوم الهرب، رافقه رينزي حتى السيارة حاملاً له الحقائب،

وعندما التفت الجنرال ليعانقه، تظاهر القهرمان بأنه لم يره ورجع إلى البيت ويداه على خصره. دفع للخدم راتبهم الأخير وأمرهم بالانصراف، ثم دفع لنفسه، وقرر الانتظار تلك الليلة في حجرة السيدة ـ وقد ظلت مغلقة منذ يوم جنازتها ـ. كانت ما تزال هناك، دون أن تمس، حمالات الصدر والسراويل الداخلية ماركة ديور التي أمرت إيفيتا بشرائها في ساعات احتضارها، وفساتين الحفلات التي خاطها الخياط جامندريو، معتقداً أنه يخدعها بذلك، قبل ثلاثة أيام من النهاية. داعب رينزي تلك البقايا من الجسد الذي طالما وقّره، شم رائحة بقايا أحمر الشفاه، ومسحوق بودرة كوتي للأنف، وعطر شانيل نمرة خمسة، فرد على الفراش أطقم الملابس الداخلية الحريرية وبيجامات الساتان التي كانت تحفظ في أدراج الكوميدينو تحت طبقات من السوليفان، وألقى حول رقبته شال فرو السمور الذي أرسله المكتب السياسي للاتحاد السوفييتي هدية إلى السيدة في الشهور الأولى من عام 1952، مع رسالة مقتضبة من ستالين نفسه، واستلقى باكياً على الوسائد حيث بكت هي نفسها ولعنت الموت العاهر ومن أنجبه.

وعندما حل الظلام، فاجأه إحساس بالفضول. ففتح الخزانة الصغيرة السرية التي كانت تخبئ إيفيتا في أدراجها رسائلها وصورها، وتفحصها وفي نيته أن يأخذ واحدة منها. وجد رسالة تتضمن تعليمات إلى المانيكور، كُتبت قبل المرض، وبعض الصور لخروجها الأخير إلى الهواء الطلق، وكانت هي نفسها قد قطعت ساقيها من تلك الصور، ربما لأنهما كانتا تبدوان، في نحولها الشديد ذاك، مستقيمتين أكثر مما كانتا عليه.

أشعل أنواراً قليلة كي يُبعد الهائمين على وجوههم. ففي تلك الساعات الأولى لهرب الجنرال بيرون، كانت البلاد لا تزال بلا حكومة، وعلى الرغم من كل ما كانت تقوله الإذاعة، كان يسود وقف لإطلاق النار بينما تستمر مداولات الجنرالات والأميرالات. لم يتوقف هطول الأمطار، وكان الناس يقبعون في بيوتهم خوفاً من نيران القناصة. كان حراس مقر الإقامة

الرئاسي قد انسحبوا منذ وقت مبكر، لأنه لم يبق هناك أحد لحراسته

ووراء باب خفي بين أدراج الخزانة السرية، يُفتح بنابض خفي، اكتشف رينزي رزمة من حوالي خمسين ورقة مكتوبة بخط اليد يبدو أنها من الكتاب الذي كتبته السيدة خلال مرضها بعنوان *رسالتي*. كان الخط متقلباً. بعض الجمل مرسومة بحروف بارزة الزوايا، تختفي ببطء لتحل محلها حروف منفصلة وغير متجانسة، كما لو أن تنفس الكلمات يحول إيفيتا إلى شخصيات مختلفة. هناك صفحات أخرى، الخط فيها منتظم ومتماثل، لا بد أنها تعود إلى اللحظات التي كانت تفقد فيها القدرة على الاستواء والنهوض، فتفضل أن تملي ما تريد كتابته. ووجد حافظة أوراق أخرى تضم صفحات تستنسخ النص نفسه، ولكنه مطبوع على الآلة الكاتبة هذه المرة، وفيه حذف وتعديلات ملحوظة.

وفي قعر المخبأ تتكدس بعض الدفاتر المدرسية تحمل تاريخ العامين 1939 و1940، عندما كانت إيفيتا تشق طريقها كممثلة مسرح. الصفحات الفردية تبدأ بكلمات يوضع تحتها خط في أحيان كثيرة: الأظفار، الشعر، الساقان، المكياج، الأنف، تمارين ونفقات مستشفى، تتلوها قائمة توصيات لا تصل إلى نهايتها.

بدأ رينزي القراءة ولكنه توقف، وقد فاجأه تهوره. لقد كان حريصاً إلى أقصى الحدود على شؤون السيدة الحميمة وهي حية، وفكر في أنه يجب أن يكون أشد احتراماً لها الآن بعد أن لم تعد إيفيتا قادرة على الدفاع عن نفسها. فتلك الدفاتر تنتمي إلى المرحلة الأشد سرية وسوء حظ من حياتها القصيرة، ويجب ألا تقع بالتالي تحت نظر أي دخيل. إنها قراءات مسموح بها فقط للأم، هكذا فكر رينزي، وفي تلك اللحظة قرر أن يسلمها إلى دونيا خوانا. ترك الأوراق المطبوعة على آلة كاتبة من *رسالتي* في الدرج الخفي من الخزانة، وخبأ الدفاتر المدرسية ومخطوطة الكتاب بين الملابس في حقيبة أمتعته. وعند منتصف الليل أغلق أبواب مقر الإقامة كلها بمفاتيح مزدوجة وخرج تحت المطر باحثاً عن سيارة تاكسي.

بعد شهرين من ذلك، عندما جمع أخيراً ما يكفي من الشجاعة للقاء مع دونيا خوانا، كانت هي شديدة العصبية بصورة لا يمكن لها معها أن تقدر قيمة تلك الوثائق. فتركتها فوق الحقائب، بلا اهتمام، وشكرته على الهدية بواحدة من تلك العبارات الخرقاء التي تقولها دون تفكير، والتي منحتها سمعة أنها امرأة بلا مشاعر: «انظر كيف هي حال البيت، وتأتي أنت فوق ذلك كله لتحضر لي مزيداً من الأوراق. هل رأيت النحل في الخارج؟ عليك أن تراه. إنه يخيفني. يوجد ملايين النحل». أدار لها رينزي ظهره وانسحب إلى الأبد، دون كلمة وداع، من ردهة ذلك البيت ومن هذه القصة على السواء.

في حجرة النوم، تحملت الأم نوبة أخرى من التشنجات. كان الحر شديداً والرطوبة لها ثقل الطين. تشبثت بمعترضة قصيرة دون ألم، وبينما هي هناك، ساكنة، راودها إحساس بأنها تلمس نهاية ما بأطراف أصابعها. أهي نهاية العالم؟ لستُ أنا من أمضي، بل هو ما يحيط بي. هذه هي نهاية بلادي، إنها النهاية من دون إيفا، من دون خوانيتو. نهاية أسرتي. لقد سقطنا في الجانب الآخر من الموت دون أن نلحظ ذلك. وعندما أرغب في النظر إلى المرآة لن أرى شيئاً، لن يكون هناك أحد. حتى أنا لا يمكنني الذهاب من هنا، لأنني لم أجئ قط.

إنها تتذكر الآن بسعادة كل ما عاشته بتعاسة ذات يوم. تشتاق إلى حركة دواسة ماكينة الخياطة التي أحرقت عليها عينيها، وإلى لعب الورق مع نزلاء نُزلها في خونين، وإلى عريش زهرة العسل المتسلقة على الجدران غير المكسوة بالملاط، وإلى الأمسيات التي كانت تخرج فيها للتنزه بمحاذاة سكة القطار، وإلى المشاجرات مع الجارات، والسينما في أيام الأربعاء، عندما كان يجف حلقها حيال نوبات الهستيريا التي تنتاب بيتي دافيس وحياة نورما شيرر دون حب. كان هذا نصف ما تشتاق إليه فقط، لأنها لم تعد تجد ما يكفي من القوة كي تشتاق لكل شيء. لقد تركت النصف الآخر ينفصل عن لحمها المتعب ويطرق أبواب أجسادٍ أخرى. فهي لم تعد قادرة على المزيد، يا يسوع الحبيب، لم تعد قادرة حتى على روحها.

ظلت في الفراش إلى أن راحت عضلاتها الخائرة من التشنج تعود إلى وضعها. سمعت طرقات الباب وصوت الكولونيل الحلقي يُعرَف بنفسه تنهدت. مسحت وجهها بمسحوق البودرة، اخفت بمنديل ترهلات فكيها، وغطت تشعث شعرها بعمامة سوداء. هكذا خرجت للقّاء الزائر، كما لو أن النهار قد بدأ للتو.

كان الكولونيل قد أمضى أكثر من خمس عشرة دقيقة وهو ينتظرها. وفي ردهة الانتظار القاتمة، كانت تتوافق، كما في بازار، صوفا من البلاستيك بذراعين معرقين يحاكيان المرمر. وخوان زينة فج من طراز بريتاني ملتبس، ومنضدة مستطيلة من خشب السنديان، على طرفيها أريكتان من خشب المهاغوني، وفوق حافة المدفأة يوجد مذبح بريٍ وزهرية مملوءة بأزهار يانعة تحت صورة زيتية تمثل إيفيتا. وعلى الرغم من عدوانية الأثاث، كانت الحجرة ترشح نوراً. فالشمس تتسرب من كوة السقف. ومن هناك كانت تنزل شبكة عنكبوتية من أصوات قوارض. أهو النحل؟ تساءل الكولونيل. أو ربما عصافير. وفي الأعلى كان وجهان يتجسسان عليه. كلاهما فيه شبه ناءٍ من إيفيتا. يبدوان للحظات غير منتظمين، ترتفع يد فوق الوجه الذي إلى اليسار. الأظفار طويلة، مطلية بلون يتحول من الأخضر إلى البنفسجي. تحط الأظفار أحياناً على زجاج كوة السقف وتخمش. كان الصوت شديد الخفوت، شديد الكتمان، لا يمكن أن تدركه سوى أذنين مدربتين مثل أذني الكولونيل. أين رأى من قبل تلك الشعور اللامعة. في الصحف، استدرك. إنهما شقيقتا إيفيتا. أو ربما امرأتان تقلدان الأختين؟ أحياناً تشيران إليه، وتتوقفان، لتقدما إليه ابتسامة بلهاء. وما إن دخلت الأم إلى الردهة حتى ابتعد الوجهان عن الزجاج.

فوجئ الكولونيل بأن صوت دونيا خوانا ومظهرها لا يبدوان منسجمين. كان الصوت يخرج صارفا وبخشونة، كما لو أنها تجد صعوبة في السيطرة على أسنانها الاصطناعية. أما القامة بالمقابل فكانت مهيبة.

– أنتَ موري كينيك، أليس كذلك؟ هل جئتني بجوازات السفر؟ -

سألت دون أن تدعوه إلى الجلوس ـ أنا وابنتاي نريد الرحيل بأسرع ما يمكن. إننا نختنق في الجحر.

– لا – جواز السفر ليس بالأمر السهل.

تهاوت الأم على الأريكة البلاستيكية.

– تريد التحدث إليّ عن إيفيتا ـ قالت ـ حسن، تكلم. ماذا ستفعلون بها؟

– التقيتُ بالمُحَنِّط للتو. وقد منحته الحكومة يوماً أو يومين كي ينهي عمليات الغسل والطلاء بالمراهم. وبعد ذلك سندفن ابنتك دفناً مسيحياً، مع كل الميداليات، مثلما طلبتِ حضرتك.

تجعدت شفتا الأم.

– إلى أين ستأخذونها؟ – سألته.

لم يكن الكولونيل يعلم ذلك، ولكنه ارتجل:

– تُدرس عدة أمكنة. ربما تحت مذبح إحدى الكنائس، وربما في مقبرة مونتي غراندي. لن نضع في البدء لوحة بالاسم أو أي شيء يحدد هويتها. يجب أن نكون متكتمين إلى أن تهدأ الخواطر.

– سلّموني إياها أيها الكولونيل. هذا هو الأفضل. وفور حصولي على جوازات السفر، سآخذها معي. ليس هناك ما يستدعي ذهاب إيفيتا إلى قبر بلا اسم، كما لو أنه لم يبق لها أسرة.

– هذا غير ممكن ـ قال الكولونيل ـ غير ممكن.

– حدد لي موعداً. متى يمكنني المغادرة؟

– اليوم، إذا شئتِ. غداً. الأمر متعلق بكِ. إنني بحاجة فقط إلى تفويض منكِ من أجل الدفن. والأوراق. أجل. الأوراق.

تفحصته الأم مشوشة:

– أية أوراق؟

– التي أحضرها لكِ رينزي هذا الصباح. عليك أن تسلميني إياها.

عاد إلى سماع الخربشة على الزجاج وظن أنه رأى، في الأعلى، وجه

إحدى الأختين. كان شعرها في لفائف وعيناها مفتوحتين على اتساعهما، مثل بيتي بوب.

- هذا لا يطاق - قالت الأم - يا للبالوعة. أي نوع من البلاد هذا؟ تنتزعون مني جوازات السفر، تراقبون من يدخل ويخرج من بيتي، لا تتركونني أعيش. تقولون إن بيرون كان طاغية، ولكنكم أسوأ منه أيها الكولونيل. إنكم أسوأ.

- لقد كان صهرك فاسداً يا سيدة. أما في هذه الحكومة فلا وجود فيها إلا لسادة محترمين: رجال شرفاء.

- جميعهم البراز نفسه - دمدمت الأم - شرف كريه الرائحة. واعذرني حضرتك.

- أوراق رينزي - ألح الكولونيل -. عليك أن تسلميني إياها.

- إنها ليست لي. ليست لأحد. قال لي رينزي إنها كانت لإيفيتا، ولكنني لم أجد الوقت حتى للنظر إليها. لا أنوي إعطاءك إياها. اعتبرها غير موجودة.

- سآخذها بكل الأحوال - قال الكولونيل - إنها هذه، أليس كذلك؟

حاول أن يتناول حزمة حافظتي الأوراق الموضوعة فوق كومة الحقائب، ولكن الأم سبقته. تشبثت بالأوراق متحدية، ثم جلست عليها.

- انصرف أيها الكولونيل. لقد أخرجتني عن طوري.

تنهد الكولونيل مستسلماً، كما لو أنه يتحدث إلى طفلة.

- وافقي على اتفاق - أعطني الأوراق، ووقعي هذا الإقرار وغداً بعد الظهر سأرسل إليك جوازات السفر. أعطيك كلمتي.

- الجميع يكذبون عليّ - أجابت الأم -. لقد وقعتُ تنازلاً للدكتور آرا. وأنت تطلب مني الآن إقراراً. جميعكم تكذبون.

- أنا ضابط في الجيش يا سيدة. لا يمكنني أن أكذب عليك.

- إنك رجل. وهذا يكفيني كيلا أصدقك - سوّت تنورتها وظلت تهز رأسها لبعض الوقت. ثم قالت: - ماذا عليّ أن أوقع.

أخرج الكولونيل من حافظة الأوراق وثيقة مكتوبة على آلة كاتبة، عليها علامات سفارة الإكوادور، وعرضها عليها. كانت تقول: *أنا خوانا إبارغورين دي دوارتي، أوافق أن تقوم حكومة الأمة السامية بنقل جسد ابنتي إيفيتا من المكان الذي هو فيه الآن إلى مكان آخر يضمن أمنها الأبدي. أعبر عن مشيئتي هذه بكامل إرادتي الحرة.* وفي ذيل الصفحة، يؤكد شاهدان أن الأم قد وقعت بحضورهما، في 15 تشرين الثاني 1955. كل شيء كان مزيفاً مثلما هو معروف: التاريخ، وعلامات السفارة، والشهود.

– غداً سأرسل إليكِ جوازات السفر ـ كرر الكولونيل وهو يقدم إليها قلماً ـ، غداً دون تأخير.

نهضت الأم وقدمت إليه رزمة الأوراق. فعاجلاً أو آجلاً سينتزعونها منها. الكولونيل أو سواه سينتزعون منها كل ما يرغبون فيه عاجلاً أو آجلاً.

– من الخير لكَ أن تنفذ وعدك ـ قالت مشددة على الحروف ـ أنا لست وحيدة أيها الكولونيل. ولستُ بلا حماية.

– لا حاجة بكِ لأن تهدديني. سأنفذ ما وعدتك به.

– والآن انصرف ـ قالت الأم وهي تنهض ـ. اعتنِ بابنتي. وإياكم أن تقترفوا حماقة دفن نسخة عنها.

عاد أزيز كوة السقف، وقد عاد بعناد ورتابة. مغزلُ نحلٍ طويل كان يغزل روتينه فوق الزجاج.

– اطمئني. لقد تم تحديد الجسد الحقيقي.

– والنسخ الأخرى؟ هل سلموك النسخ الثلاث؟

– لا تبالغي ـ قال الكولونيل مزايداً ـ توجد نسخة واحدة فقط.

– بل ثلاث. أنا رأيتها. وأكثرها تأثير عليّ كانت تلك التي تقرأ رسالة. إنها تبدو حية. حتى أنا نفسي ظننتُ أنها إيفيتا.

انفجرت بالبكاء. كانت تريد تجنب ذلك ولكن البكاء راح يتدفق من

تلقاء ذاته: من عينين أخريين، من مكان آخر، من المواضي التي عاشها كلها.

– اسمعي النحل ـ قال الكولونيل ـ إنه يملأ المدينة كلها. والإذاعة، لا أدري... لا يذكرون في الإذاعة كلمة واحدة عن هذه الجائحة.

في العراء الضارب إلى الصفرة وغير الرحيم، استسلم الكولونيل، للحظة، لفوضى الغضب. ثلاث نسخ من الجسد. من الضروري أن تكون كلها في يده بأسرع ما يمكن. اجتر العبارات التي قالتها له الأم. جميعها تنحل في كلمة واحدة مقيتة، قاتلة، الكلمة أو الاسم الذي يئز في أفكاره ولكن ليس في فمه على الإطلاق. شغل مذياع السيارة. أنطونيو تورمو، أوركسترا فيلثيانو برونيللي، مقطوعة لبتهوفن: كل ذلك يغيظه. عدَّ حتى عشرين، دون جدوى. جرب تمارين تنفس:

إيفيتا (EVITA): فعل في حالة تصريفه مع الشخص الثالث، المفرد، في الزمن الحاضر، مشتق من الفعل evitar [تجنب، تفادى] (أصله من اللاتينية: evitare, vitare). بمعنى: عرقل. منع. حال دون حدوث شيء يوشك أن يحدث.

سيتجنب كلمة إيفيتا. وسيتجنب الكلمات الوبيلة المحيطة بها: levita/ نوع لباس رجالي. Levitar (باطنية) / الارتفاع في الهواء دون سند مرئي. vital/ صفة من حياة. سيتجنب كل لغة ملوثة بنذر شر تلك المرأة. سيسميها فرساً، مهرة، حنشاً، صرصوراً، فريني، إستيرثيتا، ميلونغيتا، بوتيفري: سيستخدم أي اسم من التي يجري تداولها الآن، ولكن ليس الاسم الملعون، ليس الاسم المحظور، ليس الاسم الذي ينذر نكبة على حيوات من ينطقون به. La morte è vita [الموت والحياة]، ولكن Evita è morte [إيفيتا والموت] أيضاً. حذار الموت

إيفيتا وموت.*

سوف أروي وقائع اليوم الأخرى متجنباً التفخيم الذي تعانيه. سأعرضها كمربي نحل.

بمرافقة حراسة من ستة جنود، عاد الكولونيل للظهور في مبنى الاتحاد العام للعمل في موعد الغداء. حين دخل بهو الطابق السفلي، لاحظ أنه لم تُرفع بعد أنقاض تمثال إيفيتا النصفي الذي دمرته دبابة حربية في الليلة الفائتة. القوة العسكرية الصغيرة كانت مسلحة ببنادق رشاشة ومسدسات باليستر مولينا، دون مراعاة احتياطات السرية والحذر التي فرضتها السلطات الجديدة للجمهورية. جرد الكولونيل الحراس الموزعين في الطابق الثاني من أسلحتهم، وأمرهم بالعودة إلى حامياتهم، واستبدلهم بجنود موالين.

أطل الدكتور بيدرو آرا على الممر مرتدياً مريلة العمل، وحاول التحدث إلى الكولونيل، ولكن دون جدوى، لأن الكولونيل لم يعد يقبل الآن أي

---

* هيلفيو بوتانا الذي أشار لي إلى هوس الكولونيل باشتقاقات كلمة إيفيتا وأصولها، أصر (مقابلة في شهر أيلول 1987) على أنه يتوجب عليّ أن أحدد ما هي المصادر التي أتخذت منها الألقاب الأخرى. فرس ومهرة كانتا طريقتين شائعتين للإشارة إلى إيفيتا بين الضباط المعارضين لبيرون منذ بداية العام 1951 على الأقل. أما Friné و Butterfly فلقبان راجا من خلال أعمدة إثكيبيل مارتينث إسترادا في أسبوعية (*بروبوسيتو*). أما حنش وصرصور فهما، حسب بوتانا، تسميتان للرحم في لغة السجون الاصطلاحية. وأما إسترثيتا وميلونغيتا فمشتقان من أغنية التانغو *Milonguita*، التي نظمها عام 1919 – سنة ولادة إيفيتا – صمويل لينيج وإنريكي ديلفينو. والمقطع الأوسع شهرة منها هو التالي:

إستيرثيتا!
اليوم يسمونك ميلونغيتا،
زهر رفاه ومتعة،
زهرة ليل وكباريه.
ميلونغيتا!
الرجال أساؤوا إليك،
وأنت تقدمين الآن روحك
مقابل أن تلبسي البروكار.

حديث سوى القوة. دفع المحنِّط إلى داخل المخبر واستجوبه واقفاً، وهو مطبق القبضتين، دون أن يتجنب evitar (يا للفعل اللعين) إغراء اللجوء إلى العنف. تظاهر آرا في البدء جهله بوجود نسخ أخرى سوى تلك التي اعتبرها بحكم المفقودة في صباح ذلك اليوم بالذات. ثم انهار بعد ذلك، حين ذكر الكولونيل ما كشفته له الأم. فقال إن تلك النسخ ليست له. إنها للنحات الإيطالي الذي يعمل في نصب السيدة العجيب، والذي خلّف وراءه بعد هروبه سلسلة من النقوش، وأعمال الحفر الغائر، والشعارات، والمنحوتات، والصلصال البكر، والأقنعة، وصوراً للسيدة بالحجم الطبيعي، ستذهلك تلك الطبيعية في الحجم، ولأن السيدة معكوسة فيها، في النسخ، كما في صورة فوتوغرافية للفردوس.

لم يكن الكولونيل مهتماً بالشروح. فما يهمه هو النسخ المقلدة. «إنها هنا، في متناول أي شخص» أخبره المحنِّط، وأضاف: «في صناديق، موضوعة عمودياً وراء ستائر المصلى».

الاختبارات المخبرية ستكشف في ما بعد أن الإيفيتيات المزيفة قد صُنعت من مزيج من الشمع والراتينج وإضافات ضئيلة من الألياف الزجاجية. وتختلف عن الجسد الحقيقي لأنها تبدو أكثر برونزية ـ وهو احتياط يستبق تبدلاً لا مفر منه في لون الأنسجة المحنطة ـ، ولأن النسخ جميعها تنظر إلى أسفل.*

– لم تعد أي حاجة لوجودك هنا يا دكتور ـ قال الكولونيل ـ دع الجثة في الصندوق الزجاجي وانصرف. لقد أمرت بإغلاق هذا الطابق

---

* لم أرَ النسخ المقلدة قطّ، ولكنني أستطيع تخيلها. ففي العام 1991 اكتشفتُ في متحف وايتني في نيويورك بعض التماثيل البشرية المصنوعة من راتينج البوليستر والألياف الزجاجية، وقد التبس عليّ أمرها وظننت أنها شخصيات حية. النحات يدعى دان هانسون وأعماله موجودة، على ما أظن، في مطار فورت ليديرديل وفي متحف جامعة ميامي. وتماثيله كلها تنظر إلى أسفل، والسبب حسب الكاتالوجات هو أن «تعابير العينين هي الشيء الوحيد الذي لا يمكن للفن أن يعيد استنساخه»

الثاني. وقد أعلنته منطقة عسكرية.

ومع ذلك، كان جسد إيفيتا الممدد على البلور يقاوم الأوامر ويتصرف حسب منطقه الجنائزي. بدأت فتحتا الأنف بنفث غازات زرقاء وبرتقالية. والآن، ماذا حدث لها؟ تساءل الكولونيل. إنها في أحسن حال، لا تحتاج شيئاً. لا تعاني من كوابيس أو من برد. لا تضايقها الأمراض ولا الجراثيم. لم تعد لديها أسباب للحزن. تفحصها من أعلى إلى أسفل. كانت تنقصها نتفة صغيرة من صوان الأذن اليسرى، والفقرة الأخيرة من الأصبع الوسطى في اليد اليمنى. لقد قطعهما الأطباء الشرعيون الحكوميون للتثبت من هويتها. وقد كانت إيفيتا. إنها هي: لا مجال للشك. لا بد له على كل حال من أن يضع علامة خاصة بنفسه: سيُحدث جرحاً لا يمكن لأحد سواه التعرف عليه.

أخذ من المخبر ملاقط ومشرطاً وأنابيب سبر. رفع سماء الشفتين الصافيتين ودرس تدرجات الأسنان، باذلاً الجهد في عدم فقدان التحكم بنفسه. توقف عن الإبطين. رأى شفافية العانة المستوية، وهضبة الحلمتين المراهقتين، والنهدين المسطحين والمدورين: نهدان صغيران غير مكتملي التكوين. جسد. ما يعني جسد؟ سيقول الكولونيل في ما بعد. أيمكن إطلاق تسمية جسد على جسد امرأة ميت؟ أيمكن لهذا الجسد أن يسمى جسداً؟

الإليتين. البظر الغريب المتطاول. لا. أي إغواء هو البظر. لا، عليه أن يهذب فضوله. سيقرأ الملاحظات التي دونها حول البظر. صوان الأذن وتلوياته: هذا أفضل. رفع شحمة الأذن السليمة. تحت ظل الغضروف يوجد قوس ناعم: انزلاق. اختار النقطة. في البقعة الحلزونية التي تنتهي إليها العضلة ذات التسمية الأطول في التشريح البشري، esternocleidomastoideo، يوجد حيز بكر، لم تصله بعد الزيوت المأتمية. تناول ملقطاً. الآن. أحدث الجرح: خيط من اللحم. خلف القطع علامة نجمية بطول مليمتر ونصف، تكاد تكون غير مرئية. وبدلاً من الدم، انبثق خيط من الراتينج الأصفر ما لبث أن تبخر على الفور.

أمر بأن تختم أبواب المخبر والمصلى بأشرطة تنبيه: *منطقة عسكرية. ممنوع المرور.* وخرج ليتنفس هواء المساء العكر، وأبخرة النهر، ولهار الطلع غير الرحيم.

ما الذي يعرفه عن إيفيتا في نهاية المطاف؟ يعرف أنها كانت فظة، شبه أمية، متسلقة، خادمة هاربة من حظيرة الدجاج. لقد كتبَ ذلك في دفتره: «خادمة بكبرياء ملكة. عدوانية، بلا شيء من الأنوثة. مزينة بالمجوهرات من رأسها حتى قدميها تعويضاً عن المهانات التي عرفتها. حاقدة. دون هواجس. إنها عار». ولكن هذه الكلمات كانت نوعاً من التفريج عن النفس. إنه يعرف قصصاً أسوأ. يعرف أن الرسائل التي تطلب فساتين زفاف، وأثاثاً، ووظائف، ودمى، وما لا يُقال، صارت تحوّل إليه، بعد موتها، للرد عليها. رسائل إلى إيفيتا. فكانت هي، حتى بعد موتها، توقّع الردود بدقة. كان هناك من يقلد توقيعها في أسفل عبارات مثل: «أقبلكِ من السماء»، «إنني سعيدة بين الملائكة»، «كل يوم أتبادل الحديث مع الرب»، وغيرها. ففي أثناء احتضارها، رتبت هي نفسها الأمور على هذا النحو. إنه العار.

وصل إلى المكتب بألم لجوج في الرأس، كأنه انعكاس لفوضى ما. أهو الطعام... الجنس؟ لا شيء من هذا. فحياته تنساب على إيقاع الروتين. مثل كانط، مثل الفصول. الفصول؟ هناك شيء يتحول، الآن، في بنية الطبيعة، ترتفع ألسنة حَرّ، أعمدة من أربع وثلاثين درجة مئوية. تطير أسراب من الجراد. أغصان الأشجار تفور بالنحل. تأمل مرة أخرى رسم بيلرمان. إنها أزمنة أخرى. مشية كانط الثابتة. والساعات التي تتحرك منصاعة لإيقاع خطواته. لا وجود لشمس ولا ليل ولا إشارة إلى وجود ريح، وإنما ضوء الأبدية الكامد.

ليس هناك من يسمع. وليس هناك ما يتحرك بين طيات كل ذلك الصمت. وليس هناك من ينتظر أي جواب.

عندئذ كتب:

ماذا أعرفُ عن الشخصية: عن المتوفاة؟

الوثائق التي تفحصتها تثبت ميلادها في مكانين مختلفين وثلاثة تواريخ

متباينة لمولدها. فهي، وفق محضر كنيسة أبرشية لوس تولدوس أو خنرال فيامونتي، قد ولدت في 7 أيار 1919 بمزرعة أنيون، في تلك المنطقة، وباسم آخر: إيفا ماريا إبارغورين. وفي سجل لمسرح كوميديا (يعود للعام 1935) تتبدل كافة المعطيات: «إيفيتا دوارتي، سيدة شابة. تولد خونين، 21 تشرين الثاني 1917». أما محضر زواجها من خوان بيرون فيذكر أنها ماريا إيفا دوارتي، مولودة في خونين يوم 7 أيار 1922.

الأسلاف، والأبوان، والأخوة؟

ابنة زنا. الأب خوان دوارتي (1872 – 1926)، يتحدر من مربي ماشية باسكيين وأراغونيين، ملتزمين لدى ملاكين آخرين. كان رجلاً متوسط الثراء، ووسيطياً، يتعاطى أمور السياسة. في العام 1901 تزوج في تشيفيلكوي من إستيلا غريسوليا، وأنجب منها ثلاث بنات. انتقل إلى تولدوس عام 1908، واستأجر حقلين على بُعد عشرين كيلومتراً من محطة القطار.

في أحد هذين الحقلين، كانت خوانا إبارغورين (1894 – ...)* الأم، تعمل خادمة، وهي ابنة زنا أيضاً. ولدت من علاقة طارئة بين بيترنيلا نونيث، بائعة جوالة من براغادو، وحوذي باسكي يدعى خواكين إبارغورين الذي كان شهماً بمنح خوانا لقبه قبل أن يختفي إلى الأبد.

وقد ساكنت الأم (خوانا) السيد المستأجر في العام 1910، خلال الاحتفالات بالذكرى المئوية للاستقلال. وفي بداية الصيف، قبل قليل من موسم الحصاد، حضرت أسرة دوارتي الشرعية في زيارة آتية من تشيفيلكوي، وكان على خوانا أن تختبئ في الأكواخ. وفي شهر آذار أنجبت ابنتها الأولى، بلانكا. وقد جدد دوارتي علاقته بها في شهر أيار، ومنذ ذلك الحين، ولمدة تسع سنوات تقريباً، ظلا يكرران الدورة الرتيبة بالعيش

* ما كان للكولونيل أن يعرف وهو يكتب هذه الملاحظات أن دونيا خوانا ستموت في 12 شباط 1971.

معاً من نيسان حتى تشرين الأول. وأنجبا أبناء آخرين: إليسا في 1913، وخوان 1913، وارميندا 1917، وإيفا ماريا 1919. وجميعهم، باستثناء الأخيرة، اعترف أبوهم بهم. وبعد أربعة شهور من ميلاد إيفا ماريا رحل خوان دوارتي عن لوس تولدوس إلى الأبد. وقد زار أبناءه غير الشرعيين مرة أو اثنتين، ولكن بنفاد صبر، وسهو، وتلهف للتخلص من ماضيه.

ماذا حدث عند موت الأب عام 1926؟

(تقرير مشفر. السطران الأخيران:

yitqhvhatcpmcaislhzkmlbmifcsebamkmybegsccqfitbkx

متى بدأت المتوفاة البروز كخطيبة؟ وما هي أول أبيات شعرية ألقتها؟

في العام 1933، عندما كانت تدرس الصف السادس في مدرسة خونين الأولى، طلبت منها المعلمة بلميرا ريبيتي أن تمثل في احتفال التاسع من تموز. وقد اختارت المتوفاة للمناسبة قصيدة قصيرة من *الحبيبة الجامدة*، وهو ديوان شعر مشهور للشاعر آمادو نيرفو، وعنوان القصيدة «كم هي جيدة حال الموتى!». وبتشجيع من الآنسة ريبيتي، ظهرت في ذلك اليوم بالذات علي ميكروفونات متجر أدوات منزلية، حيث ألقت قصيدة نيرفو الأشد تأثيراً «ميتة!» من ديوانه *ظل الجناح*.

متى وكيف قررت أن تهجر خونين لتجرب حظها كفنانة في بوينس آيرس؟

(تقرير مشفر. السطران الأخيران:

Cgifiedbdhgqcuaslhpmkucikgqbfitfhgknfbikptcirhe
ctbmbhnukdihecs4820bgbezsbhviffb.

هل هربت من خونين مع المغني أغوسطين ماغالدي، 34 عاماً، والمعروف بأنه «صوت بوينس آيرس العاطفي»؟

(تقرير مشفر. السطران الأخيران:

Batllcqbgbvbkfmcqbgimbcfihtfkxcqbgmbpfchgqcua

sbgfhecsctfbiplbmbedbmCPHVBbkjirhectcplbot.

المصاعب التي تعرضت لها المتوفاة من أجل دخول الوسط الفني معروفة، حيث ظلت حتى العام 1944 شخصية من الصف الثاني. من هم الأصدقاء الذين أتاحوا لها الدخول؟

توجد قائمة من الأسماء المشفرة.

خلال الشهور السبعة الأولى من عام 1943، اختفت المتوفاة. لم تعمل خلال تلك الفترة في الإذاعة ولا في المسرح ولم تكن مجلات الاستعراضات تذكرها. ما الذي حدث خلال تلك الفترة؟ هل كانت مريضة، أم ممنوعة من العمل، أم منزوية في خونين؟

(تقرير مشفر. السطر الأخير:

Ipcplitcahqiehsyhglbscpiqbfbircdsitccqbkjebplhed mbgbtebs.

عندما تعارف الدكتاتور المخلوع والمتوفاة في العام 1944، من أوقع منهما بالآخر؟

هي قدمت نفسها إليه بعبارة إغواء عالية الفولتاج: «شكراً لأنك موجود أيها الكولونيل»، وعرضت عليه أن يناما معاً في تلك الليلة بالذات. لقد كانت جسورة دوماً. لا تستطيع تصور أنه يمكن للمرأة أن تكون سلبية في أي ميدان، ولا حتى في الفراش، حيث المرأة كذلك بحكم الطبيعة. أما الدكتاتور المقبل بالمقابل، فكان غير فطن بعض الشيء في الصراعات الغرامية: إنه رومانسي، وعادي الذوق.

هل عُرف أن للمتوفاة حساباً سرياً في زيوريخ بسويسرا؟

كان بحوزة المتوفاة 1200 رقاقة ذهبية وفضية، و756 مشغولة فضية وذهبية، و650 حلية، و144 قطعة عاج، وعقود، ومشابك من البلاتين والماس والأحجار الكريمة تقدر قيمتها بـ 19 مليون بيزو، إضافة إلى أملاك غير منقولة وأسهم في منشآت زراعية بالشراكة مع زوجها الدكتاتور المخلوع، قُدرت قيمتها قانونياً بمبلغ 16.410.000 بيزو. هذه المجوهرات والممتلكات

تمت مصادرتها لخزينة الدولة عام 1955. ولم تكشف التحقيقات الدبلوماسية التي قامت بها مباشرة حكومة الثورة التحررية، أو التحريات العديدة التي قام بها هذا الجهاز وغيره من أجهزة المخابرات، عن وجود أية حسابات سرية باسم خوان د. بيرون، أو ماريا إيفا دوارتي دي بيرون، أو أفراد أسرة كليهما أو أشخاص محتملين أعاروهما أسماءهم.

عند موت المتوفاة، قُدرت ممتلكات المؤسسة التي تحمل اسمها بأكثر من 700 مليون بيزو. هل سحبت هي أية مبالغ لمصلحتها الشخصية؟

لقد تصرفت على هواها بمبالغ أكبر من تلك، دون أن تقدم حساباً أمام أحد. أهدت بيوتاً، وأموالاً نقدية، وأمتعة منزلية لأشخاص موالين وضئيلي الموارد وآخرين من المتملقين المجهولين. ولكن، على الرغم التحقيقات المحاسبية الدقيقة، لا وجود لدليل على أي إثراء غير مشروع. لم تكن المتوفاة بحاجة لأن تسرق. فقد كانت تملك كل ما تشاء، وكانت تتصور أن سلطتها ستكون أبدية.

هل هناك أي إشارة إلى خيانة زوجية أقدمت عليها المتوفاة؟

لقد بُحثت هذه النقطة بتدقيق شديد. لا وجود لأي إشارة.

هل هناك أي إشارة إلى خيانة زوجية أقدم عليها الدكتاتور المخلوع؟

مهما بدا ذلك غريباً، لم يُعثر كذلك على أية إشارة. فقد استُجوب حول هذه النقطة وزراء سابقون، وقضاة سابقون، وقادة نقابيون سابقون، ومتواطئون آخرون مع الطاغية. وقد وافق معظمهم على أنه، بعد موت زوجته، اقترف كل أشكال الميول الشهوانية، والتهتك، واللواط، الفجور، ولكن لا شيء قبل موتها.

أي أهمية يمكن أن تكون لهذا الموضوع لدى جهاز المخابرات؟

له أهمية قصوى. فالخريطة الإيروتيكية هي خريطة السلطة. وبدلاً من القلق الذي تحافظ به الزوجات على أزواجهن، تساءلت المتوفاة عما عليها أن تفعله كي تتجاوز بيرون. لقد كانت فكرة هذيانية، ولكن أفكارها كلها كانت كذلك. قلبت الأمر عدة مرات في ذهنها، حتى توصلت إلى نتيجة: ستتجاوزه

بثقل حبها. فمن يحب أكثر يكون أقدر. لم يكن هناك من هو أكثر وفاءً، ولا أكثر عشقاً، ولا أكثر ثقة، أو أكثر صدقاً منها. لقد أحاطت ضخامة حبها بكل شيء. وأحاطت أيضاً بالزوج، احتوته. وهذا يعني التهمته.

حسب تقارير أطباء الأمراض النسائية المتوافرة لدينا، وجدت المتوفاة نفسها عاجزة عن القيام بواجباتها الزوجية الحميمة منذ نهاية العام 1949، حين بدأت تعاني آلاما شديدة في وركيها. منذ بدء تلك الحال، كيف يُفسر وفاء الطاغية الزوجي، وهو الفقير بتخيلاته الإيروتيكية ولكن ليس بشهوته؟

لقد فسرت ذلك بعض المصادر الموثوقة. فعلى الرغم من نشاطاتها الدوارية المكثفة، لم تتخل المتوفاة قط عن إرضاء زوجها، إلى أن فارقتها قواها. فقد تمكنت من جعل الاستمناء يبدو مجامعة. كان لسانها يعمل كرحم. ولم يستمتع الدكتاتور قط بجنس أكثر خبرة مما كانت توفره له، ولم يعد إلى العثور عليه بعد موتها.

ماذا كانت الرغبة الأخيرة للمتوفاة؟

لقد أخبرت أمها بذلك. فالرغبة الأخيرة للمتوفاة تمثلت في عدم السماح لأي رجل بلمس جسدها الأعزل والعاري، وألا يتحدث أي رجل عن جسدها، وألا يرى أحد في العالم نحولها وانحطاطها الأبدي. وكان أول من خرق رغبتها تلك هو الدكتاتور نفسه الذي أمر بتحنيطها وعرضها بكل وقاحة على الجماهير طيلة أسبوعين. وبالتالي لم أعد أنا مضطراً لاحترام أي شيء. وأشعر بطمأنينة أكبر إذا ما استطعت أن أرمي إلى الكلاب بتلك الرغبة الأخيرة.

عندما رفع الكولونيل رأسه، لم يكن ثمة مدينة في ما حوله. كانت هناك عتمة، ضباب غامض، حجاب القمر في الجانب الآخر من النوافذ. كان عليه أن يعمل، أن يركض. بأية خطوات؟ مازال عليه العثور على المكان الذي سيخفي فيه الجثة الحقيقية، واختيار القوة العسكرية التي ستصادرها، وتحديد ساعة النقل. وبعد ذلك سيكون عليه أن يقرر مصير النسخ الأخرى، ومحو آثار البصمات كلها، والاستحمام، والنوم. مطّ جسده إلى الوراء وسمع، من بعيد، أزيز النحل.

ـ 6 ـ

«اللغز يترصد»

بعد قليل من منتصف الليل مرّ ببيته. كانت امرأته تسرح شعرها. في كل مرة تسرحه إلى أعلى، يبدو بها شبه بعيد عن المتوفاة: العينان المدورتان بلون القهوةٍ نفسهما تحت حاجبين مرسومين بقلم، والأسنان البيضاء البارزة قليلاً نفسها. في مناسبات أخرى، حين كان الكولونيل يلتقي بزوجته، كانت تقول له: «لم أعد أعرفك. إننا متزوجان منذ خمسة عشر عاماً وفي كل يوم أعرفك أقل من السابق». لم يكن الأمر كذلك يومذاك. فقد قالت له:

– يجب أن نتكلم. لحسن الحظ أنك جئت.

– في ما بعد ـ أجابها.

– الأمر مهم ـ ألحت.

أغلق الكولونيل باب الحمام على نفسه، وبعد ذلك، بينما هو مستلق على صوفا مكتبه، راح يغفو. على الجدران تُعلق رسوم تخطيطية بقلم الرصاص يشغل نفسه بها: مدن مرئية من أعلى، صفوف من الأبراج القوطية.

طرقت المرأة الباب بخوف وأطلت برأسها. أومأ الكولونيل بحركة استياء.

– إنهم يتصلون كل لحظة بالهاتف ـ قالت ـ وعندما أردّ يقطعون المكالمة.

– مهووس ما ـ علق الكولونيل دون رغبة ـ. ستخبرينني بذلك في ما بعد. أحتاج إلى الراحة.

– لا يتصل الشخص نفسه ـ قالت المرأة ـ. أحياناً يتصل شخص ويظل للحظات على الخط متنفساً. لا يُسمع سوى تنفس مريض. وفي مرات أخرى يقول المتصل: «قولي لزوجك ألا يلعب بالنار. وأن يترك السيدة حيث هي». وصباح اليوم بدؤوا بالتهديدات. لا يمكنني أن أكررها لك. يذكرون اسمي، وبعد ذلك سلسلة من البذاءات. لقد سألتهم: «من هي السيدة؟». ولكنهم قطعوا المكالمة.

– كيف هي الأصوات؟ ـ قال الكولونيل ـ أهي أصوات سود بيرونيين أم عسكريين؟

– وما أدراني. كيف لي أن أنتبه إلى هذه الأشياء.

– أعيري انتباهك. حاولي في المرة القادمة أن تسجلي الأصوات في ذهنك.

– قبل قليل، في حوالي الساعة العاشرة، قرعوا جرس الطابق السفلي. قالوا لي إنهم آتون برسالة منك. قلتُ لهم: «اتركوها تحت الباب». فأجابوني: «لا نستطيع. لقد أصدر الكولونيل الأمر بأن نسلمها يدوياً». كانوا يريدونني أن أنزل. ولكني رفضتُ. فبعد المكالمات الهاتفية كنت أموت رعباً. قالوا لي: «الأمر خطير. إنه خطير جداً.» ظننتُ أن شيئاً ما قد حدث لك. ارتديتُ ثوباً بيتياً وأطللت إلى الشارع. كانت هناك سيارة متوقفة قبالة الباب، من ماركة ستادبيكر خضراء اللون. صوبا إليّ مسدساً، وعندما بدأت أصرخ انصرفوا. لم يفعلوا شيئاً: أروني فقط أنهم يستطيعون قتلي عندما يرغبون.

– لقد كنتِ حمقاء ـ قال الكولونيل ـ لماذا خرجتِ؟

– خرجت كيلا يصعدوا هم إلى البيت. خرجت بدافع الخوف. من هي

هذه السيدة؟ في أي أمر أدخلت نفسك؟

ظل الكولونيل صامتاً للحظات. كان يجد صعوبة على الدوام في فهم النساء. يكاد لا يستطيع التكلم معهن. إنهن يتحدثن عن مخرمات، ضفائر، أورغانزا، طلاء أظفار: لا علاقة له بأي شيء مما يهمهن. النساء يبدون له قشوراً تسقط من عالم آخر، نكبات مثل الحمى ورائحة الجسد الخبيثة.

– لم يحدث شيء ـ قال ـ لماذا سأشرح لكِ ما لن تفهميه.

وفي تلك اللحظة رن جرس الهاتف.

المصادر التي تستند إليها هذه الرواية موثوقة بصورة مريبة، ولكن بالمعنى الذي هو عليه الواقع واللغة أيضاً: لقد تسللت إليها زلات من الذاكرة وحقائق غير نقية. إحدى أشهر عبارات إيفيتا التي تكشف ما كانت عليه فكرتها عن الأمور. قالتها في 24 آب 1951: «إنني شابة ولدي زوج رائع، محترم، موضع تقدير ومحبة شعبه. إنني في أحسن حال». أمر واحد من هذه الأمور اليقينية مؤكد بصورة لا تقبل الجدال: كونها شابة. فقد كانت في الثانية الثلاثين. أما الأمور الأخرى، فإيفيتا وحدها هي من آمنت بها. لقد كان زوجها ذلك الحين مهدداً بمؤامرتين متزامنتين، وكان الأطباء في ذلك الصباح قد أخبروها، هي نفسها، بأنها تعاني من فقر دم وبيل وعليها أن تحتجب عن النشاطات العامة. لقد كانت في أسوأ حالاتها. وكان أمامها أحد عشر شهراً لتموت.

بالنسبة للمؤرخين وكتّاب السيرة، تشكل المصادر على الدوام وجع رأس مزعجاً. فهي لا تكفي بحد ذاتها. وإذا كان مصدر مشكوك فيه يريد التمتع بحق الحرف المطبوع، يجب أن يتأكد بمصدر آخر، ولا بد لهذا بدوره من أن يتأكد بثالث. وغالباً ما تكون السلسلة بلا نهاية، وغالباً ما تكون غير مجدية، لأنه يمكن لحصيلة المصادر أيضاً أن تكون مخادعة. ولنأخذ مثلاً على ذلك عقد زواج بيرون وإيفيتا، والذي يؤكد فيه كاتب عدل عام من مدينة خونين صحة المعلومات. الزواج ليس زائفاً ولكن كل ما

يقوله المحضر زائف تقريباً، من البداية حتى النهاية. ففي أشد اللحظات وقاراً وتاريخية في حياتيهما، قرر المتعاقدان ـ هكذا كان يقال آنذاك ـ السخرية من التاريخ. فكذب بيرون بشأن مكان إجراء الطقوس وحالته المدنية. وكذبت إيفيتا حول عمرها، وعنوانها، والمدينة التي ولدت فيها. وقد كانت الخدع واضحة، لكن عشرين سنة انقضت قبل أن يظهر من يشير إليها. ومع ذلك، في العام 1974، أعلن كاتب السيرة إنريكي بافون بيريرا أن تلك المعلومات صحيحة، وذلك في كتابه *بيرون، رجل القدر*. واكتفى مؤرخون آخرون باستنساخ العقد ولم يناقشوا زيفه. ولم يخطر لأي منهم مع ذلك التساؤل عن السبب الذي دفع بيرون وإيفيتا إلى الكذب. لم يكونا بحاجة إلى ذلك. أتكون إيفيتا قد أضافت ثلاث سنوات إلى عمرها كيلا يكون عمر العريس ضعف سنوات عمرها؟ وهل يكون بيرون قد تظاهر بأنه أعزب خجلاً من الإقرار بأنه أرمل؟ أتكون إيفيتا قد تخيلت أنها ولدت في خونين لأنها كانت ابنة غير شرعية في لوس تولدوس؟ فهذه التفاصيل التافهة لم تكن تقلقهم. لقد كذبا لأنهما لم يعودا يميزان بين الكذب والحقيقة، ولأن كليهما، وهما الممثلان البارعان، بدأا يقدمان نفسيهما بدورين آخرين. لقد كذبا لأنهما قررا أن الواقع سيكون، منذ تلك اللحظة، ما يشاءانه هما. لقد تصرفا مثلما يتصرف الروائيون.

كان الشك قد اختفى من حياتيهما.

أهناك من يريد أن يسمع، على كل حال، كيف أعرف ما أرويه؟

من السهل تعداد ذلك: إنني أعرفه بفضل اللقاء الذي أجريته مع أرملة الكولونيل في 15 حزيران 1991؛ وأعرفه بفضل محادثات أطول مع ألدو ثيفوينتس في شهر تموز 1985 وشهر آذار 1988.

لقد كان ثيفوينتس الرجل موضع الثقة الأخير لدى الكولونيل وحارس رسائله. كان قصير القامة، شبه قزم تقريباً، كثير الصراخ، وفضائحي. يفاخر بأنه قرأ القليل جداً من الكتب في حياته، ولكنه ألف سبعة عشر كتاباً: حول آباء الكنيسة، والتنجيم، وإشراق وردة الصليب، وحركة

الشين بين الأيرلندية، وملاجئ إحسان المونسنيور دي آندريا. وكانت كتاباته موثقة جيداً، وهو ما يجعل تصريحاته بالجهل تبدو، ربما، مجرد ضرب من الدلال. لقد أسس أبوه حوالي عشر مجلات في سنوات العشرينيات وأثرى منها بحمايته مافيويين. وكان ثيفوينتس يروي أن أباه قد سلمه، قبل أن يموت، دفتراً فيه أسماء عشيقاته التسعمائة واثنتين وتسعين. وبعضهن كن راقصات، وجاسوسات، وممثلات مشهورات. وأنه قال له: «سامحني. لم يُتح لي الجسد أن أصل بهنّ إلى الألف».

بدلاً من العشيقات، كان ثيفوينتس يجمع الزيجات. وكان يمضي في زواجه السادس عندما أمم بيرون كل صحف العائلة وخلفه مفلساً. تمشى ثيفوينتس في شارع فلوريدا ليعرض حداده. كان يلبس كرجل ساندويتش، مع لافتة من قدام ومن خلف تقول: *نتعاطى الحظ من ألهيبة*. بعد اجتيازه شارعين اقتادوه معتقلاً، بتهمة الإخلال بالنظام. فاستغل أسبوعي وجوده في السجن ليؤلف كتاباً ضد إيفيتا بعنوان *الكاماسوترا البامبي*. وقد اكتشفه الكولونيل من خلال هذا الكتيب السري. فدعا المؤلف إلى الطعام، وأعرب عن تقديره له باستذكار أشد المقاطع وقاحة عن ظهر غيب، وعندما انتهى، عقد معه اتفاق صداقة أبدية يُلزمهما البند الأول فيه بالعمل معاً لإسقاط الدكتاتور.

لقد كان ثيفوينتس بارعاً في النميمة. يجمع من المدينة قصص الزوجين بيرون (هكذا كان يسميهما هو، الثنائي، مفخماً من التماثل بينهما)، ويلقي بها بعد ذلك على مسمع الكولونيل النهم. كانا يلتقيان مرة كل أسبوع لتصنيف الحقائق والأكاذيب في الروايات وتحويلها إلى تقارير سرية يقوم ثيفوينتس بتوزيعها على الصحف ويستخدمها الكولونيل في معاركه مع عملاء آخرين في المخابرات. أما اللقب العسكري لثيفوينتس فكان عقلة الإصبع، ليس فقط لأنه قصير جداً وإنما كذلك لأنه كان يترك في كل مكان، مثل شخصية بيرالت، كرات صغيرة من لباب خبز لا تنفد يحملها في جيوبه.

عندما تعرفت إليه، قبل ثلاث أو أربع سنوات من موته، لم تكن هناك طريقة لتهدئة تلهفه السردي. كنتُ أرمي اسماً أو تاريخاً ما في الهواء، فيلتقطه على الفور ويترجمه إلى قصة تنبثق منها قصص كثيرة أخرى، مثل دلتا بلا نهاية. ولم يكن هناك ما هو أصعب من إعادته إلى نقطة البداية.

ما يرويه هذا الفصل يستند حصراً إلى حواراتي معه (سبعة أشرطة كاسيت مدة كل واحد منها ساعة كاملة).

أعود لسماعها وألحظ أن ثيفوينتس يوضح لي، بتفخيم مريب، كم كان سهلاً عليه الخروج والدخول إلى جهاز مخابرات الجيش في تلك الأيام الأخيرة من شهر تشرين الثاني 1955. ويؤكد ضابط قديم في المخابرات، وهو يشدد على إغفال اسمه، أن ذلك مستحيل. ويقول إنه ما كان يمكن لأي مدني في ذلك الحين أن يتجاوز الحراس، وكلمات السر المتبدلة، وأوامر السرية القصوى التي تحمي مصير الجثة. لم يستطع التوصل إلى ذلك الدخول والخروج الدكتور آرا ولا الأم. وسيكون بالتالي أقل حظاً في التوصل إليه رجل لا يعرفه أحد.

ومع ذلك، لا أدري أياً من الروايتين أتبنى. لماذا يجب أن يكون التاريخ رواية أشخاص حصيفين وليس هراء خاسرين مثل الكولونيل وثيفوينتس؟ إذا كان التاريخ ـ كما يبدو ـ جنساً آخر من الأجناس الأدبية، فلماذا حرمانه من المخيلة والهراء والفظاظة والمبالغة والهزيمة التي تشكل المادة الأولية للأدب، والتي لا يمكن تصور الأدب من دونها؟

الوقت الآن فجراً. الكولونيل يرتدي الزي العسكري، وهو يجتاز جادة المكتبات والبارات المغلقة التي تفصل بين بيته والموقع المحصن الذي توجد فيه مملكته، جهاز المخابرات. ولم يكد ينام شيئاً.

يُجفله برقٌ. ثم يسمع بعد ذلك دوي الرعود. الحال هي هكذا على الدوام في بوينس آيرس: سماء من رماد، متورمة، وغيوم تتنقل كمجانين من مكان إلى آخر، صواعق برق في أحد أركان الليل، ربما يكون في السهل؛ وبعد ذلك لا شيء. المطر يتبخر قبل أن يصل إلى الأرض.

جندي الخدمة يفتح كوة المراقبة قليلاً، يتعرف إليه ويتأهب. لديه أوامر بعدم فتح الباب قبل استكمال طقس كلمات السر كاملاً. «من هناك؟»، يسأل. فينظر الكولونيل إلى ساعته. إنها الخامسة وثلاث دقائق صباحاً. «تراجيديا»، يقول. لو أنها الخامسة إلا دقيقة واحدة لكان عليه أن يقول: «كُلابة»، ولكان الرد عليه «غرغرة». أما الآن بالمقابل، فرد عليه الحارس وهو يتأهب: «حربة ثلاثية»، وقام في الوقت نفسه بقطع أجهزة الإنذار وفتح القفل. كلمات السر تتبدل كل ثماني ساعات، ولكن الكولونيل قرر أن يُختصر الفارق إلى النصف عندما تصير المتوفاة بين يديه.

يصعد إلى مكتبه، في الطابق الخامس، ويشعل مصباح الكيروسين. وللغرفة، كما نتذكر، نافذة واسعة من زجاج مصفح ينعكس عليها الليل، ثابتاً، كما في لوحة. على سطح المكتب لوحتان تعظان بفضائل البطولة والدقة. مازال علينا أن نذكر وجود الكراسي العالية، المغلفة بالجلد، حول المنضدة البيضاوية، حيث يجتمع الضباط. والخزانة الفينيسية التي تُحفظ فيها سجلات الحسابات والتشريعات العسكرية حول السريّة، وجهاز استقبال ماركة غروندينغ من خشب أرز، مع مكبري صوت عريضين، متر ونصف؛ والمكتبة حيث ترك القائد السابق معجم الأكاديمية الملكية للغة وبعض الاسطوانات المغلفة.

سأورد الآن، بصورة حرفية تقريباً، رواية ثيفوينتس الذي كرر لي بدوره الرواية التي أخبره بها الكولونيل قبل عشرين سنة. وسأورد كذلك بعض التواريخ التي عرضها عليّ ثيفوينتس وملاحظاته في دفتر من نوع ريبفادافيا:

«كانت الساعة حوالي الخامسة وخمس دقائق. وفي الساعة السادسة، يجب على الكولونيل أن يجتمع مع هيئة أركانه. كانت تنقصه، مثلما تعرف، بعض التفاصيل للخطة. قال لي إنه جال المدينة في سيارة عدة مرات. وقال لي إنه لدى المرور بقصر الأعمال الصحية، تذكر أن هناك في الركن الجنوبي الشرقي حجرتين فارغتين ومختومتين، شُيدتا في الأصل من

أجل الحراس. أنت تعرف القصر. إنه بعبع من الخزف، لا وجود فيه إلا لسراديب وأنفاق ماء. كان الكولونيل موري كينيك قد رأى مخططات المكان في أرشيف البلدية وحفظها في ذاكرته بحكم عادات المهنة. وعندما تذكر المعلومة، فكر - كما قال لي - بالمتوفاة. إنه المكان المناسب لإخفائها.

«لقد كان موري كينيك في تلك الحقبة رجلاً دقيقاً، مهووساً. يعرف بدقة نقاط الضعف في الوزراء، في القضاة، في قادة الفرق العسكرية. وكان التحدث إليه تجربة مريرة: سيتشكل لديك رأي بالغ السوء حول أمثاله. فتصور عندئذ كم من الوساوس سيبدي في اختيار مساعديه. لم يكن يسعى إلى أن يكونوا نقيين بلا دنس. بل كان يفضل أن تكون لديهم نقيصة كبيرة، كي يتمكن من التحكم بهم. كأن تكون لهم أخت مجنونة أو مشوهة، أو أب بسوابق إجرامية.

«لدي البطاقات التي لخص فيها قصة ضباط المخابرات الثلاثة. لقد أعطاني إياها مع أوراقه الأخرى. ربما يعنيك أن تستنسخها:

*«الشخص الثاني من معاونيّ، هو إدواردو أرانثيبيا**، *مقدم في سلاح المشاة، متزوج، 34 عاماً. الزوجة تصغره باثني عشر عاماً، وهي في حملها الأول، منذ ثلاثة شهور. 1) عيناه عنبريتان، حاجباه أسودان وشعره كذلك، دون شيب. طول القامة 1,78، قدمان صغيرتان: ينتعل مقاس 40. ضابط في الأركان العامة، لقبه في المدرسة الحربية: المجنون. له خالان، أخوا أمه، وهما يعانيان اللعثمة، وضعيفان ذهنياً. إنهما في مصحة الكارمن، في مدينة ميندوثا. 2) كاثوليكي ورع. 3) أصيب بالتهاب سحايا في الطفولة، وخلّف المرض فيه آثاراً. نوبات ربو لا وبائية. 4) عمل لسنة ونصف في رقابة الدولة تحت أوامر الطاغية، في شعبة القمع*

---

* جميع أسماء الضباط وضباط الصف في بطاقات الكولونيل تظهر مستبدلة. فأرانثيبيا لم يكن يدعى أرانثيبيا، وغالارثا لم يكن غالارثا. وأنا وفيّ الآن لتلك المشيئة في حفظ السر، وسأكون كذلك مرة أخرى في الفصل 11، عندما تُقدم كنة أرانثيبيا أيضاً باسم آخر.

الإيديولوجي، ولكنه انتقل من فريق إلى آخر عندما عادى بيرون الذنب.ه الرئيس يضع يديه في النار تصديقاً له. 5) أضمُ إلى هذا التقرير جزءاً من رسالة أرسلها أرانثيبيا من تارتاغال إلى زوجته المقبلة «الشيء الوحيد الذي نتسلى به هنا هو عمليات الإعدام رمياً بالرصاص. نضع ستة أو سبعة كلاب مقيدة إلى الجدار الطيني، ونشكل فريق الإعدام. وعند إصدار أمر إطلاق النار، يجب توجيه الرصاص إلى رؤوسها. الجنود أجلاف. إنهم يخطئون دوماً. يوم أمس توليت الرماية أنا نفسي. ومن ستة كلاب كانت هناك أصبتُ خمسة في رؤوسها. ظل الآخر ينزف وقتاً طويلاً. وعندما تعبتُ من عويله أمرت بالإجهاز عليه». 6) صف الضابط المخصص له: الرقيب المساعد خوان كارلوس أرماني.

«الشخص الثالث في القيادة، ميلتون غالارثا، نقيب قديم، من سلاح الدفعية، متزوج، 34 عاماً، له ابن ذكر وحيد في السابعة. 1) زوجته تعاني من حصى في المثانة، التهاب كلية كامن، قصور في الغدة الدرقية: إنها قائمة من الأمراض. طويل القامة، متران تقريباً. 2) يعزف سراً (بصورة سيئة) على البوق. ولا بد أن هذا هو السبب في أنهم يسمونه Benny Goodman. لم ينهِ المدرسة الحربية. وقد فات الوقت الآن كي يفعل ذلك. 3) إنه لا أدريّ، وربما هو ملحد. لكنه يواري ذلك. 4) كان ضابط مساندة في محاولة 1951 الفاشلة لاغتيال الدكتاتور. وقد أنقذ الجنرال «ل.» مسيرته العسكرية. وسعى لأن يرسلوه إلى قطاع في الأدغال. 5) مقطع سري من ملفه: «تقرير من حامية كلورينذا إلى قائد الفرقة الثانية، بتاريخ 54/04/13: تأكد أنه في أثناء خروج روتيني، خلال ثلاث مناسبات، في الشاحنات التي يذهبون بها من مسيون تاكاغلا إلى لاغونا بلانكا، قام النقيب م.غ. بإطلاق النار خفية على عائلات من هنود توبا وموكوبي. ويوجد اعتراف خطي من الجنود الذين يقودون الشاحنات بأن م.غ. استخدم بندقية ماوزر نظامية، ووجد نقص 34 طلقة من ذخيرته. وقد وُبخ م.غ. شفوياً». 6) صف الضابط المخصص له: الرقيب

المساعد ليفيو غانديني.

«الشخص الأخير: غوستافو أدولفو فيسكيت، ملازم أول، 29 عاماً، احتمال كبير بانحرافات جنسية. أعزب. في المدرسة العسكرية كانوا يطلقون عليه لقب «بلوميتي». 1) على منضدة مكتبه مزهرية، وصورة لأمه، ونشافة حبر من خشب ملمع ومرصع بالعظم، زجاجة عطر أتيكنسون مع علبة بودرة في الدرج الثاني إلى اليمين، ومرجع في تعليم تحرير المراسلات. يجب التحري عن سبب عدم إبعاده عن المؤسسة. 2) كاثوليكي يشارك في مناولات خبز القربان أيام الآحاد. 3) مبرز في استخدام الشيفرة وحل رموزها. يوجد دليل محط شك في ملفه في جهاز المخابرات: تصريح طوعي باح به جندي الخيالة خوليو آ. ميرلين لقائد الحراسة في الوحدة 19 في توكومان، يوم 51/10/29. «الملازم فيسكيت جاء وظهر فجأة في حمام الجنود، حيث كنتُ أنا والجندي أكونيا نتبول. ووقف الملازم يبول إلى جانبي. انتهى الجندي أكونيا وانسحب وواصلت أنا. وبينما كنت أهز عضوي كي أخرج، لمسه الملازم بطرف إصبعه وسألني: هل أنت سعيد؟ فقلت له: المعذرة يا سيدي الملازم، وانسحبتُ في الحال، دون أية نتائج أخرى.» إقرار مؤرشف ومحفوظ بأمر من قائد الوحدة 19. 4) صف الضابط المخصص له: الرقيب الأول هيرمينيو بيكوارد.

«في تلك الفترة، كان الكولونيل يعتقد أن لديه أخيراً لوحة واضحة للقوى التي يعتمد عليها، ولكن الأمر لم يكن كذلك. فالإنسان، كما تعرف حضرتك، لا يكون شبه نفسه أبداً: إنه يختلط بالأزمنة وبالأمكنة وبأمزجة اليوم، فتعيد هذه العوامل رسمه من جديد. الإنسان ما هو كائن، ولكنه ما هو آخذ بالتحول إليه أيضاً.

«أعرفُ أنه في إحدى لحظات فجر ذلك اليوم تناول خريطة بوينس آيرس الكبرى وفتحها على المنضدة ونشر فوقها ورق استنساخ شفافاً كان قد رسم عليه حربة باراسيلسو ثلاثية الشُعب. ربما تكون حضرتك قد

رأيتها. لها ثلاثة رؤوس على شكل مثلثات متساوية الساقين، متحدة في قاعدة طويلة يستند إليها الذراع، وهو قصير واسطواني. لقد كان باراسيلسو يؤمن بانسجام المتناقضات. ومن هنا تمثل الأسنان الثلاثة رموز فضائل متناقضة مثل الحب والرعب والفعل.

«البوينس آيرس شكل ثماني الأضلاع والحربة مؤلفة من ثلاثة مثلثات. المواءمة بين هذه الأشكال التي تستحضر رموزاً كثيرة هي عملية شديدة الحساسية، بل إنها تصير خطيرة جداً بين أيدي غير خبيرة. فالحربة الثلاثية هي إبليس، وعين شيفا، ورؤوس سيربير الثلاثة، وهي نسخة أيضاً من الثالوث. أما الشكل الثماني فهو الرمز الفيثاغورثي للمعرفة، ولكن نيكولاس دي كوسا كان يعتقد أن الأشكال الثمانية تجتذب أو تُبعد أمطار النار. استغرق موري كينيك في دراسة الخريطة بنهم خيميائي، ولكن بخوف أيضاً.»

(اسمحوا لي أن أترك تسجيلات ثيفوينتس جانباً للحظات لأقول إنني كنتُ أفاجأ على الدوام بميل العسكريين الأرجنتينيين إلى الطوائف، والرموز الخفية، والعلوم الباطنية. ومع ذلك، فإن التأثير الباطني في اختبار الكولونيل الخرائطي كان أقل ظهوراً مما هو عليه في الأدب. ولفتُ نظر ثيفوينتس إلى أن لخطته شيئاً من التآلف مع تلك التي يصفها بورخيس في قصة «الموت والبوصلة». فلم يتقبل ذلك. مع أنني لم أقرأ بورخيس إلا قليلاً، قال لي [أو أنه كذب بكلمة أصح]، إلا أنني أتذكر شيئاً ما من تلك القصة. أعرف أنه متأثر فيها بالقبالة وبالتقاليد اليهودية. أما بالنسبة للكولونيل، فإنه ما كان ليتقبل أدنى تلميح إلى اليهودية. لقد كانت خطته تستند إلى باراسيلسو، وهو الشخصية النقيضة للوثر، كما أنه في الوقت نفسه الأكثر آرية من الألمان. والاختلاف الآخر، قال لي، أكثر بروزاً. فاللعبة البارعة للتحري لونروت في «الموت والبوصلة» هي لعبة قاتلة ولكنها تحدث في النص وحسب. أما ما خطط له الكولونيل فيجب أن يحدث بالمقابل خارج الأدب، في المدينة الحقيقية التي يُنقل فيها جسد حقيقي

بصورة حاسمة.

أعود الآن إلى التسجيل. لقد وصلنا إلى حيث ينتهي الوجه (آ) من شريط الكاسيت الأول. أسمع صوت ثيفوينتس:)

«عندما طابق موري كينيك ذراع الحربة الثلاثية مع الرصيف الجنوبي، برزت رؤوس الحربة متجاوزة الخريطة، مشيرة إلى الإسطبلات وأراضي الماشية التي تظهر فيما بعد منطقة سان فيثنتي، وكانيويلاس، وموربنو. لن تفيده في شيء تلك الأرياف البعيدة. عندئذ حرك الذراع على الخريطة إلى أن جعله عند زاوية بوينس آيرس حيث يقف هو نفسه، تحت المصباح. نظر إلى الساعة، قال لي، لأن كل شيء كان دواراً عند حافة الواقع التي يطل عليها. لقد كانت الساعة السادسة إلا ست دقائق. استمر شرود نظرته أقل من ثانية واحدة. وكان ذلك كافياً كي تتقلص الحربة وتنغرس سهامها الثلاثة في ثلاثة أمكنة محددة بصورة لا تُصدق: كنيسة لوس أوليفوس، على ضفاف محطة قطار تسمى بورخيس. وحرم الشخصيات البارزة في مقبرة تشاكاريتاس. والضريح الأبيض الذي يُدفن فيه رامون فرانثيسكو فلوريس في مقبرة فلوريس. تلك هي بوصلة القدر التي كان ينتظرهـ...»

نهاية الشريط والاقتباس.

وفي الوقت الذي كان الكولونيل قد حدده مسبقاً، يُطرق الباب. يدخل أرانثيبيا، المجنون، جانبياً. يبرز وجه حذائه العسكري النظامي محدودباً. وفيسكيت الذي لا بد أنه أمضى ليلة فظيعة. وتظهر آثار ذلك على وجهه. وغالارثا، عازف البوق، يتقدم مخلفاً في تحركه أثر أصوات بطنية. لا يجلس أي منهم. يلف الكولونيل ورق الشف مع الحربة ثلاثية الرؤوس ويعرض الخريطة التي تلمع فيها ثلاث نقاط حمراء.

يروقه إرهاق الضباط الثلاثة بالكشوف التي راح يجمعها منذ صباح اليوم السابق. يحدثهم عن الأم، وعن المحنط. ويوضح لهم أنه لا يوجد جسد واحد وإنما أربعة أجساد، وأن تكاثر الجسد مناسب أكثر لخطط جهاز المخابرات: كلما كانت الآثار التي سيلاحقها الأعداء أكثر، يكون

محوها أشد سهولة.

– كيف؟ ـ سأله أرانثيبيا ـ هل بدأ الأعداء بالظهور ونحن لم نبدأ بعد؟

– هناك البعض منهم ـ يقول الكولونيل بجفاء. لا يريد إثارة ذعرهم بإخباره بأن تهديدات قد تسربت إلى بيته بالذات وعبر هاتفه الخاص.

بعد ذلك، يعدد الخطوط العريضة للخطة. يحتاجون إلى أربعة توابيت متطابقة، ومتواضعة: سيعمل غالارثا على الحصول عليها. وسيتم دفن الأجساد بين الساعة الواحدة والثالثة من فجر اليوم التالي: ستكون مقبرة تشاكاريتاس من نصيب أرانثيبيا، أما غالارثا فسيذهب إلى مقبرة فلوريس، وفيسكيت إلى كنيسة لوس أوليفوس. ومن الضروري أن يهتم كلٌ منهم بأن تكون الأمكنة خالية من الناس مسبقاً.

كلما كانت التحركات أكثر سرية، سيجد الخصوم مشقة أكبر في فك رموزها.

– وما هي القوى المتوافرة لنا يا سيدي الكولونيل؟ ـ أراد غالارثا أن يعرف.

– نحن الأربعة فقط.

ساد صمت طويل.

– نحن الأربعة فقط ـ كرر أرانثيبيا ـ. عدد ضئيل جداً من أجل سرّ بهذه الضخامة.

– إنني مُنظر السرّية الوحيد في هذه البلاد ـ واصل الكولونيل ـ. الخبير الوحيد. لقد سهرت طويلاً وأنا أفكر في هذا الأمر: التسريبات، التجسس المضاد، الأعمال المستورة، الطرق المختصرة، قانون الاحتمالات، المصادفة. لقد حسبتُ كل خطوة في هذه العملية بدقة. وقد قلصتُ المخاطر إلى اثنين أو ثلاثة بالمائة. العامل الأكثر انكشافاً في الخطة هو قوة الدعم. فكل واحد منا بحاجة إلى أربعة جنود وشاحنة نقل. ولدى كل منكم فوق ذلك صف ضابط معاون. سينتظروننا في منتصف الليل في القيادة العامة. الجنود سيأتون من فرق وكتائب مختلفة. لا يعرفون بعضهم بعضاً. الشاحنات

مغلقة وليس فيها فتحات للرؤية، وإنما ثقوب للتنفس فقط. يجب ألا يعرف أي منهم من أين هو آت أو إلى أين هو ذاهب. في الساعة صفر وخمس عشرة دقيقة فجراً سنجتمع في اتحاد نقابات العمل. المكان شبيه بأي مكان آخر. لا يهمني ما الذي يفكر فيه الجنود. ما يهمني فقط هو ما يمكن أن يقولوه.

– رائع ـ يقول غالارثا ـ. بما أن الجنود لن يعودوا إلى اللقاء معاً، فلن يتمكنوا أبداً من إعادة بناء القصة. ومن المستحيل أن يعودوا للالتقاء.

– هناك احتمال واحد من مئة وخمسين ألف احتمال ـ يشير الكولونيل ـ. إنهم مجندون من الأقاليم. وبعد غد سيتم تسريحهم من الجيش.

– لا توجد أي شائبة ـ ألح غالارثا، عازف البوق، مناضلاً ضد فورانات بطنه – هناك تفصيل وحيد يقلقني يا سيدي الكولونيل. في هذا الوضع الاستثنائي من السرية يجب ألا يقود الشاحنات الجنود أو صف الضباط.

– بالضبط يا غالارثا. سوف نتولى نحن بأنفسنا قيادتها.

يزفر فيسكيت ويلوي في الهواء إحدى يديه الواهيتين.

– قيادتي للسيارات سيئة جداً يا سيدي الكولونيل. وهنا يمكن وقوع خطأ. حضرتك تعرف: حس المسؤولية، وظلام الليل. لا أجد الحماسة للقيادة.

– عليك أن تفعل ذلك يا فيسكيت ـ أمر الكولونيل بلهجة حاسمة ـ. إننا أربعة. ويجب ألا يكون معنا أي شخص إضافي.

– هناك شيء يشغلني ـ يعلق غالارثا ـ تلك المرأة، الجسد. إنها مومياء، أليس كذلك؟ لقد ماتت منذ ثلاث سنوات. لماذا نريدها؟ يمكن لنا أن نلقي بها من طائرة إلى منتصف النهر. يمكننا وضعها في كيس كلس ودفنها في القبر الجماعي. ليس هناك من يسأل عنها. وإذا ما سأل أحدهم، فلسنا مضطرين إلى الإجابة.

– الأوامر تأتي من أعلى ـ يقول الكولونيل ـ رئيس الجمهورية يريد أن

تدفن دفناً مسيحياً.

– دفن تلك الفرس؟ ـ لقد دمرت حياتنا جميعاً.

– دمرتنا ـ يقول الكولونيل ـ ولكن آخرين يقولون إنها أنقذتهم. لا بد لنا من حماية ظهورنا.

– ربما فات الأوان ـ يقول أرانثيبيا، المجنون ـ لقد كان ذلك ممكناً قبل سنتين. لو أننا قتلنا المُحنّط، لتفسخ الجسد من تلقاء نفسه. إنه الآن جسد كبير جداً، أكبر من البلاد. وهو ممتلئ كثيراً بأشياء: براز، كراهية، الرغبة في قتله من جديد. وكما يقول الكولونيل، هناك أناس أيضاً ذرفوا من أجله الدموع. هذا الجسد الآن مثل زهر نرد مشحون. الرئيس محق. وأظن أنه من الأفضل دفنه. باسم آخر، في مكان آخر، إلى أن يختفي.

– إلى أن يختفي ـ يردد الجنرال الذي لا يتوقف عن التدخين. ينحني على خريطة بوينس آيرس. يشير إلى إحدى النقاط الحمراء، وهي ملاصقة للنهر تقريباً، ويقول: ـ ماذا يوجد هنا يا فيسكيت؟

يدرس الملازم الأول المنطقة. يكتشف وجود محطة قطارات، خطين يتقاطعان، ومرفأ يخوت.

– النهر – يخمن.

ينظر إليه الكولونيل دون أن يقول شيئاً.

– هذا ليس النهر يا فيسكيت ـ يشير غالارثا ـ إنها وجهتك.

– هناك، أجل: الكنيسة، في لوس أوليفوس ـ يقول الملازم.

– هذا المربع الأخضر هو ساحة ـ يقول الكولونيل، كما لو أنه يتكلم إلى طفل – وهنا، في الزاوية، بجوار الكنيسة، توجد حديقة مسورة بسور حديدي، يغطيها الحصى، عرضها نحو عشرة أمتار وعمقها إلى الداخل حوالي ستة أمتار. إنها مغطاة بالبيجونيا ونباتات ذات أوراق لحمية. ضع هناك، بمحاذاة الجدار، شيئاً يشبه حجراً منحوتاً. وأحطه بأصص أو بأي شيء. واجعل الجنود يحفرون حفرة عميقة. وقم بتمويهها بحيث لا يتمكن أحد من رؤيتها من الشارع.

– إنها أرض تابعة للكنيسة ـ تذكر فيسكيت ـ. ماذا أفعل إذا منعنا الكاهن من العمل؟

رفع الكولونيل يديه إلى رأسه.

– ألا يمكنك أن تحل المشكلة يا فيسكيت؟ ألا يمكنك ذلك؟ عليك إنجاز العمل. ولن يكون ذلك سهلاً.

– اطمئن يا سيدي الكولونيل. لن أخفق.

– إذا أخفقت، استقل من الجيش. على الجميع أن يضعوا في رأسهم أن الإخفاق غير مسموح به في هذه المهمة. ولا أريد أن يأتي أحدكم بعد ذلك ليقول لي إنه اضطر إلى هذا التصرف الارتجالي أو ذاك. الآن هو وقت التفكير في المصادفات واستباقها.

– سأذهب إلى الكنيسة وأطلب الإذن ـ يتلعثم فيسكيت.

– اطلب ذلك من المطرانية ـ يقول الكولونيل. يتمطى، يدفع ميلان جبهته إلى الوراء ويغمض عينيه ـ. نقطة واحدة أخرى فقط. فلنضبط ساعاتنا، ولنراجع كلمات السر.

يقاطعه طرقٌ خجول على الباب. إنه الرقيب أول بيكوارد، مشعث الشعر. إحدى الخصلات التي تغطي صلعته أفلتت من سجن صمغها ونزلت، متهدلة، حتى الذقن.

– رسالة مستعجلة للكولونيل موري كينيك ـ يبلغ ـ. لقد جاؤوا بهذا المغلف من رئاسة الجمهورية. ويقضي الأمر بأن تتسلمه حضرتك شخصياً وعلى الفور.

يتلمس الكولونيل المغلف. ويتكهن: إنهما ورقتان: واحدة كرتونية، والأخرى ورقة خفيفة. يتفحص شمع الخاتم. الرسم النافر مطموس: أهو الشعار الوطني أم رمز ذكوري؟

– كيف وصلت الرسالة إلى هنا يا بيكوارد؟ ـ سأله.

– سيدي الكولونيل ـ يقول الرقيب أول، بكتفين متهدلتين ووضعية التأهب ـ. جاء بها مسؤول، يرتدي الزي العسكري. وقد حضر بسيارة

فور سوداء عليها لوحة رسمية.

– أخبرني باسم المسؤول، ورقم السيارة.

يفتح بيكوارد عينيه مذهولاً:

– لم يُطلب منه التعريف بنفسه. ولم تُسجل الأرقام. لقد كان إجراء روتينياً يا سيدي الكولونيل. وقد فحصنا المغلف جيداً. اجتاز اختبار المتفجرات دون جديد.

– هذا أفضل. يمكنك الانصراف. ولتكن حواس الجنود الخمس متيقظة. والآن، ماذا ينقصنا؟ ـ يسأل الكولونيل ملتفتاً إلى الضباط ـ آه، كلمة السر.

– وضبط الساعات ـ يقول غالارثا مشيراً إلى رسم كانط.

– هل تتذكرون الشعار الذي أطحنا به ببيرون: «الرب عادل»؟ فلنستخدمه هذه الليلة، منذ الساعة الثانية عشرة حتى الرابعة. من يستخدمونه يجب أن يفعلوا ذلك بلهجة السؤال: «الرب؟». والجزء الثاني من الشعار واضح. والآن، الساعات.

إنها السادسة إلا أربع دقائق. يضبط الجميع عقارب ساعاتهم، ويعبئونها. يمزق الكولونيل شمع المغلف. يلقي نظرة على المضمون: صورة ومنشور. الصورة مستطيلة، مثل بطاقة بريدية.

– أيها السادة ـ يقول وقد أصابه الشحوب فجأة ـ يمكنكم الانصراف. وكونوا حذرين.

وما إن يختفي الضباط في سواد الممرات، حتى يغلق الكولونيل باب مكتبه ويعاود النظرِ إلى الصورة: إنها هي، المتوفاة، مسجاة على بلاطة المصلى، وسط أعشاش من الأزهار. تظهر جانبياً، الشفتان مفتوحتان قليلاً، والقدمان حافيتان. وجود مثل هذه الصور أمر ينم عن عدم الحذر. كم يوجد منها؟ الغريب مع ذلك هو المنشور، إنه مطبوع على ناسخة. *كوماندو الانتقام*، يقرأ الكولونيل. وتحت العبارة، بخط أخرق: *اتركوها حيث هي. اتركوها بسلام.*

- 7 -

«ليلة الهدنة»

فن المُحَنِّط يشبه فن كاتب السيرة: كلاهما يحاول تثبيت حياة أو جسد في وضع يجب تذكرهما فيه إلى الأبد. *قضية إيفيتا* هي قصة أكملها الطبيب آرا قبل موته بقليل، وتجمع المهمتين في حركة واحدة كلية القدرة: فكاتب السيرة هو في الوقت ذاته المُحَنِّط، والسيرة هي كذلك سيرة ذاتية لفنه الجنائزي. وهذا ما يظهر في كل سطر من النص: آرا يعيد تكوين جسد إيفيتا كي يتمكن فقط من رواية كيف فعل ذلك.

لقد كتب قبل قليل من سقوط بيرون: «أحاول أن أذيب بلورات التيمول وحقنها في شريان الفخذ. أسمع في المذياع مقطوعة *جنائزية* لليز Liszt. تنقطع الموسيقى. ويكرر صوت المذيع، كما في كل يوم: "إنها العشرون وخمس وعشرون دقيقة، الساعة التي انتقلت فيها الزعيمة الروحية للأمة إلى الخلود". أنظر إلى الجسد العاري، المستسلم، الجسد المريض الذي مازال دون تفسخ منذ ثلاث سنوات بفضل رعايتي له. إنني، ولو لم تشأ إيفا ذلك، مايكل أنجلو الخاص بها، صانعها، المسؤول عن حياتها الأبدية. وهي الآن - لماذا إخفاء ذلك؟ - أنا. أشعر بإغراء أن أكتب على القلب، اسمي: بيدرو آرا. والتاريخ الذي بدأت فيه عملي: 27 تموز 1952. عليّ أن أفكر في ذلك. توقيعي سيشوه كمالها. أو ربما لا: ربما

يزهد منه».

لقد حيرني آرا، كمحنط وكاتب سيرة، لبضع سنوات. يومياته تكرس صفحتين لرواية عملية مصادرة الجثة. ومع أنه يتوسع في التفاصيل، إلا أن القليل مما يقوله يتفق مع ما رواه الكولونيل لزوجته ولثيفوينتس اللذين عرفتُ أنا من خلالهما هذا الجزء من القصة.

يكتب آرا:

«في يوم 23 تشرين الثاني 1955. قبل قليل من منتصف الليل دخلتُ إلى اتحاد نقابات العمل. لم يكن ممثلو الحكومة قد وصلوا بعد. كان عدد من الجنود يقومون بالحراسة في الطابق الثاني، بعضهم أمام المصلى الجنائزي، وآخرون إلى جانب مدخل الدرج.

«- إنه البروفيسور - قال ضابط من الشرطة، وحين تعرف الجنود عليّ، أنزلوا أسلحتهم.

«فتحتُ باب المصلى، وتركته مفتوحاً. فاقترب الجنود بخجل، كما في مناسبات أخرى، ليروا إيفيتا. رسم أحدهم إشارة الصليب. وراحوا يسألونني متأثرين:

«- هل سيأخذونها هذه الليلة؟

« لست أدري.

«ماذا سيفعلون بها؟

«لا أدري.

«أتظن أنهم سيحرقونها؟

«لا أظن ذلك.

«وبينما الجنود يعودون إلى الحراسة، تفحصت المخبر. كان كل شيء مرتباً.

«نزلتُ إلى البهو كي أستقبل القادة. وكان أول الواصلين هو الكولونيل موري كينيك؛ وبعده مباشرة جاء نقيب بحري. استطلعنا معاً الممر المعقد المؤدي إلى الكراج. سمعتُ اثنتي عشرة دقة من ساعة بعيدة. كان اليوم

الجديد يبدأ.

«رجعت إلى المصلى. وكان التابوت قد أُحضر إلى هناك. أومأت مشيراً. اقترب عاملان لمساعدتي في حمل الجسد الموقر. رفع أحدهما إيفيتا ممسكاً بكاحليها؛ ورفعتها أنا والعامل الآخر من كتفيها. تقدمنا بحذر شديد: لم نُفسد تسريحة شعرها أو وضع ثوبها. وعلى صدرها كان يظهر صليب المسبحة التي قدمها إليها البابا بيو الثاني عشر. لم يبق سوى ختم الغطاء المعدني فوق التابوت.

«- أين هم لحامو المعادن؟ - سألت.

«- لقد تأخر الوقت كثيراً - أجابني أحد العسكريين - سنترك الحال هكذا الآن.

«ألححتُ، ولكنني لم أجد أي صدى مؤيد.

«- لا تقلق - قال لي الكولونيل - غداً سنعمل كل ما يتوجب عمله.

«لم يأتِ ذلك الغد قط. حاولت مقابلة الكولونيل في مكتبه عند تقاطع شارعي فيامونتي وكايّاو، كي أتأكد من أن الجسد محمي في حالة جيدة. لم يوافق على مقابلتي. ولم أستطع كذلك العودة إلى الطابق الثاني من مبنى الاتحاد العام للعمل.

«بعد شهور من يوم الرابع والعشرين من تشرين الثاني ذاك، أيقظني في منتصف الليل نداء هاتفي لجوج. وقال لي صوت لم يكن مجهولاً لدي تماماً:

«- لقد نقلوها إلى بلد آخر يا دكتور. الخبر مؤكد.

«- مؤكد؟

«- أنا نفسي رأيتها يا دكتور. وداعاً.»

أما ألدو ثيفوينتس، فأخبرني بالرواية التالية:

«في البدء، نُفذت الخطة التي أعدها موري كينيك دون أخطاء. فعند انتصاف الليل، خرج جماعته في أربع شاحنات من القيادة العامة للجيش. وكان في كل شاحنة تابوت فارغ. ودخلت جميعها بعد قليل إلى كراج

الاتحاد العام للعمل. وقع حادث في ردهة المبنى، ذلك أن المُحَنِّط المرابط هناك منذ العصر، لم يشأ الانصراف قبل التحدث إلى موري كينيك. ويريد منه أن يوقّع له إقراراً بأن الجثة كانت في حالة جيدة. تصور ذلك، كما لو أنها مسألة بضاعة. أظن أن الكولونيل صعد إلى البهو ليأمره بالانصراف. وفي قاعة الحراسة، حيث لم يكن هناك من يعلم بما يحدث في الكراج، كانت تسود (كما سيقال في الصحف) حالة من الاضطراب الشديد. فقد شاع خبر أن بيرونيي الضفاف يتجمعون في عنابر الميناء ويهددون بالانقضاض على المدينة. وكان يُخشى من هجوم على الاتحاد العام للعمل، من حدوث 17 تشرين أول جديد، ليلة سان بيرون أخرى قاتمة. لقد كانت الجماهير في الأرجنتين تتحرك على الدوام كحيوانات نزوية. ببطء، متلمسة الهواء، متظاهرة بالسكنة. وعندما يريد أحدنا أن يتذكر الموقف لا يعود هناك من هو قادر على وقفها. لقد كان موري كينيك يعرف تلك الأعراض. وواتته سرعة البديهة بفكرة الاتصال هاتفياً بالقيادة العامة للإخبار عما يحدث. وطلب تفريق المتجمعين بالرصاص. وقال إذا هم لم يقمعوا أولئك الناس قبل الفجر، فسوف يقمعهم هو نفسه. كان المُحَنِّط يتجول في المكان خافضاً رأسه. ويبدو مرعوباً جداً. وحين مرّ الكولونيل بجانبه أوقفه:

»– إذا كنتم ستأخذون السيدة قريباً، أريد أن أكون حاضراً الطقوس ـ قال.

»لم يغفر له موري محاولته خداعه بنسخ الجثة.

»– ليس لديك ما تفعله هنا ـ أجابه الكولونيل ـ فهذه عملية عسكرية.

»– لا تستبعدني أيها الكولونيل ـ ألح الطبيب ـ. لقد عنيتُ بالجسد منذ اليوم الأول.

»– ما كان عليك أن تفعل ذلك. أنت أجنبي. وما كان عليك التدخل في قصة بلاد ليست بلادك.

»رفع آرا يده إلى القبعة وخرج إلى الشارع بحثاً عن سيارته. كانت تبدو

عليه ملامح ذهول من أضاع نفسه بالذات ولا يدري من أين يبدأ البحث عنها.»

اختار ثيفوينتس هذه اللحظة من القصة ليدس واحدة أخرى من صوره الذاتية:

«أنا، مثلما تعرف حضرتك، مهرجٌ للرب. يسمونني عقلة الإصبع لأن لي حجم عقلة إصبع الرب. في بعض الأحيان أكون مارداً، وفي أحيان أخرى لا أرى. ما أنقذني من التزام الوقار هو سوء سمعتي. فبفضل سوء السمعة كنت حراً على الدوام في عمل ما يحلو لي. لا تحكم عليَّ بناء على ما أرويه لك. أسلوبي هو أقل ضبابية من هذا الواقع.

«سأوجز لك التفاصيل: في المصلى، أخرج موري كينيك نسخ الجثة من صناديقها التي وراء الستائر، وألبسها أثواباً بيضاء مماثلة لأثواب إيفا وتركها على الأرض. كانت النسخ مرنة، ولا تزن شيئاً تقريباً. وضع المتوفاة في أبعد جانب عن الباب، بعد أن تأكد مرة أخرى من العلامة التي خلف صوان الأذن. كان الجسد الحقيقي يتميز عن النسخ المقلدة بتصلبه ووزنه: فهو أثقل بسبعة أو ثمانية كيلوغرامات. أما الحجم فنفسه: متر وخمسة وعشرون سنتيمتراً. تحقق موري كينيك من ذلك مرة بعد أخرى، لأنه لم يستطع تصديق الأمر. فمن بعيد، كان الجسد على بلاطة البلور يبدو هائلاً. لكن حمامات الفورمول تسببت في تقلص العظام والأنسجة. الرأس وحده ظل كما هو في العادة: جميلاً ولعوباً. ألقى عليه نظرة أخيرة وغطاه بدثار، كما النسخ الأخرى.

«في ممر الطابق الثاني كانت التوابيت جاهزة، مفتوحة ومتراصفة. ولم يكن هناك من شهود سوى ضباط المخابرات الثلاثة. فتح موري كينيك أبواب المصلى، وبمساعدة رجاله رتب وضع الأجساد. كانت على كل نعش لوحة من صفيح، منقوش عليها اسمٌ وتاريخ. اللوحة التي على تابوت إيفيتا كانت تتضمن غمزة إلى المؤرخين ـ فقد يتمكن أحدهم ذات يوم من قراءة الكتابة ـ، لأن المعلومات المذكورة هي الخاصة بجدتها لأمها، وكانت

قد توفيت أيضاً وهي في الثالثة والثلاثين من عمرها: ***بيترولينا نونيث/ 1877 ـ 1910.***

«ختموا الصناديق ببراغ. أمروا الجنود بالنزول إلى الكراج. وضعت الأجساد في الشاحنات: بلا أعلام، بلا طقوس، وبصمت. وقبل والواحدة بقليل كان كل شيء قد انتهى. أمر موري كينيك الجنود بالاصطفاف عند الشاحنات. كان أرانثيبيا، المجنون، شاحباً، بسبب التأثر أو الجهد. وبدا أحد ضباط الصف، أظن أنه غانديني، عاجزاً عن الوقوف.

«- خلال ساعتين ستكون هذه المهمة قد انتهت ـ قال الكولونيل ـ. سيعاد الجنود إلى القيادة العامة. وهناك سيسرحون من الخدمة. أما الآخرون فسأكون بانتظارهم في مقر الجهاز، الساعة الثالثة.

«كان الهواء رطباً، منتفخاً، لا يمكن تنفسه. وعندما خرج موري كينيك إلى الليل، اكتشف في الأفق قمراً هائلاً متنامياً يخترقه خط أسود، من مطر أو سوء حظ.»

قائمة بالأشياء التي عُثر عليها في الطابق الثاني من مبنى الاتحاد العام للعمل يوم 24 تشرين الثاني 1955:

☆ ناووس بلور مثلث، مع جدارين عريضين متصلين في الأعلى، أشبه بمشكاة الكنائس حيث تُحفظ التماثيل المقدسة.

☆ قميص نوم أو ثوب نسائي، من كتان أبيض، تُلحظ فيه لطخات وحروق.

☆ دبوسا شعر.

☆ ثلاثة صناديق خشبية عادية، مستطيلة، بطول متر ونصف. وقد عُثر في أحد الصناديق على بطاقة بريدية عليها خاتم بريد مدريد، 1948. ولكن الكتابة واسم الشخص المرسلة إليه البطاقة البريدية غير واضحين.

☆ اثنتان وستون شريطة سوداء وبنفسجية عليها كتابات مذهبة تكرم المتوفاة زوجة الطاغية الهارب.

☆ إناء من بلورات تيمول، غير مفتوح.

☆ خمس لترات من الفورمول بنسبة 10 بالمائة.

☆ تسع لترات كحول 96 درجة.

☆ دفتر ملاحظات مكتوبة يدوياً تُنسب إلى الدكتور بيدرو آرا. يتألف من أربع عشرة ورقة. لم نتمكن من قراءة سوى العبارات التالية: «سنصنع لها من البروكار كفناً مطرزاً بدلاً من الذي عليها ويظهرها كالعارية» *(الورقة 2)*/ «– حر لا –» *(الورقة 9)*/ «ربلتا الساقين تبدوان أكثر التواء» *(الورقة 8)*/ «من الرعية» *(الورقة 4)*/ «أثر الأشعة أو عضتها» *(الورقة 3)*/ «نقص في التول» *(الورقة 10)*/ «موت موضعي في بعض نُسج البشرة» *(الورقة 6)*/ «لفتحها ولينفذوا» *(الورقة 11)*/ «سعال الفقراء» *(الورقة 13)**

☆ باقة جلبان عطري يانعة إلى جانب الناووس الزجاجي.

☆ شمعة شحم مشتعلة.

بدؤوا باجتياز النهر مع حلول المساء. كانوا يجتمعون في جماعات من عشرة أشخاص أو اثني عشر شخصاً في مراسي جزيرة ماثيّل وينتظرون مرور الزوارق الذاهبة إلى بوكا. وعلى الرغم من الحرارة ومن الرطوبة التي تعبق في الجو، كانوا يحملون في جعبهم ملابس سميكة، كما لو أنهم يستعدون لحصار يدوم شهوراً. وعندما يصعدون إلى الزوارق يجبرون ملاحيها على التوغل في قنوات المرسى الجنوبي، بين السفن البخارية الراجعة من مونتيفديو، وينزلون في أي مكان فارغ على الأرصفة بعد أن يدفعوا قيمة التذكرة بالكامل. وكانت مراكب أخرى تبحر من كيلميس وإنسينادا، وعلى صواريها مصابيح مضيئة، ثم ترسو في مكان أبعد قليلاً

---

* كانت العبارات في القائمة الأصلية تتبع ترتيب الصفحات. ولكن نيستور بيرلونغر أعاد دمجها في العام 1989 وضمنها في الجزء الثاني من قصيدته «جثة الأمة» المكرسة لإيفيتا.

باتجاه الشمال، قريباً من العنابر. بعض المسافرين كانوا يلوحون بلافتات كتاباتها غير مكتملة، وآخرون يحملون طبولاً. وكانوا يتخذون مجالس لهم بصمت، بحذاء أهراء الحبوب الضخمة، ثم يباشرون نصب حواجز خشبية، بإيقاع عمل النمل، كي تتمكن النساء من إرضاع أطفالهن. الجميع يعبقون بروائح الجلود المدبوغة أو الخشب المحروق أو ألواح الصابون. إنهم قليلو الكلام، ولكن كلماتهم عالية وحادة. النساء يلبسن أثواباً فضفاضة مزركشة من القطن، أو فساتين بلا أكمام. والمسنون، ذوو الكروش الغازية، يكشفون عن أسنان اصطناعية لامعة. فالأسنان الاصطناعية وماكينات الخياطة هي هدايا إيفيتا الأكثر تواتراً. فكل شهر، في مؤسستها، كانت تتلقى مئات العلب التي تحتوي على قوالب للثة والحلق، ومع عودة البريد ترسل أطقم أسنان اصطناعية مع الرسالة التالية: «بيرون ينجز وعوده. إيفيتا تُكرِّم. والعمال في أرجنتين بيرون يجدون وجبات طعام كاملة ويبتسمون دون عُقد فقر».

غامر أفراد بعض الأسر بالتقدم سيراً على الأقدام عبر أحواض إصلاح السفن، متفادين المواقع العسكرية. ومضى آخرون عبر القصب الكثيف أو اتبعوا أثر قطارات الشحن، عبر السكك الحديدية المهملة. وعند انتصاف الليل كانت أعدادهم تزيد على الستمائة. كانوا يطبخون أمعاء وأحشاء وأضلاع اغنام على قطع كاوتشوك. ويقتربون من النار بقطعة خبز، يشكلون صفاً ويأكلون.

لقد كان يتهددهم خطر وشيك، ولكنهم لا ينتبهون إليه أو أنه لا يهمهم. فمنذ حوالي أسبوع، قررت حكومة ما يسمى الثورة التحريرية أن تقضي على كل ذكر للبيرونية. كان محظوراً امتداح بيرون وإيفيتا علناً، أو عرض صورهما، أو حتى تَذكّر أنه كان لهما وجود. وقد صدر بلاغ يقول: «يُعاقب بالحبس من ستة شهور حتى ثلاث سنوات كل من يترك في مكان ظاهر صوراً أو تماثيل للدكتاتور المخلوع أو قرينته، وكل من يستخدم كلمات مثل *بيرونية* أو *موقف ثالث*، واختصارات من نوع ح.ب.

(الحزب البيروني) أو ب.ر. (بيرون راجع)، أو ينشر إشاعات من مسهرة تلك الدكتاتورية المبعدة».

وبلا مبالاة بالبلاغ، كانت فتاتان في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة، شفاهما مطلية بأحمر غاضب وبثياب ملتصقة بجسديهما، تغنيان بتحدٍ إلى جانب مواقد الشواء: *قلبك/ يا إيفا بيرون/ يرافقنا على الدوام*. ووراء العنابر هناك مذبح من الآجر عليه صورة ضخمة لإيفيتا وسط شموع موكب ديني. وكان الناس يتركون عند قدميها نجوماً فيدرالية، وأكاليل محبوكة من نباتات متسلقة وأزهار لا تنسيني وهم يرددون: *الشعب صار يغني/ إيفيتا أصبحت قديسة*. لا بد أن الصخب كان يُسمع من بعيد. وعلى بُعد حوالي خمسمائة متر كانت تنتصب حواجز حرس الميناء، وعلى بعد خمسمائة متر أخرى، باتجاه الشمال، ترتفع أبراج القيادة العامة.

لماذا يكون القمع حقيقياً؟ يجب عدم الخوف، هذا ما كان يقوله بعضهم للبعض. لا بد أن قرار الحكومة يشير إلى أحداث الشغب الخطيرة، والتخريب المتعمد للمباني العامة؛ ولكنه لا يأتي على ذكر الولاءات الشخصية. فلكل شخص الحق في مواصلة حبه لإيفيتا. أولم يتحدث بلاغ «التحريريين» الأول عن أرجنتين «لا غالب فيها ولا مغلوب»؟ ويوم سقط بيرون، وانتشرت إشاعة أنهم سيقتلونه، أولم يسمحوا له بالبحث عن ملجأ في زورق حربي أوروغوايي، بل إن وزير خارجية الجمهورية نفسه ذهب لزيارته في الزورق ليتأكد من أن شيئاً لا ينقصه؟ إشاعات. والإشاعات لا تتحول أبداً إلى حقائق. الشيء الوحيد الذي يجب تصديقه هو أخبار الإذاعة.

ومع تقدم الليل، راح ينضم إليهم مسنون ومرضى. امرأة لها غدة درقية متضخمة، قدمت نفسها على أنها قريبة مصفف شعر إيفيتا، سمعت للتو في نشرة أخبار أن محيط الميناء آخذ بالامتلاء بأناس غير مرغوب فيهم. وأن الجيش يريد تفريقهم قبل طلوع الصباح. «أيعنوننا نحن؟»، قال بعض المسنين الذين جاؤوا من حي لوس بيراليس. «من يدري عمن يتكلمون.

فالميناء كبير جداً.»

وبعد توزيع الشعارات البيرونية التي تعلق على الياقة، أشعلوا شموعاً وظلوا ينتظرون. لقد سمعوا أن بيرون سيرجع من منفاه تلك الليلة في طائرة سوداء، وأنه سيظهر من جديد في شرفة الميدان الكبير. وستكون إيفيتا إلى جانبه، مضاءة، في صندوق زجاجي. كانت الأقاويل متناقضة. فقد كان يقال أيضاً إن الجيش سيدفن نعش إيفيتا إلى جانب ضريح سان مارتين، في الكاتدرائية. وأن البحرية تفكر في وضعها في كتلة إسمنت، في قبر في المحيط. ومع ذلك فإن الإشاعة الأكثر تداولاً هي تلك التي جمعتهم هناك: سيجري إخراج إيفيتا من ضريحها في الاتحاد العام للعمل لتُسلّم بوقار إلى الشعب كي يرعاها ويسهر عليها، مثلما هو وارد في وصيتها. «أريد أن أعيش إلى الأبد مع بيرون ومع شعبي»، هذا ما طلبته قبل موتها. بيرون لم يعد موجوداً. والشعب هو الذي سيتلقاها.

لا بد من حقيقة ما يخبئها هذا النسيج من الروايات، لأن عسكريين يدخلون ويخرجون منذ الفجر من وإلى مبنى الاتحاد العام للعمل. الجسد موجود هناك منذ ثلاث سنوات، على مذبح لا يمكن رؤيته. ففي الشهور التي تلت موتها، كان البناء مغطى على الدوام بالزهور. وفي كل ليلة، في تمام الساعة العشرين وعشرين دقيقة، تضاء أنوار النوافذ وتنطفئ بصورة متقطعة. ولكن الزهور راحت تختفي، وحتى الحرير المموج الذي كان يتدلى من نوافذ الطابق الثاني سقط ذات يوم، ومزقته الأجواء العاصفة. هنالك الآن ما يحدث، ولكن لا أحد يعرف ما هو. فمنذ سقوط بيرون صار كل شيء يبدو لهم مجهولاً.

أطل القمر من الأفق النهري، تخترقه خطوط من سحب قاتمة. كان الجو حاراً. والهواء مشبعاً بفتات تبن القمح. وفي أحد أركان العنابر، فوق الرافعات، كان بعض الصبية يتناوبون على مراقبة الأرض الخلاء الممتدة بين المدينة والنهر: ضفاف المناورات المقفرة، وعربات القطارات الخاوية، وترسانات إصلاح الزوارق، ومراكز حراسة الحراس العسكريين البعيدة.

بعد قليل من انتصاف الليل، لمح أحد صبية المراقبة سيارة سوداء، مصمتة، تتقدم بأنوار خافتة على شاطئ المناورات. هرع للإخبار، وسط شرر ضجة مريعة. فخلف العنابر كانت تدوي ضربات مطارق على الخشب. لقد كان النجارون منهمكين في إقامة مخابئ ومذابح. وأخيرا خرج رجلان للقاء الدخيل. كان أحدهما يضع نظارة ويمشي مستنداً إلى عكازين.

توقفت السيارة تحت أحد أعمدة الإنارة وترجل منها سائقها وهو يسوي وضع قبعته. كان يرتدي بدلة من الفانيلا مع صدار. ويتعرق. مشى بضع خطوات ونظر في ما حوله محاولاً التوجه. أربكه حواف العنابر والضياء الآتي من ورائها: الشموع، المواقد. لمح من بعيد اتساع النهر. كان الضجيج يتعالى من جهات كثيرة، ولم يكن التفكير معه ممكناً: بكاء الأطفال يختلط بصراخ النساء وبتحديات لاعبي الورق. وقبل أن تنجلي حواسه، كان رجل العكازين يعترض طريقه، ويتفحصه من أعلى إلى أسفل.

– أنا الدكتور آرا ـ أوضح السائق ـ أنا بيدرو آرا، الطبيب الذي كان يعنى بإيفيتا خلال السنوات الماضية.

– أنت من حنطتها ـ تعرف إليه الرجل الآخر ـ ماذا فعلت بها؟

– إنها في حالة جيدة. بكامل أحشائها. وبلا أية شائبة، كما لو أنها نائمة. تبدو كأنها حية.

– وما الحاجة إلى تعذيبها على هذا النحو ـ دمدم رجل العكازين.

جميعهم بدوا مرتبكين، حائرين. المُحَنِّط نفسه لم يكن يدري ماذا عليه أن يفعل. وروايته عن ذلك اليوم في مذكراته تبدو مشوشة: «أشعر أنني مسؤول عن الجثة. لقد انتزعوها مني. ليس الذنب ذنبي، ولكنهم انتزعوها مني. خرجتُ من الاتحاد العام للعمل وأنا خائف من أن يُفسد العسكريون عملاً كلفني سنوات من البحث والسهر. فكرتُ في الذهاب إلى الصحف. ولكن ذلك سيكون جهداً بلا طائل. فقد كان محظوراً نشر سطر واحد من

الجسد. والحكومة الإسبانية لا ترغب في التدخل في المسألة. أفضل ما يمكن عمله، على ما أظن، هو التكلم إلى الناس الذين اجتمعوا في الميناء».

توقف لاعبو الورق عن اللعب أمام ذلك الدخيل. اعتلى رجل العكازين بعض الألواح الخشبية وضرب بيديه.

– ها هو ذا الدكتور آرثي ـ تنحنح، مع خرخرة في رئتيه ـ إنه من حنط إيفيتا.

– آرا، وليس آرثي. إنني الدكتور آرا ـ حاول أن يوضح، لكن أصواتاً كثيرة أخرى تعالت في وقت واحد، وطغت على صوته.

– هل سيأتون بها إلى هنا هذه الليلة؟ أم أنهم أخذوها إلى الكاتدرائية؟ ـ راح النساء يتساءلن ـ. هل سيسلمونها إلى الجنرال؟ لماذا لا يتركونها بسلام؟

طأطأ المُحنِّط رأسه.

– لقد أخذها العسكريون ـ قال ـ لم أستطع عمل أي شيء. لقد وضعوها في شاحنة للجيش. لماذا لا تفعلون أنتم شيئاً من أجلها؟

كلمة «أنتم» أجفلت الناس. لم يعرفوا أحداً استخدمها، باستثناء إيفيتا في خطاباتها الأولى. بدت لهم كلمة قديمة، ضائعة، من لغة أخرى. «أنتم، لقد أخذوها» دمدم أحدهم. وراح الصوت ينتشر: «أخذها العسكريون». انفجرت بالبكاء امرأة تحمل طفلين في خرجين وابتعدت بين القصب.

– ما الذي يمكن أن نفعله؟ كيف ذلك؟ ـ سأل أحد المسنين.

– ازحفوا إلى الميدان الكبير. انتفضوا. افعلوا ما فعلتموه عندما اعتُقل الجنرال قبل عشر سنوات.

– يمكن حدوث مجزرة الآن ـ قال رجل العكازين ـ. ألم تسمع بأنهم يهيئون لمجزرة؟

– لم أسمع شيئاً ـ أجاب المحنط ـ. إنكم كثيرون. لن يتجرؤوا على قتلكم جميعاً. عليكم أن تجبروهم على أن يعيدوا إليّ إيفيتا.

– قيل إنهم سيأتون بها إلى الميناء. وإن لم يأتوا هم بها، ستأتي إيفيتا

وحدها ـ ألحت عجوز تملأ الثآليل وجهها. ويتشبث عدة أطفال بأذيال ثوبها، كما في مجموعة شمسية ـ لا حاجة بنا للذهاب بحثاً عنها. هي من ستأتي بحثاً عنا.

– كيف ستبحث عنا؟ لقد أخذها العسكريون – كرر ذو العكازين.

– ولكنها تعرفنا ـ أوضح رجل آخر ـ لقد تجولت عدة مرات في الحي.

كان المُحَنِّط يتعرق بغزارة. وكان يحمل في يده منديلاً معطراً يمسح به صلعته بين لحظة وأخرى.

– لم تفهموني ـ قال ـ إذا لم يكن هناك من يتولى العناية بجسدها، فيمكن لصنعتي أن تتأذى. لقد قمتُ بعمل بارع. وقد أخبرتكم أن الجنرال هو من عهد إليّ بها.

– لقد كانت تعرف دوماً كيف تعنى بنفسها ـ أصرت العجوز ذات الثآليل.

– لن يأتوا بها ـ قال رجل العكازين. ثم اعتلى بعض الألواح الخشبية ورفع صوته: ـ لقد أخذوا إيفيتا بعيداً عن هنا. وسيكون من الأفضل أن ننصرف.

وصرخت عجوز الثآليل أيضاً:

– أنا سأغادر. لا فرق في أن أكون هنا أو في جهة أخرى من النهر.

شقت طريقها بين ركام النساء اللاتي بدأن يُستثرن، واتخذت مجلساً لها في أحد الزوارق مع مجموعة كواكبها في ما حولها. لحق بها نهر بطيء من الناس إلى الضفة. حتى إن الفتيات ذوات الشفاه المتأججة شكلن رتلاً على رصيف المرسى وهن يغنين: *لهذا هو رائع/ اسمك الكامل/ اسمك الطيب/ يا إيفا بيرون.*

– لماذا لا تذهبون بحثاً عنها؟ ـ ألح آرا.

غير أنه لم يعد هناك كابح يكبح تفرق الجمع. فقد أطفأ من كانوا يلعبون الورق المواقد، وعندما كرر المحنط «أحضروها إليّ، أرجوكم،

جيئوني بها»، توقف أحد الرجال في منتصف المسيرة وأسقط يداً حديدية على كتف الدكتور.

– لن نذهب بحثاً عنها لأنهم يريدون قتلنا جميعاً – قال – ولكنك إذا انطلقت في المقدمة يا دكتور آرثي، فربما نتبعك.

– اسمي آرا ـ صحح له ـ الدكتور آرا. ولكنني لا أستطيع الذهاب معكم. فأنا لست من هنا.

– إذا لم تكن من هنا فأنت من هناك. إذا لم تكن معنا فأنت معهم ـ هتف الرجل ـ. ما الذي تحمله تحت إبطك؟

شحب لون المحنط. كان يحمل ثوباً أبيض ومنشى. شدّه إلى صدره. ولم يعد يدري ماذا يفعل به.

سُمع في البعيد هدير محركات شاحنات الجيش، وتراكض الجنود، وقعقعة البنادق، بينما كان أول الزوارق يبتعد صعودا بعكس التيار.

– كان هذا كفن إيفيتا ـ تلعثم المحنط. وكانت كلماته تتشابك. تردد لحظة ثم فرد الرداء. إنه بسيط، قصير الكمين، وفتحة الصدر على شكل الحرف (V) ـ أترون؟ إنه كفن إيفيتا. إذا ما انطلقتم إلى الميدان الكبير وطلبتم منهم أن يعيدوا الجسد إليّ، فيمكنكم أخذ الكفن لتفعلوا به ما يحلو لكم.

خلع رجل العكازين نظارته، واقترب من المحنط قالاً له بجفاء:

– أعطني إياه.

ولم يستطع الطبيب المثقل باليأس والعجز إلا أن يسلمه الرداء، وينهار.

– المعذرة ـ قال. ولم يعرف أحد سبب اعتذاره ـ. أريد الانصراف.

– أسرعوا، اصعدوا إلى الزوارق ـ قال ذو العكازين آمراً. ثم تهاوى في أحد المراكب وفك الحبل الذي يثبته إلى المرسى.

ربطوا الكفن إلى جانب أحد الأشرعة وبدؤوا التجذيف. حرك الهواء قطعة القماش وراحت تخفق من جانب إلى آخر.

سمعوا هدير الشاحنات وهي تقترب أكثر فأكثر.

قام المتأخرون بتقويض المخابئ وكدسوا الألواح الخشبية على سطح الزوارق. لم يستغرق ذلك منهم وقتاً يذكر. فقد كانوا كثيرين وتقاسموا العمل دون أن يعرقل بعضهم البعض، كما في خلية نحل. وبينما هم ينصرفون غنى أحدهم: *قلبك يا إيفا بيرون/ يرافقنا على الدوام*. ومن كانوا يختفون بين القصب ويبتعدون في الزوارق الأخرى، كانوا يغنون أيضاً: *نعاهدكِ بمواصلة حبنا/ بقسم الوفاء*. انطفأت الأصوات ولكن المُحَنِّط بقي على الضفة ينظر إلى الظلام.

لقد رُويت هذه القصة مرات كثيرة، ولم تجرِ روايتها بطريقة واحدة قط. فالمحنط، في بعض الروايات، يكون مرتدياً المريول لدى وصوله إلى مخابئ الميناء ويخلعه عند ترجله من السيارة. وفي روايات أخرى، تهاجم شاحنات الجيش الناس ويموت رجل العكازين. وأن الكفن أصفر وقد بدل الموت لونه، بل إنه ليس كفناً في بعض الروايات، وإنما مجرد وهم من وحي الذاكرة والأثر الذي خلفته إيفيتا على سطح تلك الليلة. وفي أولى الروايات، كان التجمع مجرد رغبة، وليس حدثاً واقعاً، وإنذارات المذياع لم تُسمع قط. لا شيء في الروايات يتشابه، ولا شيء يشكل قصة واحدة وإنما شبكة يقوم كل شخص بحياكتها دون أن يفهم الرسم الذي عليها.

هل يمكن لأحد أن يحنط حياة؟ ألا يشكل عقوبة كافية وضعها تحت هذه الشمس والبدء بروايتها تحت هذا الضوء الرهيب؟

وبما أن دلتا متشابكة من القصص تنفتح الآن، فسوف أحاول أن أكون موجِزاً. ففي إحدى الضفتين هناك قصة الأجساد المزيفة (أو نسخ الجثة). وفي الضفة الأخرى، قصة الجسد الحقيقي. وهناك، لحسن الحظ، لحظة تتفرق فيها الشاحنات وتبقى قصة واحدة قائمة، تحجب القصص الأخرى أو تُبطلها.

خلال الطريق إلى مقبرة تشاكاريتا، يخرق الرائد أرانثيبيا، المجنون، تعليمات الكولونيل. كان يقود الشاحنة بجزع وكانت أنفاسه تنقطع للحظات. أوقف الشاحنة في ركن غير مضاء من حديقة «الذكرى المئوية»

وفتح باب الكابينة. منح الجنود عشر دقائق من الراحة وأمرهم بأن يبتعدوا عنه.

ظل على انفراد مع أرماني، رقيبه المساعد. لقد كان المجنون يثق بأرماني. فهو من عالجه من الحمى في عزلة ترتاغال، وأنقذه من هوس إعدام الكلاب. وهو يريد الآن أن يشاطره أرماني السر. إنه بحاجة إلى التفريج عن نفسه.

أمر الرقيب بأن يأتي بمصباحين يدويين بينما انهمك هو في فتح غطاء التابوت.

– جهز نفسك، لأن هذه هي إيفا ـ قال بصوت خفيض.

لم يجبه الرقيب.

وعلى ضوء المصباحين اليدويين، نزع المجنون الكفن عن تمثال إيفيتا ووضعه تحت رأسها دون أن يفسد عقيصة الشعر. كانت في الجسد شامات، وزغب قاتم ومتفرق في العانة. وفوجئ أن يكون زغب العانة أسود على الرغم من شُقرة شعر الرأس الذهبية.

– كانت مصبوغة ـ قال ـ كانت تصبغ شعرها.

– لقد ماتت منذ ثلاث سنوات ـ قال الرقيب ـ هذه ليست هي. إنها تشبهها كثيراً، ولكنها ليست هي.

جاب أرانثيبيا الجسد برؤوس أصابعه: الفخذان، السرة البارزة قليلاً، القوس فوق الشفتين. كان جسداً ناعماً، ودافئاً إلى حدّ لا يمكن له معه أن يكون ميتاً. وكان الجسد يحمل بين أصابعه مسبحة. لقد بتروا قطعة صغيرة من الأذن اليسرى وجزءاً من الإصبع الوسطى في اليد اليمنى.

– يمكن أن تكون نسخة ـ قال أرانثيبيا، المجنون ـ ماذا تظن أنت؟

– لا أدري ما هي ـ أجاب أرماني.

– ربما تكون هي.

أغلقا التابوت ثانية واستدعيا الجنود. اجتازت الشاحنة جادة وارنز ثم دخلت شارع جورج نيوبيري، حيث تشكل الأشجار نفقاً طويلاً. كان

أرماني الآن في كابينة القيادة، إلى جانب الرائد. ووراء السور الحديدي، عند إحدى بوابات مقبرة تشاكاريتا، كان ينتظرهما حارس. وكان يضع نظارة شمسية. والنظارات الشمسية في الليل تبدو أشد تهديداً من السلاح. سألهما:

– الرب؟

– عادل ـ أجابه المجنون.

توغلوا في خط مستقيم عبر طريق يحاكي شوارع المدينة. تنتصب على جانبيه ضرائح هائلة، تغطيها لوحات. ووراء الزجاج تظهر حجرات التسجية والنعوش. وفي نهاية الطريق تنفتح أرض خلاء. إلى اليمين تظهر بعض التماثيل القليلة، تمثل عازف جيتار، ورجل مستغرق في التفكير، وامرأة تتظاهر بإلقاء نفسها من أعلى هاوية. وإلى اليسار تتوالى لوحات قبور، وحدائق، وعدد قليل من الصلبان المائلة.

– هنا ـ أشار الحارس.

حمل الحراس التابوت وأنزلوه بالحبال إلى حفرة مجهزة مسبقاً. ثم غطوه بالتراب والحصى. غرس الحارس على القبر صليباً من خشب رخيص. ثم أخرج قطعة طبشور وسأل:

– ما اسم الميت؟

نظر أرانثيبيا إلى دفتر ملاحظات صغير.

– ماريا دي ماغالدي ـ أجاب ـ ماريا م. دي ماغالدي.

– يا للمصادفات ـ قال الحارس ـ هذا الذي ترونه هناك، مديراً ظهره، هو أغوسطين ماغالدي، المغني، صوت بوينس آيرس العاطفي. لقد مات منذ حوالي عشرين عاماً ولكنهم مازالوا يأتونه بأزهار. يقال إنه كان خطيب إيفيتا الأول.

– مصادفات ـ كرر المجنون ـ هكذا هي الحياة.

كتب الحارس «ماريا م. ماغالدي» على العارضة الأفقية من الصليب. اختفى القمر وراء السحب. وفي الظلام، سمعوا طنين النحل.

كان فيسكيت واثقاً من أنه لن يخطئ. فقبل خروجه إلى مقر القيادة طلب من جارة له أن تقرأ طالعه في ورق التاروت. «كل شيء سيجري على ما يرام»، هذا ما قاله الورق. «هناك في مستقبلك ملاحقة وشبح امرأة ميتة. ولكن الأفق نظيف الآن.» وهذا ما حدث. قاد الشاحنة دون طقطقة من علبة السرعة، لم ينحرف عن الطريق المرسوم، الجادات الموازية للنهر كانت مقفرة. وبين أبراج كنيسة أوليفوس كانت تظهر لوحات موزاييك زجاج كبيرة بأضواء رمادية. وكانت تُسمع، خفيضة، موسيقى هرمونية. ومثلما توقع، كان الحجارون جاهزين والحفرة مهيأة. عندما أنزل الجنود النعش، توقفت الموسيقى وبرز من الظلمة كاهن يتبعه خادمان.

– عليّ أن أتلو صلاة ـ قال ـ هذا هو أول شخص ندفنه في الكنيسة.

دمدم ترتيلتين سريعتين. لم تكن على رأسه شعرة واحدة، وكانت الأضواء الصفراء تنعكس عليه كما لو أنه في صالة رقص.وفوجئ فيسكيت بأن الرقيب أول بيكوارد قد جثا على ركبتيه واستمع إلى الصلاة وهو يضم يديه.

– *Kyrie eleison. Christe elesion* ـ رتل الكاهن ـ. ما اسم الميت؟

– إنها ميتة ـ صحح فيسكيت ـ ماريا م. مايسترو.

– أهي سيدة محسنة؟

– شيء من هذا القبيل. لا أعرف التفاصيل.

– لماذا اخترتم هذا الوقت؟

– من يدري ـ قال فيسكيت ـ. سمعتُ أنها هي من طلبت ذلك في وصيتها. لا بد أنها شخصية غريبة الأطوار.

– تكره مظاهر أبهة هذا العالم. تريد اللقاء على انفراد مع الرب.

– شيء من هذا القبل ـ كرر فيسكيت المتلهف للمغادرة.

في طريق العودة طلب من بيكوارد أن يقود الشاحنة. وكان هذا هو أمر الكولونيل الوحيد الذي لم ينفذه. وفكر في أن ذلك ليس مهماً.

انفجرت إحدى عجلات شاحنة النقيب غالارثا في جادة فاريلا وأدى الانفجار المفاجئ إلى انفلات عجلة القيادة من بين يديه. فتأرجحت الشاحنة في حركة متعرجة، وصعدت على الرصيف وتوقفت مائلة، كما لو أنها تطلب المعذرة. تفحص غالارثا الضرر وأنزل الجنود. خيل للجميع أنهم في كابوس، وكانوا ينظرون إلى المدينة بريبة. فوراء سور طويل ترتفع نوافذ مستشفى بينيرو. وقد أطل المرضى بالبيجامات وهم يتهامسون. وصرخت امرأة ذات كرش كبير وذراعاها على خصرها:

– دعونا ننم!

أخرج غالارثا المسدس بملامح عدم مبالاة، وصوبه نحوها:

– إذا لم تغلقي النافذة فسأغلقها لكِ بالرصاص.

تكلم دون أن يرفع صوته وضاعت الكلمات في الليل. ولكن النبرة سُمعت من بعيد. غطت المرأة وجهها واختفت. وأطفأ المرضى الآخرون الأنوار.

تأخروا نحو عشر دقائق في استبدال العجلة. وعند مدخل مقبرة فلوريس، كان ينتظرهم حارس مغمض العينين، وبساق أقصر من الأخرى. كانت القبور واطئة، متواضعة، تشكل نتوءات تسد الطريق وتُجبرهم على الالتفاف والدوران. وبينما الجنود الأربعة يحملون التابوت، قال أحدهم:

– لا وزن له. يبدو أن من فيه طفلاً.

أمره غالارثا بالصمت.

– يمكن أن تكون عظاماً ـ قال الحارس ـ يؤتى إلى هنا بعظام مرتين من كل ثلاث.

مروا بجوار الضريح الأبيض الذي يُدفن فيه مؤسس المقبرة وانعطفوا إلى اليسار. كان القمر يظهر ويختفي في تناوبات قصيرة. ووراء صف من القباب المدورة، حيث يرقد ضحايا الحمى الصفراء، وجدوا حفرتين كبيرتين مطليتين بالإسمنت.

– هنا – أعلن الحارس. وأخرج استمارة وطلب من غالارثا أن يوقّع

ملهما.

- أنا لا أوقّع شيئاً ـ قال النقيب ـ. فهذا ميت من الجيش.

- لا يدخل أحد هنا أو يخرج دون توقيع. هذا هو النظام. ودون توقيع لا يوجد دفن.

- ربما سيكون لدينا أكثر من دفن واحد ـ قال النقيب ـ. ربما سيكون لدينا دفنان اثنان. أخبرني باسمك.

- اقرأه على لوحة صدري. إنني هنا في هذه المقبرة منذ عشرين سنة. أخبرني باسم الميت.

- اسمه ن. ن. هذا هو الاسم الذي نطلقه في الجيش على أبناء العاهرات.

قدم إليهم الحارس الحبل لإنزال التابوت ومضى مبتعداً في الممر المحفوف بأشجار الصنوبر ولاعناً الليل.

تصور الكولونيل أن مهمته ستكون خطاً مستقيماً. سيخرج من الاتحاد العام للعمل. وسيتقدم كيلومترين اثنين في جادة كوردوبا. ويدخل إلى قصر الأعمال الصحية من إحدى البوابات الجانبية. ويأمر بإنزال التابوت. ويسحب الجسد إلى مستقره. «حجرتان فارغتان ومختومتان ـ هذا ما قاله ثيفوينتس ـ في الركن الجنوبي الشرقي من الأعمال الصحية». الصعوبة هي في تمكن الجنود من نقل التابوت سليماً معافى، عبر الدرج الحلزوني الذي يصب في الطابق الثاني. سليم ومعافى صفتان لم تستخدما قط لما له علاقة بالموت. الكلمات كلها تبدو له الآن مجهولة.

وعلى الفور، رسم الكولونيل خططه للمرة الثانية. هناك في الحبكة شخصية جديدة: الرقيب المساعد ليفيو غانديني. فقد قرر في اللحظة الأخيرة أن ينتزعه من عازف البوق غالارثا. ومع أن أحداً لم يكن يعرف ذلك، إلا أنه هو، الكولونيل موري كينيك، من سيأخذ الجسد الحقيقي. وهو بحاجة إلى مزيد من التعزيزات، مزيد من الصواب. الوقائع الآن ستحدث كما يلي:

سيترك الجنود النعش في الطابق الثاني من مبنى الأعمال الصحية. يرجعون إلى الشاحنة تحت حراسة غانديني. وسيشعل هو، موري كينيك، مصباحاً ليلياً. وسيسحب المتوفاة نحو حجرتي الركن الجنوبي الشرقي. ثم سيغطي النعش بقماش سميك. وسيغلق الباب بقفل. *فالأعمال بخواتيمها*، مثلما قال المُحَنِّط.

كان الكولونيل، خلال فترة بعد الظهر، قد درس المكان مرة بعد أخرى. صعد الدرج الحلزوني ونزله ثلاث مرات. المنحنيات ضيقة ولن يكون هناك مفر من حمل النعش بوضع عمودي. لقد كان مستعداً لكل شيء. وكرر الجملة، كتعويذة: *لكل شيء*.

قاد الشاحنة بصمت عبر الشوارع. أُصيب بقشعريرة. التاريخ: أهكذا كان التاريخ؟ أيمكن لأحدنا الدخول إليه والخروج منه باطمئنان؟ أحس بأنه خفيف، كما لو أنه داخل جسد آخر. ربما لم يكن يحدث شيء مما يبدو أنه يحدث. ربما لا يُبنى التاريخ من حقائق واقعية وإنما من أحلام. البشر يحلمون بأحداث، ثم تختلق الكتابة الماضي. لم تكن هناك حياة وإنما قصص وحسب.

بعد الحركة التالية، يمكن له هو أيضاً أن يموت. لقد أنجز كل ما كان عليه عمله. فقد نفذ ما وعد به دونيا خوانا. استرد جوازات سفر الأسرة وأرسلها إليها بعد ظهر ذلك اليوم بالذات مع مراسل. وردت عليه الأم برسالة مقتضبة مازال يحملها في جيبه: «سأغادر أنا وابنتي غداً بالذات إلى تشيلي. إنني أثق بكلمتك. اعتن بابنتي إيفيتا». ولم يبق عليه الآن سوى إخفاء الجسد. أحس أنه يتنفس. إنه حي. وكان تنفسه صوتاً آخر بين ثنايا الأصوات غير المتناهية. لماذا الموت؟ وأي معنى سيكون له؟

رأى في البعيد عموداً من الدخان، وبعد ذلك ذؤابة اللهب. حدس أن هناك حريقاً في مكان ما من المدينة. كانت النار تتمطى كخطيئة وتختفي. وفجأة، بعد شارعين إلى الأمام، تعالت ألسنة اللهب وانتشرت في السماء. كانت تمر في الشارع كلاب، تتشمم غرائب الليل. أبطأ الكولونيل مسيره.

توقفت سيارات أخرى. امتلأ الشارع بالفضوليين والخدومين. وإلى جوار الشاحنة تراكضت بضع راهبات يحملن في أيديهن ملاءات.

– إنها للمحروقين، للمحروقين! ـ صرخن في ردّ على نظرة عدائية من الكولونيل.

كانت هناك امرأة تجلس تحت إعلان دعائي، تحتضن آلة خياطة. تبكي. هز مراهقان أذرعهما أمام الشاحنة. أطلق الكولونيل النفير. لم يتحرك أحد.

– لا يمكنك مواصلة التقدم ـ قال له أحد الصبيين ـ. ألا ترى؟ كل شيء يحترق.

– ما الذي يحدث؟ ـ سأل الكولونيل.

– انفجرت بعض قوارير الكيروسين ـ أجابه رجل طويل القامة، وهو يثبت قبعته كما لو أنه يكافح ضد رياح وهمية. وكانت على خديه لطخات سناج. قال: ـ إنني آتٍ من الحريق. لقد تحولت مجموعة من البيوت السكنية إلى رماد. خلال أقل من عشر دقائق انهار كل شيء.

– هل المكان بعيد؟ ـ استفسر الكولونيل.

– على بُعد شوارع قليلة. قبالة الأعمال الصحية. ولو أنهم لم يصلوا عدة خراطيم بخزانات الماء لكانت النيران قد وصلت إلى هنا.

– لا بد أن يكون ثمة خطأ.

– لا ـ كرر العجوز ـ. ألا ترى أنني آت من حيث الحريق؟

إنها المصادفة، هذا ما سيقوله الكولونيل بعد سنوات، عند حديثه إلى ثيفوينتس عن تلك الليلة. فالواقع ليس خطاً مستقيماً وإنما هو نظام من التفرعات. والعالم نسيج جهالات. في أفق الواقع المكشوف، يمكن للخطط أن تتقوض دون أي إخطار أو هاجس مسبق. يمكن لها أن تسقط مهزومة بفعل الطبيعة، بأن تصيبها سكتة قلبية أو نزوة صاعقة. لقد أربكتني المصادفة، هذا ما سيقوله الكولونيل. فعلى ضوء الحريق أدركتُ أنه لا يمكن للمتوفاة أن تستريح في الحجرتين المنسيتين في القصر، مخبأة بين

الخزانات. لقد كانت المصادفة، ولكنه قد يكون كذلك خطأ في حسابات حربة باراثيلسو ثلاثية الرؤوس. قد أكون أسأتُ وضع محاورها، أسأتُ وضع ذراعها.

صعد بالشاحنة إلى الرصيف، عرض ماسورة الماوزر من خلال النافذة ليشق طريقه، وهكذا راح ينسل باتجاه الشارع المعترض. كان النهر يظهر في الجانب الآخر من المدينة المكشوفة. وماذا لو ترك الجسد في أحد عنابر المرفأ؟ فكر. وماذا لو ضيعه في الماء؟ بوينس آيرس هي المدينة الوحيدة على الأرض التي لها ثلاث جهات أصلية فقط. كان الناس يتحدثون عن الشمال، أو عن الغرب، أو الجنوب، أما الشرق فكان الخواء: العدم، الماء. تذكر أن رمز المتوفاة، في البوصلة، كان يتوافق مع الشمال ـ الشمال الشرقي. لابد أن شيفرة سرية تكمن في تلك التوافقات. أوقف الشاحنة. قرأ البطاقة التي يحملها في القفاز. رمز دائرة بروج إيفا بيرون. «الثور: البلل يتغلب على الجفاف، والتراب على النار. محور جسدها يمر بالمعدة. الرمز الموسيقي الموافق لخلودها هو "مي". والإصبع الذي تشير به إلى قدرها هو السبابة.» وكرر: نحو النهر، نحو الشرق.

اجتاز خطوط محطة ريتيرو البارزة. وفي عتمة صندوق الشاحنة، كان غانديني والجنود يغنون. قبل لحظات من ذلك، عندما خفف الكولونيل السرعة قبالة الحريق، سمعهم يضربون على كابينة القيادة بعقب البندقية. ضربتان أو ثلاث ضربات، ثم تلا ذلك غرابة ذلك الغناء دون موسيقى.

كان القمر قد اختفى للتو. وإلى اليسار، لمح بوابات ثكنة للقوات البحرية. لن أذهب أبعد من هنا، قال لنفسه. سيكون هذا هو المكان. هنا حيث يكرهونها أكثر من أي مكان آخر.

سأل عن القائد البحري الذي على رأس الحامية. «إنه نائم»، قال رئيس الحرس، ثم أضاف: «لقد نام للتو. جميعنا مررنا بيوم شاق. لا يمكنني إيقاظه.». فأمره الكولونيل: «أخبره أنني هنا. لن أتحرك إلى أن يأتي.»

انتظر لوقت طويل. كانت السماء مفعمة بالإشارات. سقوط بعض النجوم، وفي بعض الأحيان كانت تُرى في الأعالي نواصي السفن. وكانت السماء مرآة متعبة تعكس تعاسات الأرض. «سيأتي، سوف يأتي القائد!»، صاحٍ رئيس الحرس. ولكنه تأخر لوقت أطول بكثير، حتى بزوغ الفجر تقريباً.

لقد كان يعرف قائد الموقع. اسمه ريارتي. وقد درسا معاً في بعض دورات المخابرات التدريبية. كان معلماً في موضوع المحافل السرية، وفي حبك المؤامرات. ويحمل معه في كراس صغير قائمة بكافة الجمعيات السرية: أكداس من الأسماء والتواريخ، من الخطط المحبطة والعملاء المزدوجين. وكان من عادة الجنرال القول إنه بالإمكان استخدام ملاحظات ريارتي، إذا شاء، لكتابة تاريخ الأرجنتين المجهول: الجانب الآخر من القمر. لقد كان على الدوام شخصاً متفلتاً، ومريباً أيضاً. وحين يفكر في الأمر الآن، يرى أن راؤول ريارتي وإيفا بيرون كانا نوعاً من الجناس تقريباً.

سمع غانديني والجنود يغنون من جديد. سألهم من الخارج إن كانوا يشعرون بالظمأ. لم يجبه أحد: الغناء وحسب. وبينما الكولونيل مستند إلى عجلة القيادة غلبه النعاس.. وأخيراً سمع جرّ بوابة الثكنة الحديدية ورأى خروج الضابط البحري، وقد استحم للتو. كان شعره يلمع بمثبت للشعر. ومع أنه يضع القبعة ويرتدي السترة، إلا أنه مازال يدس قميص الزي العسكري في البنطال. أومأ له الكولونيل، بالإشارة، أنه يريد التكلم إليه على انفراد.

مشيا باتجاه فناء مقر الكتيبة. وكانت تنتصب في منتصفه شجرة متوحدة وضامرة.

– كنا في عملية مهمة هذه الليلة يا ريارتي ـ قال الكولونيل ـ كنا ننقل جسداً. لكن الأمر لم يكن سهلاً. فقد حدث خلل في إحدى الحركات.

هز النقيب رأسه.

– إنها أمور تحدث.

– ما كان يجب حدوثها في هذه الحالة. لقد كانت المصادفة.

– وماذا يمكنني أن أفعلُ للمساعدة؟ الرئيس لا يريد للبحرية أن تتدخل في شؤون الجيش.

– لدي نعش في الشاحنة ـ قال الكولونيل ـ إنني بحاجة إلى أن أتركه هنا. سيكون ذلك لساعات فقط. حتى منتصف الليل.

– لا أستطيع ـ قال ـ سيقطعون رأسي.

– إنها خدمة شخصية ـ ألح الكولونيل. وكانٍ يشعر بغم جاف في حلقه، ولكنه يحاول أن يبدو انسياب صوته حيادياً، غير مبالٍ ـ سيظل الأمر بيني وبينك فقط. لا حاجة لأن يعلم به أحد آخر.

– هذا مستحيل أيها الكولونيل. يتوجب عليّ إخبار المراجع العليا. وأنت تعرف جيداً كيف هي هذه الأمور.

– خذ النعش إلى إحدى السفن. وإذا كان في سفينة، فلا حاجة لأن يعرف أحد ذلك.

– في سفينة؟ إنك تُدهشني يا موري. أنت لا تدري ما الذي تقوله.

حك الكولونيل رقبته. نظر إلى ريارتي بثبات.

– لا يمكنني التجوال بهذه الحمولة من مكان إلى آخر ـ قال ـ إذا انتزعت مني سنطير جميعنا.

– ربما. ولكن لن ينتزعها أحد.

– أتقول لا؟ الجميع يريدون الحصول عليها. الأمر مدهش ـ خفض صوته – إنها تلك المرأة، إيفا. تعال لرؤيتها.

– لا تورطني يا موري. لن تقنعني.

– ألق نظرة عليها. أنت شخص مثقف. لن تنساها مدى الحياة.

– هذا هو السيئ. لن أنساها. إذا كانت تلك المرأة معك فخذها بعيداً. إنها تجلب سوء الطالع.

حاول الكولونيل أن يبتسم ولم يستطع.

– أنت أيضاً صدقت هذه الحكاية؟ لقد اختلقناها نحن في جهاز

المخابرات. كيف تراها ستجلب سوء الطالع؟ إنها مومياء، ميتة مثل أي ميتة أخرى. وأنت في نهاية المطاف لن تخسر شيئاً برؤيتها.

فتح أبواب الشاحنة وجعل الجنود ينزلون. لحق به ضابط البحرية مرتبكاً. كان الفجر يتقدم وسط خفق أجنحة حشرات، وحفيف أوراق، ورعود نائية. تعثر الرقيب غانديني لدى خروجه من محبسه الطويل إلى جانب النعش، وراح يدور حول نفسه مثل عصفور أعمى.

– سمعنا أن هناك حريقاً يا سيدي الكولونيل ـ دمدم وهو يرمش.

– لم يكن شيئاً يذكر. مجرد إنذار زائف.

– ماذا أفعل بالجنود؟

– أخرجهم من هنا. وانتظروني على بُعد مئة متر.

– هناك رائحة غريبة داخل الشاحنة يا سيدي الكولونيل. من المؤكد أنه يوجد مواد كيميائية في هذا التابوت.

– من يدري ما فيه. متفجرات، كحول. لا توجد أيه إشارات.

– توجد لوحة معدنية عليها اسم: بيترونا ولا أدري أية أشياء أخرى ـ قال غانديني وهو يبتعد ـ وبعض التواريخ أيضاً. تواريخ قديمة، من القرن الماضي.

كانت الرائحة حلوة، تكاد لا تكون محسوسة. تساءل الكولونيل كيف لم يفكر في ذلك من قبل. فالجسد الحقيقي له رائحة، أما النسخ فلا رائحة لها. ما أهمية هذا. فنسخ إيفيتا لن تجتمع معاً إلى الأبد.

– ريارتي! ـ نادى.

ردّ عليه البحار بسعال جاف. فقد صار وراءه، فوق الصندوق، في الظلمة.

– لا يمكنك تصور ما هو هنا ـ قال الكولونيل وهو يفك، دون مهارة، غطاء النعش. أفلت المفك من يده أكثر من مرة، وضاعت ثلاثة براغٍ. وقال أخيراً: ـ ها هي أمامك.

أزاح الملاءة التي تغطي وجه المتوفاة وأضاء مصباحاً يدوياً. وتحت حزمة

النور، كانت إيفيتا بروفيلاً متقناً، صورة مسطحة، منقسمة إلى نصفين، مثل القمر.

– من يصدق هذا ـ مسدّ القائد البحري شعره من جديد وهو منبهر ـ. انظر هذه الفرس التي دمرت حياتنا. كم تبدو وادعة. الفرس. إنها مثلما كانت.

– هكذا، مثلما تراها الآن، ستبقى إلى الأبد ـ قال الكولونيل بصوت أبح ومنفعل ـ. لن يؤثر عليها أي شيء: لا الماء، ولا مرور السنوات، ولا الزلازل. لا شيء. ولو مرّ قطار عليها ستبقى كما هي.

كانت لإيفيتا، تحت ضوء المصباح، انعكاسات فوسفورية. وكانت تتصاعد من النعش أبخرة ملونة خفيفة.

– إنها تجلب سوء الطالع، يا لابنة العاهرة ـ كرر النقيب ـ انظر ما الذي فعلته بكَ. أنت لم تعد نفسك.

– لم تفعل بي شيئاً ـ قال الكولونيل مدافعاً عن نفسه ـ كيف تخطر لك مثل هذه الأفكار؟ لا يمكنها إلحاق الضرر بأحد.

كانت الكلمات تفلت منه دون أن يفكر فيها. لم يكن يريد قولها، ولكن الكلمات كانت قد خرجت. حرف الضابط البحار نظره. فرأى ضابطي صف يتسليان بلعبة رماية الأسهم في مركز الحراسة.

– من الأفضل أن تمضي بها يا موري كينيك ـ قال.

أطفأ الكولونيل المصباح اليدوي.

– أنت من سيخسر ـ أجابه ـ. يمكن لك أن تدخل التاريخ ولا تريد ذلك.

– أية لعنة يهمني التاريخ. التاريخ لا وجود له.

وفي البعيد، حاكى الرقيب غانديني نعيق طائر نورس. ردّ الكولونيل بصفير طويل وحاد، بوضع أصبعين بين شفتيه. وكان الصخب يتردد في الضباب. فالنهر هناك، على بُعد خطوات قليلة.

رجع الجنود إلى الشاحنة نعسين. وكان غانديني على وشك الصعود

معهم، ولكن الكولونيل أمره بأن يجلس إلى جانبه في كابينة القيادة.

– فلنذهب إلى القيادة العامة ـ قال ـ يجب أن نعيد هؤلاء الجنود.

– والحمولة أيضاً ـ تنهد غانديني.

– لا ـ أجاب الكولونيل واثقاً ومتغطرساً ـ سنستبقي الحمولة في الشاحنة، نهاراً وليلاً، على رصيف مقر المخابرات.

تجاوزا أرصفة المرفأ بصمت. أوصلا الجنود وتركوهم في كراج القيادة، وراحا بعد ذلك يجولان في المدينة المقفرة. خيل إليهما أنهما يريان أشباحاً ترصدهما عند نواصي الشوارع، وكانا يخشيان أن يطلق أحدهم النار عليهما من مدخل أحد الأبنية ويستولي على الشاحنة. جالا عبر الشوارع، والحدائق، والأراضي الخلاء، وكانا يتوقفان فجأة عند المنعطفات وبندقيتاهما جاهزتان لإطلاق النار، بانتظار العدو الذي يجب أن يكون مترصداً في مكان ما. هبت رياح. وغطى السماء سيل من السحب الرمادية الواطئة. كان الإرهاق يُثقل عليهما، ولكنهما لم يشاءا قول ذلك. تقدما نحو مبنى المخابرات عبر جولات دورانية وانحرافات أخرى.

وعند وصولهما، اكتشف الكولونيل علامة شؤم أخرى. فعلى الرصيف الذي فكر في ركن الشاحنة إلى جانبه، كان يشتعل صف من الشموع النحيلة والطويلة. ونثر أحدهم في محيط المكان أزهار أقحوان ولاتنسيني. لقد صار يعرف الآن أن العدو لا يلاحقه. بل أسوأ من ذلك. فالعدو يعرف ما ستكون خطوته التالية، ويسبقه إليها.

-8-

«امرأة تحقق خلودها»

ما هي العناصر التي شكلت أسطورة إيفيتا؟

أولاً) صعدت مثل نيزك من مجهولية أدوار صغيرة في التمثيليات الإذاعية إلى عرش لم تجلس على مثله امرأة أخرى: عرش المحسنة إلى الإنسانية والزعيمة الروحية للأمة.

توصلت إلى ذلك خلال أقل من أربع سنوات. ففي شهر أيلول 1943 تعاقدت معها إذاعة بيلغرانو لتمثل أدوار نساء عظيمات في التاريخ. أجرها الجديد أتاح لها استئجار شقة متواضعة من حجرتين في شارع بوساداس. وقد أساءت، في الحلقات الإذاعية الأولى، إلى اللغة الإسبانية بضراوة أوشكت معها الإذاعة على إلغاء البرنامج. فقد جعلت الملكة الإنكليزية إيزابيل تقول: «إنني أموت من السخط indinacion أيها الفيكوند رالي Rali»، وربما كانت تعني بذلك السير والتر Raleigh، الذي لم يكن فيكونتاً. وفي حوار غير محتمل للإمبراطورة كارلوتا مع بينيتو خواريث، صاحت: «لن أغفر لك أن يكون لديك مثل هذا المفهوم concerto عن عشيقي Masimiliano». ربما صححوا لها خلال الفاصل الإعلاني، لأنها في الفقرة التالية قالت بجهد متوازن: «Macksimiliano يعاني، وأنا أكاد

أجن!»*. لم يكن شغل المرء رئاسة فريق تمثيل، آنذاك، يتمتع بأية أهمية اجتماعية. وبالنسبة لأناس المجتمع الراقي الذين لا يستمعون إلى المذياع إلا نادراً، كانت إيفيتا شخصية كوميدية تسلي الكولونيلات وضباط البحرية. ولم يكن هناك من يفكر فيها باعتبارها خطراً.

في شهر حزيران 1937 بدأ التاريخ يتغير. فقد ظهرت إيفيتا على غلاف مجلة *تايم*. وكانت عائدة من جولة في أوروبا عمدّها المراسلون باسم «رحلة عبور قوس قزح». لم يكن لها أي منصب رسمي، ولكن رؤساء الدول استقبلوها في كل مكان، وكذلك البابا، والحشود. وفي ريو دي جانيرو، المحطة قبل الأخيرة في رحلتها، رحب بها وزراء خارجية الدول الأمريكية وقطعوا جلسات مؤتمرهم كي يحتفلوا معها. ومن لم يولوها اهتماماً كممثلة، صاروا يكرهونها كأيقونة للبيرونية الأمية الجاهلة والبربرية والدوغمائية.

كانت آنذاك في الثامنة والعشرين من عمرها. وفي نظر قوانين تلك الحقبة الثقافية، كانت تتصرف كمسترجلة. تستيقظ وتصدر الأوامر لوزراء الحكومة في أشد الساعات تهوراً، وتُفككك إضرابات، تأمر بطرد صحفيين وممثلين انتقاماً منهم أو لنزوة عابرة، وفي اليوم التالي تقرر إعادتهم إلى عملهم، وتؤوي في البيوت المؤقتة آلاف الرؤوس السوداء التي تهاجر من الأرياف، وتفتتح مصانع، وتجول في القطار على عشر قرى أو خمس عشرة قرية في اليوم مرتجلة خطابات تذكر فيها الفقراء بأسمائهم، وتشتم مثل حوذي، ولا تنام. تمشي على الدوام بفارق خطوة وراء زوجها، ولكنه هو من كان يبدو كظل لها، وكوجه العملة الآخر. في واحدة من شتائمه التاريخية، عرّف إثيكييل مارتينث إسترادا الزوجين على النحو التالي:

---

* تخطئ إيفيتا في لفظ الكلمات، فتقول indinacion بدلاً من indignación، و concerto بدلاً من concepto، وMasimiliano أو Macksimiliano بدلاً من Maximiliano.

«كل ما كان يفتقر إليه بيرون أو يمتلكه في درجة بدئية من أجل الانقضاض على البلاد من أعلى إلى أسفل، حققته هي أو جعلته يحققه. وقد كانت بهذا المعنى طموحة بلا مسؤولية. والواقع أنه كان المرأة وكانت هي الرجل».

ثانياً) ماتت شابة، مثل الشخصيات الأرجنتينية الأسطورية الأخرى خلال القرن: فقد ماتت وهي في الثالثة والثلاثين.

لقد كان عمر كارلوس غارديل أربعة وأربعين عاماً عندما احترقت في ميدلين الطائرة التي سافر فيها مع فرقته الموسيقية. ولم يكن تشي غيفارا قد أكمل السنة الأربعين من عمره عندما أعدمته بالرصاص وحدة متقدمة من الجيش البوليفي في هيغيرا.

ولكن خلافاً لغارديل وتشي غيفارا، كان احتضار إيفيتا محط متابعة، خطوة فخطوة، من جانب الحشود. لقد كان موتها تراجيديا جماعية. ففي الفترة من أيار حتى تموز عام 1952، كانت تقام يومياً مئات القداديس والمواكب الدينية للتضرع إلى الرب من أجل صحتها التي لا سبيل إلى إنقاذها. أناس كثيرون كانوا يعتقدون أنهم يشهدون أولى اهتزازات يوم القيامة. فمن دون سيدة الأمل، لن يكون هناك مكان للأمل؛ ومن دون الزعيمة الروحية للأمة، ستنتهي الأمة. منذ أن بُثت التقارير الطبية حول المرض حتى نقل جثمانها إلى مبنى الاتحاد العام للعمل في موكب مؤلف من خمسة وأربعين عاملاً، أمضت إيفيتا والأرجنتين بأسرها أكثر من مئة يوم من الاحتضار. ففي كافة أنحاء البلاد كانت تقام مذابح الحداد، حيث صور المتوفاة تبتسم تحت قطع من الحرير المموج.

ومثلما يحدث مع كل من يموتون شباباً، كانت أسطورة إيفيتا تتغذى على ما فعلته وما كان يمكن لها أن تفعله. «لو أن إيفيتا ما تزال حية لكانت مقاتلة مونتونيرا»، هكذا كان يغني مقاتلو حرب العصابات من منظمة مونتونيروس في سنوات السبعينيات. من يدري. فقد كانت إيفيتا أشد تعصباً وحماسة بكثير من بيرون، ولكنها لا تقل عنه محافظة. وكان

يمكن لها أن تفعل ما يقرره هو. إن التأملات النظرية بشأن قصص مستحيلة هي التسلية المفضلة للسوسيولوجيين، وهذه التأملات النظرية في حالة إيفيتا تنفتح في مروحة واسعة التفرعات، لأن العالم الذي عاشت فيه سرعان ما تحول إلى عالم آخر. «لو أن إيفيتا ظلت على قيد الحياة، لكان بيرون قد قاوم المحاولات الثورية التي انتهت بإسقاطه عام 1955»، هذا ما تكرره كل الدراسات حول المعتقد البيروني. ويستند هذا الاعتقاد إلى واقع أنه في العام 1951، بعد محاولة الانقلاب الضعيف والفاشل، أمرت إيفيتا القائد العام للجيش أن يشتري خمسة آلاف مسدس آلي وألف وخمسمائة مسدس رشاش توزع على العمال في حالة وقوع تمرد آخر. من يدري. فعندما سقط بيرون، انتهى الأمر بتلك الأسلحة - التي يفترض أنها كانت في أيدي النقابيين - أن جُمعت في مستودعات قوات الدرك، ولم يتكلم الرئيس المرتبك من الإذاعة طالباً المساعدة. كما أن الجماهير لم تتحرك عفوياً للدفاع عن زعيمها، مثلما فعلت قبل عشر سنوات. لم يشأ بيرون القتال. لقد كان شخصاً آخر. أتراه كان شخصاً آخر لأن الشيخوخة بدأت تدنو منه أم لأن إيفيتا الدؤوب لم تعد إلى جانبه؟ لا يمكن للتاريخ ولا لأحد أن يجيب عن هذا السؤال.

ثالثاً) كانت روبين هو سنوات الأربعينيات.

ليس صحيحاً أن إيفيتا استسلمت إلى كونها ضحية، مثلما يلمح كتابها *مسوغ حياتي*. لم تكن تتسامح مع وجود ضحايا، لأن ذلك يُذكرها بأنها كانت واحدة منهن. فكانت تحاول افتداء كل من تراه من الضحايا.

عندما تعرفت إلى بيرون، في العام 1944، كانت تقوم بأود قبيلة من البكم المتخلفين. تدفع لهم تكاليف المنامة والطعام، لكن عملها في الإذاعة لم يكن يسمح لها برعايتهم مباشرة. وقد أرادت في إحدى المرات، بافتخار، أن تقدمهم إلى بيرون. ولكن الأمر تمخض عن كارثة. فقد وجداهم عراة من الخصر إلى أسفل، يسبحون في بحر من البراز. فما كان خطيبها الذي شعر بالهول إلا أن أمر بنقلهم في عربة مسطحة تابعة للجيش إلى

ملجأ في تانديل. ولكن السائقين أهملوا عملهم وأضاعوهم إلى الأبد في متاهة حقول ذرة.

لم يكن هناك ما يحزن إيفيتا أكثر من رؤية عرض اللقطاء عشية عيد الميلاد والعيد الوطني. رؤوسهم حليقة كيلا تجتذب القمل، يرتدون عباءات زرقاء ومرايل رمادية. وكان أولئك الأيتام ينتشرون على نواصي شارع فلوريدا حاملين حصالات معدنية أنبوبية الشكل، يجمعون فيها صدقات من أجل راهبات المحبس ومستوطنات الأطفال الضعفاء. بينما سيدات الجمعية الخيرية يراقبن، من سيارتهن الفاخرة، سلوك محميهن ويتلقين تحيات تملق من المارة. الثياب التي كانت تزدهي بها فاعلات الخير تخيطها لهن الفتيات اللاتي لا أسر لهن والمعزولات في ملجأ الراعي الصالح، حيث يجري تعليمهن التفصيل والخياطة باستخدام مقصات مثبتة بسلاسل إلى المناضد، للحيلولة دون سرقتها. لقد أقسمت إيفيتا أكثر من مرة على نيتها في وضع حدّ لاستعراضات المذلة السنوية تلك.

وقد واتتها الفرصة في شهر تموز 1946، بعد شهر من أداء زوجها القسم كرئيس للدولة. فبصفتها السيدة الأولى، تصبح رئيسة الشرف للجمعية الخيرية، لكن فاعلات الخير قاومن الاختلاط بامرأة ذات ماض تحيط به الشكوك، كانت ابنة غير شرعية وعاشت مع رجال عديدين قبل أن تتزوج.

ولكن الواجب تغلب طبعاً على المبادئ. فحافظت فاعلات الخير على التقليد وقدمن المنصب إلى «المسرجلة» ـ مثلما كن يسمينها في ثرثراتهن ـ، ولكنهن فرضن عليها شروطاً كثيرة لا تستطيع تقبلها.

ذهبن لزيارتها ذات يوم سبت في مقر الإقامة الرئاسي. أعطتهن إيفيتا موعداً في الساعة التاسعة صباحاً، ولكنها لم تستيقظ في ذلك اليوم حتى الساعة الحادية عشرة. ففي الليلة السابقة أوصل إليها عملاء رقابة الدولة نسخة من الرسالة التي بعثت بها إحدى المديرات إلى الكاتبة ديلفينا بونغي دي غالفيث. وكانت الرسالة تقول: «نأمل أن تذهبي معنا إلى مقر

الإقامة الرئاسي أيتها العزيزة ديلفينا. نحن نعلم أن ذوقك مرهف وأن مثل هذه الزيارة ستقلب معدتك. ولكن إذا ما شعرتِ بتلبك في معدتك أمام ابنة الشـ.. (مع المعذرة، لأنه لا يمكن إلا استخدام الكلمات الدقيقة مع شاعرة مثلك) فتذكري أنك تقدمين بذلك أضحية للرب ستوفر لك الكثير من الغفران.»

نزلت إيفيتا الأدراج بأناقة أصابتهن بالذهول. كانت ترتدي *تايوراً* مزركشاً بمربعات بيضاء وسوداء مع زينات من الساتان. ومع أنها كانت لا تزال تستخدم مفردات غيرِ مضمونة، إلا أن لغتها صارت سريعة، ساخرة، مخيفة.

– ما الذي جاء بكن أيتها السيدات؟ ـ قالت وهي تجلس على مقعد بيانو.

فأجابتها بازدراء سيدةٌ ترتدي ثوباً أسود وتضع قبعة تبرز منها رياش طائر:

– جاء بنا التعب. إننا ننتظر منذ أكثر من ثلاث ساعات.

ابتسمت إيفيتا ببراءة:

– ثلاث ساعات فقط؟ إنكن محظوظات. هناك سفيران في الطابق العلوي ينتظران منذ خمس ساعات. علينا عدم إضاعة الوقت. إذا كنتن متعبات، فأنكن ترغبن في الانصراف بسرعة.

– ما حملنا على المجيء هو واجب مقدس ـ قالت سيدة أخرى تلف عنقها بلفاع من فرو ثعلب ـ احتراماً منا لتقليد يمتد إلى أكثر من قرن، نعرض عليك ترؤس الجمعية الخيرية...

– ... على الرغم من أنك ما تزالين شابة ـ ألمحت ذات قبعة ريش الطائر ـ وربما لأنك كنتِ فنانة، قد لا تكونين مطلعة على أعمالنا. إننا سبعٌ وثمانون سيدة.

نهضت إيفيتا واقفة.

– إنكن تدركن أنني لا أستطيع القبول ـ قالت بحزم ـ هذا العمل ليس

لي. فأنا لا أتقن لعب البريدج، ولا أحب الشاي مع حلوى المعجنات سوف أسيئ إليكنّ. ابحثن عن واحدة مثلكن.

مدت إليها سيدة اللفاع، براحة، يداً مغطاة بقفاز.

– إذا كان الأمر كذلك، فسوف ننصرف.

– إنكن تنسين التقليد ـ قالت إيفيتا متجاهلة اليد الممتدة للمصافحة ـ كيف ستبقين بلا رئيسة فخرية؟

– أترغبين في أن تقترحي علينا شيئاً؟ ـ سألت ذات فرو الثعلب بتكبر.

– عينوا أمي. إنها في الخمسين. وهي ليست ابنة ولا شر...، مثلما تقول هذه الرسالة ـ أجابت وهي تفتح نسخة الرسالة فوق المنضدة ـ، ولكنها تحسن الكلام خيراً منكن.

ثم استدارت، وصعدت الأدراج بأناقة.

وخلال أسابيع قليلة، اختفى الإحسان من الأرجنتين، وحلت محله فضائل إلهية أخرى عمدتها إيفيتا باسم «معونة اجتماعية». تلاشت الجمعية الخيرية وانسحبت السيدات فاعلات الخير إلى بيوتهن. وجميع الضحايا الذين كانوا لا يزالون في شارع فلوريدا أُدخلوا إلى مستوطنات الراحة، حيث كانوا يلعبون كرة القدم منذ الصباح حتى الليل، وينشدون أغنيات الامتنان: *سنكون بيرونيين من أعماق قلوبنا / في أرجنتين إيفيتا وبيرون الجديدة*.

ومن أجل إشباع شغفها بعقد الزيجات، بحثت السيدة الأولى عن عرسان إجباريين لفتيات ملجأ الراعي الصالح اللاتي لا أُسرة لهن، ولألف وثلاثمائة فتاة أخرى كن يُحبسن هناك باعتبارهن متهتكات، أو طاعنات بالسكاكين، أو غشاشات في ألعاب القمار، أو مدامات مواخير، افتدتهن في حفلات زفاف جماعية كانت هي نفسها إشبينتهن.

الجميع كانوا سعداء. وفي الثامن من حزيران 1948، بعد سنتين من اللقاء مع فاعلات الخير، أُعلن بأبوية عن ميلاد مؤسسة ماريا إيفا دوارتي دي بيرون للمعونة الاجتماعية، من أجل توفير «حياة كريمة للطبقات

الاجتماعية الأقل حظوة».

الأسوأ في هذه القصة هو أن الضحايا لا يتوقفن قط عن كونهن ضحايا. لم تكن إيفيتا بحاجة لترؤس أي نوع من المؤسسات الخيرية. كانت تريد للعمل الخيري برمته أن يحمل اسمها. وقد عملت نهاراً وليلاً من أجل هذا الخلود. لمت شمل الأحزان والآلام المتفرقة وركّبت منها موقداً يُرى من بعيد. وقد فعلت ذلك على أحسن وجه. فكان الموقد فعالاً جداً إلى حد أنه أحرقها هي أيضاً.

رابعاً) كان بيرون يحبها بجنون.

ليس للحب وحدة قياس، غير أنه كان واضحاً أن إيفيتا تحبه أكثر بكثير. ألم أقل هذا من قبل؟

في *مسوغ حياتي*، وصفت إيفيتا لقاءها ببيرون كما لو كان تجلياً إلهياً: لقد ظننت أنها شاؤل في الطريق إلى دمشق، ينقذها نور يسقط من السماء. أما بيرون، بالمقابل، فيتذكر تلك اللحظة دون أن يضفي عليها الكثير من الأهمية. وهو يقول: «أنا من صنعت إيفيتا. عندما تقربت مني كانت فتاة ضئيلة التعليم، ولكنها دؤوبة ونبيلة المشاعر. ومعها اجتهدتُ وبذلتُ الجهد في فن القيادة. لا بد من النظر إلى إيفا على أنها مُنتج من صنعي.»

لقد تعارفا في أجواء الاضطراب التي أشاعها زلزال سان خوان. فقد وقعت الكارثة يوم السبت 15 كانون الثاني 1944. وفي يوم السبت التالي أقيم مهرجان خيري لمصلحة الضحايا. لقد شاهدتُ في الأرشيف الوطني بواشنطن أفلام النشرات الإخبارية المصورة تلك الليلة: مقاطع مقتضبة من الأفلام التي عُرضت في سنغافورا، وفي القاهرة، وفي ميدلين، وفي أنقرة. ما مجموعه الإجمالي ثلاث ساعات وعشرون دقيقة. وإن كانت اللقطة نفسها تتكرر بكثرة أحياناً ـ نشرتا الأخبار السينمائية الفرنسية والهولندية، مثلا، تتطابقان تماماً ـ تأثير الواقع المكسور، المجزأ، المفكك الذي يخرج به المشاهد من هناكِ يشبه التشوش الذي يسببه الحشيش كما يروي بودلير. الكائنات معلقة في ماضيها ولكنها ليست نفسها على

الإطلاق: الماضي يتحرك بهم، وفي لحظة لا تخطر على بال المرء، تنتقل الأحداث من المكان وتعني شيئاً آخر. ومهما بدا ذلك غريباً، فإن إيفيتا في نشرة أخبار ساو باولو هي أقل شبهاً بإيفيتا في نشرة بومباي. فنشرة بومباي تظهرها منطلقة ومرحة، بتنورة مربعات وبلوزة فاتحة اللون مزينة بوردة قماشية كبيرة؛ أما في نشرة ساو باولو فلا تظهر إيفيتا مبتسمة أبداً: تبدو مرتبكة من الوضع. وتظهر تنورتها وبلوزتها هناك كأنهما فستان، ربما بتأثير الإضاءة غير المشبعة.

جرى اللقاء بينهما في الساعة العاشرة وأربع عشرة دقيقة ليلاً: في أعلى القاعة الرياضية توجد ساعتان كبيرتان تسجلان التوقيت. كانت إيفيتا مع صديقة لها في الصف الأول من الصالة، إلى جانب رجل يضع قبعة أوريون، حدّده بعض المذيعين في النشرات - مذيع ميدلين ومذيع لندن - بأنه «الكولونيل آنيبال إمبيرت، مدير البريد والتلغراف». وقد كان شخصية مهمة تدين لها إيفيتا بالجميل الكبير في توقيعها عقداً تجسد بموجبه لإذاعة بيلغرانو ثماني عشرة بطلة من التاريخ. ومع ذلك، لم يكن إمبيرت يهمهما في تلك الليلة. فمن كانت تموت لهفة للتعرف إليه تلك الليلة هو «كولونيل الشعب» الذي يعد بحياة أفضل للمهانين والبائسين من أمثالها. «لستُ رجل سفسطة ولا حلول وسطية»، هذا ما سمعته يقوله عبر الإذاعة قبل أسبوعين. (ما الذي تعنيه سفسطة؟ لقد كان بيرون يشوشها أحياناً بغرابة لغته وكانت تخشى ألا تفهمه عندما تلتقي به. ليس مهماً: هو سيفهم ما ستقوله له، بل قد لا تكون هناك حاجة إلى الكلمات.) وكان بيرون يقول: «إنني مجرد جندي مسكين نال شرف حماية جماهير الشغيلة الأرجنتينيين». كم من الجمال في هذه الكلمات القليلة، وكم من العمق! لو أنها تستطيع أن تكررها، في المستقبل، مثلما هي: «لستُ سوى امرأة مسكينة من الشعب تقدم حبها إلى الشغيلة الأرجنتينيين».

صفوف طويلة من كائنات تشبه الهنود كانت تنزل كل مساء من القطارات في محطة ريتيرو لتتوسل مساعدة الكولونيل الذي يعد بالخبز

والسعادة. لم تحظَ هي بأحد ينتظرها عندما جاءت إلى بوينس آيرس قبل عشر سنوات. لماذا لا تضع نفسها إلى جانبه الآن؟ ليس الوقت متأخراً. بل على العكس: ربما يكون الوقت مبكراً جداً. فعمر الكولونيل يزيد قليلاً على الثمانية والأربعين عاماً، وهي تقترب من إكمال السنة الخامسة والعشرين من العمر. مذ كانت إيفيتا تلقي أشعار آمادو نيرفو عبر مكبرات الصوت في خونين وهي ما تزال ترتدي المريول المدرسي، كانت تحلم برجل مثله، شفوق ومفعم في الوقت نفسه بالمتانة والحكمة. الفتيات الأخريات كن يقنعن بشخص يكون شغيلاً وطيباً. أما هي فلا: كانت ترغب فوق ذلك في أن يكون الأفضل. لقد تابعت في السنوات الأخيرة كل خطوات بيرون وصارت تشعر أنه لا يمكن لأحد سواه أن يحميها. وكانت إيفيتا تقول لنفسها: على المرأة أن تختار، وألا تنتظر أن يجري اختيارها. على المرأة أن تعرف منذ البداية من الذي يناسبها ومن لا يناسبها. لم تكن قد رأت بيرون من قبل قط، اللهم إلا من خلال صوره في الصحف. وكانت تشعر مع ذلك أن هناك ما يحسم مسبقاً أنهما سيكونان معاً: بيرون كان الفادي، وكانت هي المظلومة؛ لم يكن بيرون يعرف سوى حب زواجه القسري من بوتوتا تيثون والضاجعات الصحية مع عشيقات مصادفات؛ بينما عرفت هي: حصار متوددي الإذاعة الاضطراري، وناشري مجلات وصحف الإثارة، وبائعي الصابون. كان جسد كل منهما بحاجة إلى الآخر، وما إن يتلامسا حتى يتكفل الرب بإشعالهما. إنها تثق بالرب الذي لا وجود لديه لحلم غير واقعي.

عندما أعلن عريف الحفل الخيري عبر مكبرات الصوت أن الكولونيل خوان بيرون قد دخل إلى لونا بارك، نهض الجمهور واقفاً ليصفق له، وكذلك إيفيتا. نهضت مرتجفة عن المقعد، أمالت أكثر قليلاً عصابة الشعر على رأسها، ورسمت على وجهها ابتسامة لم تختف لحظة واحدة. رأته يتقرب من المقعد المجاور وذراعاه إلى أعلى، أحست وهي تصافحه بيديها المغطاتين بقفازات بدفء يديه القويتين، الملطختين بشامات صغيرة،

واللتين حلمت كثيراً بمداعباتهما، ودعته بحركة من رأسها لا يمكن كبحها تقريباً ليحتل المقعد الشاغر، إلى يمينها. لقد فكرت منذ زمن طويل في الجملة التي عليها أن تقولها له حين يصير قريباً منها. يجب أن تكون جملة مقتضبة، مباشرة، تصيبه في منتصف روحه: جملة تعذب ذاكرته. وكانت إيفيتا قد تدربت قبالة المرآة على إيقاع كل حرف، وعلى الحركة الخفيفة عصابة الرأس، والملامح الخجولة، والابتسامة التي لا تمحى عن شفتين ربما عليهما أن ترتعشا.

– كولونيل ـ قالت وهي تصوب إليه عينيها البنيتين.

– ماذا يا ابنتي؟ ـ أجابها، دون أن ينظر إليها.

– شكراً لكَ لأنك موجود.

لقد أعدتُ بناء كل سطر من هذا الحوار أكثر من مرة بالاستناد إلى أشرطة أرشيف واشنطن الوطني. قرأتُ الكلمات من خلال حركة شفاه الشخصيتين. وكثيراً ما عمدتُ إلى تجميد الصور بحثاً عن تنهدات، أو توقفات مقطوعة على المافيولا، أو حروف مستترة بفعل بروفيل متهرب أو حركة لا أراها. ولكنني لم أجد شيئاً آخر سوى هذه الكلمات التي لا تُسمع. وبعد النطق بها، تقاطع إيفيتا ساقيها وتخفض رأسها. وبيرون الذي ربما تفاجأ، يتظاهر بالنظر إلى المنصة، حيث ليبرتاد لامباركي تغني *مادريسلفا* بصوت يظهر، ماطراً، في نشرات الأخبار المصورة كلها تقريباً.

«شكراً لكَ لأنك موجود» هذه هي الجملة التي قسمت حياة إيفيتا إلى شطرين. في مذكراتها *مسوغ حياتي*، يبدو أنها لا تتذكر أنها قالتها. وقد فضل محرر تلك المذكرات، مانويل بينيًا دي سيلفا، أن ينسب إليها تصريحاً بالحب أبسط بكثير، وبعبارات أطول بكثير. «جلستُ إلى جانبه»، هذا ما كتبه (متصنعاً أن إيفيتا هي من تكتب). وتابع: «ربما لفت ذلك انتباهه، وعندما استطاع سماعي، حاولتُ أن أقول له بأفضل ما لدي من كلمات: "أجل، مثلما تقول حضرتك، قضية الشعب هي قضيتك الأولى، ومهما بلغ تماديك في التضحية لن أتخلى عن البقاء إلى جانبك

حتى الممات". تقبل هو عرضي. وهناك كان يومي الرائع.»

تبدو هذه الرواية بالغة الإنشائية. أما صور الأخبار السينمائية فتشير إلى أن إيفيتا لم تقل سوى «شكراً لكَ لأنك موجود» وبعد ذلك صارت امرأة أخرى. ربما كانت رشقة هذه الحروف القليلة كافية لتفسير خلودها. لقد خلق الرب الدنيا بفعل واحد فقط: «أكون». ثم قال بعد ذلك «كن». لقد بلغت إيفيتا الخلود بكلمتين إضافيتين.

هناك سبع عشرة نشرة أخبار سينمائية تتحدث عن الزلزال وعن المهرجان الذي أقيم بعد أسبوع من ذلك. وواحدة من تلك النشرات فقط، المكسيكية، تتوسع في القصة حتى النهاية المتوقعة. تعرض توالي الممثلات ماريا دوفال، وفيليسا ماري، وسيلفانا روث على المنصة. وبعد ذلك، عندما يبدأ موسيقيو فرقة فيليثيانو برونيّا بوضع مساند نوتاتهم، يعرض الشريط إيفيتا وهي تبتعد في الممر الأوسط لصالة لونا بارك. إحدى يديها تدفع (أو هكذا تبدو) ظهر بيرون، كمن أمسكت بزمام التاريخ وبدأت توجهه حيث تشاء.

خامساً) لمس إيفيتا، في نظر أناس كثيرين، كان يعتبر ملامسة للسماء.

الوثنية. آه، أجل. لقد كان لهذا الأمر أهمية كبيرة في تكوين الأسطورة. كان أعوان إيفيتا يلقون حزماً من أوراق النقد عند مرورها بالقطار في القرى. وهذا المشهد ظل مسجلاً في جميع الأفلام الوثائقية حول حياتها. وبين حين وآخر كانت إيفيتا نفسها أيضاً تتناول ورقة نقدية بين أصابعها، فتقبّلها وتلقي بها مع الريح. لقد تعرفتُ إلى أسرة في بلدة لاباندا، بمقاطعة سنتياغو دل إستيرو، تعرض واحدة من «الأوراق النقدية المقبّلة» في إطار. ولم تشأ التصرف بها في لحظات بؤسها القصوى، حين لم يكن لديها ما تأكله. والآن، بعد أن أصبحت تلك الورقة النقدية خارج التداول، تحتفظ بها الأسرة كأثر ديني، فوق رف في غرفة الطعام، إلى جانب صورة ملونة لإيفيتا بفستان طويل من الساتان الأسود. وهناك إلى جانب الصورة على الدوام باقة أزهار. تلك الأزهار البرية والشمعة المشتعلة هما، في المعتقد

الشعبي، قرابين دائمة إلى جانب صور إيفيتا التي يوقرونها كما لو أنها سور قديسين أو عذراوات معجزات. وبمسحة الزيت المقدس نفسها، لا أقل ولا أكثر.

أعرف أن هناك مئة ـ على الأقل مئة ـ شيء استخدمته، أو قبّلته أو لسته سيدة الأمل ويستخدم لعبادتها. لن أورد هنا القائمة كاملة، بل سأكتفي بأمثلة قليلة كنموذج:

☆ الكناري المحنط الذي أهدته إيفيتا إلى الدكتور كامبورا حين كان رئيساً لمجلس النواب.

☆ لطخة أحمر الشفاه التي خلفتها على كأس شمبانيا خلال حفل ساهر في مسرح كولومبس، قبل سفرها إلى أوروبا. وقد احتُفظ به لسنوات عديدة في متحف المسرح.

☆ خصلات الشعر التي قصوها عند موتها. ومازالت تباع شعرات منها في بعض محلات المجوهرات في شارع ليبرتاد. يضعونها ضمن علبة صغيرة من الفضة أو الكريستال أو الذهب، وتختلف الأسعار حسب رغبة المستهلكين.

☆ النسخ الموقعة من *مسوغ حياتي* التي تباع في مزادات بمعرض سان تيلمو ثم تستخدم بعد ذلك ككتب صلوات.

☆ ثوب بيتي ضارب إلى البياض، أبلته السنون، فتحة صدره على شكل حرف V، وقصير الكمين، عرض بين عامي 1962 و 1967 في بيت بشارع إرالا آي سيباستيان غابوتو، في جزيرة ماثيّل المعروفة آنذاك بأنها متحف الكفن.

☆ جسد إيفيتا نفسها المحنط.

سادساً) ما يمكن تسميته «قصة الهبات».

في كل أسرة بيرونية يجري تداول قصة: الجد لم يرَ البحر قط، الجدة لم تكن تعرف ما هي الملاءات أو الستائر، العم كان بحاجة إلى شاحنة من أجل توزيع صناديق ماء الصودا، ابنة العم تحتاج إلى ساق اصطناعية، الأم

لم تكن تملك المال لشراء جهاز عرسها، الجارة المريضة بالسل لم تكن قادرة على دفع تكاليف سرير في مصحات جبال كوردوبا. وذات صباح تظهر إيفيتا. في مشهدية القصص يحدث كل شيء ذات صباح مشمس، ربيعي، بلا غيمة واحدة في السماء، وتُسمع موسيقى كمانات. وصلت إيفيتا وملأت بجناحيها الكبيرين فضاء الرغبات، حققت الأحلام. كانت إيفيتا رسولة السعادة، بوابة المعجزات. فالجد رأى البحر. أخذته هي من يده، وكلاهما بكيا معاً أمام الأمواج. هذا ما يروى. التقاليد الشفوية تنتقل من يد إلى يد، الشكر غير متناهٍ. عندما يحين موعد التصويت، الأحفاد يفكرون في إيفيتا. وبالرغم من أن بعضهم يقولون إن خلفاء بيرون قد نهبوا الأرجنتين وإن بيرون نفسه قد خانهم قبل موته، إلا أنهم يسلمون أصواتهم إلى مذبح القرابين. لأن جدي طلب مني ذلك قبل أن يموت. لأن جهاز عرس أمي كان هدية من إيفيتا. يبحث أحدهم، والأمل يملؤه، عن الطريق الذي وعدت به الأحلامُ تلهفه.

سابعاً) النصب غير المكتمل.

في شهر تموز 1951، وضعت إيفيتا تصورها لإقامة نصب المهلهل. أرادت له أن يكون الأكثر ارتفاعاً، والأثقل، والأعلى كلفة في العالم، وأن يُرى من بعيد، مثل برج إيفل. هذا ما قالته للنائبة سيلينا رودريغث دي مارتينث بايبا التي يجب عليها أن تقدم المشروع لمجلس الشيوخ: «يجب أن يكون العمل نافعاً لشحذ حماسة البيرونيين والتفريج عن عواطفهم إلى الأبد، حتى بعد أن لا يبقى أحد منا حياً».

في نهاية تلك السنة، صادقت إيفيتا على ماكيت النصب. التمثال المركزي فيه يمثل عاملاً مفتول العضلات بطول ستين متراً، ينتصب فوق قاعدة بارتفاع سبعة وسبعين متراً. وحوله ميدان فسيح، أكبر ثلاث مرات من ميدان كامبو دي مارتي، تحيط به تماثيل تمثل الحب، والعدالة الاجتماعية، والأطفال المتميزين الوحيدين، وحقوق الشيخوخة. وفي منتصف النصب يشيد ضريح ضخم كضريح نابليون في انفالدس

Invalides، ولكن من الفضة، مع صورة راقدة في نقش نافر. هذا التركيب الهائل، والذي يبلغ ضعف حجم تمثال الحرية تقريباً، يجب أن يقام في فضاء مفتوح بين كلية الحقوق ومقر الإقامة الرئاسي. كانت إيفيتا متحمسة للماكيت حتى إنها أمرت باستبدال تمثال العامل ذي العضلات بتمثال لها هي نفسها. وقد سارع مجلس الشيوخ إلى المصادقة على الفكرة قبل عشرين يوماً من موتها، وتشير إيفيتا في وصيتها إلى هذا الوهم بالخلود: «هكذا سأشعر على الدوام بأنني قريبة من شعبي وأظل جسر المحبة الممتد بين المهلهلين وبيرون».

بعد مأتمها راحت غبطة النصب الهائل تنطفئ ببطء. وعند سقوط بيرون، لم يكن هناك سوى حفرة هائلة، ردمتها السلطات الجديدة في ليلة واحدة. ومن أجل مواراة الميدان الفسيح الخاوي، ارتجلوا هناك نوافير مضيئة وألعاب أطفال. ولكن الذاكرة المأتمية لإيفيتا لم تتزحزح من ذلك المكان. فالساحة الهائلة مازالت خاوية، وقدرتها السحرية لم تُمس. في نهايات العام 1974، سعى خوسيه لوبيث ريغا، العريف السابق في الشرطة ومعلم علوم سحر خفية لزوجة بيرون الثالثة - وكانت آنذاك رئيسة للجمهورية - إلى أن يقيم في المكان نفسه هيكلاً للوطن ليكون سبيلاً لمصالحة الأرواح المتخاصمة. فأعادوا حفر الأساسات، ولكن رزايا التاريخ - كما في المرة السابقة - أوقفت الأعمال.

بين فترة وأخرى تظهر إيفيتا هناك، فوق أغصان شجرة. المهلهلون يلمحون نورها، ويسمعون حفيف ثوبها، ويتعرفون إلى همهمة صوتها الأبح والهائج، يكتشفون كوة نورها في عالم الغيب وجلبة أعصابها، وبينما هم يشعلون شموع الأمل حيث يجب أن يكون نعشها قابعاً، يسألونها عن المستقبل. فترد بطريقة مضمرة، بتقلبات سواد، بتلميحات غائمة، معلنة أن الأزمنة الآتية ستكون مكفهرة. مثلما هي مكفهرة على الدوام، فمعتقد المؤمنين بها قد ترسخ. لأن إيفيتا معصومة عن الخطأ.

الأسطورة تشيد في جانب وكتابة البشر تحلق، أحياناً، في جانب آخر.

الصورة التي يخلفها الأدب عن إيفيتا، على سبيل المثال، تقتصر على صورة جسدها الميت أو عضوها الجنسي التعس. بل إن الافتتان بالجسد الميت قد بدأ قبل المرض، في العام 1950. فخوليو كورتاثار أنهى *الاختبار*، وهي رواية من المحال نشرها بأكثر من معنى، مثلما يصرح هو نفسه في المقدمة بعد ثلاثة عقود من ذلك. إنها قصة حشود حيوانية تتوافد من كل أرجاء الأرجنتين لتَعبُدَ قطعة عظم في ميدان مايو. جموع الناس تنتظر معجزة غير معروفة، تمزق روحها من أجل امرأة ترتدي البياض، «الشعر الشديد الشقرة يتهدل حتى النهدين». إنها طيبة، إنها طيبة جداً، يكرر ذوو الرؤوس السوداء الذين يجتاحون المدينة، ويتحولون في النهاية إلى فطور وسحب ضباب مسمومة. الرعب الذي يطفو في الهواء ليس رعباً من بيرون وإنما منها هي التي تسحب من أعماق التاريخ الأزلية أسوأ فضلات الهمجية. إيفيتا هي العودة إلى القبيلة المتوحشة، إنها غريزة أكل اللحم البشري في جنسنا، إنها البهيمة الجاهلة المندفعة، بعماء، في متجر كريستال الجمال.

في الأرجنتين التي كتب فيها خوليو كورتاثار رواية *الاختبار*، كانت الزعيمة الروحية ما تزال معافاة، بأنياب حادة ومخالب قاسية متعطشة للدماء، تبعث في النفوس رعباً مقدساً. لقد كانت امرأة خارجة من ظلمات الكهف، وقد تخلت عن التطريز، وتنشية القمصان، وإشعال نار موقد المطبخ، وإعداد شراب المتة، وتحميم الأولاد، لتستقر في قصور الحكومة والقوانين التي كانت مواقع حكراً علىٍ الرجال. «كانت تلك المرأة الغريبة مختلفة عن جميع المخلوقات تقريباً»، هكذا يعرفها *الكتاب الأسود للدكتاتورية الثانية*، الذي نُشر في العام 1958. «إنها تفتقر إلى التعليم، ولكن ليس إلى الحدس السياسي. إنها عنيفة، ومتسلطة، واستعراضية». هذا يعني غير متسامحة، ووقحة، مع مواهب من «الهوى والجرأة» غير المناسبة للمرأة. «تروقها الإناث»، يخمن مارتينث إسترادا في مؤلفه *كاتيليناريياس*. «لها تهتك النساء العموميات في الفراش، ممن لا فرق لديهن الاستمتاع مع أحد رواد ماخور أو مع أيقونة بيتيه أو عاهرة

البهت.»

مشهد موتها الباذخ كان إساءة للشعب الأرجنتيني. وكانت النخب المثقفة تتخيلها تموت بالحركات نفسها التي، ربما، كانت تمارس بها الحب. تسلّم أنفاسها، تختفي في جسد آخر، تجتاز الحدود، مُحِبّة بموت أشد من أيّ كان، وميتة بكل حب، قاسية بلا روح ولكنها تُسلم الروح، مفرغة متعتها في حقل الموت. لا تفعل شيئاً من ذلك كله على انفراد، بل عليها أن تمارس كل شيء بلا تحفظ، بتهتك، زارعة الخوف في النُّخب بإفراط حميميتها، الصارخة، الوغدة، إيفيتا المستمنية.

بعض أفضل قصص سنوات الخمسينيات هي محاكاة ساخرة لموتها. كان الكتّاب بحاجة إلى نسيان إيفيتا، إلى التطهر من شبحها. في «هي»، القصة التي كتبها خوان كارلوس أونيتي في العام 1953 ونشرها بعد أربعين سنة من ذلك، صَبَغَ الجثة بالأخضر، جَعَلها تختفي في اخضرار مشؤوم: «إنها تنتظر الآن أن تتعاظم العفونة، أن تنزل ذبابة، على الرغم من الموسم، لتستريح على الشفتين المفتوحتين. تحولت جبهتها إلى الخضرة».

وفي الفترة نفسها تقريباً، قام بورخيس، وهو أكثر مواربة، وأكثر تهرباً، بالتنديد، بتحقير المأتم في «الصنم»، وهو نص مقتضب شخصيته الوحيدة رجل في حالة حداد، نحيل، شبه هندي، يعرض دمية شقراء الشعر في حجرة جنائزية بائسة. وقد كان هدف بورخيس الكشف عن بربرية الحداد وزيف الحزن من خلال تمثيل مبالغ فيه: إيفا دمية ميتة في علبة كرتون، توقّر في الأحياء الهامشية كلها. ولكن ما خرج معه، دون أن يشاء هو ذلك ـ لأن الأدب لا يكون إرادياً على الدوام ـ، كان تكريماً لاتساع مهابة إيفيتا. فإيفيتا في «الصنم»، هي صورة الرب المرأة، ربة جميع النساء، ورجل جميع الأرباب.

من فهم بصورة أفضل الثنائية التاريخية المتلازمة للحب والموت هم الشاذون جنسياً. جميعهم كانوا يتخيلون أنفسهم يتضاجعون بجنون مع

إيفيتا. يعصونها، يبعثونها حية، يدفنونها، يعبدونها. إنهم هي، هي حتى الإنهاك. لقد شاهدتُ منذ سنوات طويلة في باريس *إيفا بيرون*، مسرحية كوميدية ـ أم أنها درامية؟ ـ لكُوبي. لم أعد أتذكر من أدى دور إيفيتا. يخيل إليّ أنه المثلي فاكوندو بو. لقد سجلتُ خلال أحد التدريبات على المسرحية أو استنسختُ من نص كُوبي مونولوجاً بالفرنسية، ترجمه لي هو نفسه بعد ذلك ببقايا اللغة الإسبانية المتبقية لديه: «إنه نص سخيف ـ قال لي ـ ماجن ورقيق مثل إيفيتا». شيء عند الحد الأقصى للصوت الصافي، تأوهات تكبح الطيف الكامل للمشاعر. وقد كان المونولوج على هذا النحو تقريباً:

إيفيتا (لجماعة المخنثين المحيطين بها بينما هي تعانق أحدهم أو إحداهن، فجنس الشخصية غير محدد): *لقد تركوني أسقط وحيدة حتى أعماق السرطان. إنهم جماعة عاهرين. لقد أصابني الجنون، إنني وحيدة. انظروا كيف أموت مثل بقرة في المسلخ. لم أعد ما كنتُ عليه. حتى موتي يتوجب عليه أن أقوم به وحدي. لقد سمحوا لي بكل شيء. كنت أذهب إلى الأحياء البائسة، أوزع أوراقاً نقدية وأعطي كل شيء لشحومي الصغار. أعطيهم مجوهراتي، سيارتي، ملابسي. وأعود مثل مجنونة، عارية تماماً في سيارة أجرة، مُخرجة مؤخرتي من النافذة. كما لو أنني ميتة، كما لو أنني مجرد ذكرى لميتة.*

أجل، طبعاً، هذه صورة للانهيار، ولكنها غير متقنة. فكُوبي لم يكن لديه الشارع الذي كان لإيفيتا، وفي هذا النص يُلحظ ذلك. فاللغة تميل إلى المحاكاة الصوتية والهستيريا، تحاكي اليأس والغطرسة اللذين صنعت هي منهما أسلوباً ونبرة لم يتكررا بعد ذلك في الثقافة الأرجنتينية. ولكن كُوبي كان يكتب وفق العادات الحميدة. لا يمكن له أن يزيح عن كاهله الأسرة المتنفذة ولا الطفولة الغنية (فجد كُوبي كان، كما تذكرون، غاتسبي الصحافة الأرجنتينية العظيم)، تفوح من برازه رائحة ساحة الفاندوم وليس رائحة حفاضات حي لوس تولدوس البائس: لقد كان بعيداً جداً عن

الفظاظة الجاهلة التي تتكلم بها إيفيتا.

إنه يحبها، بالطبع. ففي كوميديا ـ أم إنها دراما؟ ـ *إيفا بيرون* يسبل الإشفاق من غرزات الفستان. لا يمكن لأيٍ مشاهد أن يتشكك في أن العمل بالنسبة إلى كوبي كان مريضاً وليس عملاً متخفياً لتحديد الهوية: **إيفيتا هي أنا**. ولكن هذا لم يحل دون إقدام زمرة من البيرونيين المتعصبين على إحراق مسرح «السيف الخشبي» بعد أسبوع من حفل الافتتاح. فتحولت منصة العرض والكواليس ومستودع الملابس وكل شيء إلى رماد. كانت ألسنة اللهب تُرى من شارع كلود برنار، على بُعد ثلاثمائة متر. لقد استاء المتعصبون لأن إيفيتا تعرض مؤخرتها. فهي في المسرحية تقدم حبها كيفما تستطيع أو كما تعرف. تسلم جلدها كي يلتهموه. وقد جعلها كوبي تقول: «أنا يسوع البيرونية الإيروتيكية. خذوني مثلما تشاؤون.»

يا لإساءة الاحترام، يا لانتهاك العقل، هكذا احتجت المنشورات التي ألقى بها حارقو مسرح «السيف الخشبي» في اليوم التالي للاعتداء. وبعد قرابة عشرين عاماً من ذلك، عندما نشر نيستور بيرلونغر قصصه القصيرة الثلاث *إيفيتا حية (في كل فندق منظم)*، استحضر متعصبون آخرون أغنية تانغو ديسثبولو نفسها حين ادعوا عليه بتهمة «الاعتداء على الشعب وتدنيس المقدسات»: *يا لإساءة الاحترام، يا لانتشار الخبث غير المسبوق*.

لقد أراد بيرلونغر بجزع أن يكون إيفيتا، كان يبحث عنها في ثنايا الجنس والموت، وحين يجدها يكون ما يراه فيها هو جسد روح، أو ما سيسميه ليبنيث «جسد جوهر متفرد». إن بيرلونغر يفهمها أكثر من أي شخص آخر. إنه يتكلم لغة مخيم الهنود، لغة المهانة، لغة الهاوية. لا يتجرأ على ملامسة حياتها، ولهذا يلامس موتها: يداعب الجثة، يزينها بالمجوهرات، بالمكياج، ينزع زغب بدنها، يفك عقيصة شعرها. وبتأمله لها من تحت، يؤلهها. ولأن كل ربة حرة، فإنه يطلق لها العنان. ففي «جثة الأمة» وقصيدتين أخريين أو ثلاث قصائد يجوبها فيها بيرلونغر

ناهباً، ليست هي من تتكلم: من يتكلم هي حلي الجسد الميت. أما قصص *إيفيتا حية* بالمقابل، فإنها تجل بالمعنى الذي يضفيه جويس على الكلمة: «ظهور روحاني مفاجئ»، روح جسد شره ينبعث.

هكذا تبدأ ثانية القصص الثلاث:

كنا في البيت الذي نجتمع فيه كي نحرق، الشخص الذي سيأتي بالمخدر في ذلك اليوم حضر مع امرأة في حوالي الثامنة والثلاثين من العمر، شقراء، بملامح من هي ميتة جداً، كثير من الطلاء يغطيها وعقيصة...

من أقاموا دعوى ضد بيرلونغر بسبب «كتابته المدنسة للمقدسات» لم يفهموا أن نيته كانت عكس ذلك: إلباس إيفيتا بكتابة مقدسة. اقرؤوا قصة الانبعاث في إنجيل يوحنا: ستقفز عندئذ نية المحاكاة في *إيفيتا حية* إلى الضوء. ففي القصة، لا يتعرف إليها أحد في البدء، لا أحد يريد أن يصدق أنها هي. والشيء نفسه يحدث ليسوع في يوحنا، 14/20 عندما يظهر لمريم المجدلية أول مرة. إن إيفيتا تعرض على الشرطي الذي يريد اعتقالها أدلة، إشارات، مثلما يفعل يسوع مع توما التوءم. إيفيتا تمص ثؤلولاً، ويسوع يطلب أن يتحسسوه: «هات إصبعك، ضعها في خاصرتي» (يوحنا، 20، 27).

عندما كتب بيرلونغر النسخة الأخيرة من *إيفيتا حية*، كان غارقاً في موجة صوفية، كان قد علم قبل أسابيع قليلة من ذلك أنه مصاب بالإيدز، وكان يحلم بالانبعاث. وكتابته إيفيتا بلغة كان يمكن لإيفيتا أن تستخدمها في الثمانينيات هي إستراتيجيته للنجاة والبقاء في «جثة الأمة». فهو لا يكرر **إيفيتا هي أنا**، مثلما فعل كوبي من قبل. ولكنه يتساءل: وماذا لو كان الرب امرأة؟ وإذا كنتُ أنا الربة وفي اليوم الثالث سيعود جسدي إلى الانبعاث؟

لقد نظر الأدب إلى إيفيتا بطريقة معاكسة تماماً للطريقة التي كانت تريد أن تُرى بها. فهي لم تتكلم عن الجنس قطّ في العلن، وربما لم تتكلم عنه في حميميتها كذلك. ربما كانت ستتحرر من الجنس لو أنها استطاعت. ولكنها فعلت شيئاً أفضل: تعلمته ثم نسيته عندما ناسبها ذلك، كما لو

أنه شخصية أخرى من شخصيات التمثيليات الإذاعية. من عرفوا حميميتها كانوا يفكرون في أنها أقل النساء ميولاً جنسية على الأرض. «لا تشعر بالتحمية معها ولو في جزيرة مقفرة»، هذا ما قال العشيق في أحد أفلامها. ما الذي فعله بيرون إذاً من أجل التحمية؟ من المستحيل معرفة ذلك: لقد كان بيرون شمساً مظلمة، مشهداً خاوياً، إنه قفر انعدام المشاعر. ولا بد أنها ملأته بالشهوات. ليس بالجنس وإنما بالشهوات. لا علاقة لإيفيتا بالعاهرة المنفلتة بلا كابح التي يتحدث عنها التفخيمي مارتينث إسترادا، ولا بـ «مومس الحي الهامشي» التي افترى عليها بورخيس. في تعريفات إيفيتا بشان المرأة، وهو ما يشغل كامل الجزء الثالث من *مسوغ حياتي*، لا تَرِد كلمة جنس ولو مرة واحدة. فهي لا تتكلم عن اللذة ولا عن الشهوة؛ بل تدحضهما. إنها تكتب (أو تملي، أو تتقبل أن يقولوا باسمها): «إنني مثل أي امرأة في أي منزل مما لا حصر من منازل شعبي. [...] تروقني الأشياء نفسها: المجوهرات، الفراء، الملابس، الأحذية... ولكنني، مثلهن، أفضل أن يكون الجميع، في البيت، أفضل مني. ومثلهن، مثلهن جميعاً، أرغب في أن أكون حرة كي أتنزه وأستمتع... ولكن تقيدني، مثلما تقيدهن، الواجبات البيتية التي ليس هناك من هو مجبر على إنجازها بدلاً مني».

تريد إيفيتا أن تمحو الجنس من صورتها التاريخية، وقد توصلت إلى ذلك جزئياً. فسِيَرُ حياتها التي كتبت بعد العام 1955 تحتفظ بصمت وقور حول هذه النقطة. مجنونات الأدب وحدهن هنّ من يضخمنها، يعرينها، يهززنها، كما لو أنها قصيدة من قصائد أوليفيريو خيروندو. يستحوذون عليها، يتلمسونها، يستسلمون لها. أوليس هذا هو، في نهاية المطاف، ما طلبت إيفيتا من الشعب أن يفعله لذكراها؟

كل شخص يقوم ببناء أسطورة الجسد كما يشاء، يقرأ جسد إيفيتا بانحرافات نظرته. وهي يمكن لها أن تكون كل شيء. فهي مازالت في الأرجنتين سندريلا المسلسلات التلفزيونية، نوستالجيا أنها كانت ما لم

نكن عليه نحن قطّ: امرأة السوط، الأم السماوية. وفي خارج الأرجنتين هي السلطة، والميتة الشابة، والضبعة الرؤوم التي تدعو من شرفات الغيب: «لا تبكيني أيتها الأرجنتين».

الأوبرا، العمل الموسيقي (كيف يدعى هذا؟) الذي أعده تيم رايس وأندرو لويد ويبير بسّط الأسطورة ولخصها. فإيفيتا التي اعتبرتها مجلة *تايم* في العام 1947 عصية على التفسير، تحولت الآن إلى مادة قابلة للغناء في *المختار من ريدرز دايجست*. في الضاحية التي أعكفُ فيها على كتابة هذه القصة، والتي تسمى تلميحاً كونتية الجنس المتوسط (أم إنه الجنس النصفي؟ أم الجنس الوسطي؟)، تشكل إيفيتا صورة مألوفة جداً مثل تمثال الحرية، والأدهى أنها تشبهه.

في بعض الأحيان، من أجل الراحة من جهاز الكمبيوتر، أخرج لقيادة السيارة دون وجهة محددة عبر طرق نيوجرسي المقفرة. أمضي من هايلاند بارك إلى فلمينغتون أو من ميلستون إلى وودس تافيرن والمذياع مفتوح. وفي وقت لا يخطر لي ببال، تغني إيفيتا. أسمعها تخرج من الحنجرة المجرحة لشيناد أوكونور حليقة الشعر. للميتة والمغنية الصوت الأبح والكئيب نفسه، والذي يوشك أن ينكسر في نحيب. تغنيان، كلتاهما معاً، *Don't cry for me, Argentina*، براءات مجرجرة ومجترة، تلفظان «أرينتينا» كما لو أن الياءَ راءً من مقاطعة مولدي الأرجنتينية. أتراني أبحث عن إيفيتا أم أن إيفيتا هي التي تبحث عني؟ هناك صمت طويل هنا، وفي هذا النفس المختنق من الغناء.

أبدأ بالاقتراب من ترينتون أو بالابتعاد نحو أوك غروف، سواد الهواء لا يتحرك، السماء ترسم على الدوام الندوب نفسها، وفي مركز تجاري مقفر، بين إعلانات مضيئة لماكيس كينتامي فرايد تشيكن، وبت دكتور، وذي غاب، وأتليتس فوت، بين ملصق كبير يحمل صورة كلينت إيستوود وآخر بصورة غولدي هاون، توجد صورة لإيفيتا تنتصب مثل ملكة، وحيدة في مواجهة قوى السماء والأرض، لا علاقة لها بالبلدة الصغيرة، بالمطر،

ولا علاقة لها بالبكاء. لا تبكي من أجلي، والهالة الشوكية لتمثال الحربه فوق هامة جمالها.

في كونتية الجنس المتوسط، في نيوجرسي، تمثل إيفيتا صورة مألوفة، ولكن القصة المعروفة عنها هي قصة الأوبرا، قصة تيم رايس. وربما لا أحد يعرف من كانت عليه في الحقيقة؛ فمعظم الناس هنا يعتقدون أن الأرجنتين هي ضاحية من ضواحي مدينة غواتيمالا. أما في بيتي، فإيفيتا تطفو: رياحها موجودة. وفي كل يوم تترك اسمها في النار. أكتب في حضن صورها: أراها وشعرها منفلت مع الريح ذات صباح من نيسان؛ أو متنكرة بزي بحار وهي تتخذ وضعاً لتُلتقط لها صورة لغلاف مجلة *سنيتونيا*؛ أو تتعرق تحت معطف من فرو الفيزون إلى جانب الدكتاتور فرانثيسكو فرانكو في صيف مدريد الحديدي؛ أو تمد يديها إلى المهلهلين؛ أو تسقط بين ذراعي بيرون، والزرقة تحيط بعينيها، وهي مجرد عظام معروقة. أكتب في حضنها، مستمعاً إلى خطاباتها المؤثرة في شهورها الأخيرة، أو هارباً من هذه الصفحات كي أشاهد مرة أخرى، في نسخ فيديو، الأفلام التي لم يرها أحد هنا: *الأعجوبة، موكب السيرك، الأسعد بين الشعب*، التي تتحرك فيها إيفيتا دوارتي بتعثر وتلقي مقاطع الحوار بنطق مريع، ممثلة من الصف الأخير، الجمال: *أليس الجميل يا ترى هو بداية للفظيع؟*

وهكذا أتقدم، يوماً إثر يوم، على الحد النحيل بين الأسطوري والحقيقي، منزلقاً بين أنوار ما لم يكن وظلمات ما كان يمكن أن يكون. أضيع بين هذه الثنايا، وتجدني هي على الدوام. ولا تتوقف هي عن الوجود، عند وجودي: تجعل من وجودها مبالغة مفرطة.

على مسافة كيلومترات قليلة من بيتي، في نيو برانسويك، مغنية سوبرانو زنجية تدعى جانيس براون، أعادت منذ بعض الوقت تدشين ألحان العمل الموسيقي *إيفيتا*. وفي ليلتين من كل أسبوع تغني *Don't cry for me, Argentina*. تضع باروكة شقراء، وترتدي تنورة طويلة لها شكل جرس. المسرح عتيق، مقاعده من مخمل بال، ولكنه يمتلئ

بالمشاهدين دوماً. جميع المشاهدين تقريباً من الزنوج، يتناولون وجبات ضخمة من البوشار خلال الساعة وربع الساعة التي يدومها العرض، ولكنهم عندما تبدأ إيفيتا بالاحتضار، يتوقفون عن المضغ ويبكون أيضاً، كما في الأرجنتين. لم تتخيل إيفيتا قط أنها ستتجسد في جانيس براون ولا في الصوت الحليق لشيناد أوكونور. لم تفكر في نفسها في ملصقات نائية لبلاد ليست هي فيها سوى شخصية أوبرا. ومع ذلك، كان سيسعدها رؤية اسمها مكتوباً ببَرَقٍ مضيءٍ على أفاريز واجهة أحد مسارح نيو برانسويك، وإن يكن مسرحاً معرضاً للتدمير منذ العام 1990 لتقام مكانه ساحة لتوقف السيارات.

- 9 -

«عظمة البؤس»

خلال بقاء الشاحنة بنزيلتها الجنائزية متوقفة إلى جانب رصيف جهاز المخابرات، لم يستطع الكولونيل إغماض عينيه. أمر بفرض الحراسة نهاراً وليلاً، وتنظيف بقايا الأزهار والشموع. بحث في صحف المساء عن قصة حول أضرار الحريق الذي حال دون تركه إيفيتا بين خزانات قصر المياه: لم يجد كلمة واحدة. كان قد اشتعل مستودع زيوت وشحوم، ولكن على مسافة ثلاثة كيلومترات إلى الجنوب من الأعمال الصحية. ما الذي يحدث مع الواقع؟ أيكون ممكناً أن هناك أحداثاً موجودة لبعض الأشخاص وغير مرئية للآخرين؟ لم يعد الكولونيل يدري كيف يهدئ جسده. كان يتمشى في معرات جهاز المخابرات صامتاً ويتوقف أمام مناضد ضباط الصف ناظراً إليهم بتمعن. أو يعتكف في مكتبه ليرسم قباب مدن وهمية. كان يخشى من فقدان كل شيء إذا ما استسلم للنعاس. لا يمكن له أن يغمض عينيه. فقد كان الأرق حريقه أيضاً.

مع حلول ليلة اليوم الأول، اكتشف الحراس البدلاء وجود زهرة أقحوان على جهاز تبريد محرك الشاحنة. خرج الضباط لرؤيتها واستنتجوا أن الزهرة لم تُلحظ في التفتيش الصباحي. لأنه لا يمكن لأحد أن يتمكن من تعليقها بشبكة جهاز التبريد دون أن يُرى. لقد كان ذهاب المارة وإيابهم لا

يتوقف، والحراس لا يرفعون بصرهم عن الشاحنة. ومع ذلك لم ينتبهوا إلى وجود زهرة الأقحوان طويلة الساق، وتويجها الممتلئ بغبار الطلع.

مفاجأة أخرى باغتتهم في فجر اليوم التالي. فعلى الشارع، تحت حافة الشاحنة، تتأجج شمعتان ممشوقتان. يطفئهما الهواء فيتولد اللهب تلقائياً بعد شرارة سريعة. أمر الكولونيل بسحبهما فوراً، ولكن مع دخول الليل كانت هناك من جديد أزهار مبعثرة تحت هيكل الشاحنة، إلى جانب عنقود شموع صغيرة تشع أضواء تكاد لا تُرى، كأنها رغبات. وإلى جانب الصندوق تتطاير منشورات عليها ترويسة مطبوعة، بكتابة واضحة: *كوماندو الثأر*. وتحتها: *أعيدوا إيفيتا. اتركوها بسلام*.

هذا تحذير. المعركة تقترب، فكر الكولونيل. يمكن للعدو أن ينتزع منه الجثة في هذه الليلة بالذات، أمام أنفه. إذا حدث ذلك سيكون عليه أن ينتحر. لأن القيادة ستنقض عليه. فقد سأله رئيس الجمهورية: «هل دفنتموها أخيراً؟». ولم يستطع الكولونيل إلا أن يقول له: «سيدي، لم نتلق الجواب بعد». وكان الرئيس قد ألح: «لا تتأخروا لوقت أطول. خذوها إلى مقبرة مونتي غراندي.» ولكن ذلك ما لا يمكن عمله. فمقبرة مونتي غراندي بالتحديد هي المكان الذي سيذهب الأعداء للبحث عنها فيه.

قرر أن يتولى هو نفسه حراسة النعش تلك الليلة. سيستلقي داخل صندوق الشاحنة، على بطانية عسكرية. سيأمر الرائد أرانثيبيا، المجنون، أن يرافقه. بضع ساعات فقط، قال لنفسه. كان يشعر بالخوف. ما أهمية ذلك ما دام لا أحد يعلم بالأمر؟ لم يكن خوفاً من الموت وإنما من الحظ: الخوف من عدم معرفة من أي ضفة من ضفاف الظلمة سينقض عليه برق المصيبة.

وزع الحراس بطريقة لا يمكن معها لأي حظ أن يتسرب: ترك رجلاً في كابينة القيادة، وراء المقود؛ وحارسين على الرصيف المقابل، يرتديان ملابس مدنية. وترك حارسين آخرين عند الناصيتين، وواحداً تحت هيكل الشاحنة، مستلقياً بين العجلات. وأمر أحد الضباط أن يرابط عند النوافذ

ويراقب المنطقة بمنظار مزدوج ويقدم وصفاً لكل تحرك غريب. ويجب تبديل الحراس كل ثلاث ساعات؛ ابتداء من الساعة التاسعة ليلاً. الأعمال الخاطئة لها حدود، كان الكولونيل يكرر. وهي لا تحدث مرة ثانية أبداً.

كان الوقت قد تجاوز قليلاً منتصف الليل عندما استقر هو والمجنون في الشاحنة. كانا يرتديان زياً عسكرياً مشدوداً. فالهاجس الغامض بأنهما سيخوضان قتالاً قبل الفجر جعلهما نظيفين من أية فكرة باستثناء فكرة الانتظار الجوفاء المحزنة. «سيأتي الموت ويأخذ عينيك»، هذا ما قرأه الكولونيل في مكان ما. عينا من؟ وكان أقسى ما في الانتظار عدم معرفة العدو. يمكن لأي كان أن يأتي من العدم ويواجههما. حتى في أعماقهما هما بالذات يتأهب، ربما، عدو سري. كان المجنون يحمل المسدس الطاحون الذي أعدم به مئات الكلاب. أما موري كينيك فكان معه، كالعادة، مسدسه الكولت. وداخل صندوق الشاحنة، في كثافة الهواء المفرغ، كانت تطفو رائحة أزهار خفيفة. ولم تكن تُسمع ضجة الشارع: لا يُسمع سوى لهاث الوقت، متقدماً إلى الأمام. استلقيا صامتين في الظلمة. وبعد هنيهة سمعا طنيناً جارحاً، حاداً، بدا كما لو أنه آخذ بقطع الصمت بحد نصله.

– إنه نحل ـ تكهن الكولونيل ـ تجتذبه رائحة الأزهار.

– لا وجود لأزهار ـ لاحظ أرانثيبيا.

بحثا عن النحل دون طائل، إلى أن عاد الصمت. وكانا يوجهان بين لحظة وأخرى أسئلة غير مجدية، لمجرد سماع كل منهما صوت الآخر. لم يتجرأ كلاهما على النوم. كان النعاس يلامس وعييهما ويتراجع، مثل غيمة متعبة. سمعا أول تبديل للحراس. وبين حين وآخر كان الكولونيل يضرب على أرضية الشاحنة فيرد أحدهم ـ الرجل المستلقي تحت هيكل الشاحنة ـ بثلاث ضربات مماثلة.

– أتسمع؟ قال المجنون فجأة.

استوى الكولونيل جالساً. كان الصمت يخيم في كل الأنحاء، يتمطى في

فضاء الظلمة غير المتناهي.
- لا يوجد شيء.
- اسمعه. إنه يتحرك.
- لا يوجد شيء ـ كرر الكولونيل.
- الأجساد التي دفناها هي النسخ المقلدة ـ قال المجنون ـ وهذه هي. إنها الفرس. لقد انتبهت إلى ذلك فورا، بسبب الرائحة.
- جميعها لها رائحة: الجثة والنسخ المقلدة. جميعها عُولجت بمواد كيميائية.
- لا. هذا الجسد يتنفس. ربما أدخل المُحَنِّط شيئاً في أحشائه، كي يتأكسج. وربما هناك في داخله مايكروفونات.
- غير ممكن. فقد رأى أطباء الحكومة صور الأشعة. المتوفاة سليمة، مثل شخص حي. ولكنها غير حية. لا يمكنها التنفس.
- إنها هي إذاً؟
- وما أدراني ـ قال الكولونيل ـ لقد دفنا الأجساد خبط عشواء.
- اسمع، مرة أخرى. اسمع أنفاسها ـ ألح المجنون.
يرهف سمعه، تطفو أصوات كما في حلم: جوقة راهبات في البعيد، تكسر أوراق جافة، خفق أجنحة طائر يجذف عكس الريح.
- إنه الهواء، في الأسفل ـ قال الكولونيل.
ضرب بمقبض الحربة ثلاث ضربات على الأرضية، مغيراً الإيقاع: ضربتان متتاليتان سريعتان، كقرع طبل. ثم انتظار بضع ثوان، وضربة أخرى طويلة، متحدية. ردّ عليه الرجل الممدد تحت هيكل الشاحنة بإيقاعات مماثلة. إنها كلمة السر.
ظلا جامدين من جديد، يشمان الرائحة الحريفة للأزمنة الماضية. راحت الظلمة تلتهم نفسها وتغطس في مغارتها التي كمغارة خلد. كانا يتعرقان، بسبب توتر المعركة الوشيكة. هل ستكون هناك معركة؟ اندفع صوت المجنون مثل شرارة:

- يبدو لي أن الفرس غير موجودة يا سيدي الكولونيل. أظن أنها ذهبت.

- دعك من الحماقات يا أرانثيبيا.

- لم أعد أسمعها منذ بعض الوقت.

- لم تسمعها قطّ. لقد كانت تهيؤات. اهدأ.

كان جزع المجنون يمضي من جانب إلى آخر في الشاحنة. يشعر به يصطدم بالمقعدين الجانبيين وبالقماش السميك الذي يغطي صندوق الشاحنة.

- لماذا لا نرى إذا ما كانت لا تزال هنا يا حضرة الكولونيل؟ ـ اقترح ـ هذه المرأة غريبة الأطوار. يمكن لها أن تفعل أي شيء. لقد كانت غريبة الأطوار على الدوام.

فكر في أن أرانثيبيا قد يكون على حق، ولكنه لا يستطيع الاعتراف بذلك. إنها غريبة الأطوار بالطبع، قال لنفسه. ففي ليلة واحدة فقط، وهي راقدة، دون أن تحرك إصبعاً، أخرجت ما لا أحد يدريه من الحيوات عن طورها. حتى إنه هو نفسه لم يعد مثلما كان، كما قال له الكابتن البحري. لا يمكنه أن يخطئ مرة أخرى. عليه أن يستبعد كل الأخطاء. الصوت الذي تكلم به لم يكن صوته أيضاً.

- لن نخسر شيئاً بإجراء فحص ـ قال. ووجه حزمة ضوء المصباح اليدوي نحو التابوت ـ ارفع الغطاء ببطء يا أرانثيبيا.

سمع لهاث المجنون المتلهف. رأى يديه ترفعان الخشب برغبة تبحث عن شيء أكثر، شيء لم يعد في متناول يد أحد. لا يمكنه أن يتذكر ماذا يشبه ذلك المشهد، ولكنه يجب أن يكون شيئاً شهده وربما عاشه مرات كثيرة، شيء أولي وجوهري مثل العطش أو الأحلام. وتحت خط النور، ظهر بروفيل إيفيتا، فجأة، في الفراغ.

- إنها مثل القمر ـ قال المجنون ـ تبدو مرسومة بمقص.

- احتفظ بالصمت ـ أمره الكولونيل ـ كن متيقظاً.

انحنى إلى أن تطابق بصره مع خط أفق المتوفاة. وعندئذ، بحركة تظاهر بالازدراء، رفع صوان الأذن السليمة وتفحص الجرح النجمي الصغير الذي علّمها به. إنه موجود، لا ينطمس. ولا يمكن لأحد غيره أن يراه.

– غطها من جديد يا أرانثيبيا. تعرضها للهواء لا يناسبها.

جازف المجنون بصفير سريع، حاد، كصفير عصفور. لم يستطع كبحه.

– انظر، إنها هي ـ قال ـ لقد انتهى أمرها. الزعيمة الروحية، حامية البائسين. إنها الآن أشد وحدة من كلب.

عادا للانتظار في صحراء السواد. كانا، في بعض اللحظات، يسمعان سكون أنفاسهما. وفي ما بعد، شغلهما سماع ذهاب ومجيء الدوريات في الخارج. وقبيل الفجر هطل مطر. استسلم الكولونيل للنعاس أو للإحساس بأنه لم يعد في أي مكان. أيقظه تراكض سريع على الرصيف وأصوات آمرة يطلقها النقيب غالارثا:

– لا تلمسوا شيئاً! يجب أن يرى الكولونيل هذه البلوى.

طرق أحدهم على بوابة الشاحنة. مسد موري كينيك شعره وأحكم أزرار السترة. لقد انتهى السهر.

أبهر وهج النهار بصره. ومن خلال الفتحة الضيقة التي فتحها تمكن من رؤية غالارثا يضع يديه على خصره. كان يقول له شيئاً، ولكنه لم يفهم ما قاله. تابع فقط خط إصبعه السبابة التي تشير إلى ركن، تحت هيكل الشاحنة. وهناك وجد ما كان يخشى منه طيلة الليل. رأى صفاً من الشموع المشتعلة، عصية على الريح وأبخرة المطر. رأى رشقات أزهار الأقحوان والمنثور وزهرة العسل التي ترافق المتوفاة كما لو أنها ملائكة موتها، والفرق الوحيد هو أنها كانت كثيرة الآن: حزمة كبيرة من الأزهار. وبين العجلات، برأس نازف، ولكنه لا يزال حياً، رأى الرقيب غانديني الذي كانت نوبة الحراسة الأخيرة من نصيبه. لقد ضُرب بوحشية. وكان فمه محشواً بحفنة من الأوراق. لم يكن الكولونيل بحاجة لأن يقرأها

ليعرف ما الذي تقوله.

صعد هائجاً إلى مكتبه. شرب جرعة كبيرة من الجن. نظر من النافذة إلى المدينة اللامتناهية: السطوح الملساء، المتماثلة، والتي تبرز منها بالتناوب رقاب دواجن القباب. عندئذ تذكر أنه مازالت لديه وسيلة الهاتف. أجرى اتصالين وأمر باستدعاء المجنون.

– لقد انتهت محنتنا أيها الرائد ـ قال ـ سنأخذ النعش إلى صالة سينما. لقد رتبتُ الأمر. إنهم ينتظروننا.

– صالة سينما؟ ـ فوجئ أرانثيبيا ـ سيزعج هذا الخبر رئيس الجمهورية.

– لن يعرف الرئيس شيئاً. سيظن أننا دفناها في مقبرة مونتي غراندي.

– ومتى سنأخذها؟

– الآن بالذات. يجب التصرف بسرعة. قل لغالارثا وفيسكيت أن يسرعا بالمجيء. سنعمل وحدنا هذه المرة.

– وحدنا؟ ـ سأله المجنون. كان الوضع بمجمله يبدو هذياناً لا تتوافق أي قطعة منه مع الأخرى ـ إنها صالة سينما يا سيدي الكولونيل، مكان عام. أين سنضعها؟

– على مرأى من الجميع ـ قال موري بعجرفة ـ وراء الشاشة. ألم يكن هذا هو ما كانت ترغب فيه هي نفسها؟ لقد جاءت إلى بوينس آيرس بحثاً عن دور صغير في فيلم، أليس كذلك؟ ستكون الآن في الأفلام كلها.

– وراء الشاشة ـ كرر أرانثيبيا ـ. لا يمكن لأحد تصور ذلك. في أي سينما؟

تأخر الكولونيل في الردّ. كان ينظر إلى السماء الأرجوانية.

– سينما ريالتو ـ قال ـ، في شارع باليرمو. صاحب الصالة ضابط مخابرات متقاعد. وقد سألته عما هو موجود وراء الستارة. فقال لي: جرذان. لا شيء سوى الجرذان والعناكب.

لكثرة النظر إلى فحمات آلات العرض السينمائي المشتعلة، صارت عيناه

صفراوين ومنحرفتين. وكانتا محجوبتين بغشاء رقيق وسخ، كأنه من زجاج، وتنزلق الدموع على خديه عند أدنى إهمال. ولولا وجود ابنته يولندا ربما كان قتل نفسه. ولكن دفء عاطفة ابنته والأفلام التي كان يعرضها في صالة سينما ريالتو ـ فيلمان في الفترة الليلية، وثلاثة أفلام في العرض الخاص بالسيدات أو حفلة بعد الظهر ـ كانت تشغله عن الانتحار.

لقد علموه في مدرسة للرهبان أن الحياة تنقسم عند منعطف ـ ما قبل وما بعد ـ، تحول البشر إلى ما سيكونون عليه إلى الأبد. ويطلق الرهبان على تلك اللحظة تسمية «التجلي الإلهي» أو «اللقاء مع يسوع». وقد بدأت أول انحناء في تلك الانعطافة بالنسبة إلى خوسيه نيميسيو أستروغا، الشهير بالصيني، بعد ظهر اليوم الذي تعرف فيها إلى إيفيتا.

كان يتذكر اليوم والساعة بدقة. ففي الساعة الثانية عشرة وعشر دقائق من يوم الأحد الخامس من أيلول 1948، أمره صاحب صالة ريالتو أن يذهب إلى مقر الإقامة الرئاسي في شارع النمسا، حيث عليه أن يعرض فيلمين. «توجد هناك أجهزة عرض مصغرة». قال له، وأضاف: «ولكنها أجهزة جديدة، فاخرة.» كانت نقابات السينمائيين في إضراب وصالات العرض مغلقة منذ ثلاثة أيام، ولكن الصيني أستروغا لا يستطيع رفض العمل. كان خاضعاً لإرادة صاحب الصالة سبعة أيام في الأسبوع. وكان ذلك تعويضاً عن الحجرتين المتداعيتين اللتين يعيش فيهما، في أقصى السينما، مع زوجته ليديا، وابنته التي عمرها سنة ونصف السنة.

جاءت سيارة حكومية لتأخذه في الساعة الثالثة. وبعد خمس عشرة دقيقة تركوه في القصر في شارع النمسا وأدخلوه إلى كابينة الأجهزة المصغرة الضيقة، حيث كان ينتصب عمودان من بكرات الأفلام. كان الهواء خانقاً ورائحة السيلوليد الحلوة تتجرجر على السجاد مثل طفل عجوز. ثمانية شرائط كانت لفيلم لم يسمع به أستورغا من قبل؛ وثلاثة شرائط أخرى هي طبعات مختلفة من نشرة الحوادث الأرجنتينية. تفحص من كوة النظر الصالة الخاوية، وفيها عشرون مقعداً. لقد كان خوسيه نيميسيو أستروغا

رجلاً منهجياً، يثق بحكمة الأرقام.

أومأ له كبير خدم كي يطفئ الأنوار ويبدأ العرض دون أن ينتظر أحداً. وخلال لجلجة توالي التيترات على الشاشة، رأى شبحاً ينسل إلى الصالة ويتخذ مجلساً في أحد الأطراف، قريباً من المخرج. كان عنوان الفيلم المجهول *الأعجوبة* وبطلاه هما خوان خوسيه ميغيث وإيفا دوارتي.

كان هناك عالم من الاختلافات بين إيفيتا الفيلم وإيفيتا التي يعرفها الجميع. فقد كانت تلك سيدة مسنة مهيبة، جامدة الملامح، شعرها قاتم وعيناها سوداوان، ترتدي ثياب الحداد على الدوام، مع طرحة مطرزة. وفي امتدادات ما كانت تسميه السيدة المهيبة «مزرعتي» كانوا يشيدون سداً، بينما نهر لا يتوقف من القرويين ينحنون لدى مرورها، يقبّلون خواتمها ويدعونها «أم الفقراء». وكانت المرأة ترد على ذلك التبجيل الكبير بتوزيع مجوهرات، وبطانيات، ومغازل لغزل الصوف، وقطعان ماشية. وتلقي بصوت أبح عبارات مستحيلة، مثل: «أعطوني سهماً وسأغرسه في قلب الكون»، أو: «اغفر للأساقفة يا ربي وسيدي، لأنهم لا يعرفون ما يفعلون». وسواء من حيث الموضوع أو اللغة المستخدمة، كان فيلم *الأعجوبة* يبدو مصوراً في عصر آخر، ما قبل اختراع السينما.

خلال عرض الفيلم، لم يتحرك الشبح عن المقعد. كان أستروغا يرقبه من خلال كوة النظر، ولكنه لم يستطع تبين ملامحه. كان يسمعه يسعل أحياناً أو يرافق انهيار البطلة بتنهدات أو شكاوى. ظهرت على الشاشة صورة انتحار غائمة: فالبطلة تودع العالم حاملة خنجراً أو قارورة سمّ. عندئذ ارتفع صوت مكسور من الصالة:

- لا تشعل الأنوار. واصل عرض الأفلام الإخبارية.

لقد تعرف إلى الصوت. إنها نبرة الخطابات الخشنة نفسها، وطريقة النطق نفسها الحائرة بين أسلوب الحي الهامشي والتصنع. وعلى الضوء القاسي لأخبار الحوادث الأرجنتينية استطاع رؤيتها أخيراً، مثلما هي في واقع يتفلت من الأفلام: بشعر مشعث ومثبت ببساطة بشريطة، ويدين

رشيقتين ومرهفتين على التنورة، والجذع الضامر تحت الثوب البيتي، والأنف الطويل والمستقيم فوق بروز الشفتين. لقد كانت هي. الصورة التي تصلي لها زوجته كل ليلة قبل أن تنام. وهي هناك، على بعد خطوات منه.

كان الصيني يعرف عن ظهر قلب كل نشرات الأخبار الأسبوعية في أفلام الحوادث الأرجنتينية، ولكنه لم ير قطّ هذه المقاطع التي يعرضها الآن. لم يكن لها رقم النشرة المتسلسل ولا تاريخ الطبعة، واللقطات مقطوعة بطريقة عشوائية: أحياناً تكون طويلة جداً وتستنسخ محادثات كاملة، أو تكون ومضات سريعة عن حشود، وجوه، تفاصيل ملابس. في المقاطع الأولى من النشرة الإخبارية، ظهرت إيفيتا وحدها أمام منضدة مكتب، ومعها أوراق تخلطها ثم تعيد ترتيبها. بينما تتهدل على جبينها حلقة شعر كبيرة. «الرفيقات والصديقات»، رتلت. كان صوتها صارخاً وحلقياً. «جئت لأتكلم إليكن دفاعاً عن حق التصويت النسائي بقلب فتاة ريفية، تربت على فضيلة العمل القاسي...» وكانت إيفيتا الصالة تحرك شفتيها مكررة كلمات الشاشة، بينما أصابعها تتقدم وتتراجع بتفخيم مختلف عن حركة الشفاه: الإيماء يبدل معنى الكلمات. فإذا كانت إيفيتا الشاشة تقول: «أريد أن أساهم بحبة رمل في هذا العمل الذي يحققه الجنرال بيرون»، تحني إيفيتا الصالة رأسها، ترفع يديها إلى صدرها أو تمدهما نحو جمهور المستمعين غير المرئي ببلاغة كبيرة تُزاح معها كلمة بيرون عن الطريق ولا يُسمع إلا دوي كلمة إيفيتا. كانت تبدو، وهي تراجع خطابات الماضي، كما لو أنها تتدرب على خطابات المستقبل قبالة المرآة الغريبة التي تمثلها الشاشة، حيث لا ينعكس فقط ما يمكنها أن تفعله وإنما كذلك ما لن تكونه أبداً.

كانت الصور تتقافز بفوضى من حفل رسمي إلى آخر. في بعض الأحيان، يظهر نواب المعارضة في مشاهد سريعة عابرة وهم يعترضون ضد «تلك المرأة التي تدس أنفها في كل مكان، دون أن يكون هناك من

انتخبها». فكانت إيفيتا، من القاعدة، تزيح تلك الكلمات بحركة ازدراء من يديها. ورآها أخيراً في ساحة مايو، في يوم مشمس، وهي تهز أوراقاً أمام جمع حاشد وتنظر بريبة إلى نص تُشعرها بلاغته بعدم الراحة مثل مشد صدر. «يا نساء وطني» قالت. «لقد تلقيت في هذه اللحظة، من يدي حكومة الأمة، القانون الذي يكرس حق التصويت لكل النساء الأرجنتينيات» وكانت إيفيتا الأخرى، من الصالة، تواصل ترديد الجملة نفسها بإيماءات أخرى، كما في تمرينات مسرحية.

وعلى الفور تقريباً بدأ توالي صور الرحلة إلى أوروبا. إيفيتا تمشي على شاطئ راباللو مرتدية عباءة طويلة، وحذاء مسطحاً، ونظارة سوداء مرفوعة الطرفين، مثل نظارة جون كروفورد. تتقدم وحيدة تحت سماء رصاصية تحلق فيها طيور نورس. يتبعها فريق من الحراس الشخصيين. ابتعدت الكاميرا فجأة والتقطت صورتها البعيدة من شرفة تهيمن عليها لوحة ربما تعلن عن اسم الفندق: *إكسيلسيور*. تركت هي العباءة على الرمل ونزلت إلى البحر. كانت ساقاها تظهران أحياناً بين الأمواج المجعدة. وكانت قبعة بيضاء تشوه شكل رأسها. لا تظهر على الشاطئ نفسٌ واحدة، ولكن أفق الكثبان الرملية، في الجانب الآخر، يغص بالمظلات.

كم هي وحيدة، فكر الصيني، ما نفع كل ما تملكه.

النشرة الإخبارية التالية تكرر الصور التي عُرضت بوفرة خلال الرحلة إلى روما: دخول السيدة الأولى المهيب عبر فييًا دي كونسيليازوني في عربة تجرها أربعة أحصنة بيضاء، عيون الموكب المذهولة أمام أعمدة ساحة القديس بطرس ومسلة كاليغولا في ساحة الفاتيكان المركزية، واستقبال وصفاء الكرسي البابوي لها في فناء سان داماسو، والمسير باتجاه متحف بيو كليمينتينو بين حراس بسترات طويلة ورماح، بينما سيد عجوز يرتدي سروالاً أسود ضيقاً، ويضع عصابة على عينه، يشير لدى المرور إلى لوحات رفائيل، وناووس باكو، وتشكيلة الحيوانات المنحوتة من المرمر. وإيفيتا المغطاة بطرحة تبتسم دون أن تفهم كلمة واحدة. توقف الموكب أمام بوابة

شاهقة الارتفاع، من خشب منحوت. ومن وراء الشخوص تطل هندسة غامضة لحدائق ونوافير. وفجأة، خيم الصمت على الجميع. لقد ظهر البابا بيو الثاني عشر تحت قوس ظلمات وقدم نفسه بيد ممدودة. جثت إيفيتا راكعة وقبّلت فص الخاتم الذي راحت الكاميرا الجريئة ترسمه في لقطة قريبة. وبهذه اللقطة كانت تنتهي عادة نشرات الأخبار المصورة.

في هذه المرة، توغل الموكب إلى مكتبة البابا وتوقف أمام مخطوطات قبطية، وكتب الساعات، وأناجيل غوتنبرغ. كانت السيدة الأولى تمشي مطرقة الرأس، ولم تكن تفتح فمها، خلافاً لما فعلته في جميع محطات جولتها الأوروبية. كانت تنتصب في وسط المكتبة منضدة شطرنجية وإلى جانبيها كرسيان مستويا المسند. وبإيماءة من الحبر الأعظم، اتخذ كلاهما مجلسه: فعلت هي ذلك بخجل، بركبتين مضمومتين، ودون أن تسند ظهرها.

«*Parla, figlia mia. Ti ascolto*»*، قال بيو الثاني عشر.

وألقت إيفيتا الكلمات كما في التمثيليات الإذاعية:

«إنني آتية من الجانب الآخر للبحر بتذلل أيها الأب المقدس. واسمح لي أن أخبركم كيف هي أسس المجتمع المسيحي الذي يبنيه الجنرال بيرون في الأرجنتين بوحي من مُخَلِّصنا ومعلمنا الإلهي».

«سيبارك ربنا هذه الأعمال»، أجابها بيو الثاني عشر بالإسبانية. «كل يوم أصلي من أجل حبيبتنا الأرجنتين.»

«أشكرك جزيل الشكر»، قالت إيفيتا «فصلاة الأب المقدس تصعد سريعاً إلى السماء.»

«لا يا ابنتي» أوضح بيو الثاني عشر بابتسامة زائدة «الرب يسمع ابتهالات البشر جميعاً بالاهتمام نفسه.»

وعند أبواب المكتبة، كان الحراس السويسريون يحافظون على رماحهم ذات الفؤوس منتصبةً باستواء. وكانت هناك كوكبة منشاة من الكرادلة

---

* بالإيطالية: تكلمي يا ابنتي، إنني أسمعك.

والسفراء وراهبات البلاط وسيدات الشرف ينتظرون بمحاذاة رفوف خزائن الكتب، ووراءهم السادة ذوو الياقات العريضة والبناطيل القصيرة الذين يضعون ميداليات وزينات حتى على معاصم قمصانهم. وبحركة متكتمة أظهرتها الكاميرا مكشوفة، رفع الحبر الأعظم أحد خنصريه. وتحت ضوء الكشافات القاسي، برز الإصبع مرهفاً مثل لسان أفعى. لا بد أنها إشارة. ركضت راهبتان من طرف القاعة الآخر ومعهما صندوق مذهب مترع بالهدايا. وأعلن أحد الكرادلة بصوت عال:

«قداسته يقدم لسيدة الأرجنتين الأولى مسبحة من القدس مع آثار من الحملة الصليبية المقدسة...». (عرض بيو الثاني عشر على الحاضرين إحدى العلب، بعد أن نزعت عنها الراهبتان تغليفها، بينما كانت إيفيتا تمد يديها وتبدي توقيراً مزدرياً.) «ويرغب قداسته أيضاً في أن يقلد السيدة وسام البابوية الذهبي...» (أحنت إيفيتا رأسها ربما لاعتقادها أن البابا سيعلق شريطة ما حول عنقها، ولكن البابا عرض أمام السفراء والكرادلة الأرجونيين قطعة عملة تحمل صورته بالذات وتركها بفتور بين يدي الزائرة التي كانت تتلعثم: «أشكركم باسم شعبي». ضاعت كلماتها لأن إحدى الراهبتين أخرجت قطعة قماش من قاع الصندوق وسلمتها إلى الحبر الأعظم الذي فتحها ببراعة أمام الحضور.) «وهذه ـ واصل الكردينال الذي بدا أنه عريف الحفل ـ هي نسخة شبه متقنة من لوحة جان فان إيك، *زفاف الزوجين أرنولفيني*، المرسومة على الخشب في العام 1434. والنسخة رسمها بالزيت على القماش بيترو غوكي، بتاريخ 1548 وهي جزء من كنوز الفاتيكان. أعني أنها كانت جزءاً من تلك الكنوز، لأنها تُوهب الآن إلى الحكومة الأرجنتينية...» (صفقت سيدات الشرف، وربما كنّ يخرقن المراسم بذلك. بينما أبقت إيفيتا نظرها إلى أسفل.) «العريسان في اللوحة هما جيوفاني دي إريغو أرنولفيني وجيوفانا سينامي، ابنة تاجر من لوكا. وفي محيط اللوحة تظهر حاجيات الزفاف: شمعة، قبقاب، كلب.»

ودون أن تتحرك عن الكرسي، وبساقين مقاطعتين، كانت إيفيتا تتأمل

المشهد منومة. وكان بيو الثاني عشر قد نهض، وقدم اللوحة القماشية إلى إيفيتا الفيلم قائلاً لها: «هذه اللوحة يا ابنتي هي الصورة المتقنة للسعادة الزوجية. الشاب أرنولفيني يعكس المتانة والحماية، مثلما هم الأزواج الصالحون. وتبدو جيوفانا، بالرغم من امتلائها، مضطربة بعض الشيء، وحبلى...» خلعت إيفيتا الصالة إحدى فردتي حذائها وأفلتت شريطة شعرها. كانت تبدو مستاءة، خارجة عن نفسها، كما لو أنها قد أضاعت يوماً من حياتها. بينما كانت إيفيتا الفيلم تقول بوضوح: «يبدو واضحاً أنها حبلى أيها الأب المقدس: في حوالي الشهر السابع». رسم بيو الثاني عشر ابتسامة خبيثة. ومسدّ السفير الأرجنتيني صلعته المصمغة. وسعل اثنان من الكرادلة في آن واحد.

«لم يكن الزواج قد تحقق بعد يا ابنتي.» صحح لها البابا، بنبرة متفهمة. «عندما رسم فان إيك اللوحة كانت جيوفانا ما تزال عذراء. ما يجعلك تخطئين هو الحزام المرتفع، وهو ما كانت تتطلبه الموضة الرائجة من الآنسات في ذلك العصر. ولكن الرب بارك الزوجين أرنولفينيٍ ومنحهما سلالة كبيرة العدد. وأتمنى من أعماق قلبي أن يباركك أنت أيضاً.»

«أرجو ذلك يا أبتاه»، ردّت إيفيتا.

«مازلتِ شابة. ويمكن لكِ أن تنجبي ما تشائين من الأبناء.»

«رغبت فيهم، ولكنهم لم يأتوا. لدي أبناء كثيرون آخرون. إنهم يدعونني أمهم وأنا أدعوهم شحومي الصغيرة.»

«هؤلاء هم أبناء السياسة»، قال البابا «أنا أتكلم عن الأبناء الذين يرسلهم الرب. إذا كنتِ تريدينهم، فعليكِ البحث عنهم بالحب والصلاة.»

في وحدة الصالة، انفجرت إيفيتا في البكاء. ربما لم يكن بكاء، وإنما بريق دمعة، ولكن الصيني الذي يعرف جيداً كافة الإشارات التي تنبعث من ظهور ورقاب المشاهدين، فسر حزن إيفيتا من خلال الرعشة الخفيفة في الكتفين وفي الأصابع التي صعدت، خفية، إلى عينيها. وفي أثناء ذلك بدأت الكاميرا تنزاح إلى مخدع رافائيل وحجرات بورجيا، ولكن إيفيتا

كانت قد غادرت، تاركة فقط غم جسدها المسربل بالتول: لم تعد موجودة على الشاشة ولا في الصالة وإنما في مشهد سري خاص بها هي نفسها.

رآها الصيني تمشي نحو ركن من الصالة ثم سمعها تتكلم في هاتف. كانت أوامرها تختلط بصوت المذيع، ولم يستطع أن يفهم سوى كلمات قليلة.

«... هذه الحجرات وغرف النوم كانت جزءاً من الجناح الذي عاش فيه يوليوس الثاني منذ العام 1507... إذا كانت لديك نسخة الفيلم السلبية فاحرقها أيها الزنجي... رسوم السقف التي تمثل أمجاد الثالوث المقدس، نفذها بيرغينو... ما يُحرق لا وجود له أيها الزنجي، ما لا يُكتب ولا يُصور، يُنسى... سقف الكنيسة مقسوم إلى تسعة حقول فصل بينها ميغيل آنجلو بقواعد وأفاريز وأعمدة... لا أريد لأي مقطع صغير أن يبقى حياً، هل سمعتني؟... الحقل الثامن يمثل الطوفان، يمكن رؤية سفينة نوح في البعيد، لا تجهد رأسك، كل شيء ينعكس في المرايا... لا تقلق، لن يروي أحد أي شيء، وإذا ما تكلم أحدهم فسيكون حسابه عندي... في الحقل التاسع سكرة نوح... احرق الشرائط وانتهى الأمر.»

أضيء نور الصالة قبل أن يتمكن الصيني من اكتشاف مكان وجودها. وفجأة رآها تقف إلى جوار باب كابينة آلات العرض، تراقبه بفضول.

– هل أنت بيروني؟ لا أرى صورة بيرون على ياقة سترتك ـ قالت له ـ ربما لستَ بيرونياً.

– وماذا يمكنني أن أكون غير ذلك يا سيدتي ـ أجابها الصيني مرتبكاً ـ إنني أحمل الصورة دوماً. دائماً أحملها.

– هذا أفضل. يجب القضاء على من ليسوا بيرونيين.

– لم أتعمد ذلك يا سيدتي. أقسم لك. خرجت من بيتي دون تفكير. صدقيني، إنني أحمل الصورة دوما يا سيدتي.

– لا تدعُني بسيدتي. قل لي إيفيتا. أين تسكن؟

– إنني عامل آلات العرض في سينما ريالتو، في باليرمو. وأعيش هناك بالذات، في حجرتين وراء المنصة.

– سأبحثُ لك عن بيت أفضل. اذهب في أحد هذه الأيام إلى المؤسسة.

– سأذهب يا سيدتي، ولكن من يدري إن كانوا سيسمحون لي بالدخول.

– قل لهم إن إيفيتا أرسلت في طلبك. وسترى كيف سيسمحون لك بالدخول فوراً.

لم ينم تلك الليلة وهو يفكر كيف سيكون بيت تخلقه رغبة إيفيتا وسلطتها. تناقش مع زوجته ليديا حتى الفجر حول ما يتوجب عليه أن يقوله عندما تعطيه وثيقة الملكية، وأخيراً اتفقا على أنه من الأفضل عدم التفوه بكلمة واحدة.

في حوالي الساعة الحادية عشرة صباحاً حاول خوسيه نيميسيو أستروغا الوصول إلى مكاتب المؤسسة بحثاً عما وعدته به إيفيتا. لم يستطع حتى الاقتراب من المكان. كان رتل المتقدمين يلتف حول كتلة كاملة من المباني. وكانت بعض المتطوعات البيرونيات يشغلن الناس بكراسات دعائية تخفف من وطأة الانتظار، ويقدمن في بعض الأحيان كراس قابلة للطي للأمهات اللاتي يكشفن عن أثدائهن الضخمة المزهرة ليرضعْن أطفالهن الذين يقفون على أقدامهم. «لم تصل إيفيتا بعد، لم تصل إيفيتا بعد»، كانت البيرونيات يعلنّ وهن يرتدين زياً صارماً ويضعن على رؤوسهن عمرات ممرضات.

اقترب الصيني من إحداهن وأخبرها أن السيدة شخصياً قد حددت له موعداً. «ما لا أعرفه هو اليوم والساعة»، أوضح دون أن يسألوه عن ذلك.

– عليك إذاً أن تنتظر في الدور مثل جميع الآخرين ـ قالت المرأة ـ يوجد هنا أناس ينتظرون منذ الساعة الواحدة ليلاً. أضف إلى ذلك أنه لا يُعرف أبداً إن كانت السيدة ستأتي أم لا.

حضر أستروغا في الساعة الواحدة من ليل اليوم التالي، بعد أن رافق ليديا وابنته يولندا إلى بيت حمويه اللذين يعيشان في بانفيلد. «سأعود في حوالي الساعة الثالثة بعد الظهر. انتظراني في السينما»، قال لهما.

– وحتى ذلك الحين ستكون قد حصلت على أخبار طيبة ـ توقعت ليديا.
– أرجو أن تكون الأخبار طيبة ـ قال لها.
وأمام أبواب المؤسسة، اكتشف أن اثنين وعشرين شخصاً قد سبقوه. وفي الشوارع المقفرة، كانت تتمطى نعاج الضباب وسمعها تثغو في عظامه. كان الناس يسعلون ويشكون من آلام الروماتيزم. وبدا أن كون تسمية المدينة بوينس آيرس هو ضرب من السخرية.
كان الصيني قد تحرى وعلم أن إيفيتا لا تأتي أبداً (عندما تأتي) قبل الساعة العاشرة صباحاً. ففي مقر الإقامة الرئاسي، تتناول الفطور المكون من خبز محمص وقهوة بين الساعة الثامنة والتاسعة، وتتكلم هاتفياً مع الوزراء وحكام المحافظات. وفي طريقها إلى المؤسسة، تتوقف في دار الحكومة، حيث تتبادل الحديث لمدة ربع ساعة مع زوجها. وهما لا يلتقيان إلا في هذه الأوقات، لأنها لا ترجع من العمل إلا في الساعة الحادية عشرة ليلاً، عندما يكون هو قد نام. تُجري إيفيتا لقاءات مطولة، تتحرى فيها عن حياة ومعجزات المتقدمين بالالتماسات، وتتفحص أسنانهم وتتلهى في التعليق على صور أبنائهم. كل مقابلة تستغرق منها أقل قليلاً من عشرين دقيقة. وبهذا الإيقاع ـ قدّر الصيني ـ ستنقضي سبع ساعات ونصف حتى يأتي دوره.
قبيل الفجر صار صراخ الأطفال لا يطاق. وبين حين وآخر كانت تُشعل مواقد الكيروسين من أجل تسخين حليب الرضاعة والماء لمشروب المتة. سأل الصيني العائلات التي تنتظر خلفه إن كانوا قد جاؤوا من قبل إلى سهرات مماثلة.
– إنها المرة الثالثة التي نأتي فيها ولم نستطع رؤية إيفيتا بعد ـ قال رجل شاب له شارب متهدل، كان يتكلم وهو يسند بسبابته طقم أسنان اصطناعية أكبر بكثير من مقاس لثته ـ سافرنا لأكثر من عشر ساعات في القطار من سان فرانثيسكو، ووصلنا في منتصف الليل. كان دورنا الثاني عشر، ولكن عندما وصلوا إلى المنتظر العاشر استدعى الجنرالُ السيدة بصورة

مستعجلة فأعطونا موعداً في اليوم التالي. لقد نمنا في الشارع. واستيقظنا في الثالثة فجراً. لقد أعطونا اليوم الرقم مئة وأربعة. لا أحد يعرف شيئاً بشأن إيفيتا. إنها مثل الرب. قد تأتي وقد تختفي.

- لقد وعدتني بأن تعطيني بيتاً ـ قال الصيني ـ وأنتم، ما الذي جئتم من أجله؟

اختبأت فتاة ضامرة، لها ساقا عصفور، وراء الشاب ذي الشارب، وهي تغطي فمها. وكانت بلا أسنان أيضاً.

- نريد جهاز عروس ـ أجاب الرجل مستبقاً ـ. لقد اشترينا أثاث غرفة النوم، ولدي البدلة التي كنت سأدفن أبي بها. أما هي فلم تحصل على ثوب عروس، ولم نجد طريقة لجعل الكاهن يزوجنا بلا فستان زفاف.

رغب الصيني في أن يشجعهما، ولكنه لم يدرِ كيف.

- اليوم هو يومنا ـ قال ـ اليوم سندخل جميعنا.

- فليسمع الله منك ـ ردّت الفتاة.

وبالرغم من أن الرتل قد تجاوز الناصية وصارت الرؤوس البعيدة تختفي في الظلام، إلا أن الحشود كانت تحترم ترتيب نكباتها. كان الصيني يسمع قصص معانيات لا تطاق ولا يمكن لأي سلطة بشرية، بما فيها سلطة إيفيتا، أن تخفف من حريق تلك الرغبات. كان الحديث يجري عن أبناء مصابين بالكساح يهدهم الوهن في خنادق محفورة عند أطراف المزابل، عن أيدٍ قطعتها سكين سكك القطار، عن مجانين هائجين يعيشون مقيدين في أكواخ من التوتياء، عن كلى قاصرة عن تنقية الدم، عن قروح مثقوبة في الاثني عشري، وعن فتوق توشك على الانفجار. وماذا إذا لم يكن لتلك الآلام من نهاية؟ تساءل أستروغا. وماذا لو تأخرت نهاية تلك الآلام أكثر من نهاية إيفيتا؟ وماذا إذا لم تكن إيفيتا رباً مثلما يظنها الجميع؟

مجيء النهار تسبب له بالحيرة، لأن أضواءه كانت مماثلة لأضواء الليل: رطبة ورمادية. قدّمت المتطوعات قهوة وقطع خبز ولكن الصيني رفض أن يأكل. فقائمة التعاسات البشرية أغلقت حلقه. سمح لمخيلته أن

تجول علي غير هدى دون مكان محدد، وخلال الساعات التي تلت لم يشعر أيضاً بالواقع، لأنه كان يخشى رؤيته وجهاً لوجه.

وفي إحدى اللحظات بدأ الرتل يتحرك. فُتحت أبواب المؤسسة وتقدم الزائرون على أدراج خشبية ملمعة تتدلى منها رايات وشعارات بيرونية. في الطابق العلوي، كان يذهب ويجيء، بمحاذاة الدرابزين، كتبةٌ بشعور ملمعة ومتطوعات يضعن أقلام رصاص وراء آذانهن. صعد الرتل بين ستائر مخملية ووصل إلى قاعة فسيحة، مضاءة بمصابيح مزينة بهُدب. بدا المكان أشبه بكنيسة. وهناك في المنتصف ممر ضيق، على جانبيه مقاعد خشبية، تنتظر عليها عائلات لم تقف في الرتل مع الآخرين. كان الهواء يعبق بنتانة براز أطفال رضع، وحفاضات لم تُغسل، وقيء مرضى. وكانت الرائحة لجوجة، مثل الرطوبة، تظل آثارها عالقة في الذاكرة لأيام بكاملها.

في العمق، وراء منضدة طويلة، كانت إيفيتا نفسها تداعب أيدي زوجين فرحين، تقرّب أذنها من صوتيهما المرتعشين، وبين حين وآخر تدفع رأسها إلى الخلف، كما لو أنها تبحث عن الكلمات التي يبحث عنها هذان الشخصان البسيطان. كان شعرها مربوطاً، وترتدي بدلة، كما في الصور. وبين وقت وآخر تخلع، بانزعاج، خاتماً أو إحدى أساورها الذهبية الثقيلة وتضعها على المنضدة.

كانت تحدث، بكل تلقائية، قصص يمكن لها أن تبدو مستحيلة في أي مكان آخر. رجلان لشعرهما لون القش يصعدان على مقعدين ويلقيان خطابات بلغة لا يستطيع أحد فهمها. ومن وراء الستائر تطل أسر معها مجسم خشبي فيه نحل حي يبني خلايا داخل حديقة من التول الشفاف: يريدون أن تتقبلها إيفيتا كهدية قبل أن ينهي النحل عمله. وفي قاعة الانتظار يوجد الأطفال الناجون من جائحة الشلل الأخيرة للاستعراض على الكراسي ذات العجلات التي أهدتها إليهم المؤسسة. أمام ذلك الفيض اللامتناهي من التعاسة، حمد أستروغا الرب على حياته المتواضعة التي لم تلطخها أية مصيبة.

حدث مفاجئ قطع روتين ذلك الصباح. فبعد الزوجين الفلاحين، استقبلت إيفيتا ثلاثة توائم بهلوانات يرغبون في الزواج من فتيات حركات التلوي الثلاث غير البالغات اللاتي يعملن معهم في السيرك نفسه، ويحتاجون إلى إذن خاص من أجل الزواج المبكر. وعندما ودعتهم، شكت امرأة ضخمة مشعثة الشعر صارخة من أن أحد موظفي المؤسسة انتزع منها بيتها.

– هل هذا صحيح؟ ـ قالت السيدة الأولى.

– أقسم لكِ بروح زوجي ـ أجابت المرأة.

– من الذي فعل ذلك؟

سُمعت تتمتم باسم. انتصبت السيدة واقفة ويداها فوق المنضدة. كبح جميع من القاعة أنفاسهم.

– فليأت تشويكو أنسالدي ـ أمرت ـ أريده أن يحضر الآن فوراً.

فُتحت الأبواب التي وراء السيدة في الحال وكشفت عن مستودع تتراكم فيه دراجات هوائية ولوازم عرائس. ومن بين الصناديق، تقدم رجل نحيل يمشي متخلعاً، تبدو أوردة جبهته المنتفخة كما لو أنها خريطة لجهاز الدورة الدموية. ساقاه منفتحتان بشكل بيضوي تام. كان شاحباً، كما لو أنهم يقتادونه إلى المشنقة.

– لقد استوليتَ على بيت هذه المرأة ـ أكدت إيفيتا.

– لا يا سيدتي ـ قال تشويكو ـ لقد قدمتُ إليها شقة أصغر. فهي وحيدة وتعيش في ثلاث غرف. وأنا لدي خمسة أبناء ينامون مكومين في غرفة المعيشة. دفعتُ لها بدل الانتقال. ورتبت لها الأثاث. ولسوء الحظ كسرت لها كرسياً من الخيزران، ولكنني اشتريت لها كرسياً آخر بدلاً منه في ذلك اليوم بالذات.

– لا حق لكَ بذلك ـ قالت إيفيتا ـ لم تطلب الإذن من أحد.

– أرجوكِ يا سيدتي، سامحيني.

– من منحك البيت الذي كنت تسكنه؟

– حضرتك منحتني إياه.

– منحتُك إياه، وأنتزعه الآن منك. ستعيد إلى هذه الرفيقة بيتها اليوم بالذات، وتعيد وضع حوائجها مثلما كانت.

– وأين سأذهب أنا يا سيدتي؟ ـ والتفت تشويكو إلى الحشد بحثاً عن تضامن. ولكن أحداً لم يفتح فمه.

– ستذهب إلى البراز، إلى المكان الذي ما كان يتوجب إخراجك منه أبداً ـ قالت له ـ فليتقدم التالي.

جثت المرأة وراحت تقبل يدي إيفيتا التي سحبتها بنفاد صبر. وإلى جانب باب المستودع كان يقف تشويكو أنسالدي، لا يريد الانصراف. كانت تطل من وجهه فراشات البكاء، ولكن الخجل والارتباك تمنعها من التدفق.

– أحد أبنائي مصاب بذات الرئة ـ قال متوسلاً ـ كيف سأُخرجه من الفراش؟

– يكفي ـ قالت إيفيتا ـ. كنت تعلم أنك تُدخل نفسك في ورطة. وعليك أن تعرف الآن كيف تخرج منها.

زخم ذلك الغضب أربك الصيني. كانت تُسمع إشاعات عن سوء مزاج السيدة الأولى، ولكن نشرات الأخبار المصورة لم تكن تقدمها إلا في صور رحيمة وأمومية. لقد أدرك الآن أنها تستطيع أن تكون قاسية. تتشكل تجعيدتان عميقتان على جانبي أنفها وعندئذ لا يمكن لأحد أن يواجه نظرتها.

لقد ندم الصيني الآن لوجوده هناك. وكلما تقدم الرتل كان شعوره بالخوف من عرض رغبته يزداد. سوف تبدو شتيمة أمام رجع موجة المآسي التي يخلفها الآخرون. ما الذي يمكنه قوله لها؟ أيقول إنه عرض لها يوم الأحد بعض الأفلام في مقر إقامتها؟ شيء مضحك. وماذا إذا نسي كل شيء ورجع إلى بيته؟ لم يجد الوقت لمواصلة التفكر. طلب منه أحد المتطوعين أن يتقدم. ابتسمت له إيفيتا وأمسكت يديه.

– أستروغا ـ قالت بعذوبة غير متوقعة وهي تنظر إلى قصاصة ورق ـ، خوسيه نيميسيو أستروغا. ما الذي تحتاج إليه؟

– ألا تتذكرينني؟ ـ سألها الصيني.

لم تجد إيفيتا الوقت للردّ عليه. فقد اندفعت ممرضتان إلى القاعة وهما تصرخان:

- هلمي يا سيدتي! تعالي معنا! لقد وقعت كارثة رهيبة!

- كارثة؟ ـ كررت إيفيتا.

- خرج قطار عن السكة بينما هو يدخل إلى كونستيتثيون. انقلبت العربات يا سيدتي، لقد انقلبت ـ كانت المرضتان تبكيان ـ إنهم يُخرجون الأجساد. إنها مأساة.

وفجأة، فقدت إيفيتا كل اهتمام بأستروغا. أفلتت يديه ونهضت واقفة.

- هيا بنا إذاً، بسرعة ـ قالت. ثم التفتت نحو المتطوعين وأمرتهم: ـ خذوا ملاحظات حول ما يحتاجه هؤلاء الرفاق. أعطوهم موعداً في الغد. سأستقبلهم غداً صباحاً. لا أدري إن كنتُ سأرجع الآن. وكيف سأرجع بوجود مأساة بهذا الحجم.

حدث كل شيء كما في حلم. ودون أن يدري الصيني السبب، ركز انتباهه على متاهة الأوردة الصغيرة الزرقاء المرتعشة تحت حنجرة إيفيتا. امتلأ الصالون بأصوات تبدو بقايا غرق جماعي. وفي أوار ذلك الاضطراب، ظلت رائحة الحفاضات المتسخة تشق طريقها الظافر.

اختفت إيفيتا في مصعد بينما كان الصيني يتجرجر على الدرج وسط تدافع مفاجئ. وإلى جانب الأبواب، كانت العروس منزوعة الأسنان تنتحب متشبثة بقوة بخصر العريس. كان الوقت عصراً. وكانت السماء ملطخة بشمس لزجة، ولكن الناس كانوا ينظرون إلى السماء ويفتحون مظلاتهم، كما لو أنهم يحتمون من شموس أخرى توشك على السقوط.

ركب الصيني المترو في لاكروتثي، ونزل بالقرب من حديقة الذكرى المئوية، ومشى عبر شوارع باليرمو القديمة، ثم انعطف نحو شارع لافاييخا باتجاه سينما ريالتو. كان أبوه قد أخبره أن جميع ذكريات الحياة ومشاعرها ترجع، قبل الموت، إلى جميع الأشخاص بالإبهار نفسه الذي عاشوها به أول مرة، ولكنه اكتشف الآن أنه ليس بحاجة لأن يموت كي يحدث له ذلك. فقد

أخذ الماضي يرجع إليه بصفاء حاضر مديد: أيام آحاد التكفير في ملجأ الأيتام، وقصاصات صور شرائط السلولويد التي كان يلعب بها عند أبواب دور السينما، والقبلة الأولى التي تبادلها مع ليديا، النزهات في قارب عبر نهر روسيدال، وفالس *من أعماق الروح* الذي رقص على أنغامه ليلة الزفاف، ووجه يولندا الطحلبي وهو يلتصق أول مرة بصدر أمها. أحس أن حياته لا تنتمي إليه، وإذا ما انتمت إليه ذات يوم فإنه لا يعرف ماذا يفعل بها.

ومن بعيد رأى تجمعاً من الجيران أمام أبواب سينما ريالتو المغلقة. ميكانيكيو كراج «أرمينيا حرة» الذين لم يكونوا يخرجون من حُفرهم القطرانية حتى عندما يصل إلى مسامعهم دوي اصطدام، كانوا يذهبون ويجيئون بأفرهولات العمل المشمرة بين الأمهات البدينات اللاتي نزلن بأخفاف بيتية وشالات على الأكتاف. بل إن صاحب السينما نفسه كان هناك، يتكلم وهو يومئ بحركات مفخمة مع وفد من رجال الشرطة.

سمع أستروغا ابنته يولندا تبكي، ولكن بدا له كما لو أن تلك الأمور تحدث في ضفة أخرى من ضفاف الواقع وأنه ينظر إليها من بعيد وحسب، وبلا مبالاة. ومادام لم يحدث لها أي شيء من قبل، فقد بدا له أنه لا يمكن لشيء أن يحدث لها أيضاً.

ركض باتجاه السينما دون إحساس بجسمه. وبين ضوضاء المساء ميز يولندا بثوبها الممزق ووجهها الغارق في ملامح ذهول لن تفقدها إلى الأبد. كان أحد الجيران يحملها بين ذراعيه ويهدهدها. وفجأة دخلت في وعيه الصور المرعبة لليديا والطفلة تسافران في قطار بانفيلد وانقلاب العربات في كونستيتوثيون. أحس بلون الهواء يتبدل وبأنه يسقط مغمى عليه تحت وطأة نُذر الشر. خرج صاحب السينما للقائه.

– أين هي ليديا؟ ـ سأله الصيني ـ هل حدث شيء؟

– كانت ليديا في عربة القطار الأخيرة ـ أجابه صاحب السينما ـ لقد كُسر عنقها باصطدامه بالنافذة، أما الصغيرة فلم تُصب بأذى، أترى؟ الطفلة سليمة. لقد تحدثتُ إلى أحد الأطباء. يقول إن زوجتك لم تجد

الوقت لتتألم. فقد حدث كل شيء بسرعة كبيرة.

– لقد نقلوها إلى مستشفى أرجيريتش ـ قاطعته إحدى الجارات ـ حمواك موجودان هناك، ينتظران تشريح الجثة. يبدو أن ليديا أوشكت على عدم اللحاق بالقطار في بانفيلد. وقد ركضت كي تلحق به. لو أنها لم تلحق به لما حدث لها شيء. ولكنها أدركته.

وجد صعوبة في التعرف على ليديا وهي مطروحة على سرير المستشفى، برأسها المضمد مثل دودة قز. لقد هشمت الصدمة رأسها من الداخل، وكان وجهها على حاله المعهودة، ولكن تقاطيعه الصفراء كان أشبه بعصفور: منحنية ومتهربة. إنها هي وقد توقفت إلى الأبد عن أن تكون هي: كائن غريب، من مكان آخر، لم يقع في حبه قط.

ومن خلال انشغال المرضات وتحركات رجال الشرطة، أدرك أن إيفيتا مازالت في المستشفى، تزور الجرحى وتواسي أسر الموتى. وعندما دخلت إلى القاعة التي فيها ليديا، كان الصيني يبكي ووجهه بين يديه، ولم يرها إلى أن وضعت يدها على كتفه. تقاطعت نظراتهما وراوده للحظة الشعور بأنها تعرفت إليه، ولكن إيفيتا ابتسمت له بالملامح المشفقة نفسها التي اتخذتها منذ العصر. قدمت إليها إحدى المرضات بطاقة ليديا. ألقت السيدة نظرة سريعة على البطاقة وقالت:

– أستروغا، خوسيه نيميسيو أستروغا. أرى أنك بيروني وتضع الشعار على ياقة سترتك. هذا يعجبني يا أستروغا. يجب ألا تقلق. الجنرال وإيفيتا سيدفعان لك تكاليف دراسة ابنتك. الجنرال وإيفيتا سيقدمان لك بيتاً. عندما تنقضي هذه اللحظة العصيبة، تعال إلى المؤسسة. اشرح ما جرى لك وقل لهم إن إيفيتا هي من أمرت باستدعائك.

فكان أن أحس الصيني في تلك اللحظة، في أشد أعماقه سرية، بالرعشة التي كان رهبان المدرسة يتحدثون عنها: **التجلي**، المنعطف الذي يقسم الحياة إلى ما قبل وما بعد. أحس أن الأمور بدأت تكون ما ستكون عليه إلى الأبد، ولكن شيئاً لن يلغي الماضي. لا شيء يحمل الماضي إلى النقطة التي يمكن فيها للتاريخ أن يبدأ ثانية.

- 10 -

«دوز في السينما»

في أواخر العام 1989 انطلقتُ للبحث عن الصيني أستروغا دون أن أدري إن كنتُ سأجده حياً أم ميتاً. فبعد أربعين عاماً، كانت سينما ريالتو وحدها هي التي ظلت على قيد الحياة متجاوزة أضرار ألعاب الفيديو، ومحافظة على عادة العروض السينمائية المتواصلة. ومع ذلك، هناك إعلان متوعد على واجهة المبنى يعلن عن هدمه. سألت عن أستروغا في نقابة العاملين السينمائيين. فقيل لي إن سجلات سنوات الخمسينيات قد فُقدت وليس هناك بين مشغلي آلات العرض من يتذكر اسمه.

لم أستسلم حيال هذه الإخفاقات. قررت الاتصال بصديقي إميليو كاوفمان الذي لم أره منذ عقود. فطرف بيته ملاصق لسينما ريالتو، فضلاً عن أنه يتمتع بذاكرة عجيبة. كنت قد زرت بيته مرة أو اثنتين برفقة إيرين، ابنة إميليو الكبرى، وكنتُ على علاقة حب معها في السنوات الأخيرة من عقد الستينيات. لقد تزوجت إيرين من شخص آخر وغادرت، مثلي، إلى المنفى. وخبر موتها في العام 1977 أغرقني في اكتئاب لأسابيع. كتبتُ آنذاك صفحات غمّ كثيرة بنية أن يقرأها إميليو. ولكنني لم أرسلها إليه قطّ.

أحسست بالخجل من مشاعري. فالمشاعر حرة ولكن البشر نادراً ما

يتجرؤون على الانصياع لتلك الحرية.

التقيت بإميل في مقهى بشارع كورينتيس. كان قد ازداد سمنة ويزدهي بغرة شعر رمادي، ولكنه ما إن ابتسم حتى أدركت أن أعماق كيانه مازالت على حالها وأنه لا يمكن لأي ماض أن يفصل بيننا. تكلمنا عما سنفعله في الأسبوع التالي، كما لو أن الحياة آخذة بالبدء مرة أخرى. هطل المطر في الخارج وانقطع، أما في داخلنا فكان الجو هو نفسه طوال الوقت. وراحت إحدى القصص تقودنا إلى أخرى، ونقفز من مدينة إلى أخرى، إلى أن أتى إميليو على ذكر فندق أجرب من فنادق ماراي في باريس، دون أن يدري أنني أقمتُ هناك مع إيرين لأسابيع قليلة صاخبة. وكانت هذه الصورة المقتضبة كافية لأن أنهار وأخبره كم أحببتها. قلتُ له إنني مازلت أحلم بإيرين، وأعاهدها في أحلامي بأنني لن أحب امرأة أخرى أبداً.

– هل ستتحول إلى الفحش بالموتى؟ – قال لي –. أنا تألمتُ بسبب إيرين أكثر منك ومازلتُ حياً. هيا يا صاحبي، ما الذي تريد معرفته عن سينما ريالتو؟

سألته عن أستروغا. وسمعتُ، براحة، أنه يتذكر حادثة ليديا بكل حذافيرها. وقال لي إنه لم يكن هناك، طيلة شهور، من حديث آخر في شارع باليرمو سوى ذلك المصير المشؤوم، ربما لأن حموي الصيني أستروغا قد ماتا بعد قليل من ذلك مختنقين بالغازات المنبعثة من مجمر تدفئة. كان يعرف أن يولندا، ابنة أستروغا، كانت تقضي أيامها في أشد أشكال الوحدة، تُركب مسارح رسوم متحركة وراء المنصة وتتحدث بإنكليزية مخترعة إلى الصور التي تُرى على الجهة الخلفية من الشاشة.

– لقد التقيت بالأب والابنة مرتين أو ثلاث مرات عند بوابة السينما ـ قال إميليو ـ كان الحبس وعدم تعرضهما للشمس قد أصابا لونهما بالشحوب. وبعد فترة قصيرة اختفيا من المنطقة. لم يرهما أحد بعد ذلك. ولا بد أن الأمر جرى بعد قليل من سقوط بيرون.

– لقد غادرا بسبب الجثة ـ قلتُ أنا الذي أعرف القصة.

– أي جثة – قال إميليو معتقداً أن الأزمنة قد اختلطت في ذهني ـ. لقد ماتت ليديا في العام ثمانية وأربعين. أما رحيلهما فكان بعد سبع أو ثماني سنوات من ذلك.

– ولم يرهما أحد بعدها ـ قلت بيأس.

– بل عدتُ أنا لرؤية الصيني ـ صحح لي ـ. ذات يوم أحد، في سان تيلمو، توقفت لشراء سجائر من أحد الأكشاك. العجوز الذي لبى طلبي أيقظ في داخلي أغنية ضائعة. «ألست الصيني؟» سألته. فحياني دون مفاجأة: «كيف أحوالك يا إميليو». رأيت خلفه صورة ملونة لليديا. قلت له: «أرى أنك لم تتزوج ثانية». فأجابني: «ولماذا أتزوج» ثم أضاف: «من تزوجت هي ابنتي، هل تتذكرها؟ إنها تعيش معي، هنا عند المنعطف. لقد حالفها الحظ. كان من نصيبها رجل قوي وشغيل. شخص أفضل مني.» واصلنا الكلام للحظات بحذر، كما لو أن الكلمات تخيفنا. لا أظن أننا قلنا شيئاً يستحق الذكر. فكل ما يمكننا تبادله كان وقتاً خاوياً.

– منذ متى حدث هذا؟ ـ سألته.

– من يدري، منذ عدة سنوات. لقد مررت بالكشك عدة مرات أخرى، ولكنني كنت أجده مغلقاً على الدوام. وهناك الآن في مكانه مكتب للهاتف والفاكس.

– في سان تيلمو؟ ـ قلت ـ. إنني أسكن هناك.

– أعرف ذلك ـ قال إميليو ـ. الكشك قبالة بيتك بالضبط.

بعد ظهر ذلك اليوم بالذات انطلقت للبحث عن الصيني، وأظن أنني لم أجد مثل تلك الصعوبة للعثور على شخص يسكن على ذلك القرب مني. لقد انتقل الكشك من يد إلى أخرى، على إيقاع حالات التضخم النقدي والنكبات الوطنية: الناس ينسون الماضي بأسرع مما يتطلبه مجيء الحاضر. تتبعتُ سلسلة من الآثار الزائفة. فمن متجر في متاديروس تحولتُ إلى آخر في بومبيا ومن هناك إلى ملجأ للعجزة في لانوس. وأخيراً تذكره رجل ذو عينين منحرفتين في بيت جماعي بشارع كارلوس كالفو، عند منعطف

الكشك، حيث بدأتُ البحث.

لقد رويت لأصدقائي أكثر من مرة ما حدث منذ ذلك الحين، وقد اصطدمت على الدوام بإمارات عدم التصديق نفسها: ليس لأن القصة بعيدة عن المعقول ـ وهي ليست كذلك ـ، وإنما لأنها تبدو غير واقعية.

لم أكن أعرف إن كان الصيني حياً أم ميتاً، كما قلت من قبل. هناك من رآه في بناء متآكل، ردهاته المستطيلة تطل على فناء مبلط. دخلتُ هناك ذات صباح ربيعي. كانت تتدلى من الشرفات مناشف وملاءات وملابس حميمة أخرى لنحو عشرين أسرة.

عندما طرقتُ بابه – أو ما يمكن أن يكون بابه – كانت الساعة الحادية عشرة. ومن خلال النوافذ القاتمة بسبب ستائر من الكريتون، لمحت وجود كراس من البلاستيك. فتحت لي امرأة مؤخرتها عريضة مثل تنورة منتفخة، ولها عينان بقريتان وشعر نحاسي عُرِّض لخوذة تجعيد. سمعت في عمق البيت أغنية تانغو لمانثي تغنيها فيرجينيا لوكي وطرقات مطرقة. أخبرتها من أكون وسألتها عن خوسيه نيميسيو أستروغا.

– كان أبي ـ قالت لي ـ فلترقد روحه بسلام. لقد انفجرت قرحته في الصيف الماضي. ولن أخبرك كيف أمضينا عيد الميلاد.

طمأنتها بالتوضيح أنني لا أريد سوى التأكد من قصة، وأنني لن أضيع الكثير من وقتها. ترددت المرأة قليلاً ثم أفسحت لي الطريق. كانت تعبق في الداخل رائحة بصل مقطع حديثاً وبقايا سجائر. اتخذتُ مجلساً على أحد الكراسي البلاستيكية وتحملتُ دون تذمر وحشية الشمس التي تتسرب من الكوى.

– لا بد أنك يولندا ـ قلتُ لها.

– يولندا أستروغا دي رامايّو ـ أكدت ـ زوجي في الحجرة الأخرى، يقوم بإصلاح خزانة ـ أشارت نحو الظلمة في العمق ـ حين لا يكون موجوداً لا أسمح لأحد بالدخول.

– تحسنين صنعاً ـ قلت مؤكداً كلامها ـ الارتياب واجب في هذه

الأزمنة. ربما تتذكرين أمراً حدث في سينما ريالتو، بين تشرين الثاني وكانون الأول 1955. لا بد أنكِ كنتِ صغيرة جداً...

- صغيرة جداً ـ قاطعتني وهي تغطي فماً لم تبق فيه سوى أسنان قليلة، قصيرة وبنية اللون ـ. لقد كنتُ أبدو على الدوام أكبر من سني.

- بين شهري تشرين الثاني وكانون الأول ـ كررتُ ـ أحضروا إلى سينما ريالتو صندوقاً كبيراً، طوله حوالي متر ونصف المتر، من خشب صقيل. وتركوه وراء الشاشة. هل حدثكِ أبوك عن هذا الأمر؟

تنهدت بدلال مستحيل. ثم أشعلت سيجارة وأخذت منها مجتين عميقتين. كانت تأخذ وقتها ولم يكن أمامي سوى الانتظار.

- أجل بالطبع، أنا رأيت الصندوق. لقد أحضروه ذات يوم عصراً، قبيل عرض بعد الظهر. في ذلك اليوم كانت تُعرض أفلام *طريق إلى بالي*، و*النافذة غير الرصينة*، و*أبوت وكوستيّيو في الفرقة الأجنبية*. لدي ذاكرة نارية بشأن برنامج عروض سينما ريالتو. الرجال يتذكرون مباريات كرة القدم، وأنا لا تمحي من ذاكرتي قائمة الأفلام.

كانت يولندا تخرج عن طورها بسهولة.

- كم يوماً ظل الصندوق هناك؟ ـ سألتُها.

- أسبوعان، ثلاثة أسابيع، أقل مما كنتُ أرغب في بقائه. عندما نهضتُ ذات صباح من الفراش رأيته. ظننت أنه منضدة جديدة وأنهم سيأتون في ما بعد بقوائمها. قمت بتدشينها. رسمتُ رسومي. كان الخشب طرياً جداً. ودون أن انتبه، جرحته بالأقلام. خشيت أن يغضب أبي ويحبسني في الحجرة. ولكن أبي، فلترقد روحه بسلام، لم يلحظ الخدوش قط.

- هل أخبركِ أبوك بما في الصندوق؟

- لقد أخبرني طبعاً. الدمية. منذ البدء عرفت ما في الصندوق. كانت الثقة بيني وبين أبي كبيرة جداً، وكان يخبرني بكل شيء. عندما انتهى العرض السينمائي تلك الليلة جاء ليرى إن كنتُ نائمة. وحين تبين أنني

لست نائمة، جلس إلى جانبي في السرير وقال لي: يولي، عليكِ عدم الاقتراب من الصندوق. وماذا فيه يا بابا؟ سألته. فقال لي: فيه دمية كبيرة. اشتراها صاحب السينما من أوروبا ويريد أن يقدمها هدية إلى حفيدته في عيد الميلاد. إنها دمية ثمينة جداً يا يولي. إذا ما عُرف أنها موجودة هناك سيرغب بعضهم في سرقتها. لقد فهمت ما يريده فوراً، ولكنني لم أستطع التخلص من الفضول. كنتُ أحرك الصندوق وأحركه بينما أنا أشاهد الأفلام معكوسة.

– لقد أخبروني بهذا. بأنكِ كنت تلعبين في الجانب الآخر من الشاشة، وأنكِ كنت تقيمين مسارح دمى.

– أخبروك؟ لا يمكنك تصور جنوني بالدمى. ولأن شاشة السينما كانت من قماش سميك، شفاف، فقد اعتدتُ رؤية الأفلام من الجانب الآخر، من وراء الشاشة. حين كنت أراها من الجهة الحقيقية، لم تكن الأشياء تبدو لي هي نفسها. كنت أعيش وأنا أروي الأفلام لدُماي. لقد رويت لها أكثر من عشر مرات قصة حريق بيت ريبيكا، المرأة التي لا تُنسى.

– أنت لم تري إذن تلك الدمية الكبيرة ـ قاطعتها معيداً الحديث إلى سياقه الأصلي.

– كيف لم أرها؟ ـ توقفت ضربات المطرقة في الحجرة المجاورة وبدأت تُسمع حركة مسحاج نجار ـ ألم أقل لكَ إنني كنت أموت فضولاً لمعرفة كيف هي تلك الدمية؟ وذات يوم، ما إن بدأ عرض بعد الظهر حتى اكتشفتُ أن غطاء الصندوق ينفتح تلقائياً، ربما لأنه كان مفلتاً أو لأنني دفعته دون أن أنتبه. عندئذ رأيتُ دميتي أول مرة، كانت ترتدي ثوباً أبيض يغطيها بالكامل، وكانت حافية، وأصابع قدميها مرسومة بدقة، وكانت بالغة النعومة، كما لو أنها صُنعت من جلد حقيقي. لم تعد تُصنع دمى مثل تلك. جميع الدمى تُصنع الآن بالجملة، من البلاستيك، كي تُستعمل وترمى.

– كانت تلك فريدة ـ قلت مدمدماً.

- قل ذلك لي أنا. لقد عُرض في ذلك اليوم، أول مرة، فيلم *أزهار بنفسج مستحيلة* الذي سيكون أحد أفلامي المفضلة، ولكنني لم أشاهده يومذاك. كنتُ منومة بالدمية. لم أستطع رفع بصري عنها. لا أدري كم من الساعات مضت قبل أن أتجرأ على لمسها. يا للانطباع الذي منحتني إياه. كانت شديدة النعومة. وظلت رؤوس أصابعي تعبق برائحة خزامى.

- وكنتِ تروين لها الأفلام، مثلما للدمى الأخرى.

- رويت لها الأفلام بعد وقت طويل من ذلك. أما في ذلك اليوم فرأيتها نائمة بعمق حتى إنني قلت لها: نامي قدر ما تشائين يا دميتي الجميلة. لن أوقظك أبداً. وعندئذ وضعتُ راحة يدي على جبهتها وغنيت لها. ثم رتبتُ بحذر وضع الدانتيلا والموسلين في ثوبها وأعدت كل شيء مثلما كان.

لا يمكن ليولندا أن تكون كاذبة. ليس لذلك أي معنى. لقد كانت، كما قالت لي، الناجية من واقعِ الشيء الحقيقي الوحيد فيه هو الرغبات. ففي العام 1955، حين وقعتْ هذه الأحداث، كان عمرها ثمانية، أو ربما تسعة أعوام. وكانت تعيش معزولة عن العالم، على ضفاف مشهد من الأشباح.

- لم تخبري أباك بذلك - قلت لها.

- لم أجرؤ على إخباره. كنت أعرف أن الدمية ليست لي، وأنهم سيأخذونها عاجلاً أو آجلاً. كنت أريد أن أقضي معها أطول وقت ممكن، ولكن أبي كان سيمنعني من الاقتراب منها، مثلما قلتُ لك. كانت لعبة بريئة، لعبة طفلة، وإن كنت أشعر بأنني أقترف ذنباً. كنت أعامل الدمية بحذر شديد، كما لو أنها من زجاج. أربط لها شرائط على رأسها وأطلي شفتيها بمسحوق قلم أحمر. وفي إحدى الليالي، قبل أن أنام، بدأت أروي لها الأفلام. إن ذلك واضح في ذهني. أول فيلم رويته لها هو *يحيا ثاباتا*، بتلك النهاية بالغة الكآبة وشديدة البهاء للحصان الأبيض وهو يعدو خبباً عبر الجبال كما لو أنه روح ثاباتا، بينما الناس في القرية يقولون إن ثاباتا لم يمت. ما الذي يُضحكك؟

– لست أضحك ـ قلت لها. وكان ما قلته صحيحاً. فأنا أيضاً كنت متأثراً.

– لا أدري كيف أخبرك بهذه الأشياء لمجرد أنك جئت وسألتني عن الدمية. من الأفضل أن تنصرف. أنت ترى أنني لم أنتهِ من إعداد الطعام.

شعرت أنني إذا فقدتها لن أتمكن من استعادتها أبداً. سُمع من الغرفة المجاورة هسيس ورق صنفرة على الخشب.

– دعيني أرافقكِ وأنتِ تطبخين ـ قلتُ ـ إنها عشر دقائق أو خمس عشرة دقيقة فقط. ما تروينه لي مهم . لا يمكنك تصور مدى أهميته.

– ماذا تريدني أن أقوله لك؟

– متى أخذوها؟ – أجبتها.

– لا تدفعني إلى التكلم عن ذلك. فكلما اقترب عيد الميلاد كنتُ أصير أكثر عصبية. كنتُ أقضي الليالي مستيقظة. بل أظن أنني مرضت. ولأنني رفضت أن تأتي إحدى الجارات للعناية بي، كنت أنهض بمشقة، فأقوم بالمشتريات، وأنظف البيت، وفي حوالي الساعة الثانية والنصف، عندما يبدأ أبي العرض الأول، أزيح الغطاء عن الصندوق وأبدأ اللعب مع دميتي. وأخيراً حدث ما لا مفر من حدوثه. ففي أحد الأيام ارتفعت حرارتي وغفوت عند أذيال ثوب الدمية. وحين انتهى أبي من العمل اكتشف مكاني. ظل صامتاً. لم أدرِ قطّ ما قاله أو ما فعله. سقطتُ في الفراش بحرارة تزيد على الأربعين درجة. في بعض الأحيان، خلال نوبات الهذيان، كنت أسأل عن دميتي. فكان أبي يقول لي: اهدئي يا يولندا، إنها ما تزال حيث تركتِها. مضى عيد الميلاد، والحمد لله أنني رحت استعيد عافيتي. وعندما قُرعت نواقيس العام الجديد ذهبت لأقبّل دميتي وطلبت من الرب ألا يقطع أبداً تلك السعادة التي كنتُ أعيشها. وربما أنك تعرف أن الرب لم يسمعني.

– لا يمكنه سماعك. أضيفي إلى ذلك أن أباكِ كان قد نبهكِ: فعاجلاً أو آجلاً سيأخذ صاحب السينما الصندوق.

انتهت من تقطيع البصل وبدأت تقليه في مقلاة، بينما شفتاها تمسكان بسيجارة تمصها بين حين وآخر. دخل الدخان في عينيها ورأيتهما تدمعان. لمحتُ ظلاً عند باب المطبخ خلال وقفة صمت، وبدا لي أن رجلاً يطل برأسه، ولكنني عندما حاولت تحيته، اختفى. ربما كان ذلك من بنات أفكاري. كل ما كنتُ أعيشه بدا لي غارقاً في غمامة من اللاواقعية، كما لو أننا، أنا ويولندا، نتبادل الحديث من أماكن خاطئة ونائية. قالت لي:

- كان شهر كانون الثاني ذاك أشبه بفرن، لم تكن تهب نسمة واحدة. ولأن السينما كانت رطبة وباردة، كانت تلوذ بها كل أصناف الحشرات. كانت فترة إجازات ولم أكن أغادر البيت. لقد كانت سينما ريالتو هي حياتي كلها، ولم أكن بحاجة لأي شيء آخر.

- ألم يكن يزوركم أحد؟ ـ سألتها.

- في بعض الأحيان، في الصباح، كان يأتي رجل طويل القامة، عريض الحاجبين، ومعه شخص آخر أصلع، له عينان متباعدتان ورقبة ثور. كانت تبهرني في الرجل الطويل القامة قدماه الصغيرتان، مثل قدمي امرأة. أما الآخر فكانوا يسمونه الكولونيل. وكان أبي يتركني حينئذ ألعب في محل المفروشات الذي عند المنعطف، ولم أفهم سبب ذلك قط. في إحدى ليالي كانون الثاني ذاك تعكر الجو وهبت عاصفة جنوبية لا تُنسى. اضطر أبي إلى إلغاء الحفلة الأخيرة في السينما، لأنه لم يكن بالإمكان سماع شيء من شريط الصوت. أغلقنا أبواب السينما جيداً، ولكن الريح كانت تهزها بقوة، ظللتُ أنا معانقة الدمية وغنيت لها موسيقى فيلم *مدرسة الحوريات* الذي كنا كلتانا نحبه كثيراً. لا أدري إن كنت تتذكر كلمات الأغنية. «أيتها الدمية الجميلة، ذات الشعر الذهبي، والأسنان اللؤلئية، والبشرة العاجية.» هذه الأغنية هي الصورة الحية لدميتي. هكذا كانت، مثلما تصفها الأغنية. إنني أخبرك وانظر إليّ كيف أصير.

قدمتُ إليها منديلاً.

– في تلك الليلة بالذات انتزعوها منك ـ قلت.

– لا. كان الأمر أسوأ. لا أدري ما الذي كنت أخشاه من ترك دميتي وحدها وراء الشاشة، تحت وميض البروق، ولكن أبي اقتادني إلى الفراش من أذني. كان الوقت متأخراً جداً. ويمكن لك أن تتصور أنني لم أغمض عيني. في صباح اليوم التالي نهضت في وقت مبكر، سخنت الماء لإعداد المتة وأثار الصمت استغرابي. كانت الأشجار جرداء، بلا عصافير، ولم يكن بمقدور حافلات الترام والسيارات المرور في الشوارع المغطاة بأغصان مكسرة. شعرت بالخوف واندفعت راكضة لأرى إن لم يكن أصاب دميتي أذى. الحمد لله أنها كانت لا تزال على حالها، في الصندوق، ولكن هناك من ترك جسدها مكشوفاً. وكان غطاء الصندوق ينتصب مستنداً إلى عوارض الشاشة. ورأيتُ على الأرض أزهاراً من كل نوع، أزهار جلبان عطرة،بنفسج، زهرة العسل، وما أدراني أية أزهار أخرى. وعند رأس الصندوق كان يشتعل صف من الشموع القصيرة، وبسبب هذا التفصيل أدركت أنه لا يمكن أن يكون أبي هو من أشعلها: فالشموع أمر غير عقلاني، لاحظ ذلك، وأول ما علمني إياه أبي في الحياة هو أنه لا يمكن إشعال أي نار في مكانٍ كل شيء فيه مكون من الخشب والقماش وأشرطة السلولويد.

– كان صاحب الصالة يملك مفتاحاً، أليس كذلك؟ ـ سألتُها.

– صاحب الصالة؟ لقد كان أشدنا رعباً. فعندما اكتشفتُ الشموع وأطلقت الصوت صارخة، كان أول ما فعله أبي الاتصال به هاتفياً. ظهر الرجل في الحال، ومعه الرجل ذو الحاجبين العريضين والآخر الذي يدعونه الكولونيل. أخذوني إلى محل الأثاث الذي عند المنعطف وأمروني بألا أتحرك من هناك. كان ذلك الصباح هو الأطول والأشد حزناً في حياتي. مع أن أموراً كثيرة حدثت لي في الحياة، أتعلم؟ ولكن أياً منها لم يكن مثل ذلك الصباح. انتظرتُ لساعات جالسة على مقعد من الخيزران، وكنتُ أعاني لأن الدمية ليست لي وسوف ينتزعونها مني عاجلاً أو آجلاً.

ومن أين لي أن أعلم أنني كنت في تلك اللحظة بالذات أفقدها إلى الأبد.

انفجرت يولندا بالبكاء بحمية. أحسست بالارتباك ومشيتُ نحو الباب. كنت راغباً في الانصراف ولكنني لا أستطيع أن أتركها في تلك الحال. توقفت كافة الحركات في الحجرة المجاورة. وسُمع صوت الرجل يقول:

– في أي ساعة سنأكل يا مامي؟

– بعد خمس دقائق أخرى يا بابي ـ قالت مستعيدة طبيعتها ـ هل أنت جائع جداً؟

– أريد أن آكل الآن ـ قال.

– حالاً ـ أجابته. ثم أوضحت لي، بنبرة خافتة: ـ يدعو أحدنا الآخر بابي ومامي من أجل الصغار.

– أفهم ذلك ـ قلت، وإن لم أكن مهتماً بفهم الأمر. وواصلتُ بإلحاح ودون هوادة: ـ وعندما رجعتِ لم يكن الصندوق موجوداً.

– كانوا قد أخذوه. لا يمكنك أن تعرف كيف صرتُ حين علمتُ بذلك. لم أغفر لأبي أنه لم يستدعني لأودع دميتي. سقطتُ مريضة مرة أخرى، وأظن أنه مرت في ذهني الرغبة في موت أبي، يا للمسكين، وأظل وحيدة في الدنيا أوحي بالأسى للناس.

– كانت تلك هي النهاية ـ قلت. لم أقل ذلك لها وإنما لنفسي. كنتُ راغباً في أن تمحي بقايا الماضي وأن تكون تلك هي النهاية حقاً.

– النهاية ـ وافقت يولندا ـ لقد أحببتُ تلك الدمية مثلما يمكن أن يُحب شخص فقط.

– لقد كانت شخصاً ـ قلت لها.

– من؟ ـ سألتني ساهية والسيجارة بين شفتيها.

– دميتك. لم تكن دمية. كانت امرأة محنطة.

قهقهت ضاحكة. وكانت ما تزال في عينيها جذوة دموع: أطفأتها بماء ضحكة صريحة، متحدية.

– ما الذي تعرفه حضرتك ـ قالت ـ أنت لم ترها قطّ. لقد جئتَ إلى هنا تائهاً هذا الصباح. ما الذي تبحث عنه.

– كنتُ أعرف أن الجثة قد خُبئت في سينما ريالتو ـ قلت ـ لم أكن أعرف كم من الوقت ظلت هناك. ولم يخطر ببالي أن تكوني قد رأيتها.

– جثة ـ قالت، ثم كررت: ـ جثة. هذا ما كان ينقصنا. انصرف من هنا. لقد فتحتُ لك الباب بدافع الفضول. وعليك الآن أن تتركني بسلام.

– فكري ـ قلت لها ـ أنتِ رأيتِ الصور. تذكري. فكري.

لا أدري لماذا ألححت عليها. ربما فعلت ذلك بدافع الرغبة الخبيثة في إفحام يولندا. فقد كانت شخصية قدمت كل ما يمكنها تقديمه لهذه القصة.

– أية صور؟ ـ قالت ـ انصرف.

– صور جسد إيفيتا. لقد ظهرت الصور في كافة الصحف، تذكري ذلك. ظهرت عندما أعيد الجسد إلى بيرون عام 1971. تذكري. كان الجسد محنطاً.

– لا أدري ما الذي تكلمني عنه ـ قالت. بدا لي أنها تعرف ذلك ولكنها ترفض دخول الحقيقة إلى وعيها وتهشيمه.

– دميتك هي إيفيتا ـ قلتُ لها بغيظ ـ إنها إيفا بيرون. أنت نفسكِ لاحظتِ الشبه. في شهر تشرين الثاني 1955 استولوا على الجسد من الاتحاد العام للعمل وأخفوه في سينما ريالتو.

تقدمت نحوي وهي تمد يديها لتبعدني. وكان الصوت الذي تكلمت به زاعقاً وحاداً مثل صوت طائر:

– لقد سمعتني. انصرف. ما الذي فعلته لك كي تقول لي ما تقوله؟ كيف يخطر لك أن دميتي كانت امرأة ميتة؟ بابي!! ـ قالت منادية ـ تعال فوراً يا بابي!

ظننت في البدء أنني في لامكان. أما الآن فشعرت أنني خارج الزمان. رأيت ظهور الزوج عند حافة الباب المؤدي إلى الحجرة الأخرى. كان رجلاً

متيناً، له شعر قاس ومنتصب.

– ماذا فعلت لها؟ ـ قال لي بينما هو يحتضن يولندا.

– لم يكن في صوته حقد، بل مفاجأة وحسب.

– لا شيء ـ أجبتُ كأبله ـ لم أفعل لها شيئاً. لقد جئت للتحدث إليها فقط عن دميتها.

انفجرت يولندا بالبكاء مرة أخرى. كان البكاء هذه المرة يطفح من بدنها ويملأ الهواء، زخماً، مالحاً، مثل بخار البحر.

– قل له أن ينصرف يا بابي. لم يفعل لي أي شيء. لقد أخافني. إنه مختل العقل.

صوب الزوج إليّ عينيه السوداوين الوديعتين. فتحتُ الباب وخرجتُ إلى شمس الظهيرة الهائلة، دون ندم أو أسف.

بعد ظهر ذلك اليوم بالذات اتصلتُ بإميليو كاوفمان وطلبتُ منه أن يأتي إلى بيتي. كنت أريد أن أخبره بكل ما أعرفه عن إيفيتا وأن أُسمعه أشرطة كاسيت بأصوات المُحنِّط، وألدو ثيفوينتس، وأرملة الكولونيل. وأن أريه صور الجثة، والأوراق القديمة المصفرة التي تثبت خروج إيفيتا ونسخها المقلدة نحو موانئ جنوى، وهامبورغ، ولشبونة. كنت أريد أن أفضفض عن تعاساتي على حضن ابنته إيرين.

لم تكن لدى إميليو أدنى نية في التحدث عن الماضي، أو على الأقل، عن ماض توقف عن الحركة. ففي تلك الأثناء ـ ليس منذ زمن بعيد، وإنما منذ أبدية السنوات القليلة التي تلت سقوط جدار برلين وإعدام الدكتاتور شاوشيسكو رمياً بالرصاص أمام كاميرات التلفزيون، واختفاء الاتحاد السوفييتي عن الخرائط: وميض حاضر سقط فجأة في هوة الماضي ـ، في تلك الأثناء كان يُعتقد أيضاً أن إيفيتا كانت متجمدة إلى الأبد في وضعية، في جوهر، في تنفس أبدية، وأنها مثل كل شيء ساكن، لن توقظ مزيداً من العواطف على الإطلاق. ولكن الماضي يعود دوماً، وتعود العواطف. ولا يمكن للمرء التخلص مما فقده.

إنني أتذكر كل تفصيل من ذلك اليوم، ولكنني لا أتذكر تاريخه الدقيق: كان الوقت ربيعاً دافئاً، هادئاً، وكان الهواء يعبق بصورة نزوية برائحة كمان. فقد كنت أستمع إلى *تنويعات غولدبرغ* في نسخة على الكلافيكورديو لكينيث جيلبرت. وفي لحظة من معزوفة «التنويع الخامس عشر»، في منتصف المقطوعة، وصل إميليو ومعه زجاجة كابيرنيه. وقد شربناها، دون أن ننتبه تقريباً، بينما نحن نخلط فطراً مع بصل أخضر وكريما الحليب، ونسلق أوراق سبانخ، ونتحدث عن المعارك الحامية بين رئيس الجمهورية وزوجته اللذين لم يحب أحدهما الآخر قط، ويعلنان ذلك على الملأ عبر الإذاعة.

عندما انتهينا من تناول الطعام، حلّ إميليو ربطة عنقه، وأشعل دون رحمة سيجاراً مكسيكياً، وعلى خلفية *تنويعات غولدبرغ* التي تعيدنا إلى أجواء البدء، قال كمن يقدم جميلاً:

– يمكننا الآن التحدث عن إيفيتا.

فهمتُ أنه يقول لي: «يمكننا التحدث عن إيرين». لقد سمعتُ في أكثر من مرة كلمات لا تتحرك باتجاه معناها وإنما باتجاه رغباتي. وكان اسم «إيرين» هو ما أحسستُه أو سمعته. فقلت له:

– ليتنا تحدثنا منذ زمن يا إميليو. لم يخبرني أحد بأنها ماتت. تأخر الخبر طويلاً في الوصول إليّ، وعندما وصلني كان الألم غير واقعي.

شحب لونه. وفي كل مرة يطل شعور انفعالي من وجهه، يتطلع إميليو إلى جهة أخرى، كما لو أن ذلك الشعور غريب عنه وأن الشخص الذي ضيعه يمضي من هناك.

أخبرني أن ابنته، بعد الانقلاب العسكري في العام 1976 لم تعد قادرة على تحمل رعب عمليات الاختطاف والمجازر العشوائية. فقررت الخروج إلى المنفى. قالت إنها ستلتجئ في باريس، ولكنها راحت تبعث رسائل من مدن أمريكية جنوبية لا تظهر على الخرائط: أوباتوبا، ساهانيتا، كريكساس، سانت إليه. لم تكن مذنبة في أي شيء، ومع ذلك

كانت تجرجر معها ذنوب العالم، مثل جميع أرجتنينيي تلك الحقبة. تظل لأسابيع في تلك الأركان المنسية، حيث المطر يهطل غزيراً على الدوام، قال لي إميليو، وعندما تلتقي في الطريق بوجه غير معروف، تركب أول حافلة وتهرب. كانت تشعر بالرعب: جميع رسائلها تتحدث عن الرعب والمطر. مرّت في أحد الأوقات بمدينة كاراكاس، ولكنها لم تتصل بي. كان لديها رقم هاتفي وعنواني، أخبرني إميليو، ولكنني كنتُ ملح جراحها ولم تكن راغبة في رؤيتي.

بعد سنة من مغادرتها بوينس آيرس وصلت إلى مدينة مكسيكو، استأجرت شقة في هضبة ميكسكواك وبدأت تتردد على دور النشر بحثاً عن تكليف بترجمات. وقد توصلت إلى أن تكلفها دار خواكين مورتيث للنشر بترجمة رواية لبيكيت وكانت لا تزال تصارع الموسيقى الأولية للصفحات الأولى عندما أحست بصعقة حريق في مركز دماغها أصابتها بالعمى والصمم والبكم، مثل والدة *مولي*. صارت شبه عاجزة عن الحركة. تخطو خطوة فيجمدها الألم العنيد في مكانها. ففكرت (مع أنها في لحظات الصحو القليلة التي كانت تأتيها منذ ذلك الحين لم تقل قطّ «أفكر»)، وعلى الرغم من كل شيء فكرت في أن شراسة سوء حالتها مرتبطة مباشرة بارتفاع مدينة مكسيكو، وبراكينها، وتبدلاتها الحرارية، وآلام المنفى المسترجعة، ولم تستشر أي طبيب. ظنت أن قضاء يومين في الفراش وتناول ستة أقراص أسبرين كل يوم سينقذها. ولكنها اضطجعت لتموت وحسب. كانت مصابة في اختلال نظم عنقودي. كانت ترزح تحت وطأة علل صاعقة: التهاب سحايا متقيح، والتهاب في الكليتين، والتهاب حاد في شغاف القلب. لقد تحولت خلال أسبوع إلى كائن آخر جرحته قسوة العالم. وقد التهمها موت رهيب.

ظللنا صامتين هنيهة. سكبتُ كونياكاً وأرقت قطرات منه على قميصي. كانت يداي ترتعشان بخراقة، وكان كياني في مكان آخر، في زمن آخر، وربما كنتُ في حياة أخرى كذلك. أدركتُ أن إميليو يريد الانصراف

وتوسلتُ إليه بنظراتي ألا يفعل. وسمعته يقول:

– لماذا نقوم بكل هذا اللف والدوران؟ فلنتحدث عن إيفيتا.

فعلتُ ذلك طوال ما يقارب الساعة دون توقف. رويت له ما صرتم تعرفونه، وكذلك ما لم يجد مكانه بعد في هذه الصفحات. ألححت على أحجية الأزهار والشموع التي تتكاثر كما لو أنها معجزة أخرى لتكثير الخبز والسمك. رويت له حبكة المصادفات التي قادتني إلى يولندا ومعرفة الصيف الطويل للدمية وراء شاشة سينما ريالتو. وقلت له إن الجسد قد نُقل، كما يبدو، من السينما إلى بيت الرائد أرانثيبيا، حيث ظل هناك شهراً آخر.

– أرانثيبيا هو من تسبب في أسوأ المآسي ـ قال إميليو ـ. هل راجعتَ الصحف؟

– قرأتها كلها: الصحف، كتب السيرة، المجلات التي أعادت رسم طريق آلام الجثة. لقد نُشرت غابات من الوثائق عندما جرى تسليم جسد إيفيتا إلى بيرون في العام 1971. ولا أحد، على ما أتذكر، يتكلم عن أرانثيبيا.

– أتدري لماذا لا أحد يتكلم؟ لأنه عندما لا يكون بالإمكان إيجاد تفسير للجنون في هذه البلاد، يفضلون عدم وجوده. الجميع ينظرون إلى جهة أخرى. أرأيت ما الذي يفعله كتّاب سيرة حياة إيفيتا؟ كلما صادفهم تفصيل يبدو جنوناً لا يرونه. فإيفيتا في نظر كتّاب سيرتها لم تكن لها روائح ولا حماوة جنسية. لم تكن شخصاً. والوحيدون الذين نزلوا ذات مرة إلى حميميتها كانا صحفيين اثنين، ربما أنك لا تتذكرهما، روبيرتو فاكا وأوتيلو بوروني. نشرا كتابهما عام 1970، تصور كم من المياه كانت قد مرت تحت الجسور. كان عنوانه *حياة إيفا بيرون، المجلد الأول*. ولم يظهر قطّ مجلد ثان. في الصفحات الأخيرة، كما أتذكر، خصصا فقرة لمأساة أرانثيبيا. إنهما يتحدثان عن روايات غير مؤكدة، وعن إشاعات غير صحيحة في الغالب.

– بل هي صحيحة ـ قاطعته ـ. لقد تحريتُ عن هذه النقطة.

– إنها صحيحة طبعاً ـ قال إميليو وهو يكتم أنفاسي بسيجار مكسيكي آخر ـ. ولكن كاتبي السيرة لا يهتمان بذلك. فهذا الجزء من القصة يفيض معهما عن الحواف. ولا يدور في خلديهما أنه لا مجال للفصل بين حياة إيفيتا وموتها. لقد أثار إعجابي على الدوام هوسهما الدؤوب في تدوين معلومات لا تهم أحداً، مثل قائمة الروايات التي كانت إيفيتا تقرؤها عبر الإذاعة، ويتركان في الوقت نفسه بعض الفجوات الأساسية دون أي تغطية. ما الذي حدث، على سبيل المثال، لأرانثيبيا المجنون. لقد ابتلعه التاريخ. ما الذي فعلته إيفيتا في ذلك المقطع الغامض من حياتها ما بين كانون الثاني وأيلول من العام 1943؟ يبدو كما لو أنها تبخرت. لم تمثل في أي محطة إذاعية، لم يرها أحد في تلك الشهور.

– يجب عدم المبالغة أيضاً يا صاحبي. من أين تريدهم أن يأتوا بالمعلومات؟ يجب ألا تنسى أن إيفيتا في تلك الفترة كانت مجرد ممثلة ثانوية مسكينة. وعندما يتركونها دون عمل في الإذاعة، تتدبر طعامها كيفما تستطيع. لقد أخبرتُكَ عن الصور التي رآها مصفف الشعر ألكاراثا في أحد أكشاك شارع ريتيرو.

– لا بد من أن شاهداً سيظهر على الدوام إذا ما بحثتَ عنه ـ أصر إميليو. ثم نهض ومضى ليسكب كوباً آخر من الكونياك. ولم أستطع رؤية وجهه عندما قال: ـ دون المضي بعيداً، أنا نفسي تعرفت على إيفا في تلك الشهور من عام ثلاثة وأربعين. أنا أعرف ما الذي حدث.

لم أكن أتوقع ذلك. ومع أنني كنت قد تركت التدخين منذ خمس عشرة سنة، إلا أنني شعرت في تلك اللحظة بأن رئتي تطالبان بسيجارة بتلهف انتحاري. تنفستُ عميقاً.

– لماذا لم تخبر أحداً بذلك. ـ قلتُ له ـ لماذا لم تكتبه؟

– في البداية لم أتحمس ـ قال ـ لأنك إذا ما كتبت آنذاك مثل هذه القصة، ستضطر إلى مغادرة البلاد. وبعد ذلك، حين صارت كتابتها

ممكنة، كانت الرغبة في ذلك قد فارقتني.

– أنا لا أعرف الرحمة ـ قلت ـ عليك أن تروي لي القصة الآن بالذات.

ظل معي حتى الفجر. وفي النهاية كنا مستنفدين إلى حدّ صرنا نتفاهم معه بالإشارات والتلعثمات. وعندما انتهى رافقته في سيارة أجرة حتى بيته قرب حديقة الذكرى المئوية، رأيت مستحاثات متحف العلوم الطبيعية تتمطى وطلبتُ من السائق أن يوقظني عند وصولنا إلى سان تيلمو. ولكنني لم أستطع النوم. ولم أجد الطمأنينة للنوم حتى الآن، عندما صار بإمكاني أخيراً إعادة رواية القصة دون الخوف من خيانة نبرة صوته أو تفاصيله.

حدث ذلك في تموز أو آب من عام 1943، روى لي إميليو. كان جيش فون باولوس السادس قد بدأ حصاره الطويل لستالينغراد، وكانت المراتب القيادية الفاشية قد صوتت ضد الدوتشي ولمصلحة النظام الملكي الدستوري، ولكن مصير الحرب كان لا يزال غير مؤكد. وكان إميليو ينتقل من قاعة تحرير صحفية إلى أخرى ومن عدة علاقات غرامية متزامنة إلى لا علاقة. في ذلك الشتاء تعرف إلى ممثلة بلا موهبة تدعى مرثيديس برينتر وهي من أعادته أخيراً إلى الاستقرار. لم تكن ذات جمال باهر من عالم آخر، قال إميليو، ولكنها تختلف عن النساء الأخريات لأنها لم تكن تهتم بشأنه وإنما بشأنها هي نفسها. كانت تريد أن ترقص وحسب. وفي كل يوم سبت كانت تخرج مع إميليو لتجول على بارات وأندية الحي الذي كان فيورينتينو يشحذ فيه صوته كمغن تينور في كير آنيبال ترويلو أو حيث أوركسترا فيليثيانو برونييّو تختلط بتنويعات فوكستروت التي توقظ الموتى. كانت أحاديث مريثديس معه تدور حول لا شيء: فالكلمات بلا أدنى أهمية. والشيء المهم الوحيد هو رؤية الحياة تمر مثل ماء عذب. وإميليو الذي كان آنذاك «سكرتير الإخراج» في *الأخبار المصورة*، كان يستمتع وهو يشرح لمرثيديس ظرافة توليف القطع بين الفقرات، وأنصاف الأعمدة، والفواصل بين الأعمدة. ولكنها كانت تتحول عن الخوض في تلك الثرثرة التقنية لتحدثه عن تعديلات اللحظة الأخيرة التي يُدخلها كاتب

التمثيليات الإذاعية مارتينيللي ماسا في حوارات *محنة*، وهو المسلسل الإذاعي الرائج آنذاك. وفي وحدتهما كانا يتبادلان رواية كل شيء، ويتفحصان بمصابيح أنفاق جسديهما، ويتعاهدان على حب اللحظة الآنية وحسب، لأن مفهوم المستقبل، كما كانت تقول مرثيديس، يخمد كل العواطف: حب الغد ليس حباً. وفي إحدى محادثات الفجر تلك، حدثته ميرثيديس عن إيفيتا.

«ماذا تريدني أن أقول لك، إنها تستثير شفقتي»، قالت له مرثيديس. «إنها ضعيفة البنية، كثيرة المرض، لقد شعرت بالتعاطف معها. أتدري كيف صرنا صديقتين؟ كنا نمثل في مسرحية في روساريو. وبعيداً عن الرجال، كنا نتقاسم الطعام، وحجرةٍ تبديل الملابس، وكل شيء آخر، ولكنا لم نكن نتبادل الحديث تقريباً. فهي تهتمٍ بشؤونها وأنا بشؤوني. كانت مهتمة برجال الأعمال، بمن يملكون أموالاً، حتى لو كانوا مسنين وذوي كروش، أما أنا فكنت أحب الرقص. ولم نكن أنا وهي نملك شيئاً يذكر. وكان أحد الأصدقاء قد أهدى إليّ جوربين حريريين كنت أعتني بهما ككنز. أنت لا تستطيع تخيل كيف هي جوارب الحرير الطبيعي: إنها تتحلل بمجرد التنفس عليها. وذات ليلة فقدتُ الجوربين. كان عليّ أن أخرج إلى المنصة، ولم أجد الجوربين في أي مكان. وفي تلك اللحظة ظهرت إيفيتا وهي في أفضل زينة. ألم تري جوربيّ يا صديقتي؟ سألتها. فقالت لي: اعذريني يا مرثيديس، لقد استخدمتهما. شعرت برغبة في قتلها، ولكنني حين نظرت إلى ساقيها لم أتعرف على جوربيّ. فقد كان جورباها رخيصين، من الموسلين. فقلت لها إنك مخطئة، فهذان ليسا جوربيّ. وردّت عليّ: جورباكِ أضعهما هنا، وأشارت إلى حمالة صدرها. لقد كان نهداها صغيرين، وكان ذلك يسبب لها عقدة نفسية، وقد استخدمت جوربيّ كحشوة. لقد فوجئت في البدء ولكنني ما لبثت أن انفجرت في الضحك. أرتني الجوربين، وكانا سليمين، دون أي خدش. وقد خرجنا معاً إلى المنصة ضاحكتين ولم يفهم الجمهور سبب ضحكنا. منذ

ذلك الحين صرنا نلتقي كثيراً. فكانت تأتي إلى النزل الذي أعيش فيه لتناول المتة معي وتبادل الحديث لساعات. إنها فتاة طيبة، شديدة التحفظ. وهي تستعيد عافيتها الآن من مرض طويل. تمضي حزينة، محبطة. لماذا لا تدعو أحد أصدقائك يا إميليو ونخرج جميعنا معاً؟».

دعا إميليو طبيباً جراحاً ذا شعر لامع، له عنق قاسية ويضع قبعة كقبعة أوريون الصياد، ويهوى جمع صور الفنانين. وقد قال لي إنه استسلم لقضاء ليلة ضائعة، من تلك الليالي التي تخلفه جافاً وخاوياً. ولولا مغزى الوقائع التي جرت في ما بعد، على ضوء القصة، لكان إميليو قد نسي الأمر برمته. لم يكن يعلم ـ ما كان بإمكانه أن يعلم ـ أن تلك الفتاة ستصير، مع مرور الزمن، إيفيتا. ولم تكن إيفيتا تعرف ذلك أيضاً. فللتاريخ مثل هذه الأحابيل. لأنه لو كان بمقدورنا رؤية أنفسنا ضمن التاريخ، قال إميليو، لشعرنا بالرعب. ولن يكون ثمة تاريخ عندئذ، لأن أحداً منا لن يرغب في التحرك.

تواعدوا على اللقاء في كافيتريا ميونخ على الضفة الجنوبية. كانت إيفيتا تضع إكليل أزهار بيضاء وتتدلى قطعة تول على قاعدة أنفها. بدت لإميليو تافهة، لا تتأثر بوهن المرض والألم. وكان أكثر ما يشد الانتباه فيها، كما قال لي، هو بياضها. كانت لها بشرة شديدة الشحوب تظهر من خلال شفافيتها خريطة الأوردة وسطحية التفكير. لم تكن في جسدها أية جاذبية، قال، ولا أية قوة كهربية للخير أو للشر.

في الجانب الآخر من الشارع، وراء سياج أشجار الحور، يوجد المرسى الذي انطلق منه البحار المتوحد فيتو دوماس، قبل سنة من ذلك، في رحلته حول العالم في السفينة *ليه الثاني*، وهي سفينة شراعية طولها عشرة أمتار. وكانت المدينة تنتظر عودته بين لحظة وأخرى. والطبيب الجراح الذي تابع كل واحدة من مناورات دوماس الكثيرة في مواجهة رياح المحيط الهندي الموسمية الماطرة، وتجاوزه أسوار الزبد في خليج هورنوس، حاول جذب اهتمام إيفيتا بوصف الرياح الحادة وعواصف البرَد التي تجاوزها الملاح في أيام وحدته الثلاثمائة دون راحة، ولكنها كانت تستمع

إليه بعينين تائهتين، كما لو أن الجراح يتكلم بلغة نائية ووقع كلماته يسقط بعيداً، في النهر غير المرئي وراء الشارع المقابل.

كانت مرثيديس راغبة في الذهاب للرقص، ولكن إيفيتا بدت غير متحمسة لأي نوع من الرغبات، رغبات الآخرين ورغباتها. فكانت تخفض رأسها وتجيب: «في ما بعد... بعد هنيهة»، دون أن تتحرك، وبكآبة مُعدية. لم تتحمس إلا عندما اقترح عليهم إميليو الذهاب إلى **فانتازيو**، في أوليفوس، حيث يجتمع كل ليلة منتجو «أرجينتينا سونو فيلم» والممثلات الرائجات.

لم يقل لي إميليو في أي لحظة أنه أحس بأن إيفيتا هي ذلك الكائن الضعيف الأعزل الذي حدثته عنها مرثيديس. بل إنها كانت تبدو أشبه بتلك القطط المتشردة التي تتمكن من تجاوز البرد والجوع وقسوة الكائنات البشرية ونزوات الطبيعة. ولدى الوصول إلى **فانتازيو** جلست إلى المنضدة وهوائياتها منتصبة، مترصدة من يجلس مع من، ومثقلة على إميليو كي يقدمها. اقتادته من يده إلى الركن الذي كان يتناول العشاء فيه المنتج أتيليو مينتاستي مع سيستو بوندال ريوس وكارلوس أوليفار، وهذان شاعرا انطولوجيات ثانويان وكاتبا مسلسلات ناجحان. وقد كنت صديقاً للثلاثة، قال لي إميليو، ولكنني شعرت بالخجلٍ من ظهوري على ذلك النحو، مع تلك المرأة العديمة القيمة. وكنت مرتبكاً إلى حد أنني قدّمتها إليهم بصوت متلعثم:

– إيفا دوارتي، سيدة شابة تعمل في الإذاعة.

– كيف أكون سيدة شابة يا صاحبي ـ صححت إيفا له ـ. لقد تعاقدوا معي في إذاعة بيلغرانو كممثلة رئيسية في الفرقة.

قامت بحركة من تريد الجلوس إلى منضدة الآخرين تلك، ولكن مينتاستي ذا الأساليب الجليدية، أوقفها:

– لقد صافحتك وانتهى يا صغيرة. والآن، انصرفي.

وأخبرني إميليو أن وميض حقد لمع في عيني إيفا. فمنذ وصولها إلى

بوينس آيرس، تعرضت للازدراء والطرد مرات كثيرة بحيث لم يعد يفاجئها أي شيء: كانت تراكم في ذاكرتها سلسلة طويلة من الإهانات وتفكر في الانتقام عاجلاً أو آجلا. وقد كانت إهانة مينتاستي إحدى أسوأ الإهانات. لم تغفر له قط، لأنها لم تشأ أن تغفر لأحد. فإذا كانت إيفيتا قد توصلت لأن تكون شخصية مهمة، قال لي إميليو، فإنما حققت ذلك لأنها قررت عدم التسامح والغفران.

اجتازا القاعة مرة أخرى، وكانت قد امتلأت الآن بثنائيات من الزبائن. كانت الفرقة الموسيقية تعزف لحن فوكستروت. رأيا مرثيديس تراقص الجراح في حافة بعيدة على حلبة الرقص. كانت ترقص بتحد، بسعادة، غير منتبهة إلا لنار جسدها. أما إيفيتا فلم تفتح فمها بكلمة عندما رجعا إلى منضدتهما.

لم يدر إميليو ما عليه أن يفعل. سألها إن كانت حزينة فردت عليه بأن النساء حزينات على الدوام، ولكنها لم تنظر إليه. وربما، قال إميليو، لم تكلمني أيضاً. فبعد مرور ذلك الزمن الطويل، بدت له تلك الليلة متخيلة أكثر مما هي حقيقية. كانت ثنائيات من الراقصين ترقص في فسحة بلا إضاءة على إيقاع غرشوين وجيروم كرين. كان يُسمع حفيف الفساتين وصرير الأحذية، وأزيز الثرثرات. ووسط تعالي وانخفاض الأصوات انسل فجأة صوت إيفيتا التي بدا كما لو أنها تتابع خيط أمر كانت تفكر فيه:

- ماذا ستفعل يا إميليو إذا انتفخت مرثيديس؟

فاجأ السؤال إميليو إلى حد تأخر معه عن فهم معناه. كانت الفرقة الموسيقية تعزف موسيقى أغنية *الرجل الذي أحب*. وكان الجراح يؤرجح مرثيديس كما لو أن جسدها من التول. وكان بوندال ريوس يدخن سيجاراً هافانياً. تذكر إميليو (قال، بعد نصف قرن، تذكرتُ في تلك اللحظة) أبياتاً سادية لأوليفاري: *أكثر ما يروقني في جسدكِ النحيل/ رؤية استمتاعه تحت سوطي*. وأجابها ساهياً:

– سآخذها لتجهض، أليس كذلك؟ تخيلي كيف يمكن لنا كلانا أن نربي ابناً.

– ولكنها تستطيع الاحتفاظ بالابن دون أن تعلم أنت بالأمر. ماذا ستفعل إذا ما أنجبته لك ـ ألحت إيفيتا ـ إنني أسألك لأني لم أتمكن قط من فهم الرجال.

– ما أدراني أنا. وانظري أية أفكار تخطر لكِ. أظن أنني سوف أرغب في رؤية ابني. أما مرثيديس فلن أرغب في رؤيتها إلى الأبد.

– هكذا هم الرجال ـ قالت إيفيتا ـ لهم مشاعر مختلفة عن النساء.

كانت محادثة لا مسوغ لها، ولكن كان يبدو أن كل شيء يمضي على غير هدى في كثافة ذلك المكان المسمى **فانتازيو**. ودعت الفرقة الموسيقية الراقصين ورجع الجراح إلى المنضدة مع مرثيديس. وربما كانت إيفيتا تنتظرهما لأنها توقفت عن شدّ تنورتها كمراهقة وقالت:

– أنا سأغادر. لا أريد أن أقوض ليلتكم، ولكنني لا أشعر بأنني على ما يرام. ما كان عليّ أن أحضر.

وكان هذا هو كل شيء تقريباً، أخبرني إميليو. أوصلناها إلى شقة تستأجرها في طريق سيابير ثم ذهبتُ مع مرثيديس إلى الفندق الصغير في شارع مايو حيث كنتُ أقيم في تلك السنوات. خلعنا ملابسنا وأحسستُ بمرثيديس نائية. ربما كنت أصل وإياها إلى النهاية، قال لي إميليو، مع أننا ظللنا بعدها أكثر من سنة قبل أن ننفصل. ربما كانت غاضبة لأننا لم نرقص معاً ولو رقصة واحدة. كنت في تلك الأثناء قد تخليت عن محاولة فهمها، بالرغم من أنني لم أستطع آنذاك ولا الآن أن أفهم المرأة. لا أدري ما الذي يفكرن فيه، ولا أعرف ماذا يردن، ما أعرفه فقط أنهن يردن عكس ما يفكرن فيه. لقد وقفت أمام المرآة ذات القطع الثلاث الموجودة في حجرة الفندق تلك وبدأت بتنظيف المكياجِ. وكانت هذه على الدوام هي الإشارة إلى أننا لن نمارس الحب، وأن كلا منا سيدير ظهره للآخر دون أن نتلامس فور إطفاء النور. وبينما هي تمر على وجهها بقطعة قطن مبللة

بالكريم، قالت كما في طريقة عابرة:

- ألم تلحظ كم هي إيفيتا في حالة سيئة، وكم هي يائسة.

- كيف يمكن أن تكون يائسة ـ قال إميليو ـ. إنها غريبة الأطوار. لقد سألتني عما يمكن أن أفعله إن حبلتِ أنت.

- وما الذي ستفعله في هذه الحالة؟ ماذا أجبتها؟

- ما أدراني ـ كذب إميليو ـ سنتزوج. سأُسعدكِ.

- لقد كانت هي نفسها حبلى ـ قالت مرثيديس ـ، أعني إيفيتا. ولكن الأمر لم يكن مشكلة. فلا الأب ولا هي كانا يرغبان في إنجاب ابن. الأب لأنه متزوج، وهي لأنها لا تريد تدمير مسيرتها الفنية. ولكن المشكلة أن عملية الإجهاض انتهت بكارثة. لقد كانت مجزرة. مزقوا لها قعر الرحم، والأربطة، والقناة. وبعد نصف ساعة سقطت غارقة في الدم، مع التهاب بأغشية البطن. وكان لا بد من إدخالها في حالة إسعاف إلى مشفى. وقد احتاجت إلى أكثر من أسبوعين كي تستعيد عافيتها. كنت أنا الشخص الوحيد الذي يذهب لزيارتها كل يوم. كانت على وشك الموت. على الحافة. لقد ماتت تقريباً.

- وماذا فعل من تسبب في حملها؟ ـ سأل إميليو.

- لم يسئ التصرف. إنه رجل طيب. دفع تكاليف المستشفى حتى آخر سنتافو. ولم يسئ حتى للقابلة التي أجرت عملية الإجهاض. ولم يكن هو من اختارها.

- يمكن لهذه الأمور أن تحدث لأي شخص ـ قال إميليو ـ إنها أمور رهيبة ولكنها تحدث لأي شخص. ولا بد لها أن تحمد حسن حظها بالبقاء حية.

- في تلك الشهور كانت تفضل أن تموت. وعندما عرف الرجل أخيراً أنها نجت، غادر إلى أوروبا. لقد فقدت عملها تقريباً. تصور. لم تكن تظهر في المجلات، ولا أحد يتصل بها. لقد أنقذتها العناية الإلهية بملاحظة صحفية في مجلة أنتينا أظهرتها كنجمة تفضل البطالة. «إذا كانت إيفا

دوارتي لا تعمل فإن السبب هو أنه لا تُعرض عليها أدوار تليق بقامتها، هذا ما قالته الملاحظة. والناس يبتلعون مثل هذه الأقراص. وبعد ذلك أنقذها الانقلاب العسكري. فالمقدم الذي يوجه الإذاعات وقع في حبها.

- عندئذ لم تعد بحاجة لأن تحميها أنتِ ـ قال إميليو.

- لقد كانت بحاجة إليّ طبعاً، لأنها لم تعد تحب أحداً الآن. ولا تريد شيئاً ـ قالت مرثيديس ـ. فالمقدم الذي يغطيها كان متزوجاً، مثل كل الأشخاص الذين التقت بهم في حياتها. وكان يمكن لإيفيتا أن تذهب ذات يوم لتطرق باب بيته وتطلق على نفسها رصاصة هناك بالذات، أمام وجهه.

أطفأ إميليو صوته وظل ينظر إلى الظلام. وفي الخارج، كانت الرياح تهز الأشجار وكانت تتعالى شظايا الأصوات المتبقية في الشارع، على غير هدى. وبعد ذلك، كما لو أنه ليس هناك ما هو مهم، جاء الصمت.

عاد للقاء مع إيفيتا بعد سبع سنوات من ذلك، في احتفال رسمي.

- لم تتعرف عليّ ـ قال إميليو ـ، أو أنها تظاهرت بأنها لم تتعرف عليّ. كانت امرأة أخرى. بدت مترعة بالضوء. وبدا أن لها روحين أو عدة أرواح بدلاً من روح واحدة. ولكن الحزن مازال يحيط بها. ففي وقت لا يخطر لها على بال، كان الحزن يلمس كتفها ويذكرها بالماضي.

لقد كنت وفياً لما رواه إميليو كاوفمان، ولكنني لا أعرف إن كان إميليو وفياً بشأن ما يعرفه عن إيفيتا. ففي روايته تُذكر قلة من الأسماء والتواريخ، وقد صححتها، وبمقارنتها بذاكرة أناس آخرين. استطعت أن أتأكد من أن إيفيتا دخلت باسم ماريا إيفا إبارغورين إلى مستشفى أوتاميندي آي ميرولي في بوينس آيرس، ما بين شباط وأيار 1943. المستشفى لم يعد يحتفظ بأرشيف تلك الفترة، ولكن الكولونيل استنسخ بطاقة إدخالها المستشفى وتركها، مع أوراقه الأخرى، في بيت ثيفوينتس. لم أستطع العثور على مرثيديس برينتر، وإن كنتُ أعرف أنها تعيش في مكان ما من المكسيك منذ العام 1945. القصص تضيع أو تتشوه. ذاكرة العالم تمر عرضاً وتتراجع أبعد فأبعد في كل مرة. العالم يمر عرضاً ونادراً ما تجد الذاكرة مكان ضياعها.

- 11 -

«زوج رائع»

أمضى الكولونيل شهوراً وهو يتعذب لتركه إيفيتا ترحل. فلا معنى لشيء من دونها. حين يشرب (وهو يشرب أكثر في كل ليلة من ليالي الوحدة)، ينتبه إلى أنه من الغباء مواصلة نقلها من مكان إلى آخر. لماذا كان عليه تسليمها لأناس مجهولين كي يعتنوا بها؟ ولماذا لم يسمحوا له أن يفعل ذلك، وهو الذي سيدافع عنها أفضل من أي شخص آخر؟ لقد كانوا يبقونه بعيداً عن الجسد، كما لو الأمر يتعلق بعروس عذراء. إنه لأمر غبي - هكذا فكّر - أن تُتخذ كل تلك الاحتياطات مع امرأة متزوجة، وقد تقدمت في السن، وهي ميتة منذ أكثر من ثلاث سنوات. رباه، كم يفتقدها. أكان هو من يصدر الأوامر أم أن آخرين كانوا يفعلون ذلك؟ لقد ضيع نفسه. لا بد أن هذه المرأة أو الكحول أو قدر كونه عسكرياً قد ضيعه.

رباه، إنه يفتقدها. لم يزرها سوى ثلاث مرات في الصيف والربيع، ولكنه لم يفعل ذلك وحيداً قطّ: فأرانثيبيا المجنون كان موجوداً على الدوام، يترصد التبدلات الخفيفة التي تطرأ على الجسد. كان يقول: «لاحظ أيها الكولونيل، إنها اليوم أكثر قتامة. انظر كيف انتفخ الشريان الأخمصي، كيف بدأت تبرز أوتار الأصابع الباسطة. من يدري أن تكون هذه المرأة لا تزال حية.» كان يشعر بظمأ فظيع. ماذا يحدث له؟ إنه يشعر

بالظمأ طوال الوقت. ولم تكن هناك نار ولا كحول قادر على إطفاء ظمأ أحشائه التي لا ترتوي.

لقد انقضى الأسوأ، هكذا كان يظن. ومع ذلك، لم يكن أي شيء هو الأسوأ قطّ. لقد تألم حين رآها تقبع بين دمى، وراء شاشة سينما ريالتو. بينما طبقة الغبار الخفيفة التي تلعق التابوت تنزل من حين لآخر إلى الجسد: عند رفع الغطاء، وجد الكولونيل شامة خفيفة من الغبار على طرف الأنف. مسحها بمنديله، وقبل أن ينصرف أوصى عارض الأفلام: «عليك تهوية هذا الجحر. قاوم الجرذان بالسموم. ففي مثل هذا الإهمال، يمكن للحشرات أن تأكل المتوفاة». وفي الأسبوع التالي حدث أكثر ما كان يخشاه: طلع الصباح على الجسد المحاط بأزهار وشموع. لم يجد رسائل تهديد، وإنما عودا ثقابٍ إلى جانب الصندوق. لقد كان ذلك كابوساً. سيكتشفون مكانها عاجلاً أو آجلاً. من؟ من؟ العدو لا يتراخى: يبدو أنه يتحرك مدفوعاً بهاجس أعمق من هاجسه.

وبين عملية نقل وأخرى كان يلجأ، على الرغم منه، إلى المُحَنِّط. يستدعيه كي يخبره إن كان الجسد لا يزال سليماً. كان الدكتور آرا يرتدي رداء العمل وقفازي المطاط، وينزوي على انفراد لساعة أو ساعتين مع الميتة، وعند خروجه يُصدر الحكم نفسه على الدوام: «إنها سليمة ومعافاة مثلما كانت حين تركتها».

وفي كل صباح، لدى دخوله إلى مكتبه، يدون الكولونيل تحركات الجثة على بطاقات. فهو يريد للرئيس أن يعرف كل ما فعله من أجل حمايتها من النوائب، من التعصب، ومن الحرائق. كان يحسب الساعات التي يذهب فيها فريق الجوالة ويجيء عبر المدينة، دون ذكر نقاط الوصول أو الانطلاق. لم يكن هناك مكان مضمون لها. ففي كل مرة يتوقفون في مكان ما يحدث شيء رهيب.

في إحدى المرات قام الكولونيل بدراسة بطاقاته. منذ 14 كانون الأول 1955 حتى 20 شباط 1956، كانت المتوفاة وراء ستارة سينما ريالتو:

لقد تركوها هناك في ليلة مطر مفاجئ واضطروا إلى أخذها من هناك في أوج النهار، بعد عاصفة أخرى. الشاحنة التي نقلوها فيها ظلت عالقة في منخفض شارع سالغيرو، تحت جسر سكة الحديد. وقد سحبتها عربة بغال. «تقاضى مني سائق العربة ستين بيزو»، هذا ما دونه الكولونيل في إحدى البطاقات. «انتظرتُ إلى أن جف الفحم ثم تركت «الشخص» عند ناصية شارعي فيامونتي ورودريغث بينيًا خلال ليلتي 20 و21 شباط». إنه يدعوها في بطاقاته «شخص» أحياناً، و«المتوفاة» أحياناً، وفي أحيان أخرى يسميها «إ.د.» أو «ت. م.» في اختصار لإيفا دوارتي وتلك المرأة. وفي كل مرة كانت تصبح شخصاً أكثر من كونها متوفاة: كان يشعر بذلك في دمه الذي يمرض ويتغير، وفي آخرين مثل الرائد أرانثيبيا والملازم الأول فيسكيت اللذين لم يعودا نفسيهما.

منذ 22 شباط حتى 14 آذار ـ قرأ في البطاقات ـ، رقدت إيفيتا بسلام في المستودعات العسكرية بشارع سوكري 1835، على هضاب بيلغرانو. «الصندوق الذي يضم الجسد، وكنا نسميه في ما بيننا "صندوق العدة" كان في الصف الثاني من الرفوف، في عمق العنبر، بين مطارق، وأذرع مطارق، ومزاليج، وأقفال، وإبر قدح منتزعة من مجموعة مسدسات من طراز سميث آند ويزن. لا أحد يمس تلك الصناديق منذ أربع سنوات على الأقل». بين يومي 10 و12 آذار، اكتشف الحراس ضابطي صف، العريف عبد الله والرقيب جبران، يتفحصان التابوت عن قرب. «في صباح يوم 13 ـ تقول البطاقة التالية ـ ذهبتُ إلى مستودع شارع سوكري من أجل التفتيش الروتيني. لمحت في الصندوق شقاً أو علامة أُحدثت بسكين، لها شكل هلال أو الحرف C، وإلى يمينها خط مائل يصل طرفه السفلي حتى قاعدة الحرف C، ربما يكون نصف الحرف V غير مكتمل. هل هما الحرفان الأولان من كلمتي كوماندو الانتقام؟ غالارثا وفيسكيت يفترضان أنها مجرد خدوش طارئة. أما أرانثيبيا بالمقابل، فيتفق معي في الرأي: لقد اكتُشف مكان المتوفاة. أمرت على الفور باعتقال ضابطي الصف جبران

وعبد الله وإخضاعهما لاستجواب صارم. إنهما لا يقولان شيئاً. علينا الآن أن ننقل المتوفاة في صندوق جديد، لأن المكان السابق صار معروفاً».

منذ ذلك الحين لم يتوقف فريق الجوالة عن التنقل، وفي كل مرة لفترات أقصر. وأينما انتقل الجسد، كان يلحق به موكب من الزهور والشموع. تظهر فجأة، لدى أول سهو من الحراس: في بعض الأحيان زهرة واحدة وشمعة واحدة، ولا تكون منطفئة أبداً.

الكولونيل يتذكر جيداً صباح يوم 22 نيسان: كان يبدو على فريق التنقل الإنهاك بعد ثلاثة أسابيع من التجوال على غير هدى في شاحنات صغيرة، وحافلات عسكرية، وأقبية فيالق، ومطابخ ثكنات عسكرية. واستسلموا لفكرة دفنها في مقبرة مونتي غراندي عندما قدم إرانثيبيا، المجنون، حلاً أوحت به العناية الإلهية: وماذا لو حفظناها في بيته بالذات؟

كان المجنون يسكن في شارع سافيدرا، في شاليه من ثلاثة طوابق: في الطباق السفلي تتوزع قاعة المعيشة والطعام، وغرفة الخدم والمطبخ، مع باب يهبط إلى الكراج والحديقة، وفي الطباق الآخر المخدع الزوجي، ومخدع آخر للضيوف وحمام. قبالة الحجرة الأولى يوجد باب يؤدي إلى العليّة: هناك يحتفظ المجنون بملفاته، وبخرائط المدرسة الحربية، ومنضدة رمل مع جنود من رصاص مازالوا يخوضون معركة الإيبرو بلا نهاية، وفيها أيضاً بدلته وهو تلميذ ضابط. تلك العليّة، كان يفكر، هي المكان المثالي لإخفاء إيفيتا.

وماذا عن زوجة إرانثيبيا ؟ تفحص الكولونيل تقريرها الطبي: إيلينا هيريديا دي أرانثيبيا. السن: 22 عاماً. حبلى: في الأسبوع الثالث عشر من الحمل. لم يعد يتذكر الآن الترتيب الذي جرت به الأحداث. تم نقل الجسد إلى شارع سافيدرا فجر يوم 24 نيسان، بين الساعة الثالثة والرابعة. كان الجسد يرقد في صندوق صقيل وقاتم وبسيط من خشب الجوز، مع أختام رسمية مطبوعة بالنار تقول: «الجيش الأرجنتيني».

تحت ضوء خافت، قوة أربعين واطاً، عمل هو والمجنون حتى الساعة السادسة في الكراج المزيت العابق برائحة عفونة وتبغ رخيص. وكانا يسمعان بين حين وآخر وقع خطوات الزوجة المنطفئة.

كانا مجرد رجلين متعبين عندما صعدا بالصندوق الثقيل إلى العليّة، متعثرين في التفافات الدرج الضيق وحواجزه الزائدة الارتفاع. سمع الكولونيل الزوجة تذهب وتجيء في غرفة النوم، وسمعها تئن وتنادي بصوت مخنوق، كما لو أن منديلاً بين شفتيها:

– إدواردو، ما الذي يحدث يا إدواردو؟ افتح الباب أرجوك. إنني في حالة سيئة.

– لا تهتم بها ـ همس المجنون في أذن الكولونيل ـ إنها مدللة.

كانت الزوجة ما تزال تئن عندما رفعا الصندوق ووضعاه بين الخرائط. كان ضوء الفجر الشاحب يدخل من شقوق النافذة. فوجئ الكولونيل بالترتيب المهووس للأشياء، وعرف اللحظة التي أوقف فيها أرانثيبيا معركة الإيبرو في صندوق الرمل.

احتاجا لبعض الوقت أيضاً من أجل تغطية المتوفاة بأكداس من اللفافات والملفات. وكلما راحت الأوراق تغطيه، كان الجسد يدافع عن نفسه بإطلاق إشارات خفيفة: خيط نحيل جداً من روائح كيماوية وانعكاس ضوء يبدو، حين يطفو في الهواء الراكد، كأنه يحتضن شبكة سُحب رمادية.

– هل أحسستَ؟ ـ قال المجنون ـ لقد تحركت المرأة.

أزاحا الأوراق جانباً وتفحصاها. كانت ساكنة، صلفة، بالابتسامة الغدارة نفسها التي طالما أرّقت الكولونيل. ظلا ينظران إليها إلى أن اختلط الصباح في ذهنيهما بالخلود. عندئذ أعادا تغطيتها بكفنها من الأوراق.

كانت تصلهما بين حين وآخر شكوى الزوجة. يسمعان جملاً مقطعة، مقاطع ربما تقول: «ظمأ، دواردو. ظمأ، ماء»، لا شيء واضح. الأصوات تلتف في التفافات دبور عمياء، دون أن تستسلم للمغارة.

كان هناك قفلان في باب العليّة الذي من خشب الجوز، عند بداية الدرج. عرض أرانثيبيا مفتاحين برونزيين طويلين قبل أن يُدخلهما في فتحتي القفلين ويديرهما.

-- إنهما الوحيدان ـ قال ـ إذا ما فُقدا سيتوجب تحطيم الباب.

– إنه باب ثمين ـ قال الكولونيل ـ. لا يروقني تحطيمه.

كان هذا هو كل شيء. وكان قد انصرف، ولكنه بدأ يفتقدها في اللحظة نفسها.

خلال الأسابيع التالية سعى الكولونيل جاهداً بجد كي ينسى عزلة إيفيتا وأرقها. إنها أفضل حيث هي الآن، كان يكرر. لم يعد يحاصرها الأعداء ولا تجب حمايتها من الزهور. ضوء النافذة ينزلق على جسدها في الأمسيات. وما الذي يكسبه هو من ذلك كله؟ فغياب إيفيتا كان حزناً من الصعب تحمله. كان يجد أحياناً بقايا من ملصقات تحمل صورتها ملصقة على جدران المدينة. وفي تلك البقايا الممزقة أو الملطخة كانت المتوفاة تبتسم دون ذكاء من ذلك اللامكان. رباه، كم أفتقدها. كان يلعن الساعة التي وافق فيها على خطة أرانثيبيا. لو أنه أمعن النظر قليلاً في الخطة لوجد فيها عيوباً. ولكانت هي مخبأة في أحد أركان مكتبه. ولكان بإمكانه أن يرفع الغطاء في هذه اللحظة بالذات ويتأملها. لماذا لم يفعل ذلك؟ رباه، كم يكرهها، كم يحتاج إليها.

كان يدون في بطاقاته اللاشيء الذي يحدث: *7 أيار. أمرت بتلميع الجزمة والمهازين. لم يحدث شيء./// 19 أيار. التقيت بثيفوينتس في ريشموند. تناولت سبع كؤوس نبيذ أبيض. لم نتحدث عن أي شيء./// 3 حزيران. ذهبتُ إلى قداس الساعة العاشرة في كنيسة سوكورو. رأيت أرملة الجنرال لوناردي. وجدتها مكتئبة بعض الشيء. أردت مصافحتها. أدارت وجهها. يوم أحد في الخدمة: لم يكن هناك أحد.*

في التاسع من حزيران، قبل قليل من انتصاف الليل، سمع سرباً من طائرات النقل تحلق باتجاه الجنوب. أطل من النافذة واستغرب عدم رؤية

أضواء في السماء: لا شيء سوى دوي المحركات والظلمة الجليدية. عندئذ رن الهاتف. كان المتصل وزير الجيش.

– لقد تمرد الطاغية يا موري ـ قال.

– هل رجع؟ ـ سأله الكولونيل.

– كيف يخطر لك ذلك ـ قال الوزير ـ ذاك لن يرجع أبداً. لقد تمرد بعض المعتوهين الذين مازالوا يؤمنون به. سوف نعلن الأحكام العرفية.

– أجل يا سيدي الجنرال.

– أنت لديك مسؤولية: «الحزمة» – وكان الرئيس والوزراء يسمون المتوفاة «الحزمة» – إذا ما حاول أحدهم انتزاعها لا تتردد لحظة واحدة: ارمه بالرصاص.

– الأحكام العرفية ـ ردد الكولونيل.

– أجل. لا تتردد.

– أين قاموا بالانقلاب؟ ـ سأله الكولونيل.

– في لابلاتا. في البامبا. لا وقت لدي لشرح الأمور. تحرك يا موري. إنهم يحملونها كراية.

– لستُ أفهم يا سيدي الجنرال.

– المتمردون يرفعون راية بيضاء. في منتصفها صورة وجه. إنه وجهها.

– أريد تفصيلاً واحداً آخر فقط يا سيدي الجنرال. هل توجد أسماء؟ هل تعرفتم على المجرمين؟

– هذا ما يتوجب عليك أن تعرفه خيراً مني، وأنت لا تعرفه. لقد عثروا في موقع لابلاتا على منشورات. تحمل توقيع كوماندو الانتقام. وهذا يوضح جيداً أي أناس هم. يريدون الانتقام.

قبل أن يخرج، سمع الأوامر القتالية. كانت تُبث كل خمس دقائق من الإذاعة: «تُطبق ترتيبات الأمن في زمن الحرب. يمكن لكل ضابط من قوى الأمن أن يُجري محاكمة صورية ويُصدر حكم الإعدام رمياً بالرصاص على معكري الأمن العام».

ارتدى الكولونيل الزي العسكري وأمر عشرين جندياً بمرافقته إلى شارع سافيدرا. كان يشعر بجفاف في حلقه وبتشوش في ذهنه. رأى جراح النجوم في السماء الصافية. رفع ياقة المعطف العسكري. كان البرد فظيعاً.

أقام موقع حراسة عند مدخل الشاليهات وأرسل دورية من ثلاثة رجال للتجول في شوارع الحي القليلة. اختبأ عند ناصية، تحت إفريز بناء، وراح ينظر كيف يمضي الليل. وبين شرفتين بيضاوين، وجد شبح العليّة. كانت إيفيتا هناك، ولم يكن متحمساً للصعود ورؤيتها. لا بد أنهم يتابعونه. لا بد أن كوماندو الانتقام يقولون: أينما يذهب يجب أن تكون هي. كيف يدعونها؟ كان الكولونيل مذهولاً من كثرة التسميات التي يطلقها الناس عليها: السيدة، القديسة، إيفيتا، أمي. هو أيضاً كان يدعوها أمي عندما يهيمن القنوط على قلبه. أمي. إنها هناك،على بُعد خطوات، ولا يمكنه لمسها. مرّ مرتين أمام شاليه المجنون. كان هناك نور في الأعلى: أزرق، باهت، نور أبخرة. أم أنها أفكار؟ نهرٌ من الأصوات كان يأتيه من مكان ما دون أن يدري من أين: «هذا هو نور الذهن، بارد وبلاتيني. أشجار الذهن سوداء. النور أزرق».

أمسك أحدهم بذراعه عند الفجر. وقد كان المجنون. بدا مستحماً للتو. شعره يلمع تحت طبقة رقيقة من مادة صمغية طازجة.

– سأتولى المناوبة بدلاً منك يا سيدي الكولونيل ـ قال ـ لقد انتهى كل شيء.

– ما الذي تفعله هنا يا أرانثيبيا؟ عليك أن تكون في بيتك للعناية بها.

– إنها تعنى بنفسها. لا تحتاج إلى أحد. إنها تبدو أكثر حيوية في كل يوم.

لم تكن المرة الأولى التي يقول فيها ذلك: «تبدو أكثر حيوية في كل يوم». إنها عبارات خاصة بهذه البلاد، هكذا كان يفكر الكولونيل. لا يمكن أن يسمع في بلاد أخرى: «كل يوم يبدو أكثر حيوية. كل يوم يغني أفضل من قبل».

– كيف تعرف أن كل شيء قد انتهى؟ ـ سأله.

– اتصلت بالقائد العام. لا توجد مقاومة. لقد أعدموا خمسة عشر شخصاً رمياً بالرصاص. لن يبقى أحد حياً. الرئيس يريد أن يقدم عبرة.

– هذا أفضل. فليقتلوهم جميعاً – قال الكولونيل. دس يديه في جيبيّ المعطف. أحس بثقل الظلمة في حنجرته الظامئة. ولم يكن قد تبقى له صوت تقريباً عندما تكلم ثانية: ـ ربما يتوجب علينا أن ننقل الجسد يا أرانثيبيا. فقد يكونون قد عرفوا أنه موجود هنا.

– لا أحد يعرف ـ قال المجنون ـ إنها المرة الأولى التي لم يجدوه فيها منذ شهور. لم تظهر زهرة واحدة، ولا شمعة واحدة.

ظل الكولونيل صامتاً هنيهة.

– معك حق ـ قال أخيراً ـ إنهم لا يعرفون مكان الجسد.

كم من الوقت مضى منذ ذلك الحين.. شهر، أربعون يوماً؟ لقد مرض قلبه من شدة افتقادها. وماذا في ذلك كله: لم تعد كثرة الأسى تنفع. وفي لحظة لم تكن في البال حدث الأمر الرهيب.

أكثر من مرة حاول الاستسلام وهو يقرأ ما تبقى من تلك القصة كما روتها مرغريتا هيريديا دي أرانثيبيا، زوجة أخي المجنون وأخت زوجته: أختان متزوجتان من أخوين. كان يواصل قراءة ما يكاد يحفظه عن ظهر قلب. فقد قدمت مرغريتا أو مارغوت إفادتها طوال أكثر من ثلاث ساعات أمام القاضي العسكري، وملخص روايتها المطبوع على الآلة الكاتبة موجود في بطاقاته. وكان الكولونيل قد دون على هامش الورقة الأولى تفصيلاً لفت انتباهه: في كل مرة تشير الشاهدة إلى نفسها تتكلم بصيغة الجمع. وحيث هو مكتوب «مارغوت وأختها»، يجب أن تُقرأ «أنا وأختي»، أو «أنا وإيلينا». كان أمراً شديد الغرابة. وفي الجمل الأخيرة من إفادتها فقط، تنزلق مرغريتا نحو أناها بشيء من الخجل، كما لو أنه لم تعد تثقل عليها فكرة عودتها لأن تكون هي نفسها من جديد.

البطاقة 1

«عاشت مارغوت وأختها إيلينا في أسرة سليمة جداً: أسرة آل هيريديا. كلتاهما تنحدران مباشرة من أليخاندرو هيريديا، أحد أكثر حكام مدينة توكومان تنويراً. وقد تربتا على مخافة الله، وحب الوطن، وصون البيت قبل أي شيء. وعلى ضوء هذه القيم وحدها يمكن فهم سبب حدوث ما حدث.

«كانت مارغوت هي من تزوجت أولاً. اختارت شاباً عسكرياً طيباً ومثقفاً، أصله من سنتياغو، وكانت سعيدة معه خلال السنتين الأوليين من الزواج. الشائبة الوحيدة في علاقة الزوجين تمثلت في أن الزوج، ارنستو أرانثيبيا، وكان نقيباً آنذاك، يرفض إنجاب أبناء وتكوين أسرة. خامرت الشكوك مارغوت التعيسة جداً، وقامت ببعض التحريات. وعلمت حينئذ أن اثنين من أخوال ارنستو مختلان ذهنياً وأنهما نزيلا ملجأ للمتخلفين. وعلمت كذلك أن أخا ارنستو الأصغر، ويدعى إدواردو، قد أصيب بمرض السحايا وهو في الشهر السابع من عمره وأنه مازال يعاني عقابيل نفسية. فاستنتجت مارغوت عندئذ أن ارنستو لا يرغب في إنجاب أبناء خوفاً من ولادتهم قاصرين.

«وكانت نكبة مارغوت في أنها علمت بهذه التفاصيل حين كانت أختها إيلينا مخطوبة لإدواردو أرانثيبيا، شقيق زوجها، ولم يبق سوى شهرين لموعد زفافهما. ودون أن تدري الموقف الذي عليها اتخاذه، سعت مارغوت لطلب نصيحة أمها، وكانت الأختان على الدوام على علاقة حميمة معها. وبحكمة مسيحية، قالت لها الأم إن الوقت قد فات لمثل هذا الكشف الخطير، وعليهم تجنب العداوات بين أسرة هيريديا وأسرة أرانثيبيا. وقالت: "لا أرى سبباً لأن ننكر على إيلينا المصير الذي نالته مارغوت".

«وكان إدواردو كذلك نقيباً في تلك الفترة، ويزيد في العمر اثني عشر عاماً على خطيبته. وكان قد تجاوز دون مشاكل الفحوص الطبية للمدرسة

العسكرية وعلامة السحايا الوحيدة كانت في طبعه المتبدل، يكاد يكون شاذ الطباع، وهو ما كانت إيلينا تأخذه على محمل المزاح بطيب نية. وكانت تجمع بينها وبينه حماسة كاثوليكية. فهما يشاركان في تناول خبز القربان كل يوم أحد، ويشكلان جزءاً من الميليشيا الملائكية شديدة التزمت في الالتزامات الدينية. وكانت مارغوت تخشى أن تحبل أختها إيلينا عاجلاً أو آجلاً. ولم يتأخر هذا القدر المشؤوم عن الحدوث.»

البطاقة 2

«أخبرت إيلينا زوجها إدواردو بحملها في العاشر من نيسان. وربما لتأثره بالخبر، أصيب الزوج في مساء ذلك اليوم بالذات بتشنجات فظيعة: تصلبت عضلات العين اليسرى. وشُخصت الحالة على أنها تهيج خفيف في الأم الجافية*، سببها إصابته بالسحايا في الطفولة

«وعلى الرغم من أن إدوارد قد استعاد عافيته بسرعة من الإصابة، إلا أن مارغوت لاحظت أن عينه اليسرى تتصلب حين يكون عصبياً. وقد تحوّل أيضاً إلى شخص غريب وصموت.

«وهكذا وصلنا إلى الأيام الأخيرة من شهر نيسان. وأخت مارغوت التي تفاجئها نوبات قيء واضطرابات غير ذات أهمية، أُصيبت بحالة نزف مثيرة للذعر. وقد نُصحت بالراحة التامة. أصرت أمها على مرافقتها، ولكن إدواردو عارض ذلك. وتعلل أنه سيستقبل في بيته بعض ضباط المخابرات ويفصل معهم بعض الوثائق السرية التي ستُحفظ في العلية. كان يبدو في حالة شديدة من الجزع، فما كان من إيلينا، بحاستها السادسة كامرأة، إلا أن ارتابت في أن شيئاً غريباً يحدث.

---

* الأم الجافية: إحدى السحايا الثلاث، تتألف من غشاء ليفي سطحي، ممتد من قبة الجمجمة حتى القسم المتوسط من القناة العجزية.

«وبالرغم مما وعد به إدواردو، إلا أنه لم يحضر لتناول العشاء في تلك الليلة. تفاقم نزف إيلينا وحاولت التكلم في الهاتف مع مارغوت أو مع أمها كي ينقلوها في سيارة إسعاف. لم تشأ البقاء مهجورة في بيتها ولو للحظة واحدة أخرى. وكيف لا يكون غمها عظيماً حين اكتشفت أن الهاتف معطل. بذلت جهدها مرتين أو ثلاث مرات للنهوض، ولكنها كانت تشعر بضعف شديد وصارت تخشى من الإجهاض. وبين الساعة العاشرة والحادية عشرة ليلاً تمكنت، أخيراً، من النوم. وبعد ساعات من ذلك أيقظتها أصوات ضجة قوية تأتي من الكراج. سمعت صوت زوجها وتعرفت كذلك على صوت الكولونيل موري كينيك. نادتهما عدة مرات بل إنها راحت تضرب على الأرضية بأربعة قوائم كرسي، ولكن أياً منهما لم يتنازل بالرد عليها.»

البطاقة 3

«شعرت بعد ذلك أنهما يقتربان. كانا يحملان شيئاً ثقيلاً ويتوقفان بعد كل خطوتين أو ثلاث خطوات. قررت إيلينا الخروج من الغرفة. تحركت ببطء وهي تمسك بطنها لوقف النزيف. وهكذا وصلت إلى الباب. حاولت فتحه، واكتشفت بيأس يمكن توقعه أنه مقفل من الخارج.

«انهارت من الضعف. ودون أن تدري ماذا تفعل، تلصصت من شق المفتاح. لقد كانت أخت مارغوت شديدة التكتم على الدوام، ولكن ذلك الوضع كان أقوى من إرادتها. رأت زوجها والكولونيل موري كينيك يحملان إلى العليّة، وبصعوبة كبيرة، صندوقاً يبدو كتابوت. وتوسلت إليهما، دون جدوى، أن يقدما إليها كأس ماء. كانت تشعر بإنهاك شديد وبجفاف فظيع في حلقها. وأخيراً أغمي عليها.

«لم تستطع مارغوت ولا أمها معرفة كم من الساعات ظلت المسكينة غائبة عن الوعي. وفي حوالي الساعة العاشرة صباحاً، اتصل بهما إدواردو من

المستشفى العسكري. فقد أدخلت إيلينا إلى المستشفى مصابة بحالة خفيفة من الجفاف، وعلى الرغم من مخاوف آل هيريديا، فقد كانت إيلينا وجنينها، والحمد لله، بعيدين عن الخطر.

«الأم التي أصابها الذعر من حالة الوهن التي وجدت عليها ابنتها، راحت تنتزع منها قصة تلك الليلة الرهيبة. ومع توغلها أكثر في التفاصيل، راح سخطها يتفاقم. ومع ذلك، عندما قالت لها إيلينا إنها لا تريد مواصلة العيش مع إدواردو وتوسلت إليها أن تعيدها إلى بيت أبويها، ذكّرتها الأم بالواجبات التي تعهدت بها أمام مذبح الكنيسة.»

البطاقة 4

«راح سلوك إدواردو يصبح أكثر غرابة مع مرور الأسابيع. فقد صار يقضي ساعات طويلة في العليّة، وراء باب مقفل، وحين يرى إيلينا لا يتنازل حتى بسؤالها عن صحتها. وكانت هي أيضاً قد تغيرت. فقد استثار فيها الجزع رغبة متواصلة في أكل الحلويات. فتحولت إلى بدانة صارت تبدو معها امرأة أخرى.

«في شهر أيار استحوذ على إدواردو هوسٌ بالفرعونيات. ملأ البيت بدراسات حول موميات المتحف البريطاني وبدأ ينهض في منتصف الليل ليؤشر إلى فقرات من *كتاب الموتى*. ولاحظت إيلينا أن المقاطع المؤشر إليها تتحدث عن كيفية تقديم الطعام لأجساد صارت في العالم الآخر وكيفية تزيينها بالحلي. وقد صار إدواردو أشد غرابة خلال أسبوع ونصف أمضاهما في قراءة رواية *سنوحي المصري* لميكا فالتاري، والتي كانت رائجة قبل سنتين أو ثلاث سنوات من ذلك. وذات صباح يوم أحد، قبل قليل من الذهاب إلى الكنيسة، وبينما كان زوجها يستحم، تجرأت إيلينا على تصفح الرواية. وفي إحدى الصفحات، كان إدواردو قد كتب "هذا هو! هذا هو!" بقلم أحمر.

«والآن، يا سيدي القاضي، ترغب مارغوت في أن تقرأ بضعة سطور من تلك الرواية، كي تعرف حضرتك هاوية الجنون التي سقط فيها إدواردو أرانثيبيا.»

البطاقة 5

«أقرأ من سنوحي *المصري*، الكتاب الرابع، المعنون " Nefernefernefer "، الفصل الرابع: *وكانت بهجة المُحَنِّطين تبلغ ذروتها عندما يتلقون جثة امرأة شابة (...) ما كانوا يلقون بها إلى البئر فوراً. كانوا يضربون قُرعة حظ ويجعلونها تقضي الليل في فراش واحد منهم (...) ويبررون فعلتهم تلك بالقول إنه في إحدى المرات، خلال حكم الملك العظيم، جيء إلى بيت الموتى بامرأة استيقظت خلال تهيئتها للتحنيط، وكانت تلك معجزة (...) ولم يكن على المُحَنِّطين من واجب أشد رحمة من محاولة تكرار المعجزة بمنح الدفء بأجسادهم المخيفة للنساء اللاتي يؤتى بهن إليهم.*»

البطاقة 6

«بخجل وقلق، أخبرت إيلينا مارغوت بالقراءات المدنسة للمقدسات التي تشغل ذهن زوجها. فاستنتجت الأخت على الفور أن مفتاح ذلك السر موجود في العليّة وعرضت على أختها أن تصعد معها لتريا ما هناك. أوضحت لها إيلينا أن ذلك مستحيل: لقد أقفل إدواردو الباب بقفلين وهو وحده من يملك مفتاحيهما. كما أنه حظر عليها الصعود بصورة قاطعة. " ربما يخبئ هناك امرأة أخرى"، قالت مارغوت لأختها دون أن تفكر في ما يمكن أن تعنيه هذه الكلمات. " ربما يخبئ هناك رسائل حب أو من يدري أية أشياء مخزية أخرى." سبب هذا التلميح ألماً عظيماً لإيلينا، ولكنه استثار فيها أيضاً الرغبة في تكشف ذلك السر بأسرع ما يمكن. فقالت لأختها: "ساعديني يا مارغوت. لقد بدأت تدور في رأسي كل أنواع

الأفكار. بل إنني صرت أخشى أن يكون إدوادرو مثل ذي اللحية الزرقاء».

«قررت مارغوت أن تستشير مصلح أقفال في المدرسة العسكرية، وبمساعدته حصلت على نسخة من نوعية القفلين. كان المفتاحان كبيرين وثقيلين ولهما فرضات محدبة، وقد استغرق الصانع حوالي أسبوع قبل أن يتمكن من ضبطهما جيداً.

«صارت الأختان جاهزتين للصعود إلى العليّة في يوم 2 أو 3 تموز. وخلال اعترافها أمام الكاهن يوم الأحد، وكان أول يوم قداس، قررت إيلينا أن تروي قصتها كلها لمرشدها الروحي، وهو كاهن عجوز جداً من أتباع القديس فرانسيسكو دي ساليس. وقد أصر الكاهن على وجوب طاعتها لزوجها وألا تُخرج سراً بمثل تلك الأهمية إلى العلن. خرجت إيلينا من حجرة الاعتراف تمزقها الشكوك، وفي يوم الأحد ذاك طلبت النصح من أمها. جرى جدل طويل. وقد وافقت الأم على أنه من الضروري تحري الحقيقة لأنه يمكن لإيلينا أن تُلحق الأذى بحملها إذا ما ظلت في ذلك التوتر العصبي. وألحت مارغوت، التي كانت متفقة مع رأي الأم، على أنه لا يمكن لأختها أن تصعد وحدها إلى العليّة وعرضت عليها مرة أخرى أن ترافقها. لم تكن إيلينا تتوقف عن البكاء وتكرير الأمر الذي وجهه إليها كاهن الاعتراف.»

البطاقة 7

«كثير من الخرِّق الوسخة خرجت إلى ضوء الشمس خلا ل الحديث الذي دار بين أفراد أسرة هيريديا في يوم الأحد ذلك. عرفت مارغوت أن إدواردو تلقى مرة أو مرتين زيارة الدكتور بيدرو آرا، وهو دبلوماسي وطبيب إسباني له شهرة عالمية كمُحَنِّط. وكان الاثنان يعتكفان عدة ساعات في العليّة، وفي إحدى المناسبات قاما بغلي محاقن وأدوات طبية أخرى. وقد

أحست بالذعر عندما سمعت هذه القصة. ومهما قلّبت الأمر لم تتمكن أن تتصور ما الذي كان يُحاك.

«وأخيراً، وبعد سماعها توسلات الأسرة، وافقت إيلينا على التحري عما يحدث، ولكنها وضعت شرطاً لا رجعة عنه: ستصعد إلى العليّة وحدها. وتريد أن تقرر بنفسها، بمساعدة كاهن اعترافها فقط، كيف ستواجه إدواردو إذا ما اكتشفت وجود عشيقة له.

«كانت الأيام التالية أيام قلق رهيب بالنسبة لمارغوت. فقد راودتها هواجس خبيثة. وذات ليلة قالت لزوجها ارنستو: "يبدو لي أن إيلينا وإدواردو لن يواصلا حياتهما معاً". ولكنه لم يوجه أية استفسارات.

«وهكذا وصلنا إلى يوم الجمعة 6 تموز 1956. في تلك الليلة كان على إدواردو أن يؤدي مناوبته الأسبوعية في مقر المخابرات. إنها مناوبة من اثنتي عشرة ساعة، تبدأ في الساعة السادسة مساء. ويمكن لإيلينا أن تستفيد من الليلة كلها من أجل الصعود إلى العليّة. كانت قد خبأت المفتاحين في صدارها، حتى إنها كانت تنام وهما معها. إنه أفضل مكان، لأنها لم تعد تقيم علاقة مع زوجها منذ تم التأكد من حبلها. ولكنها كانت تشعر بالخوف على كل حال. ففي أكثر من مناسبة كان إدواردو يحضر فجأة إلى البيت خلال مناوباته، وكان ينزوي في العليّة دون أن يقول شيئاً. فكرت إيلينا في التصرف بسرعة. لن تتأخر أكثر من ساعة في تفحص الخرائط القديمة والصندوق الخشبي. هذا ما قالته لمارغوت في آخر مرة تحادثتا هاتفياً.»

البطاقة 8

«لن يمحى منتصف تلك الليلة إلى الأبد من ذاكرة مارغوت. كانت تنام في بيتها بشارع خورامينتو، حيث مازالت تعيش، عندما أيقظها رنين الهاتف.

«كان المتصل إدواردو. وكان يتكلم بصوت مريض، متحلل. "لقد وقع حادث مأساوي"، قال ذلك لأخيه، وأضاف: "تعال إلى بيتي الآن فورا. لا أريد أن يرافقك أحد. لا أحد."

«كانت مارغوت تلصق أذنها بسماعة الهاتف، فبدت كمن أصابها مس من الجنون. "اسأله عما حدث" قالت لزوجها.

«"إيلينا، إيلينيتا، هناك مأساة، إنها جريحة"، قال إدواردو وهو يبكي، وقطع الاتصال.

«وبالطبع، قدم ارنستو على الفور تقريراً للكولونيل موري كينيك، وهو قائد إدواردو المباشر، وارتدى ملابسه ليخرج. فألحت مارغوت على الذهاب معه وقلبها مثقل بالخوف على أختها. بدت الرحلة حتى شارع سافيدرا أبدية. ولدى وصلهما، فكرا في أنهما ربما حلما بالمكالمة الهاتفية، لأن الشاليه كانت مظلمة ويخيم عليها صمت مطبق. ولكن لا يمكن لشخصين أن يحلما الحلم نفسه، حتى لو كانا زوجين. كان الباب المؤدي إلى الشارع مفتوحاً. وفي الطابق العلوي، كان إدورادو يحتضن بيأس جسد إيلينا الذي فارقته الحياة.

«ما حدث في الواقع سرّ حملته أخت مارغوت معها إلى القبر. يظن الجيران أنهم سمعوا جدلاً، صرخات، ودوي رصاصتين. غير أنه لم تكن في جسد إيلينا سوى رصاصة واحدة اخترقت حنجرتها. اعترف إدواردو أنه هو من أطلق الرصاص. قال إنه في ظلمة العليّة أخطأ بالظن أن إيلينا لص. وكان ندمه يبدو مخلصاً وقد سامحته أسرة هيريديا. لكن ما رأته مارغوت في تلك الليلة كان شيئاً لا يُصدق دفعها إلى الشك في كل شيء: الشك بحواسها، الشك بانفعالاتها، والشك كذلك، طبعاً، بالرجل الذي مازال صهرها.»

البطاقة 9

«بينما كان ارنستو يحاول إنعاش أخيه إدواردو، رأت مارغوت وميض نور أزرق في العليّة وحاولت إطفاءه. ولكنها لم تستطع بالرغم من تحريكها مفتاح النور عدة مرات: لقد ظل البريق موجوداً. قررت عندئذ الصعود. كان الدرج مغطى بالدم، وكان على مارغوت أن تلتصق بالجدار كيلا تنزلق. وفكرت في تلك اللحظة أن واجبها الأول تجاه أختها المتوفاة هو تنظيف الدم، ولكن ما رأته في العليّة أنساها تماماً تلك المهمة المسيحية التي نوت القيام بها،

«كان الوميض الأزرق ينبثق من الصندوق الخشبي ويعكس هيئة شفافة وشديدة التشابك، تبدو أشبه بدانتيلا شبحية أو شجرة جرداء. والدكتور آرا الذي زار بيت إيلينا في ذلك اليوم بالذات استنتج أن ما رأيتُه، أن ما رأته مارغوت، لم يكن نوراً وإنما هو خريطة المرض المدعو سرطاناً، ولكنه لم يتمكن من إيجاد تفسير لنوع القوة التي تُبقي تلك الهيئة في الهواء. كانت تتبعثر حول الصندوق آلاف الأوراق واللفات، وكانت كلها ملطخة ببقع من الدم. اقتربتُ مذعورة. أتذكر أن فمي كان جافاً وأنني فقدت صوتي فجأة. عندئذ رأيتها. لقد رأيتها للحظة فقط ولكنني أشعر كما لو أنني مازلت أراها وأن الرب حكم عليّ بأن أظل أراها إلى الأبد.

«مذ رأيتها عرفتُ أنها إيفيتا. لست أدري لماذا أخذوها إلى بيت إيلينا ولا أريد معرفة ذلك. لم أعد أدري ما الذي أريد معرفته وما الذي لا أريده. كانت إيفيتا مسجاة في الصندوق، وكانت عيناها مطبقتين. الجسد العاري تماماً كان أزرق، ليست زرقة يمكن وصفها بكلمات وإنما زرقة شفافة، زرقة ضوء نيون، زرقة ليست من هذا العالم. وإلى جانب الصندوق مقعد خشبي لا يمكن استخدامه إلا في السهر على الميتة. وكانت هناك أيضاً لطخات بقع، لا أدري... بقع قذارات، وليسامحني الرب، لقد كان إدواردو مع الجثة طيلة تلك الأسابيع.

«الواقع نهرٌ. الأحداث تصل وتختفي. كل شيء يحدث مثل ومضة، في ثوان قليلة. سقطتُ غائبة عن الوعي: أعني أن مارغوت سقطت. ثم

استيقظت في الحجرة المظلمة، كان النور الأزرق قد تلاشى، وكانت يداها وملابسها مغطاة بالدم.

«نزلت على تلك الحال واغتسلت كيفما استطاعت. لم تكن لديها ملابس لتستبدل ثوبها، فارتدت ثوباً كان لإيلينا من صوف ناعم مع زينات من المخمل. ومن الحمام سمعت صوت الكولونيل موري كينيك حين وصل. وسمعت كذلك زوجها ارنستو يقول: "يجب عدم نقل هذه القصة وعدم خروجها عن نطاق الجيش". وسمعت موري كينيك يصحح له: "هذه القصة يجب ألا تخرج *من هذا البيت*. لقد أطلق الرائد أرانثيبيا النار على لص. هذا هو كل شيء: على لص". كان إدواردو ينتحب. وحين رآني بثوب زوجته شحب لونه وتلعثم: "إيلينا". ثم قال: "إيليتا". دنوت منه، وكرر: "إيفا، إيفيتا" كما لو أنه يناديني. كانت عيناه ثابتتين على لا شيء، وكانت كينونته قد غادرته. وظل طيلة الليل يكرر تلك الترتيلة: "إيفيتا، إيليتا".

«طلب مني الكولونيل موري كينيك أن أنظف جسد أختي وأن أهيئه للتسجية والتكفين. بكيتُ وأنا أفعل ذلك. داعبت بطنها، ونهديها المنتفخين. كان بطنها يغور منحياً بثقل الجنين الميت. كانت قد تصلبت تقريباً وقد تكلفتُ مشقة في فتح أصابعها كي أتمكن من مشابكتها على صدرها. وعندما تمكنتُ من فتح يدها أخيراً، وجدت أنها كانت مطبقة على مفتاحي العليّة، وكان المفتاحان ملطخين بالدم كما في قصة اللحية الزرقاء.»

خلال أسابيع السهر والتحريات التالية، طرأ تبدل على جسد الكولونيل. ظهرت له أكياس قاتمة تحت العينين وعقدتا دوال عند الكاحلين. وبينما هو ينقل المتوفاة من مكان إلى آخر كان يشعر بحالات دوار وبحموضة تمنعه من النوم. وكلما رأى نفسه منعكساً على زجاج نوافذ مكتبه يتساءل لماذا، ويقول لنفسه ما الذي يحدث لي. في الثاني والعشرين من كانون الثاني سأكمل أربعين عاماً. الرجل الذي يتحول إلى عجوز وهو

في مثل سني، إما إنه لا يعرف كيف يعيش أو إنه يرغب في الموت. أنا لا أرغب في الموت. هذه المرأة هي التي تريد أن تراني ميتاً.

لقد حاول طيلة ليل السادس من تموز أن يخفي الجريمة. وعند الفجر أدرك أنه لن يتمكن من ذلك. فالجيران قد سمعوا جدلاً بين إيلينا وإدواردو وبعد ذلك دوي طلقتين. الجميع يتحدثون عن طلقتين ولكن الكولونيل لم ير سوى أثر طلقة واحدة: الرصاصة التي كانت في فجوة حنجرة إيلينا.

– لم يعرف أحدٌ قطّ حقيقة ما جرى ـ قال لي ألدو ثيفوينتس بعد أربعين سنة تقريباً ـ لقد تكوّنت لدى موري كينيك فكرة حول ما جرى، ولكن كانت تنقصه بعض قطع البزل. كان الخطأ في ترك المتوفاة في عليّة أرانثيبيا. فقد راح الجسد الجامد يغوي المجنون يوماً إثر يوم. لم يكن يفكر إلا في العودة إلى بيته كي يتمكن من تأملها. لقد عراها. ووضع إلى جانب الصندوق مقعداً خشبياً، ومن يدري ما الذي كان يفعله هناك. لا بد أنه كان يتمعن في تفاصيل الجسد: الرموش، انحناءة الحاجبين الرفيعين، أظفار القدمين التي مازالت مطلية بطلاء شفاف، السرّة البارزة. وإذا كان قد شعر من قبل بأنها تتحرك، فربما صار يظن وهو على انفراد معها أنها حية. أو أنه كان ينتظر أن تنبعث حية، مثلما تشير قراءاته لرواية *سنوحي المصري*.

لقد صرح الجيران أن مشادة صراخ جرت بين الساعة التاسعة والعاشرة. رائد متقاعد يسكن قبالة بيت أرانثيبيا سمع المجنون يقول: «لقد أمسكتُ بك أيتها العاهرة!». وسمع إيلينا تبكي: «لا تقتلني، سامحني». في الساعة السادسة صباحاً وصل القاضي العسكري. وفي الساعة السابعة أمر وزير الجيش بأن يقوم الدكتور آرا بفحص الجثة. لم يلحظ المُحنِّط شيئاً غير عادي. فقد حضر قبل أسبوع إلى الشاليه، وحقن محاليل تيمول في الشريان الفخذي. غضب موري كينيك من آرا لأنه لمس المتوفاة دون إذن منه ودون معرفته. فأوضح له المُحنِّط: «الرائد أرانثيبيا قال لي إن حضرتك طلبتَ ذلك. وقال لي إن وضعية الجسد تتبدل عندما تتركونه

وحيداً وإنكم لا تعرفون السبب. أجريت فحصاً دقيقاً للجثة. كانت بها بعض التشققات البسيطة، لاحظتُ أنها تعرضت لكثير من الاهتزاز. ولكن لم يطرأ عليها، من حيث الجوهر، أي تبدل منذ انتزعتموها مني.» كانت نبرته، كالعادة، وقحة وناهشة. وقد كبح موري كينيك نفسه كيلا يوجه إليه لكمة. خرج من بيت الجريمة باكتئاب فظيع. وفي الساعة العاشرة اتصل هاتفياً بثيفوينتس ليدعوه إلى الشرب معه. كان صوته مشوهاً من الكحول وفي منتصف جملة ابتعد عن السماعة وتلعثم ببلاهات: «إيفينا، إيليتا».

وخلال السهر على جثمان إيلينا وصلوات الأيام التسعة من أجل راحة نفسها، ظل جسد إيفا بيرون في العليّة، محمياً بأكوام من الحزم والوثائق. كانت هناك ميتتان في البيت، ولكن أحداً لا يمكنه التحدث عن أي منهما. كانت الوقائع تتقدم على غير هدى، كما لو أنها تبحث عن مكان ولا تجد لها متسعاً. في يومي 17 و18 تموز أُخضع إدواردو أرانثيبيا للمحاكمة في محاكم الجيش. وقد شجعه محامو الدفاع دون طائل كي يتوسل الرحمة: لم يتكلم، لم يطلب الاعتذار، لم يجب عن أسئلة القاضي الملحة. وعند غروب اليوم الثاني فقط شكا من نداءات في رأسه. صرخ دون احترام: «تؤلمني النداءات! إيفينا، إيفانا، أين اختبأتِ؟». جرى إخراجه بالقوة. ولم يكن موجوداً في القاعة عندما حُكم عليه بالسجن المؤبد في سجن مجدلينا. وبدافع اللياقة أو هواجس السرية، قرر القاضي حفظ ملف القضية تحت عنوان زائف: *جريمة قتل في حادث*.

في تلك الأيام عادت المتوفاة إلى تيه تجوالها الذي يسبب لها ضرراً كبيراً: تنقل من شاحنة إلى أخرى، في شوارع لا تكون هي نفسها أبداً. يجولون بها دون وجهة محددة عبر المدينة الملساء اللامتناهية: المدينة التي بلا عوارض ولا ثنايا. ولأن الكولونيل لم يعد يبتعد عن جحيمه الكحولي، فقد تولى النقيب ميلتون غالارثا زمام جهاز المخابرات: وضع خطط تنقلات المتوفاة، اشترى لها ثوباً جديداً، بدل نظام الحراسة. في بعض الأحيان،

عندما كان يرى الشاحنة وفيها الجسد تحت نوافذ مكتبه، يحييها بنفخ في الكلارينيت يزعزع موزارت أو كارل فون فيبر. في صباح أحد الأيام أخبروه بأنهم وجدوا شموعاً بالقرب من سيارة الإسعاف التي فيها الجسد. يمكن أن تكون مصادفة: فهي ثلاث شموع قصيرة، مشتعلة أسفل تمثال في ساحة رودريغث بينيّا. جنود الحراسة الذين صاروا يعرفون العلامات، لم يسمعوا شيئاً غير عادي. ومع ذلك، قرر غالارثا أن الوقت قد حان لاستبدال «صندوق العدة». أمر بشراء صندوق من خشب الصنوبر، بلا زينات ولا مقابض، وأمر أن يُكتب على جانبيه بحروف مركبة: «أجهزة إذاعية. ل.ف.2 صوت الحرية».

وفي مكتبه، كان الكولونيل يستسلم أكثر فأكثر للكآبة، للإحساس بالضياع. فمنذ بدأ يتلقى في بيته رسائل مغفلة واتصالات تهديد، لم يعد يقترب من إيفيتا. لم يعد قادراً على ذلك. «إذا ما رأيناك معها سنقطع خصيتيك»، هذا ما كانت تقوله الأصوات في الهاتف. ولم تكن الأصوات نفسها قطّ «لماذا لا تتركها بسلام؟» تكرر الرسائل. «إننا نتابعك ليلاً ونهاراً. ونعرف أنك حيث تكون، تكون هي أيضاً.» وكانوا يُصدرون له أوامر: «نمنحك مهلة حتى 17 تشرين الأول كي تسلم الجسد للاتحاد العام للعمل»، «نمنعك من أخذها إلى مقر مخابرات الجيش». ما كان يطيق الانصياع، ولكنه كان ينصاع مع ذلك. كان يفتقدها. ويفكر: لو أنها قريبة مني لما أحسست بكل هذا الظمأ. لم يكن هناك ما يرويه.

لقد بدّل رقم هاتفه ثلاث مرات، ولكن العدو كان يجده دوماً. في فجر أحد الأيام اتصل صوت نسائي، فقدم سماعة الهاتف بذهول إلى زوجته. فأفلتتها صارخة.

– ماذا قالت لكِ ـ سألها ـ ماذا يريد أبناء العاهرة؟

– تقول إنهم اليوم، في الساعة الثانية عشرة، سيفجرون بيتنا. وإنهم سمموا حليب ابنتنا. وإنهم سيقطعون حلمتيّ ثدييّ.

– لا تعيريهم اهتماماً.

– يريدون منكَ أن تعيد إليهم المرأة.

– أي امرأة؟ أنا لا أعرف أية امرأة.

– الأم، هذا ما قاله الصوت. وقال: القديسة إيفيتا. أمي.

في الساعة الثانية عشرة انفجر إصبع ديناميت على قرص الدرج. تطايرت النوافذ والأواني الخزفية وأواني الطعام. وجرحت شظايا الزجاج وجنة الابنة الكبرى. كان عليهم أن ينقلوها إلى المستشفى: اثنتا عشرة غرزة خياطة. كان يمكن أن تشوهها دون خلاص. لقد سببت له «شخص» ضرراً أكثر من أي كان، ومع ذلك يفتقدها. لا يتوقف عن التفكير فيها. مجرد تذكرها يُشعره بالاختناق، بتشنج في الصدر. في منتصف شهر آب هبت عاصفة مستبقة فصل الربيع وقرر الكولونيل أن خضوعه الطويل للقدر لم يعد له معنى. حلق ذقنه، استحم في مغطس لأكثر من ساعتين وارتدى البدلة العسكرية الوحيدة المتبقية لديه دون تدشين. ثم خرج بعد ذلك إلى المطر. كانت المتوفاة ما تزال متوقفة في شارع الباراغواي، قبالة كنيسة الكارمن. وكان جنديان يحرسان الشارع، وجنديان آخران يحميان التابوت داخل سيارة الإسعاف. أمرهم الكولونيل بالصعود إلى السيارة وقادها حتى ناصية شارع كايّاو مع شارع فيامونتي. ترك «شخص» هناك، أمام ناظريه، تحت مكتبه.

والآن، قال لنفسه، لن يكون هناك عدو قادر على مواجهتي. وقد أكد لثيفوينتس الذي زاره في ذلك المساء أنه قد طوق سيارة الإسعاف بسياج من خمسة عشر رجلاً: ستة يغطون ست زوايا مختلفة من نوافذ المبنى، وواحد ينتظر مختبئاً تحت هيكل السيارة وسلاحه النظامي جاهز، والآخرون يرابطون في الشارع وداخل السيارة، في المقدمة وفي الخلف.

– ظننتُ أنه قد جُنّ ـ قال لي ثيفوينتس ـ ولكنه لم يكن مجنوناً. كان يائساً. قال لي إنه سيروض المهرة قبل أن تقضي هي عليه.

هكذا انتظر. وهو يرتدي الزي العسكري ويجلس بجوار النافذة ونظره مصوب إلى سيارة الإسعاف ودون تذوق قطرة واحدة من الخمر: انتظر ليلة

ليل 15 آب والنهار الهادئ الذي تلاه، دون أن يحدث شيء. انتظر وهو يشتاق إليها ويكرهها في آن واحد، متأكداً من أنه سينتصر عليها أخيراً.

وعند غروب يوم الخميس 16 كانت الغيوم قد انقشعت وخيم على المدينة هواء متصلب، جليدي، يقرقع عند اختراقه. وقبل الساعة السابعة بقليل مرّ من شارع كايّاو موكب سان روكي. كان الكولونيل يقف قبالة النافذة عندما حوّلت الدوريات الشرطية حركة المرور باتجاه الشرق وسمع موسيقى التومبونات الدينية. كان تمثال القديس وكلبه يرتفعان قليلاً فوق تموج مسوح الكهنة السوداء والبنفسجية. وكان المشاركون في الموكب يحملون شموعاً، وأكاليل زهر، وأحشاء من الفضة. «ما الذي تكسبه من إضاعة الوقت»، قال الكولونيل. وتمنى لو يهطل المطر.

كانت واحدة من تلك اللحظات التي يكون فيها المساء متأرجحاً وغير مؤكد، حسب ما قاله لي ثيفوينتس. فالضوء يتأرجح بين الرمادي والأرجواني والبرتقالي مثل بقرة مجنونة. وكان موري كينيك يرجع إلى منضدة مكتبه ليراجع بطاقات مارغوت أرانثيبيا عندما أوقفته فجأة ضجة أبواق. وفي الخارج، كان غالارثا يُصدر أوامر بصوت أجش لا يفهم الكولونيل منه كلمة واحدة. كان الجنود يركضون كالعميان في الشارع. انغرس نذير شؤم في حنجرته، كما أخبرني ثيفوينتس. فقد كان موري كينيك يحس على الدوام بالنذر في تجاويف جسده كما لو أنها إبر أو حروق. نزل مسرعاً إلى الشارع. وصل إلى ناصية كايّاو في الوقت المناسب كي يرى، في ظلمة الليل المفاجئة، ثلاثاً وثلاثين شمعة قصيرة تلمع في صف، أسفل الواجهة. كانت تبدو من بعيد كأنها زبد أو أثر مرور سفينة. وفي مدخل إحدى البنايات وجد إكليلاً جنائزياً من أزهار الجلبان البري واللاتنسيني، تخترقه شريطة عليها كتابة بحروف مذهبة. وقرأ باستسلام الرسالة المتوقعة: *القديسة إيفيتا، أمنا. كوماندو الانتقام.*

بعد نصف ساعة من ذلك كان النقيب غالارثا قد أنهى استجوابه السريع للكهنة الذين يترأسون الموكب والراهبات ذوات المسوح البنية

اللاتي يتبعنهم. تنويم التراتيل وحركة البخور أغشت أبصار الجميع. فهم لا يتذكرون شيئاً خارجاً عن المألوف: لا شيء من القرابين الجنائزية أو الشموع غير تلك التي تباع في الأبرشيات. وفي جادة قرطبة، قالوا، كان عدد قليل من المشاركين في الموكب قد تخلفوا لمساعدة راهبة مستنفدة، ولكن مثل هذه الأمور تحدث بكثرة في المواكب الدينية. وليس هناك من يتذكر ملامح أحد منهم.

بدا الكولونيل خارجاً عن طوره. دخل مرتين إلى سيارة الإسعاف وواجه «شخص» بصوت هادر ومتقطع من الغضب: «ستدفعين الثمن، سأجعلك تدفعين الثمن». وقد سمعه فيسكيت يردد لعنات بالألمانية، ولكنه لم يحفظ منها سوى سؤال يبدو توسلاً: «*Bist du noch da?*»، وبعد ذلك: «*Keiner geht weiter*»*

كان يمشي من جانب إلى آخر ويداه وراء ظهره، يشد معصميه بقوة جليدية، غير عابئ بالبرد الذي كان شديداً أيضاً. وأخيراً توقف. استدعى غالارثا.

– اصعدوا بهذه المرأة إلى مكتبي ـ قال آمراً.

نظر إليه النقيب باستغراب. كانت شفته السفلى مشقوقة في منتصفها، ربما بفعل البرد، هكذا فكر موري كينيك وقد فاجأه أن يأتيه مثل هذا النوع من الأفكار في لحظات التوتر؛ وربما يكون البوق الكلارينيت هو السبب.

– وماذا عن السر يا سيدي الكولونيل؟ سأله غالارثا ـ سوف نخرق الأنظمة.

– أي سر لعين ـ أجابه موري كينيك ـ العالم بأسره صار يعرف. اصعدوا بها.

– سينزعجون في القيادة العامة ـ نبهه غالارثا.

---

* «أما زلتِ هناك؟» وبعد ذلك: «لن تذهبي أبعد من هذا».

– لم يعد يهمني شيء. فكر في كل الأذى الذي سببته هي لنا. تذكر امرأة أرانثيبيا المسكينة.

– ستتسبب لنا بأذى أكبر إذا أدخلناها داخلاً.

– اصعد بها أيها النقيب. أنا أعرف ما أفعله. اصعد بها الآن.

كان الصندوق خفيفاً، أو أنه يبدو أخف من ألواح خشب الصنوبر التي صُنع منها. وكان المصعد يتسع له واقفاً، وبهذا الوضع صعد أربعة طوابق، حتى مكتب الكولونيل. وضعوه تحت مجموعة جهاز الاستقبال، ماركة غرينديك، ذات اللون العسلي الفاتح أيضاً. الأشياء الثلاثة المجتمعة في تلك الجهة من الحجرة لا تدري ما يفعله كل منها مع الآخر، كمن يريد أن يصفق ولا يجد يده الأخرى: في الأعلى الرسم بقلم الرصاص لكانط في كينيكسبرغ، وتحته مجموعة جهاز غرينديك التي لم يدشنها أحد، وتحتها صندوق «ل. ف 2 صوت الحرية» الذي تقبع هي فيه بصوت غير مسموع ولكنه حاسم، وبيل، وأكثر حرية من أي صوت حي. ظل الكولونيل لبعض الوقت يتأمل ذلك الحد الواضح في الحجرة بينما الخمر ينزل في حلقه كشلال سريع. كل شيء على ما يرام، أجل، لا شيء متنافر للوهلة الأولى، لا شيء سوى خيط نحيل من رائحة كيماوية يصعد بين حين وآخر، وهو يعرفه جيداً. من سينتبه لذلك. كان يشعر بظمأ لرؤيتها، بظمأ للمسها. أقفل الباب بالمفتاح وسحب الصندوق إلى مكان في الغرفة كان فارغاً على الدوام. فتح الغطاء ورآها: مشعثة قليلاً ومنكمشة بسبب الصعود في المصعد، ولكنها مخيفة أكثر مما كانت عليه قبل أربعة شهور، حين تركها في عليّة المجنون. وبالرغم من أنها جليدية، إلا أن «شخص» تتدبر أمرها لتبتسم وهي ممددة على جانبها، كما لو أنها على وشك أن تقول شيئاً رقيقاً ومرعباً في آن واحد.

– ما أنتِ إلا براز ـ قال لها الكولونيل ـ لأنكِ ذهبت طيلة هذا الوقت.

كان يشعر بمرارة: نحيب غير مناسب كان يصعد من حنجرته ولا

يدري كيف يكبحه.

- هل ستبقين يا إيفيتا؟ - سألها - هل ستطيعينني؟

رمشَ الوميضُ الأزرق من أعماق «شخص»، أو ظن أنه رمشَ.

- لماذا لا تحبينني؟ - قال لها - ماذا فعلت لكِ. إنني أقضي حياتي في العناية بكِ.

لم تجبه هي. كانت تبدو متألقة، ظافرة. سقطت دمعة من الكولونيل، وباغتته في الوقت نفسه نفحة كراهية.

- سوف تتعلمين أيتها الفرس - قال لها - ستتعلمين ولو بالقوة.

خرج إلى الممر.

- غالارثا، فيسكيت! - نادى.

جاء الضابطان راكضين، تراودهما الهواجس بوقوع كارثة. توقف غالارثا متجمداً أمام الباب ولم يفسح المجال لتقدم فيسكيت.

- انظرا إليها - قال الكولونيل - فرس البراز. لا تسمح بترويضها.

وقد أخبرني ثيفوينتس بعد سنوات من ذلك أن شيئاً لم يؤثر بشدة على غالارثا مثل تأثره برائحة بول سكير حريفة. «أحسست برغبة رهيبة في التقيؤ - قال لي - ولكنه لم يستطع. بدا له كما لو أنه في حلم».

ظل الكولونيل ينظر إليهما دون أن يفهم. رفع ذقنه المربعة وأمرهما:

- بولا عليها.

ولأن الضابطين ظلا جامدين، فقد كرر الأمر، حرفاً فحرفاً:

- هيا، ماذا تنتظران. قفا في الدور. بولا عليها.

ـ 12 ـ

«مزق حياتي»

إنه الآن معتقل. لقد جاؤوا في طلبه الساعة السادسة صباحاً، بينما هو يحاول حلاقة ذقنه. كانت يداه ترتعشان. وكان قد جرح أسفل ذقنه بالشفرة: الجرح عميق، ولا يتوقف عن النزف. في هذه الظروف المؤسفة اعتقلوه.

«لديك نصف ساعة كي تودع أسرتك»، قيل له. وهكذا صعد إلى شاحنة عسكرية: ثلاثة أيام من السفر على غير هدى، على طريق مستو، أبدي، بلا منعطفات. لم يكن النقيب الذي يرافقه قادراً، أو أنه لا يجدُ الحماسة لتقديم تفسيرات له.

– لا تتعجل ـ قال له ـ ستعرف ما يجري عندما نصل. الأوامر سرية، إنها من وزير الجيش.

لم تكن لديه فكرة إلى أين يأخذونه. وعند فجر اليوم الثاني، توقفت الشاحنة في أفق نباتات شوكية. كانت السماء قاتمة وجليدية. وكان يُسمع رجع البحر. بدأ رجال الحراسة، وكانوا يرتدون ملابس مدنية، بتغطية زجاج الشاحنة وهيكلها بشباك معدنية سميكة.

– سأقدم شكوى ـ قال الكولونيل ـ أنا لستُ مجرماً. إنني أحد كولونيلات الأمة. انزعوا هذه الشباك المعدنية.

– لسنا نضعها من أجلك ـ أجاب النقيب بلا مبالاة ـ إنها من أجل

الحجارة. سوف ندخل في طريق أحجار كبيرة بحجم بيض النعام. يمكن لها أن تمزقنا إذا نحن لم نحمِ الشاحنة.

وما إن انطلقوا في المسير حتى أحس بها. كانت تصفع الشباك المعدنية بفرقعة تبعث على الجنون. وعندما يتقدمون ببطء، تُسمع تيارات الريح القوية متواصلة ومسعورة.

في منتصف الليلة الثالثة دخلوا إلى صف أبنية مربعة، من الإسمنت، لها نوافذ على شكل كوى وأبواب حديدية. تركه النقيب أمام أحد الأبواب وسلّمه المفتاح.

– لديك في الداخل كل ما تحتاج إليه ـ قال ـ سيأتون غداً صباحاً في طلبك.

كان هناك سرير عسكري، ومنضدة كبيرة عليها مقلمة ودفاتر ملاحظات، ومصباح عمودي وخزانة ببابين. رأى، براحة، بدلاته العسكرية ككولونيل معلقة. كانت نظيفة، مع نجوم ذهبية مخيطة على الأكتاف. كان الهواء يعبق برائحة غبار أبدي ولجوج. حاول الخروج إلى الليل ولكن الريح في الخارج، في الظلمة الشاسعة، لم تسمح له بالتحرك. كانت تصفع لحمه المنهوك بالغبار وفتات الصوان، تهوي جسده كما لو أنه لا وجود لمكان ولا لضياء ولا لأي شيء سوى رياح تهب على ذاتها. خُيل إليه أنه يميز جبلاً مخروطياً من بعيد. نعقت بعض الطيور، ربما هي نوارس، وهو ما لم يكن مفهوماً في الليل. أحس بظمأ فظيع وعرف أيضاً أنه لا يمكن لشيء أن يرويه. وهكذا رجع إلى غرفته (أو إلى ذلك الفراغ الذي يسميه الآن غرفته)، وكان يعرف أن العزلة قد بدأت ولن تكون لها نهاية.

طرقوا عليه الباب عند الفجر. كولونيل متقاعد، لم يعرفه من قبل، أخبره أن وزير الجيش أمر بإبعاده إلى هذه الضفة من الصحراء لعدم تنفيذه أوامر عليا.

– أية أوامر؟ ـ سأله الكولونيل.

– أخبروني أنك تعرفها.

– لا أعرف شيئاً. ولكم من الوقت؟

– ستة شهور. إنه إبعاد وليس اعتقالاً. ولن يُذكر هذا الحدث في إضبارتك بعد خروجك من هنا.

– إبعاد، اعتقال ـ قال الكولونيل ـ لا فرق بالنسبة إليّ.

بدا له الوضع كله في غير محله. كان قد استوى نصف استواء في السرير الضيق مستنداً إلى وسادة رقيقة محشوة بالقنب، بينما الكولونيل الآخر يتكلم دون أن ينظر إليه. كان يُلمح من الكوة ضياء رمادي، ولكنه يتأخر أبدية في التقدم: الرمادي لا يريد التحرك، كما لو أن التململ هو الطبيعة الحقيقية للنهار.

– يمكنك التجوال حيث تشاء ـ قال الكولونيل الآخر ـ يمكنك إحضار زوجتك وابنتيك. يمكنك كتابة رسائل لهن. المطعم قريب، إنه في البناء المجاور. وجبة الفطور تُقدم من الساعة السادسة حتى الثامنة، والغداء من الثانية عشرة حتى الثانية، والعشاء من الثامنة حتى العاشرة. المناخ صحي، مناخ بحري. ستكون الإقامة أشبه بإجازة.. باستراحة.

– من هم الجيران؟ ـ سأله الكولونيل.

– حالياً لا يوجد جيران. إنك الوحيد هنا. أنا موجود هنا منذ عشرة شهور ولم أرَ أحداً باستثناء مساعدي وقائد الموقع. ولكن قد يظهر آخرون في أي وقت ـ صمت فجأة وظل هنيهة يداعب ياقة المعطف. لقد كان كولونيلاً قديماً له وجه مدور لا يُسبر غوره. يبدو فلاحاً. من يدري كم من الوقت ظل خارج الخدمة إلى أن أعاده سقوط بيرون إلى الجيش. ومن يدري، في نهاية المطاف، إن كان كولونيلاً حقاً ـ لو أنني كنتُ مكانك ـ قال ـ لجئت بزوجتي. يمكن للمرء أن يصاب بالجنون هنا. اسمع هذه الرياح. لا تهدأ أبداً. إنها هكذا طوال أربع وعشرين ساعة.

– لا أدري كيف أستدعي زوجتي ـ قال الكولونيل بضيق ـ فأنا لا أعرف حتى أين نحن الآن.

– ظننتُ أنك انتبهت إلى المكان. قبالة خليج سان خورخي، في

الجنوب. لن تفيدك معرفة ذلك. فمع هذه الرياح لا يمكن للمرء المضي بعيداً.

– لا بد من وجود مكان يمكن شراء الجن منه ـ ألح الكولونيل ـ سأحتاج بضع دمجانات.

– لستُ أنصحك بذلك. الكحول غال جداً. إنه يباع في المطعم، ولكن كل زجاجة منه تساوي عيناً من عيني الوجه.

– لدي راتبي.

– ثلث الراتب فقط ـ أوضح ذو الوجه المدور ـ الجيش يدفع بقية المبلغ للأسرة. وهذا الثلث الذي تتقاضاه يكاد لا يكفي لأكثر من الطعام، وهو غال أيضاً. فهنا لا يتم إنتاج شيء. يجب إحضار المؤن من أمكنة بعيدة جداً.

– لن آكل إذاً.

– لا تقل هذا. هواء البحر يفتح الشهية.

خرج عند الظهر ومشى بعكس الرياح. كان المطعم على مسافة أقل من خمسين متراً، تحت إعلان كبير كتبت عليه كلمة *الكانتين*، لكن كل خطوة كانت تكلفه جهداً عظيماً، كما لو أن مرساة مربوطة إلى قدميه. وجد هناك رجلاً قصيراً، مفتول العضلات، له أنف ملاكم، وقد قدم إليه حساء دقيق أخضر.

– جئني بخمر الجن ـ أمره الكولونيل.

– الكحول يباع يومي الجمعة والسبت ليلاً فقط ـ قال الرجل. وكان اليوم خميساً ـ وقبل أن تطلب أي شيء، يُفضل أن ترى الأسعار.

درس قائمة الطعام. الشيء الوحيد الذي لا يكلف مبالغ باهظة هو حساء البازيلاء ولحم الخروف.

– وماذا عن الملح؟ ـ سأله ـ كم يكلف الملح؟

– الملح والماء يقدمان مجاناً ـ قال الرجل ـ يمكنك استخدام كل ما تشاء منه.

– أعطني ملحاً إذاً ـ قال الكولونيل ـ لستُ بحاجة لأي شيء آخر

في الخارج كان الهواء هائجاً على الدوام. الريح تهب بقوة تبدو معها أنها مكونة من تآخي رياح كثيرة لا تنطفئ أبداً. وكانت رطبة وصحية، تتخللها هبات من هواء البحر وإبر عنيفة من الرمل ربما هي آتية من الصحراء. وفي الأفق يرتسم شبح الجبل المخروطي الذي لمحه الكولونيل في الليلة السابقة. وقد بدا الآن على وشك التحلل والاختفاء.

عندما رجع إلى الغرفة وجد السرير الضيق مرتباً وبملاءات نظيفة. وقد رتبوا كذلك أدوات حلاقته على رف الحمام. ووجد ملابسه موزعة بدقة على المشاجب وأدراج الخزانة. أثار حفيظته أن هناك من بلغت به الجرأة حدّ فتح الحقيبة والتصرف بمحتوياتها دون إذن منه. وبعصبية، بدأ يكتب رسالة شكوى لوزير الجيش، ولكنه توقف في منتصفها. بدا له أنه لا مفر من الكآبة والهجران المحيطين به، ورأى أنه من الأفضل أن تنقضي شهور الإبعاد الستة. لم يعد يهتم الآن إلا بالمتوفاة. لقد حاول تطويعها ولم يسمحوا له بذلك. وعاجلاً أو آجلاً، عندما تفلت هي من أيديهم، سيضطر أناس الحكومة إلى استدعائه. فهو الوحيد، في النهاية المطاف، الذي يعرف كيف يتعامل معها. لقد توصل المُحَنِّط كذلك إلى شيء من المهارة، ولكنهم لن يأخذوه في الاعتبار: فهو أجنبي، ومدني، وربما هو على تواصل سري مع بيرون.

راح شك قاتم يتسلل إليه ببطء إلى أن غمره تماماً: لقد اختُرقت أسراره. أياً يكن من أفرغ حقيبته، صار يعرف أن فيها رزمة مخطوط *رسالتي* وحزمة الدفاتر المدرسية التي سلمها القهرمان رينزي لأم «شخص»: إنها دفاترها هي، دفاتر شخص، وهي مكتوبة في عامي 1939 و 1940 وفي صفحاتها الفردية عناوين من نوع: ***الأظفار، الشعر، الساقان، الكياج، الأنف، التمرينات، نفقات المستشفى***. ولا بد أن الدخيل قد وجد أيضاً، دون ريب، البطاقات التي يدون عليها الكولونيل تحركات شعبة المخابرات. فخلال نصف الساعة التي مُنحت له كي يودع الأسرة، كان

انشغاله بتقبيل ابنتيه وجمع ملابسه أقل من اهتمامه بجمع هذه الأوراق التي من دونها يتحول إلى ضعيف، منتهٍ، إلى شخص لا وجود له. ما يمتلكه الآن هو لا شيء، وهو في الوقت نفسه كل شيء: أسرار لا يمكن لأحد أن يشاطره إياها، خيوط مفلتة لقصص لا تعني الكثير بذاتها ولكنها إذا جُمعت، وحبكها أحد يعرف كيف يفعل ذلك، تكون كافية لإشعال البلاد.

إذا ما لمسوا واحدة من تلك الأوراق، فسوف يقتل أول كائن بشري يصادفه. لا يهمه من الذي دخل إلى غرفته: لا بد أن الجميع متواطئون. لقد تركوا معه مسدسه السميث آند ويزون، ربما على أمل أن ينتحر. إنه لا يفكر في عمل ذلك: سيستخدم السلاح من أجل قتل من يعترض سبيله سيُحدث أضراراً قبل أن يضيع في الريح أو في اتساعات الخارج الشاسعة. فتش الحقيبة وقد سيطر عليه الغضب. أمر غريب، يبدو أن أحداً لم يمس الحزمة. الأوراق كلها مازالت مربوطة بالعقدة الألمانية التي لها شكل 8 والتي لا يعرف أحد سواه كيف يربطها ويحلها.

فرد بطاقات جهاز المخابرات على السرير وألقى عليها نظرة: كان من الصعب، حتى لو قرأها أحدهم، أن يتمكن من حلّ رموزها. لقد كتبها بشيفرة بسيطة، شبه بدائية، ولكن ما لم تُعرف الجملة التي تشكل المدخل لحل الرموز، فإن المعنى يتبخر. لقد أودع في صندوق أماناته في المصرف الفرنسي نسخة من الشيفرة، مع تعليمات بأن تُسلم في حالة موته أو اختفائه إلى صديقه ألدو ثيفوينتس. وقد كان ثيفوينتس نفسه هو من أراني الجملة المكتوبة بحروف كتابة الكولونيل الحادة والمائلة:

He aprendido que no es injusto el daño que me ésta sucediendo

لقد تعلمت أن الأذى الذي يلحق بي ليس ظلماً

Ab cdebfghgi jkb lib m hfnkmpi bq gcri jkb sb bpmc mktbghbfgi

وبعد ذلك: g=u, b=z, f=x, k=w, y=y, v=v والأرقام: 0-1، 2=9، 3=8، 4=6، 5=5. الكتابة تنقلب. والنص هو ما يظهر منعكساً في المرآة.*

«لقد فكرتُ لبعض الوقت أن موري قد ركّب رموز كتابته المشفرة في أحد أيام اليأس التي أمضاها على ضفاف خليج سان خورخي»، هذا ما قاله لي ثيفوينتس. «فكرتُ أن الجملة هي عبارة توبة له بالذات. وقد كنت على خطأ: فقد استنسخها من كتاب لإيفيتا. يمكنك العثور عليها في طبعة رسالتي الموجودة في الأكشاك.** وقد أدخل موري تعديلاً يكاد لا يذكر على هذه الجملة: "لقد قربني المرض والألم من الرب. *وقد تعلمتُ أن كل هذا الذي يلحق بي* ويجعلني أعاني *ليس ظلما*". أما موري بالمقابل فيتحدث عن *الأذى الذي يلحق بي*. ربما كان يفكر في نفسه أيضاً، كما ظننتُ في البدء. وربما كانت فكرة اللعنة قد بدأت تراوده.»

ولكن الكولونيل، حين فرد البطاقات على السرير الضيق، لم يكن يريد سوى التأكد من أن ترتيبها لم يتبدل. قرأ الملاحظات التي كتبها بعد أن علِم «شخص» بنجمة صغيرة خلف الأذن: ما الذي جرى بعد موت أبيها عام 1926؟ وفك رموز السطر الأخير من التقرير: «ذهبت مع أمها وأخوتها في الحافلة إلى تشيفيلكوي».*** كان كل شيء في مكانه. راجعَ

---

* كتابة الكولونيل المشفرة تشبه ما هو وارد في «*الطوف*» لجول فيرن، حيث يتوجب أن تُقرأ الرسالة أيضاً، بعد فك رموزها، من الخلف إلى الأمام، حرفاً حرفاً.

** يشير ثيفوينتس هنا إلى كتيب من 96 صفحة، طبع بخاتم منشورات موندو، مع مقدمة لفيرمين تشافيث. على الغلاف، تحت العنوان *رسالتي*. والعنوان الفرعي: «الكتاب الذي ظل مختفياً 32 عاماً»، صورة إيفيتا مبتسمة، ومحرقة وراء ظهرها.

***أيكفي استنساخ هذه العبارة من أجل إدراك العمل المعقد الذي فرضه الكولونيل على نفسه؟ لقد قال لي ثيفوينتس إن الكولونيل موري، حتى في أيام دماره الكامل الأخيرة، كان يتذكر عن ظهر قلب معادل كل حرف ويتمكن من ترجمة أي جمله إلى رموزه الخاصة.

البطاقة التي تتساءل: *خلال الشهور السبعة الأولى من عام 1943، اختفت المتوفاة. لم تعمل خلال تلك الفترة في الإذاعة ولا في المسرح ولم تكن مجلات الاستعراضات تذكرها. ما الذي حدث خلال تلك الفترة؟ هل كانت مريضة، أم ممنوعة من العمل، أم منزوية في خونين؟*وترجم، دون رغبة، تشفير السطر الأخير: «مرثيديس بريتتير التي رافقتها في أوتاميندي وميرولي، روت أنها...»

أمضى بقية الصباح مستلقياً على السرير الضيق وهو يفكر بما سيفعله كي يسترد إيفيتا. كان يرغب في امتلاكها هناك. في ذلك المكان النائي، ومعها على انفراد، سيكون أفضل مما في أي مكان آخر. يمكن لأحد أن يأتي بها إلى خليج سان خورخي. إنه بحاجة، مرة أخرى، إلى خطة وضابط موثوق وبعض المال. ربما عليه أن يبيع قصة المتوفاة إلى إحدى المجلات ويختفي. لقد أدخل ثيفوينتس الفكرة في رأسه: «فكر أيها الكولونيل، فكر في الأمر. مجلة *باري ماتش*، أو *لايف*. خمسة آلاف دولار. عشرة آلاف. أي مبلغ تريد.» ولكنه إذا باح بسره لن يظل من هو. لن يساوي بعدها شيئاً.

مر خيط شمس بطيء من الكوة. جاب البناء المتقشف بنظره، بحثاً عن مخبأ للأوراق. كان البناء جدراناً متينة، عصية على الاختراق. ولم تكن تُرى في الجدران فتحات سوى تشققات الطلاء: بقع شبيهة بسطح القمر. وفي الخارج يتواصل عويل الرياح وزعيق النوارس الذي لا تفسير له. في حوالي الساعة الثالثة، أبعد الجوعُ عنه النعاس. كان جامداً بلا حراك على السرير عندما ظن أنه رأى أحدهم يدخل بخفة إلى الغرفة المظلمة. تلمس مسدسه تحت الوسادة وقدر كم سيحتاج من وقت من أجل القفز من السرير وإطلاق النار. لم يخفف تحفزه حتى بعد أن تبين أن الدخيل امرأة ضئيلة إلى حد لا يصدق ـ كان من السهل عليه معرفة أنها امرأة. فقد كان يسبقها ثديان ضخمان ـ، شعرها مسرح في عقيصة وترتدي تنورة قصيرة. رآها تقترب من المنضدة بطبق يتصاعد منه البخار، معطر بحبات من

الزيتون، وجوز الطيب وصلصة سميكة تتبخر منها أشباح خفيفة من النبيذ. عندما لفت المرأة ستارة البامبو التي تغطي الكوة هيمن ضوء الصباح الرمادي نفسه ـ وقد صار الآن بنفسجياً، كما لو أنه مصنوع من الفولاذ ـ على الغرفة وجعلها، بصورة غريبة، أكثر ظلمة.

– ظننا أنك مريض ـ قالت المرأة ـ لقد جئتك بقالب من حلوى البطاطا. إنه هدية ترحيب بقدومك.

– هل أنتِ من فتحتِ حقيبتي؟ ـ سألها الكولونيل.

صار بإمكانه الآن رؤيتها. إنها مصغر امرأة: ليست أطول مما كانت عليه وهي في التاسعة أو العاشرة من العمر، مع تجعدات عميقة فوق الشفتين وبثدييها اللذين مثل كوكبين، يجبرانها على المشي منحنية إلى الأمام.

– يجب الحفاظ على الغرفة مرتبة ـ قالت ـ لا بد من تنفيذ الأنظمة.

– لا أريدك أن تلمسي شيئاً. من تكونين أنت؟ لم يحدثني الكولونيل عن أية امرأة.

– إنني إرسيليا ـ دمدمت، دون أن تفلت الطبق ـ الزوجة. فيروكيو لا يذكرني أبداً، كي يضفي أهمية على نفسه. أنا من تفعل كل شيء هنا. ومن دوني ما كان لهذا المكان أن يوجد. هل سمعت الرياح؟

– يمكنني سماعها حتى لو كنت أصم. لا أستطيع أن أتصور كيف تمكنوا من بناء هذه الأكواخ.

كان الكولونيل يرغب في انصراف المرأة، ولكنها كانت تتأخر ليس من أجل قالب الحلوى وإنما من أجل رائحة النبيذ في القالب.

– أحضروا كتل الإسمنت في شاحنات وراحوا يركبونها بالرافعات. النوافذ الأولى لم تقاوم شهراً واحداً. لقد طارت الإطارات والزجاج. وذات صباح وجدوا جدران الاسمنت عارية. كانت الرياح قد ابتعلت كل شيء. عندئذ استبدلوا النوافذ بكوى مدورة.

– اتركي لي القالب وانصرفي. وأخبري الكولونيل... ما اسمه؟

– فيروكيو ـ أجابت القزمة.

أخبري فيروكيو أنني أحظر لمس أشيائي. وقولي له إنني سأتولى بنفسي بقاء الغرفة مرتبة.

تركت القزمة القالب على المنضدة ووقفت تتأمل الحقيبة المغلقة. فركت يديها بالمريلة التي لا تغطي إلا القليل من ساقيها وبطنها ـ إنها قطعة قماش صغيرة مخبأة تحت بالوني ثدييها غير المعقولين ـ، وقالت بابتسامة تجعلها جميلة تقريباً:

– ستسمح لي ذات يوم بقراءة الدفاتر التي تملكها في الحقيبة، أليس كذلك؟ في واحد من هذه الأيام القادمة. لقد تعلمتُ القراءة في دفاتر مشابهة. وعندما رأيت دفاترك، أحسست بالحنين.

– ليست لي ـ قال الكولونيل ـ لا يمكن قراءتها. إنها للجيش.

– لا يمكن قراءتها إذاً ـ فوجئت المرأة.

فتحت الباب قليلاً. كانت الرياح تهب في موجات متبدلة، ناعمة أحياناً، وشرسة في أحيان أخرى: وكانت ترفع زوابع من الغبار وتبعثرها في الأفق. فتدخل موجات الغبار القاتمة إلى الغرفة أيضاً وتجعل الغضب والمشاعر والكلمات باهتة: تجعل كل ما يتجرأ على الوقوف في وجهها باهتاً.

– سوف تمطر ـ قالت إرسيليا ـ لدى فيروكيو برقية لحضرتك. لقد وصلت باكراً، هذا الصباح.

ظل دون حراك للحظات طويلة، يتأمل تحوّل النور البطيء الذي يمعن في تلون برتقالي منذ الساعة الرابعة حتى السادسة، والذي تحول إلى بنفسجي حتى ما بعد السابعة: إنه غسق مهيب، كئيب، لا يمكن لأحد رؤيته مواجهة، وربما ليس متشكلاً من أجل بني البشر. بعد الساعة السابعة بقليل هطل مطر ناعم وجليدي أطفأ تمادي الغبار. ومع ذلك، تواصلت الرياح في الخارج، أشد حدة من أي وقت آخر. حلق ذقنه، ثم استحم وارتدى زيه العسكري غير المجدي. بعد ذلك عقد حزم الأوراق كي

يعززها بتصميم جديد، ودون نية مسبقة تقريباً، فتح أحد الدفاتر. لم تفاجئه الحروف غير المتناسقة بجرجرتها الكبيرة التي تبدو حركات بهلوانية على أسلاك السطور الأفقية، لكن ما فاجأه هي الجمل التي قرأها:

لا تصدري صوتاً عند تناولكِ الحساء لا تنحني كثيراً فوق الطبق لا تقضمي الخبز لأكل لقمة بل اقطعيه بأصابعك لا تضعي خبزاً في الحساء لا ترفعي السكين إلى فمك

أهو دفتر أساليب لياقة؟ كافة الصفحات التي تحمل عنوان ***تمرينات*** تكرر ***لا يجب عليكِ لا تفعلي لا تتناولي لا تستعملي***. وفي النهاية فقط كانت إيفيتا قد استنسخت شيئاً يبدو فكرة أو كلمات أغنية تانغو:

الليلة الماضية بينما كنت أخرج/ من المسرح إلى النزل أحسستُ بحدِ حزن/ في جهة اليد اليسرى تسعى خائنة/ لشق قلبي.

وبذهول، راح الكولونيل يتصفح ***نفقات المستشفى***. في الصفحة الأولى، وبتشديد بقلم أحمر، حددت شخص ـ من كانت في أزمنة دفاتر المراهقة والمهانة تلك مسودة شخص ـ حددت مرضاً. ***التهاب غشاء الرئة تشيتشا***: *يبدأ بحمى مرتفعة مع آلام قوية في الصدر أشبه بوخزات في الجنب.** الصفحات التالية تتضمن يوميات رحلة مكتوبة كما لو أنها قائمة متجر:

الذهاب إلى خونين والإياب	*3,50 بيزو*
علبة جينولس	*0,25 بيزو*
قربة ماء ساخن	*1,10 بيزو*
أمبولات مسكن للألم	*0,80 بيزو*

عندما وصلتُ وجدتها أحسن حالاً. مسكينة تشيتشا إنها في أسوأ حال وبعد يومين أكون عندكم راجعة فلا تحزن يا باسكوال لأنه يجب

---

* أكد لي ثيفوينتس، وقد استنسخ صفحات قليلة من الدفاتر عام 1956، أنه حافظ بهوس على الأخطاء الإملائية الموجودة في الأصل. وأنا أدين له بوصف خط إيفيتا، ووصف الدفاتر والعقد التي كان يستخدمها الكولونيل في ربطها.

*اختبار روسا في دوري عاجلاً أو آجلاً وإن كانت تقوم به بصورة سيئة فاصرفها دون قرف وضع بامبين وعلى كل حال حين أرجع سأغادر النزل لأنه قذر كما تعلم ممتلئ بالصراصير والقذارات.** *

أطبق الدفاتر وكان الفضول أو الخجل ينهشه من الداخل: ليس بسبب الريح التي ربما بدأت تهرب من المطر، وإنما بسبب الخجل من أنه وضع قدمه في ماضٍ لا يستحق الاهتمام: إنه ماضٍ يتحلل ما إن يلامسه الكولونيل بعينيه. ما الذي كانت تفعله «شخص» في تلك السنوات؟ يمكنه قراءة ذلك في بطاقاته بالذات:

كانون الثاني 1939: *بعد أسبوع من قطعها العلاقة مع رافائيل فيرتوسو (قصة غرام لمدة شهرين)، أحبت إيفا دوارتي مالك مجلة* سنتونيا. *انتقلت من نزل في شارع سارمينتو إلى شقة في ممر سيافير.* أيار: *ظهرت على غلاف مجلة* أنتينا *ولكنها حين ذهبت لتشكر رئيس التحرير، رفض استقبالها. قدمت أربع تمثيليات إذاعية لهكتور بيدرو بلومبرغ.* تموز: *أخوها خوان الذي كان يعمل موزع صابون، قدمها إلى مالك شركة صابون راديكال. ظهرت كمانيكان في إعلانين تجاريين لمؤسسة لينتر للإعلان.* تشرين الثاني: *أحبت مالك صابون راديكال ولكنها واصلت اللقاء سراً مع صاحب مجلة* «سنتونيا». كانون الثاني 1940: *تعاقدت معها بامبا فيلم كممثلة ثانوية في فيلم* هجوم

* استنتج ثيفوينتس أن هذه الكتابة هي مسودة رسالة إلى باسكوال فييّثيوتا، الممثل الذي كانت إيفيتا تترأس معه فرقة تمثيل إذاعية. فمنذ أيار 1939، كانت فرقة فييّثيوتا/دوارتي تقدم في إذاعة ميتري *ياسمين الثمانين*، وهي رواية في حلقات للكاتب بيدرو بلومبرغ. مرض تشيتشا (وهي إرميندا دوارتي، شقيقة إيفيتا) حدث بين تموز وآب، عندما كانت الفرقة تقدم في مدينة روساريو نسخة مسرحية مأخوذة عن رواية بلومبرغ المذكورة. وقد استُبدلت إيفيتا آنذاك بالممثلة روسا دل ريو – وكانت تتقاسم وإياها الإقامة في الغرفة نفسها في النزل – في عرضي بعد الظهر والليل، يوم الخميس 3 آب. وفي عرضي يوم السبت 5 آب، تولت تقديم الدور الرئيسي آدا بامبيني.

الشجعان، وكان بطلا الفيلم سانتياغو اريبيتا وانيتا جوردان. وفي موقع تصوير هذا الفيلم، بالقرب من مار دل بلاتا، تعرفت إلى مصفف الشعر خوليو ألكارات. وكانت على وشك إكمال السنة الثالثة والعشرين من عمرها. وكان لها شحوب مرضي، وجمال تافه، لا توحي بأي عاطفة بقدر ما توحي بالشفقة. ومع ذلك كانت تريد اقتياد العالم أمامها.

ربط الجزم بعُقدٍ حساسة ومعقدة، وخرج إلى ضوء الليل المتأرجح. كان البرد قارساً. تقدم عبر رذاذ المطر والريح، وأحس مرة أخرى أنه يتقدم عبر العدم. كانت تتأجج في الكانتين مدفأة حطب مقاوم للاحتراق. وكان فيروكيو مديراً ظهره. والرجل القصير الذي له أنف ملاكم منهمك وراء حاجز الكونتوار. ضرب الكولونيل كعبي جزمته بحركة حربية لا طائل منها واتخذ مقعداً إلى منضدة فيروكيو.

– يا للروعة ـ قال فيروكيو ـ كنا بانتظارك. لقد طبخت لك زوجتي. اشبع جيداً لأنها الوجبة المجانية الأخيرة.

لمح في المطبخ شبح إرسيليا، القزمة، وكانت تتحرك بسرعة مثل بعوضة.

– فلتأمر هذا الرجل ـ قال الكولونيل مشيراً بذقنه إلى حاجز الكونتوار ـ ليأتيني بجن. فبعد ثلاث ساعات سيكون يوم الخميس.

– بارينتيني ـ قال الملاكم ـ اسمي قابيل بارينتيني.

– لا فرق ـ قال الكولونيل ـ. أعطني جناً.

– غير ممكن ـ تدخل فيروكيو ـ إنه لأمر مؤسف. فالأوامر في هذا المكان صارمة. إذا ما اكتشفونا سنكون جميعنا في ورطة.

– من سيكتشفنا؟ لا يوجد أحد هنا.

– ولا يوجد خمر كذلك ـ قال فيروكيو ـ . يأتون بدمجانة واحدة يوم الجمعة ليلاً ويأخذونها يوم الأحد صباحاً. منذ جئت إلى هنا والدمجانة هي نفسها دوماً. تدخل وتخرج سليمة.

– في الغد إذاً ـ صرخ الكولونيل بالملاكم ـ غداً في مثل هذه الساعة.

اطلب منهم أن يتركوا عدة دمجانات. فبواحدة فقط لا نفعل شيئاً ـ ثم التفت إلى فيروكيو ـ أخبرتني زوجتك بأن برقية قد أُرسلت إليّ.

– آه، أجل. أخبار سيئة. لقد وقع حادث للنقيب غالارثا.

تناول الورقة المجعدة التي قدمها إليه فيروكيو. كانت الرسالة مكتوبة في أحزمة طويلة ملصقة بصمغ نشاء، ولم يحتاطوا حتى بتشفيرها. قرأ أن غالارثا قد نقل صندوق «تلك المرأة معدات إذاعة» من مقر مخابرات الجيش. كانت لديه أوامر بأن «يدفنها دفناً مسيحياً» في مقبرة مونتي غراندي. عند انعطافه من بافون نحو يافالولو صعدت السيارة إلى الرصيف وانقلبت. جرحٌ من ثلاث وثلاثين غرزة أصاب خدّ غالارثا الأيسر. لقد نجا بأعجوبة، ولكنه سيظل مشوهاً. صارت قيادة جهاز المخابرات شاغرة مرة أخرى، وكان على فيسكيت أن يتولى القيادة. وهو لا يقوم بأي خطوة دون استشارة رؤسائه. أما «تلك المرأة معدات إذاعة» فقد خرجت سليمة، وهي تقبع من جديد في الفراغ الذي اعتادت عليه تحت مجموعة جهاز غريندنك. سيعمد وزير الجيش، بين لحظة وأخرى، إلى تعيين رئيس لجهاز مخابرات الجيش ويحسم بصورة نهائية مصير تلك المرأة. يجري الحديث عن إحراقها في تشاكاريتا أو دفنها في القبر الجماعي في جزيرة مارتين غارثيا. ويجري الحديث بإلحاح عن أن الكولونيل توليو ريكاردو كوروميناس سيكون الرئيس القادم للجهاز. وكانت البرقية تحمل توقيع فيسكيت، غوستافو أدولفو، الملازم الأول في سلاح المشاة.

راجع الكولونيل النص غير مصدق. لم يكن مشفراً: يمكن لأي شخص أن يقرأه. لقد أمضى شهوراً وهو يهتم حتى أدق تفصيل في عملية سرية يجري الرهان فيها على سلام الأمة، ويأتي الآن ضابط صغير مأمور، أخرق، ليفك خيوط النسيج المحبوك ببراعة. لقد صار المخنث إذاً على رأس جهاز المخابرات. إنه الرابع في تسلل القيادة والوحيد الذي لم تصله لعنة «شخص» بعد. الوحيد؟ ربما كان يحمل اللعنة معه منذ زمن بعيد. إنه عاهر محتقر: قدر مشؤوم بين كوادر الجيش الناصعة. كم من الوقت

سيستبقونه هناك؟ لأسبوع، لأسبوعين؟ إذا كان كوروميناس هو الرجل المختار من الوزير، فلن يكون في ظروف تؤهله لتولي المنصب. لقد أجريت له للتو عملية فتق في دسك ومازال يمشي مستعيناً بمشد من الجبس. لقد خرج غالارثا من المعركة لوقت لا يدري أحد مداه: ثلاث وثلاثون غرزة في الوجه. غرزة عن كل سنة من حياة إيفيتا: إنها اللعنة مغروسة. وفي أثناء ذلك، يتعفن أرانثيبيا في سجن مجداليلنا، معزولاً، ممنوعاً من التكلم مع أحد أو رؤية أحد. مزيد من الجنون الإضافي، إلى أين كان الجنون سيوصله؟ وماذا لو كان المجنون هو العاقل الوحيد؟ ماذا لو أن المجنون، من أجل أن يتفادى وصول اللعنة إليه، فضّل أن يصل إليها هو بنفسه أولاً؟ ومرة أخرى راح يعذبه العرق، الجفاف في حلقه، الإحساس بأن الواقع يمضي ولا يستطيع هو مجاراته.

– لقد حلت بغالارثا اللعنة ـ قال ـ إنها الفرس.

– حادث رهيب ـ أكد فيروكيو.

– ليس إلى هذا الحدّ. صحيح أن وجهه قد شُطر، ولكنه سيخرج منها.

– الفرس ـ كرر بارينتيني، كما لو أنه صدى متأخر.

– علينا إحراقها بالأسيد. أنا كنت مؤيداً لإحراقها ـ قال فيروكيو ـ في البدء أرادوا إحضارها إلى هنا. رفضنا ذلك. وقفتُ بصرامة. قلت لهم لا: فحيث يكون فيروكيو لا يمكن لتلك المرأة الدخول.

ذهل الكولونيل. لم يخبره أحد بهذه التفاصيل ولكنها حقيقية دون شك. لم يكن هناك في الأرجنتين سر مُحتفظ به بتكتم أكثر من مصير المتوفاة، ومع ذلك فإن هؤلاء الميتين من الجوع الثلاثة يعرفون السر. ما قاله للتو فيروكيو هو أكثر مما يعرفه أي من جنرالات الأمة في تلك اللحظة.

– من أراد إحضارها؟ ـ سأل متصنعاً التكلم بصورة طبيعية.

– الوزير، الدكتور آرا... جميعهم ـ قال فيروكيو ـ إننا بعيدون هنا ولكننا نعرف كل شيء.

- وكن على حذر أيها الكولونيل ـ صرخت إرسيليا من المطبخ ـ إنك لا تعرف كم أنت محظوظ بوجودك معنا. لو أنك مازلت معها لكنت قد مت.

- لا أحد يريد إحضار تلك الفرس إلى هنا ـ كرر الملاكم.

- أنا أريد ذلك ـ قالت إرسيليا ـ أريد أن يحضروها إلى هنا. إن جاءت سنتفاهم أنا وهي جيداً. فايفيتا لم تكن لها مشاكل مع النساء. لو أنهم أحضروها لكنت توليت العناية بها. ووجدت من أتحدث إليها. ولما شعرتُ بأنني وحيدة إلى هذا الحد.

- لا أدري لماذا تشعر جميع النساء على الدوام بأنهن وحيدات ـ قال فيروكيو.

- تلك الفرس لا يمكن لها أن تجري هنا ـ أصر بارينتيني ـ لقد منحناها الفرصة حين كانت حية ولم تشأ المجيء. دعوناها للمجيء، توسلنا إليها، ولم تسمح لنا برؤيتها قط. فلتتخوزق الآن.

- كان ذلك في 1950. وكانت مريضة ـ قال فيروكيو.

- كيف كانت مريضة. أنت لا تهتم لأنك لم تكن تعيش هنا.

- لا فرق. أنا أهتم بكل شيء. أنا أعرف كل شيء. لم تحضر إلى هنا لأن عملية جراحية لاستئصال للسرطان كانت قد أجريت لها للتو. كانت جلداً وعظماً. تكاد لا تستطيع الوقوف على قدميها. فتصور كيف ستكون الحال بوجود هذه الرياح. كانت ستُحلق طائرة في الهواء.

- في تلك الفترة كانت تسافر إلى كل مكان ـ قال بارينتيني ـ توزع النقود حتى في أبعد كوخ، أما نحن فأزاحتنا جانباً. أنا لن أسامحها.

دخلت إرسيليا تحمل قدراً تطفو فيها أوراق غار، ولحم غنم وبطاطا ودوائر من التشوكلو. كان شعرها ملفوفاً بشبكة صغيرة وكانت جميلة تقريباً. فعلى الرغم من أنها ضئيلة الحجم بصورة مذهلة، إلا أنها ذات جسد متناسق، لا يعكره سوى ثدييها. فصغر قدميها، وظرافة فخذيها اللذين كفخذي عصفور ووجهها الباسم المتورد، تدفع المرء إلى التفكير بملاك كيروبيم طيب. كان ثقل القدر يرغمها على الانحناء. ولم يتحرك

أحد لمساعدتها.

– أنا كنتُ أرغب في أن يُحضروا جسد إيفيتا ـ قالت للكولونيل بينما هي تسكب له مغرفة من الطبيخ ـ كنت سأستمتع بغسله والعناية به. مشكلتها لم تكن مع النساء، وإنما مع الرجال الذين امتهنوها كثيراً.

– لو أنهم أحضروها لغادرتُ المكان ـ قال بارينتيني ـ لا يمكنني ابتلاع تلك المرأة أبداً. لقد كانت حاقدة. تتباهى بأموال الآخرين. لمن كانت الأموال التي توزعها، أخبروني؟ إنها أموال الناس نفسها، أليس كذلك؟ تُخرجها من جيب أحدهم وتدسها في جيب آخر. كانت تموت تلهفاً للظهور. انظروا من أين أتت. لم تكن شيئاً يذكر، لم تكن تعرف عمل أي شيء. استصدرت تصريح فنانة، واندست في فراش بيرون، فتحولت بعد ذلك إلى المحسنة.

– لم يكن هناك ما يضطرها إلى عمل ما عملته ـ قالت إرسيليا وهي تجلس على المنضدة ـ كان بإمكانها أن تعيش على هواها وتذهب إلى الحفلات، مثل السيدات الأوليات الأخريات. ولكن لا. لقد حطمت روحها من أجل الفقراء. قتلت نفسها. ومن الخير لك أن تصمت أنت يا قابيل. فقد كنتَ بيرونياً حتى العام الماضي.

– لا أشعر بأنني على ما يرام ـ قال الكولونيل. وترك أدوات الطعام في الطبق، ونزع الفوطة العالقة بين زريّ السترة العسكرية وتأهب للنهوض. كان متعباً، تائهاً، كما لو أن هناك أماكن كثيرة في ذلك المكان الذي لا أحد فيه.

– ابق هنا ـ طلب منه فيروكيو ـ سنأكل صامتين.

– إنني أمرض – قال الكولونيل –. أحتاج إلى جرعة جن. إنني أتناولها كدواء. فهي ترفع ضغطي.

– هذا مؤسف. لا خمر لدينا ـ قال فيروكيو ـ ليس في الأمر حيلة.

أكلوا بصمت لبعض الوقت بينما الكولونيل لا يزال مستسلماً في كرسيه، بلا قوة ولا حماسة للنهوض. أي معنى لعودته الآن إلى الوحدة؟ بقيت

أمامه ستة شهور من البقاء وحيداً. في مكان فيه قليل من الحياة، لماذا لا يستغل الحياة التي يقدمونها إليه؟ كان بارينتيني يهز رأسه بضيق، وبين حين وآخر يزمجر، كما لو أنه يرتل: «تلك الفرس، تلك الفرس». أما فيروكيو فكان يأكل بفم مفتوح، وهو يبصق أوتاراً قاسية وشظايا عظام من لحم الغنم. الوحيدة التي كانت تبدو غير مرتاحة هي القزمة. تمط رقبتها وتراقب الآخرين بفضول. جميعهم كانوا يتقدمون عبر الصمت كما لو أنهم يصعدون نجداً إلى أن لم تعد هي قادرة على السكوت وتوجهت إلى الكولونيل.

– لا يمكنك أن تتصور مدى تأثري بخط إيفيتا ـ قالت، كان صوتها هادئاً ودون تلونات: صوت من لم يخرج قط من البراءة ـ من كان سيخطر له أن امرأة لديها كل تلك الجرأة، تكتب مثل طفلة في السادسة من عمرها.

تصلب الكولونيل. كانت مفاجآت تلك الليلة من الكثرة بحيث لم تترك له مجالاً حتى للحيرة. فما لا يعرفه هؤلاء البلهاء، يتحرون عنه، وما لا يمكنهم التحري عنه يتكهنونه.

– خطها ـ سألها الكولونيل ـ أين رأيتِه؟

– في الدفاتر ـ أجابت إرسيليا بطبيعية ـ لم أفتحها، أتدري؟ لا يخطرن لكِ أنني فتحتها. قرأتُ ما هو مكتوب على الأغلفة فقط: *لا تحدثي صوتاً عند تناول الحساء. وخط كحل تحت العينين وظل بني على الرموش هو الأفضل للعينين الكستنائيتين*. هكذا كانت إيفيتا. لا يمكن لهذه الجمل أن تكون لأحد سواها.

– لم تكن لها هي ـ سُمع الكولونيل يقول. كان يتكلم رغماً عنه. فقد كان ذهنه ممتلئاً بنيران ومساحات بيضاء. عندما لا يستطيع إطفاءها بالجن يملؤها بالكلمات –. لقد استنسختها من مكان ما. أو أن أحداً أملاها عليها، من يدري. هذه الدفاتر قديمة جداً. لا بد أن عشرين عاماً قد مضت عليها.

- بل سبعة عشر عاماً - صحح له فيروكيو - لا يمكن أن يكون قد مضى عليها أكثر من سبعة عشر عاماً. فقد بدأت تباع في العام 1939.

- إننا مطلعون جيداً هنا - قال بارينتيتي - لا شيء يفلت منا.

- اصمت نهائياً يا قابيل - أمرته إرسيليا. كان لها صوت أبح وآمر يُذكِّر بصوت إيفيتا.

- إننا نعرف بعض الأشياء - قال فيروكيو - ولكننا لن نعرف أبداً كل ما نود معرفته. قبل مجيء حضرتك، أمروني بحل شيفرة هذه الورقة. إنني أقضي ست أو سبع ساعات كل يوم. ولا أستطيع.

توقف عن الأكل وأخرج من جيب قميصه زراً وورقة مجعدة، عليها ترويسة الجيش. كان الزر هو الإشارة الحمراء الخاصة بضباط الأركان العامة. حاول الكولونيل أن يتذكر: فيروكيو، فيروكيو. ولم يتوصل إلى تذكر الاسم أو الدفعة التي ينتمي إليها. ولم يتذكر كذلك إلى أي سلاح ينتمي: أيكون سلاح المدفعية، الهندسة؟ هذه التفاصيل التي لا يجد لها حلاً تضايقه كقشة في العين.

- أنا تكهنتُ بكلمة - قالت إرسيليا - إذا كانت مكتوبة بحروف كبيرة ومؤلفة من خمسة حروف، فلا يمكن الخطأ فيها. CPHVB تعني إيفيتا.

فوجئ الكولونيل.

- لقد قرأتم بطاقاتي - قال، باذلاً جهده في أن يبدو هادئاً. كانت يداه ترتعشان. والحقيقة أنهما ترتعشان منذ أيام.

- لم نفعل - أوضح فيروكيو - ولماذا نفعل ذلك. لقد استنسخوا في الوزارة نسخاً من أوراقك كلها وأرسلوها إليّ. وعليّ أن أفك رموزها. ولكنني لم أستطع التقدم ولو فاصلة واحدة. انظر السؤال الذي في هذه الورقة: *هل هربت من خونين مع المغني أغوسطين ماغالدي؟* وتأمل في لعثمات الجواب. إذا كانت الحروف الكبيرة الخمسة تعني إيفيتا، مثلما تظن إرسيليا، فإن حرف C يعني E وحرف P يعني V. ولنفترض أن الرسالة معكوسة. عندئذ يصبح الحرف C هو A والحرف P هو T.

ولكنني بهذا كله لا أتوصل إلى شيء. لم أستطع فهم كلمة واحدة من الكلمات الأخرى.

– عليك أن تساعدنا أيها الكولونيل ـ قالت إرسيليا متوسلة.

– لا أستطيع ذلك ـ قال الكولونيل ـ فأنا لا أملك مفتاح الشيفرة.

قدموا إليه كأس ماء لم يشأ لمسها. كانت الريح تهب بإنهاك.

– أنت تعرف ما الذي تريد قوله هذه الرسائل ـ ألح فيروكيو ـ حاول أن تتذكر. عندما نخرج من هذه المشكلة، ستكون الحياة أسهل للجميع.

– لا أعرف. لا أستطيع ـ كرر الكولونيل ـ ولو فعلتُ أي شيء، لن تكون حياتي أسهل.

– فكر في الأمر ـ قالت إرسيليا ـ وتذكر أنك سوف تقضي هنا ستة شهور.

– وماذا في ذلك؟ هل سيقلصون لي المدة إذا تذكرتُ حل الشيفرة؟

– لا ـ قال فيروكيو ـ لا أحد يمكنه تقليص مدة عقوبتك. ولكن الجيش سيقدم إليك كل خمر الجن الذي تريده. هذا يساعد. وسوف تمضي شهورك الستة طيراناً.

نهض الكولونيل عن المنضدة بوقار.

– لست أعرف شيئاً ـ قال ـ أضف إلى ذلك، من الذي يهمه ما هو في هذه الأوراق. ما الذي سيكسبه الجيش من معرفة قصة فتاة مسكينة في الخامسة عشرة تحلم بأن تكون ممثلة.

– ما الذي يمكن كسبه ـ وافقت إرسيليا ـ حضرتك على حق.

– بالإمكان دوماً كسب ما لا نخسره ـ قاطعها فيروكيو ـ لقد دمرت الفرسُ الجميع. دمرتني أنا. وحتى لو كان الوقت قد فات، فلا بد من جعلها تدفع الثمن ـ توقف وقد انقطعت أنفاسه. وبدا الوجه المدور أشبه برسم كاريكاتيري للقمر ـ مئات الأشخاص منهمكون في التقصي أيها الكولونيل. ولم يحصلوا على شيء مؤكد. لم يتوصلوا إلى أي قصة لم تنشرها المجلات من قبل: مشاجرات في حجرة تبديل الملابس في المسرح، مضاجعات مع شخص

ساعدها على الصعود. إنها تفاهات تحرك مشاعر الشفقة وليس الكراهية. وما نحتاج إليه هو الكراهية، نحتاج إلى شيء يشوه سمعتها ويدفنها إلى الأبد. تقصوا إن كانت لها حسابات في سويسرا. لا شيء. وإن كانت تشتري مجوهرات بأموال الدولة. لا شيء. كلها هبات. لقد أمضوا شهوراً وهم يحاولون أن يثبتوا أنها كانت عميلة نازية. كيف يمكن لها أن تكون عميلة نازية وهي لا تقرأ حتى الصحف؟ وهم الآن يريدون نشر كل هذا البراز في كتاب. سيضعون له كعنوان: *الكتاب الأسود للدكتاتورية الثانية*. عدد صفحاته يزيد على الأربعمائة. وهل تعلم كم صفحة فيه عن الفرس؟ صفحتان فقط شيء بائس: صفحتان لا غير. التهمة الوحيدة التي يوجهونها إليها هي أنها ليست من كتب *مسوغ حياتي*. فلنوزع الشكولاته لهذا الخبر. هذا أمر صارت تعرفه حتى الراهبات حبيسات الدير. أنت لديك أشياء أكثر بكثير في هذه البطاقات. إذا ما أعطيتني حل الشيفرة، فسوف نتمكن من إغراق الفرس إلى الأبد. فليبق الجسد دون تفسخ ما شاء البقاء. ولكننا سنلغيها من الذاكرة.

– لا – أجاب الكولونيل. كان متعباً. يريد الذهاب بعيداً. إذا هو لم يهرب غداً أو بعد غد من الجنون الذي حشروه فيه، فسوف يتوغل في الريح ويترك للرب أن يفعل به ما يحلو له.

– دعك من الإزعاج وأعطني حل الشيفرة ـ ألح فيروكيو ـ حضرتك ضابط كبير في الجيش الأرجنتيني. وما تحريت عنه وحصلت عليه ليس ملكاً لك.

– لا أستطيع ـ قال الكولونيل ـ فأنا لا أعرف. لا يمكنني إعطاؤك ما لا أملكه.

اقترب من الباب وفتحه. كانت الريح تدور في حوامات وتصفع الفراغ. وكان قمر جليدي هائل يلمع في السماء. فكر في أنه إذا كان قد حُكم عليه بالموت في هذه العزلات، فسوف ينتظر الموت بكبرياء لم تمس. فهو في نهاية المطاف، مثل إيفيتا، لن يحقق خلوده إلا بالموت.

- 13 -

«قبل ساعات قليلة من مغادرتي»

فِي السنوات العشر التي تلت عملية اختطاف الجسد، لم ينشر أحد سطراً واحداً عن جثة إيفيتا. وكان أول من فعل ذلك هو رودولفو والش في قصته «تلك المرأة»، ولكن كلمة إيفيتا لا تظهر في النص. إنه يلف حولها، يلمح إليها، يستحضرها، ومع ذلك لا أحد يتلفظ بها. وقد كانت الكلمة التي لا تقال في ذلك الح7ين هي الوصف الدقيق للجسد الذي اختفى.

منذ ظهور قصة والش، في العام 1965، بدأت الصحافة تجمع تخمينات حول الجثة. فأعلنت مجلة *بانوراما*، في قصة انتصارية من عشر صفحات: «هنا ترقد إيفا بيرون. الحقيقة حول أحد أعظم أسرار عصرنا». ولكن الحقيقة تضيع في سلسلة من الإجابات. فكابتن مجهول من البحرية يعلن: «لقد أحرقنا الجثمان في مدرسة الميكانيك التابعة للأسطول وألقينا الرماد في نهر لابلاتا». «لقد دفناها في مارتين غارثيا»، يقول من الفاتيكان الكاردينال كوبيللو. «لقد نقلوها إلى تشيلي»، يفترض أحد الدبلوماسيين. وتتحدث مجلة *كريتكا* عن مقبرة في جزيرة مسورة: «توابيت ملفوفة بمخمل أحمر تتأرجح في الماء، مثل جندولات» أما *لا رازون*، و*خينتي*، و*آسي* فنشرت خرائط مطموسة المعالم تَعِدُ بكشفٍ مستحيل. جميع الشباب البيرونيين كانوا يحلمون بالعثور على الجسد ونيل المجد. لينو، وخوان،

ونيغرا، وباكو، وكلاريسا، وإميليو، ماتوا جميعهم بالرشاشات العسكرية وهم يؤمنون بأن إيفيتا تنتظرهم في الجانب الآخر من الخلود وبأنها ستروي لهم سرها. ما الذي جرى لتلك المرأة، كنا نتساءل في سنوات الستينيات. ماذا فعلوا بها، أين أخفوها. كيف أمكن لكِ يا إيفيتا أن تموتي كل ذلك الموت؟

تأخر ظهور الجسد أكثر من خمسة عشر عاماً، واعتُقد أنه قد ضاع أكثر من مرة. بين العامين 1967 و1969 نُشرت مقابلات مع الدكتور آرا، ومع ضباط من القوات البحرية التي كانت تحرس الاتحاد العام للعمل عندما أخذ الكولونيل الجسد، وكذلك طبعاً مع الكولونيل نفسه الذي لم يشأ التحدث في الموضوع. وآرا أيضاً فضل الغموض. كان يستقبل الصحفيين في مكتبه في سفارة إسبانيا، ويريهم الرأس المحنط لمتسول يحتفظ به بين دوارق نبيذ، ثم يودعهم بعبارات مفخمة: «إنني ملحق ثقافي مساعد للحكومة الإسبانية. وإذا ما تكلمت فسوف أتسبب في عواصف كثيرة. لا يمكنني فعل ذلك. أنا أنفع كمانعة صواعق وليس كسحابة». في نهاية عقد الستينيات، كان سر الجسد الضائع فكرة راسخة في الأرجنتين. وما لم يظهر الجسد، ستبدو كافة التخمينات مشروعة: إنهم سحلوه على إسفلت الطريق العام رقم 3 إلى أن مزقوه، أو أنهم صبوا عليه كتلة إسمنت، أو ألقوا به إلى عزلات المحيط الأطلسي، أو أنه أُحرق، أو أذيب بالأحماض، أو دفن في مناجم ملح البارود في البامبا. وكان يقال إنه ما لم يظهر الجسد، فسيظل البلد يعيش منقسماً إلى نصفين، أعزل وعاجزاً أمام نسور رأس المال الأجنبي، منهوباً ومباعاً لأفضل مشترٍ. *ستعود وتكون ملايين*، هذا ما كان يُكتب على جدران بوينس آيرس. *إيفيتا ستنبعث. سيأتي الموت وتكون له عيناها*.

كنتُ أعيش في تلك السنوات في باريس، وكان أن التقيت هناك مصادفة، ذات صباح من شهر آب، بوالش. كانت الشمس تصفر فوق قمم أشجار الكستناء، والناس يمشون سعداء، ولكن ذكرى تلك المرأة في باريس

كانت محتدمة (أو هذا على الأقل ما قاله أبولينير في قصيدته «زونا» كانت ذكرى مفاجئة في ذروة انهيار الجمال. وكانت أبيات «زونا» تدور في ذاكرتي عندما جلست مع والش ورفيقته ليليا تحت مظلات أحد مقاهي الشانزلزيه، بالقرب من شارع بلزاك: Aujourd'hui tu marches dans Paris/ cette femme-là est ensanglantée.

كنت عائداً لتوي من جستاد، حيث أجريت مقابلة مع ناحوم غولدمان، رئيس المجلس اليهودي العالمي. وفي واحدة من تحولات المحادثة التي لا علاقة لها بالمشيئة، بدأت أروي لهما القصص التي شغلتني بها سكرتيرة غولدمان خلال انتظاري. وآخر تلك القصص، وهي أكثرها غرابة أيضاً، أثارت اهتمام والش جداً. فمنذ عشر سنوات على الأقل، كانت السفارة الأرجنتينية في بون مغلقة طيلة الأسابيع الأولى من شهر آب لإعادة التصميم. فحيث كان مستودع الفحم زُرعت حديقة، وفي العام التالي، جرى إتلاف الحديقة لإعادة بناء مستودع الفحم. هذا هو كل شيء: إنها قصة تبذير أحمق في سفارة بلد فقير.

قرّب والش وجهه مني وقال لي بلهجة متآمرة:

– في تلك الحديقة توجد إيفيتا. إنهم يحتفظون بها هناك إذاً.

– أتعني إيفا بيرون؟ كررت الاسم معتقداً أنني أسأت الفهم.

– الجثة – أكد – لقد نقلوها إلى بون إذاً. هذا ما خمنه على الدوام، وقد صرتُ أعرفه الآن.

– لا بد أنه الكولونيل ـ قالت ليليا ـ هو وحده من كان بإمكانه إحضارها. ففي العام 1957 كان ملحقاً عسكرياً في بون. لقد مضى ثلاثة عشر عاماً وليس عشرة أعوام.

– موري كينيك ـ أكد والش ـ كارلوس إوخينيو دي موري كينيك.

إنني أتذكر نظارته ذات الإطار المصنوع من قوقعة سلحفاة، وخصلة الشعر الوحيدة التي تنتصب فوق الجبهة البارزة، والشفتين الرفيعتين كجرح. أتذكر عيني ليليا الخضراوين الواسعتين وسعادة ابتسامتها. رباعي

موسيقيين متنكرين كمهرجين عكروا «صيف» فيفالدي.

– هذا يعني أن كولونيل قصة «تلك المرأة» موجود حقاً ـ قلت.

– لقد مات الكولونيل في العام الماضي ـ أجاب والش.

ومثلما نبه هو في المقدمة القصيرة، فإن «تلك المرأة» لم تُكتب كقصة قصيرة وإنما هي استنساخ لحوار مع موري كينيك في بيته على ناصية شارعي كايّاو وسانتافي. لقد استخلص والش من ذلك اللقاء الصاخب معلومتين ناصعتين فقط: الجثة دُفنت خارج الأرجنتين، منتصبة، «في حديقة يهطل عليها المطر يومياً». والجنرال، في سهره الطويل إلى جانب الجسد، استسلم لعاطفة حب الميتة. كل ما تقوله القصة كان صحيحاً، ولكنه نُشر كتخييل ونحن القراء كنا نريد كذلك التصديق بأنه خيال. كنا نظن أنه لا متسع لأي هراء من الواقع في الأرجنتين التي تتباهى بأنها ديكارتية وأوروبية.

– أعتقد أنهم شيدوا مستودع الفحم كيلا يتفسخ خشب التابوت ـ واصل والش ـ وبعد ذلك، خوفاً من أن يُكتشف الجسد، قلبوا الحديقة وأعادوا دفنه.

– كانت إيفيتا عارية ـ قلتُ مستحضراً القصة القصيرة ـ «تلك المرأة كانت عارية. ربة وعارية وميتة. بكل ما في الهواء من موت.»

– هكذا بالضبط ـ قال والش ـ كان الكولونيل يعرضها. وفي إحدى المرات بصق عليها. بصق على الجسد الأعزل، الأبتر، هل تلاحظ ذلك؟ لقد قطع إحدى أصابعها للتأكد من أنها هي. وأخيراً وشى به أحد ضباط المخابرات. كان عليهم أن يسرحوه من الخدمة، ولكنهم لم يفعلوا. فقد كان يعرف أكثر مما يجب.

– ظل معتقلاً ستة شهور ـ قالت ليليا ـ عاش في أسوأ عزلة، في القفر، إلى الشمال من كومودورو.

– وصار شبه مجنون ـ واصل والش ـ منعوا عنه الشراب. وكان ذلك أسوأ جزء من العقاب. صار يهذي، وحاول الهرب. فذات فجر، بعد شهر

ونصف من الاعتقال، وجدوه شبه متجمد على مقربة من بونتا بيلهرو. كان حدثاً من العناية الإلهية، لأن الرياح هناك متوحشة، والغبار يغطي ويكشف الأشياء في ثوان قليلة. بعد شهر من ذلك حالفه الحظ أكثر من المرة السابقة. استعادوه من حانة في بويرتو فيزير. أمضى هناك يومين وهو يشرب. لم يكن معه سنتافو واحد، ولكنه هدد صاحب الحانة بمسدسه وأجبره على تقديم الشراب إليه. لو أنهم تأخروا في العثور عليه نصف يوم آخر، لكان كبده قد انفجر. كان مصاباً بتشمع الكبد، وبالتهابات في الفم والساقين. وقد أمضى المرحلة الأخيرة من اعتقاله في الاستشفاء من الإدمان.

– لقد نسيتَ الرسائل ـ قالت ليليا ـ أخبرونا أنه كان يكتب كل أسبوع إلى أحد ضباط المخابرات، ويدعى فيسكيت، مطالباً إياه بنقل جسد إيفيتا إلى القفر. لا أظن أن الحرمان من الشراب كان أسوأ جزء من العقاب. بل غياب إيفيتا.

– معك حق ـ قال والش ـ فغياب إيفيتا في نظر الكولونيل كان أشبه بغياب الرب. وطأة تلك العزلة المطلقة غيّرته إلى الأبد.

– ما لا يمكن فهمه هو كيف توصل موري كينيك لأن يكون ملحقاً عسكرياً في بون ـ أعربتُ عن رأيي ـ كان شخصاً غير مرغوب فيه، خطيراً، سكيراً. في البدء عاقبوه لأنه يستعرض إيفيتا عارية وفي السنة التالية سلموها إليه. لا يوجد منطق في ذلك.

– لقد تساءلت كثيراً عما جرى، ولم أجد تفسيراً لذلك ـ قال والش ـ لقد ظننتُ على الدوام أن الجثة موجودة في دير إيطالي ما، وأنهم أرسلوا موري كينيك إلى بون من أجل التضليل. ولكنني عندما زرته في بيته في كايّاو وسانتاقي، أكد لي أنه هو من دفنها. ولم يكن لديه سبب للكذب.

كان المهرجون قد أذبلوا آخر أزهار «صيف» فيفالدي وبدؤوا يمدون قبعاتهم باتجاه الطاولات. منحهم والش فرانكاً وشكرته المرأة عازفة الفيولا بانحناءة آلية ووقورة.

– فلنذهب للبحث عن الجسد ـ سمعتُ نفسي أقول ـ فلنتوجه إلى بون

هذه الليلة بالذات.

– أنا لا أريد ـ قال والش ـ عندما كتبتُ «تلك المرأة» وضعت نفسي خارج التاريخ. لقد كتبتُ القصة. وبهذا انتهيت.

– كتبتَ أنك ستذهب ذات يوم للبحث عنها. وقلتَ في القصة: إذا ما وجدتها، فلن أشعر بعد ذلك بالوحدة. وها قد حانت اللحظة.

– لقد مضت عشر سنوات ـ أجابني ـ إنني الآن في شأن آخر.

– أنا سأذهب على كل حال ـ قلت له. أحسست بخيبة أمل، وبحزن أيضاً. أحسست أنني أعيش شيئاً شبيهاً بذكرى، ولكن من الجانب المعاكس، كما لو أن وقائع الذكرى توشك البدء بالحدوث الآن – عندما أجدها لا أدري ما الذي سأفعله. ما الذي يمكن عمله بجسد كذاك الجسد؟

– لا شيء ـ قالت ليليا ـ دعه حيث هو، وأخبر بعد ذلك بالأمر. أنت وحدك تعرف لمن عليك أن تنقل الخبر.

– جسد بمثل هذا الحجم ت كرر والش بصوت خافت.

– ربما سأضعه في صندوق السيارة وأجيء به ـ قلت ـ ربما سأحمله إلى مدريد وأسلمه إلى بيرون. لست أدري إن كان يريده. لست أدري إن أراد ذلك الجسد في يوم من الأيام.

تأملني والش بفضول من البعد النائي لنظارته الغبشة. وأحسست أن عنادي قد فاجأه.

– قبل أن تسافر، عليك أن تعرف كيف هو مظهرها – قال لي – فقد تبدلت كثيراً. إنها لا تشبه الصور الفوتوغرافية ولا صور الأفلام الإخبارية. إنها أجمل، وإن بدا لك ذلك غير معقول.

فتح محفظة الجيب. تحت بطاقة هويته الشخصية توجد صورة ضاربة إلى الصفرة ومجعدة. أراني إياها. إيفيتا ترقد على جانبها، مع عقيصة الشعر الكلاسيكية تحت رقبتها وبابتسامة مواربة. أذهلني حمل والش لهذه الصورة كتميمة، ولكنني لم أقل له ذلك.

– إذا وجدتها ـ قال لي ـ هكذا يجب أن تكون. لا يمكن لشيء أن

يتلف جسدها: لا رطوبة نهر الراين ولا مرور السنوات. يجب أن تكون كما هي في هذه الصورة: نائمة، ومطمئنة.

– من أعطاك إياها؟ ـ سألته. وانقطعت أنفاسي.

– الكولونيل ـ قال ـ كان لديه أكثر من مئة صورة. هناك صور لإيفيتا في كل أنحاء البيت. بعضها مذهلة. تُرى معلقة في الهواء، فوق ملاءة من حرير، أو في علبة زجاجية وسط إطار من الأزهار. وكان الكولونيل يقضي الأمسيات في تأمل الصور. عندما زرته لم يكن لديه أي انشغال سوى دراسة الصور بعدسة مكبرة والسكر.

– كان بإمكانك أن تنشرها ـ قلت له ـ وكانوا سيدفعون لك ما تطلبه مقابلها.

– لا ـ أجابني. ورأيت ابتسامة سريعة تعبر وجهه كسحابة ـ هذه المرأة ليست لي.

سافرتُ إلى بون في تلك الليلة بالذات. وجدت السفارة الأرجنتينية مقفرة، جميع العاملين فيها تقريباً في إجازة. وشاءت المصادفة أنني أعرف منذ زمن طويل الموظف الوحيد الذي كان مناوباً. وبفضله تمكنتُ من زيارة الحديقة. عند نهاية أحواض التوليب، اكتشفت وجود بعض ألواح الخشب المكومة وبقايا قبة زجاجية. أكد صديقي أنها من بقايا مستودع الفحم.

تناولنا الغداء في مشرب للبيرة في باد غودسبيرغ، وبالغريزة، بعد أن شربنا إبريقين أو ثلاثة أباريق من البيرة، قررت أن أخبره بسبب مجيئي. رأيته يتأملني بدهشة، كما لو أنه لا يعرف من أكون. وافق على أن مسألة قلب الحديقة كانت نزوة غريبة، أما بشأن إيفيتا فليس لديه أدنى فكرة. وقال إن تخميناتي مستحيلة. ربما يكون الجسد قد مرّ من هناك، ولكن ليس كي يبقى في بون. طلبتُ منه أن يتفحص على كل حال وثائق المحاسبة العائدة للعامين 1957 و 1958، حتى لو بدت له تافهة: فواتير أعمال صيانة وإصلاح، أمتعة سفر، نفقات تنقلات. فأي تفصيل

يمكن له أن يكون مفيداً.

وقبل حلول المساء، تجولنا في البيت الذي سكنه الكولونيل في شارع أديناواليه 47، قبالة السفارة. كان البيت مهجوراً وشبه متداع. فقد حكمت عليه أعمال المترو بالهدم. كانت نوافذ غرف النوم العليا تطل على كراج غير صالح للاستخدام، في حافته الشمالية تنمو شجيرات وأعشاب ضارة. وفي المطبخ، رأيت باب سقيفة ساقطاً على الأرض. أطللت من الفتحة المظلمة، يراودني الأمل الفارغ بأن تكون الجثة هناك.

سمعتُ صأصأة الفئران وأنين الريح. وفي الممرات كان الغبار يتراكم.

في صباح اليوم التالي أرسل لي صديقي علبة حذاء مملوءة بأوراق قديمة، مع رسالة مقتضبة، بلا توقيع، يقول فيها: «بعد أن تتفحص ما تركته لك، تخلص منه. إذا وجدت فيه شيئاً، فلستُ أنا من أعطيتك إياه، وأنا لا أعرفك، وأنت لم تأتِ قط إلى بون.»

لم أجد شيئاً. أو أنني ظننت طوال سنوات، على الأقل، أنه لا يوجد شيء، ولكنني احتفظتُ بالأوراق مع ذلك. وجدتُ بينها إيصالاً بشراء شاحنة فوكسفاغن مغلقة، بيضاء اللون، باسم الكولونيل موري كينيك. وجدت فاتورة بشراء مئة كيلوغرام فحم، سُلمت للسفارة في صندوق من خشب السنديان. وقرأت أن صندوقين آخرين من خشب السنديان قد أرسلا إلى السينور جورجيو دي ماجيستريس في ميلان. بدت لي تلك الأشياء غريبة، ولكنني لم أعرف السبب. لم أتوصل إلى ربط مقطع بآخر.

رأيت دفتراً صغيراً بغلاف أسود وعنوان يقول بخط منمق: *خاص بالبروفيسور الدكتور بيدرو آرا ساريّا*. كانت الصفحات متسخة وممزقة. نجت فيها بعض الملاحظات. وقد تمكنت من قراءة:

«23 تشرين الأول. الحادية عشرة ليلاً. تذكريني يا حياتي» «عندما يأتون ليأخذوكِ سيكون لديك كل ما افتقرتِ إليه في هذا العالم» « لقد أحدثت فيها جرحاً، شبكة للإحساس» «شفتان جديدتان» «حيث يعجز العلم، ينحت الحضور. العلم تحكمه الآن الهذيانات أكثر من كتابة

النظريات، إنه يحقق قفزات» «العلم نظام من الشكوك. يتردد. ولدى اصطدامي بشبكة خلاياكِ الجافة، ترددتُ أنا أيضاً. هل لاحظتِ ذلك؟ مضيت متلمساً طريقي في العماء، بين ضوء بروتوبلاسما الخلايا متتبعاً آثار جروح انتقالات الداء أعدتُ ترميمكِ. إنكِ جديدة. إنك أخرى» «وهكذا تقرئين الكتابات التي وضعتها في جناحيكِ أيتها الفراشة اللائكية» «ما لم تكونيه ستصيرين إليه» «اسمعيهم قادمين لأخذكِ. لا تتقبلي قانونهم. مثلما كنتِ وأنت طفلة، عليك أن تفرضي مشيئتك مرة أخرى.»

وفي أسفل العلبة وجدتُ ورقة من دفتر، كتبَ عليها أحدهم، بخط مرتعش:

«يضاف إلى "رسالتِي". *أيمكن للشعوب أن تكون سعيدة؟ أم أنه يمكن للبشر فقط، فرداً فرداً، أن يكونوا سعداء؟ إذا كانت الشعوب غير قادرة على أن تكون سعيدة، فمن سيُعيد إليّ كل الحب الذي فقدته؟»*

في طريق عودتي إلى باريس توقفت في استراحة في فردان. رأيت فوق رأسي فراشة ضخمة، معلقة في أبدية سماء بلا رياح. أحد جناحيها كان أسود ويخفق إلى الأمام. الجناح الآخر أصفر، يحاول الطيران إلى الخلف. وفجأة ارتفعت واختفت في الحقول الزرقاء. لم تستجب لمشيئة جناحيها. لقد حلقت إلى أعلى.

بعد عشرين سنة من ذلك رحت أنا أيضاً أطير، ولكن نحو الماضي. وفي مجموعة من أعداد *سينتونيا*، «مجلة الكواكب والنجوم» التي كانت قراءة إيفيتا المفضلة، وجدتُ خبراً أذهلني. الخبر يشير إلى مشاريع أبرز شخصيات الإذاعة لنهاية العام 1934: «رجل الحظ الدائم، ماريو بوغليسي (كارينيو)، سيخرج في جولة مع فرقته الموسيقية المعربدة عبر مقاطعة بوينس آيرس. يومي الثالث والرابع من تشرين الثاني سيغني في تشيفيلكوي، وفي اليوم الخامس من الشهر نفسه في مدينة نوِيبي دي خوليو، ويومي العاشر والحادي في خونين. المسرح محجوز مسبقاً بالكامل

في المدينتين الأخيرتين، لأن بوهيمي كارينيو هناك سيتقاسمون الحلبة مع الثنائي ماغالدي ـ نودا الذي لا يقدر بثمن».

لا حاجة إلى ذكاء ثاقب من أجل استنتاج أن ماغالدي قد تعرّف، خلال تلك الجولة، على إيفيتا، وربما يكون كارينيو قد حضر المشهد. ما أحتاج إلى تأكيده هو صحة اللقاء. لقد كنتُ شديد الريبة على الدوام. فقد بدا لي مستغرباً أن يقوم أحد معبودي الأغنية الشعبية، ممن تتهافت عليهم نساء كثيرات، بإدخال فتاة ريفية في الخامسة عشرة من العمر، وقليلة الجمال، إلى إذاعة بوينس آيرس. في العام 1934 كانت إيفيتا أبعد ما يكون عن كونها إيفيتا. أما ماغالدي بالمقابل، فكانت له شهرة تُقارن بشهرة مغني التانغو غارديل. كان له وجه كئيب وصوت شديد الألم وعاطفي، يغادر الجمهور حفلات غنائه وهو يمسح الدموع. وفي حين كانت أغنيات غارديل مفعمة بالغراميات الخائبة، والأمهات المعذبات، وقصص هزائم، كانت أغنيات ماغالدي تدين أحابيل السياسيين وتشيد بالشغيلة والبائسين. ليس في هذا الأمر وحده تنسجم شخصيته تماماً مع شخصية إيفيتا. لقد كان فوق ذلك رجلاً مشبوب العاطفة وشديد السخاء. يكسب أكثر من عشرة آلاف بيزو في الشهر، وهو مبلغ كان يكفي لشراء قصر، ولكنه لم يكن يملك بيتاً خاصاً به. كان يعيل، دون ترف، أمه وستة أخوة كبار. بعض المجلات أصرت على أنه كان ينفق نقوده في مساعدة السجناء والأيتام. ومجلات أخرى تُلمح إلى أنه كان يخسرها في الكازينوهات وعلى موائد البوكر. لقد كان الفارس الأزرق في عقد الثلاثينيات. بنات خالة إيفيتا، وكن يعشن آنذاك في لوس تولدوس، تحدثن عن أنهن كن ينمن وهن يحتضن صورة لماغالدي كما لو أنه الملاك الحارس. وإذا كان هناك من هو راغب في تضخيم أسطورة إيفيتا وفي أن يخصها بقصة حب شبابية تكون على مستوى بيرون ـ «رجل حياتي» ـ، فلن يجد من هو مناسب أكثر من ماغالدي. وهذه المبالغة في الحظ هي التي كانت تدفعني إلى الارتياب.

ومع ذلك، فإن المؤرخين المؤيدين لإيفيتا كانوا يعتقدون على الدوام أنها سافرت إلى بوينس آيرس وحدها، بإذن من أمها. «وهذه القصة هي أكثر رهافة وطبيعية»، كما يفترض فيرمين تشافيث، أحد أنصارها. وقد كانت شقيقة إيفيتا، إيرميندا، تستشيط غضباً حيال مجرد فكرة أن ماغالدي ـ أو أي شخص آخر ـ قد اجتذبها أكثر من طمأنينة بيت الأم وسعادته. «من الذي أشار بخسته القاحلة أنكِ قد هجرتِ بيتكِ؟ أي افتراض أخرق هذا الادعاء أنكِ تركتنا هكذا، بصورة مفاجئة وعاصفة!».

لقد كانت إيفيتا نفسها هي من أسرت لأول أصدقائها في الإذاعة بأن ماغالدي هو من جاء بها إلى بوينس آيرس، وكانوا هم من أشاعوا بعد ذلك هذه القصة: إلينا ثوكوتي، ألفونسو بيسانو، باسكوال بيليثيوتا، آميليا موستو. ولكن الوحيد الذي كان يعرف الحقيقة هو ماريو كاربنيو. وقد احتجتُ لأسابيع من أجل اللقاء به.

في العام 1934، كان كارينيو يتمتع بشهرة واسعة تكاد تضاهي شهرة ماغالدي، ولكن من نوع آخر. قد كان يتنكر كشارلي شابلن ويقود أوركسترا كوميدية تشوه معزوفات الفالس والفوكستروت الرائجة بإدخال أصوات من الأدغال عليها وجرجرة سلاسل، وبكاء أطفال، وتنهدات عرائس. بعد ثلاثين عاماً على ذلك، وبينما هو في أوج الانحدار، تحول إلى قارئ كفّ، ومنجم، ومرشد عاطفي. وقد كانت هذه المهارات هي التي أتاحت لي معرفة مكانه. ففي الحي الذي يعيش فيه، بالقرب من حديقة ريفادافيا، مازال يكسب عيشه بقراءة الأكف ورسم بطاقات البروج لأهالي الحي. يكاد يكون عاجزاً عن الحركة: فقد أدى انزلاقه في الحمام إلى كسر في حوضه.

عندما استقبلني كان شاحباً، مستنفداً، كما لو قد مات ولم ينتبه أحد إلى ذلك. كان نظره يشرد بسهولة في مناطق غير محددة من الهواء ونادراً ما يركز على شيء معين. تبادلنا الحديث لأكثر من ساعتين، إلى أن غادره انتباهه ولم يستطع استعادته. ذاكرة الماضي مازالت سليمة وصافية فيه،

مثل بيت قديم بلا أبواب ولا نوافذ، حيث الهواء والغبار لا يتوقفان أبداً. وعندما يتقدم نحو الحاضر فقط، تبدأ ذاكرته بالتحلل إلى رماد. لستُ أدري كم معا سأرويه الآن سيكون وفياً للحقيقة. أعرف أن ما سأرويه سيكون وفيّاً لذكرياته وحياته بقدر وفائه للغته المراوغة وغير المباشرة، والتي بدت لي من عصر آخر.

بدأ كارينيو بوصف مساء ضجره الأول في خونين: موسيقى الرقصات الشعبية الصاخبة التي تبثها مكبرات الصوت حتى الساعة العاشرة ليلاً؛ أسراب الذباب في فندق روما، حيث أقام مع أعضاء فرقته الموسيقية؛ مناورات القاطرات الصاخبة في محطة الباسفيك؛ جماعات الفتيات اللاتي يتمشين وكل منهن تتأبط ذراع أخرى في ساحة سان مارتين، ينظرن إليهم بطرف عيونهن، يتكلمن وهنّ يغطين أفواههن. قال لي بغموض (أو ربما أوحى لي أن أفكر) إن واقعاً بمثل تلك الرتابة ينتهي به الأمر لأن يبدو أبدية، وأي نوع من الأبدية يثير الإحباط. تناولوا في قاعة طعام فندق روما عشاء مؤلفاً من جامبون زنخ وقطع لحم ضاربة إلى الخضرة. أحس الموسيقيون بعسر هضم. ولم ينم أحد منهم جيداً.

وصل ماغالدي صباح اليوم التالي في قطار الساعة العاشرة ومعه بيدرو نودا، زميله في الثنائي. تركا أمتعتهما في حجرة سيئة أخرى في فندق روما، ثم التقيا مع كارينيو في سينما كريستال بالاس، حيث سيقدمان حفلهما تلك الليلة. كانت الكواليس قطع أقمشة سوداء وأرضية من الإسمنت الأبيض. المصباح الكشاف الوحيد على المنصة ينطفئ تلقائياً بعد ثلاث دقائق أو يضيء مرتعشاً. فرأى ماغالدي أن الغناء في الظلمة أفضل.

كانت سخريته، وهي قاتمة بالطبع، على وشك الانحدار إلى الاكتئاب. حان موعد الغداء. ولم يشأ كارينيو العودة إلى الفندق، حيث وجبة الغداء لا تقل تهديداً عن وجبة الليل. وقد نصحوهم في متجر منوعات بالذهاب إلى نُزل دونيا خوانا إبارغورين دي دوارتي، فهي تقدم وجبات للنزلاء الثابتين فقط، ولكنها لن تدع ضيوفاً مشهورين مثلهم يفلتون منها.

كان النزل في شارع وينتير، على بُعد ثلاثة شوارع من الساحة. وبعد اجتيازّ ردهة المدخل تظهر قاعة طعام فسيحة، ومن خلالها يُرى فناء لبلاب ونباتات متسلقة أخرى. طرق ماغالدي الباب وسأل إن كانوا مستعدين لاستقبال عشرة أشخاص آخرين على الغداء. وافقت على ذلك دون مفاجأة سيدةٌ ممتلئة، تضع نظارة، وعلى رأسها منديل. «إننا نقدم ثلاثة أطباق ـ قالت ـ ويجب دفع سبعين سنتافو مقابل كل طبق. ارجعوا بعد نصف ساعة».

وقد كان بانتظارهم غداء تاريخي، مؤلف من ذرة ملفوفة بأوراقها وصدور دجاج. ويتذكر كارينيو أنهم تقاسموا المائدة مع ثلاثة نزلاء متكبرين يضعون طماقات وياقات منكسرة. أحدهم، كما يتذكر، ضابط من الحامية المحلية. والآخران قدّما نفسيهما على أنهما محاميين أو معلمين. وكانت بنات دونيا خوانا يأكلن بصمت، دون أن يرفعن رؤوسهن عن الأطباق. إحدى الكبيرات فقط أعربت عن أسفها لأن أخاهن الوحيد بعيد عن البيت. وقالت: لا أحد يستطيع محاكاة كارينيو مثلما يقلده أخوها.

احتكر ماغالدي الحديث. وقد حسنت الرفقة والنبيذ من مزاجه. استبقى الفتيات وهو يشرح لهن بالتفصيل أسرار تسجيل الاسطوانات في غرفة محكمة، حيث يفلت المغنون الصوت في بوق ضخم. وقد فتن النزلاء بتحدثه إليهم عن كاروسو العظيم الذي تنزه معه في روساريو. الوحيدة التي بدت غير مهتمة بسحر ماغالدي هي الابنة الصغرى، وكانت تتأمله بجدية، دون أن تبتسم له ولو مرة واحدة. ضايقت المغني كل تلك اللامبالاة. وقد قال لي كارينيو: «لاحظت مع نهاية الغداء أنه نسي الجميع ولم يعد يتوجه إلا إليها».

كان عمر إيفيتا خمسة عشر عاماً. وكانت شاحبة، شبه شفافة، وبحاجبين طويلين منتوفين تمدهما رسماً حتى الصدغين تقريباً. وكان شعرها الناعم والدهني بعض الشيء مقصوصاً كشعر الأولاد. ومثل جميع مراهقات الأرياف، أشار كارينيو، كانت متسخة وتتدلل بخفر. لا أدري

كم من الصورة التي نقلها مختلط بصورة إيفيتا التي صار يتردد عليها في ما بعد، خلال الشهور الأولى من العام 1935. الذاكرة تنزع إلى الخيانة، ولكن المهم على كل حال في هذه الرواية ليس جمال الفتاة النفور في تلك السنوات، وإنما عنادها.

قبل أن تُقدم التحلية، وقف بلبل على إحدى صحاف الطعام ونقر حبة ذرة. قدّرت دونيا خوانا أن تلك إشارة فأل طيب، واقترحت عليهم شرب نخب آخر. المحامي أو المعلم عاند بالقول إنه ليس بلبلاً وإنما هو سُمنة. وضع أحدهم نظارته ذات الإطار الأسود ليتفحص الطائر عن قرب. فأوقفته إيفيتا بحركة حاسمة.

– ابقَ هادئاً ـ قالت له ـ عندما تخيف البلبل لا يعود بعدها إلى الغناء.

ظل ماغالدي ساهماً وتوقف عن الكلام منذ تلك اللحظة. فهو، ومثله المغني غارديل، وإغناثيو كورسيني، جرت العادة على تسميتهم «البلبل الكريولي» أو «العندليب الأرجنتيني» (والعندليب هي تسمية أخرى للبلبل). وقد كان متطيراً، ويجب أن يكون قد شعر بأنه إذا ما التقى بطائر بري هلوع، لا يُرى عادة إلا في الأسر. فإنما ذلك لأنهما كليهما مصنوعان من الجوهر نفسه. لقد كان ماغالدي يؤمن بالتقمص، والرؤى الرمزية، وبالقدرة الحاسمة للأسماء. وإقدام إيفيتا، دون أن تدري، بذكر أشد مخاوفه سرية – عدم القدرة على الغناء – جعله يعتقد أن هناك بينه وبينها كذلك رابطاً غير مرئي. لقد أخبرني كارينيو بذلك بلغة أشد باطنية وهوساً مما أفعله، في سعي منه لتوضيح أفكاره. تحدث عن را، وأورني، وطقوس حج بين الكواكب، وعن مشاهد روحانية أخرى لم أفهم معانيها. ومع ذلك، فإن إحدى صوره ظلت محفورة في ذاكرتي. قال إنه، بعد حادثة البلبل، تقاطعت نظرات إيفيتا وماغالدي في لحظات عديدة. ولم تكن هي من تزيح عينيها عنه. بل كان هو من يخفض رأسه. بعد تناول التحلية. قالت بصوت لا يقبل الاستئناف:

– ماغالدي أفضل مغن اليوم. وأنا أيضاً سأصير أفضل ممثلة.

وقبل أن ينصرفوا، استدعت الأم ماغالدي واقتادته إلى إحدى غرف النوم. ومن قاعة الطعام كانت تُسمع السينات الرتيبة التي تنطق بها المرأة، ولكن ليس كلماتها الكاملة. دمدم المغني بشيء له وقع الاحتجاج. وعندما خرج كان قد استعاد مظهره الكئيب. وقال: «سنواصل الحديث غداً. ذكّريني بذلك في الغد.»

امتلأت سينما كريستال بالاس في ليلة السبت تلك. وعزفت أوركسترا كارينيو مضاءة بثريات السقف. أما ماغالدي الذي يفضل العتمة، فقد أشعل على المنصة شمعدانين وخلق التأثير الكئيب الذي يتناسب مع أغانيه عن التعاسة. شغلت نساء أسرة دوارتي نصف صف من المقاعد في عمق الصالة، وصفقن بحماسة. إيفيتا وحدها كانت تبدو نائية وغير متأثرة. كانت عيناها البنيتان مسمرتين على المنصة ولا تعكسان أي شيء، كما لو أن المشاعر قد انسحبت منها.

وعند المخرج، كان هناك ستة أو سبعة مزارعين، جاؤوا بعائلاتهم ليثبتوا لها أن ماغالدي رجل من لحم وعظم وليس مجرد وهم في الإذاعة. اقتربت أمهات بعض المعتقلين من بيدرو نودا ومعهن رسائل توسل من أجل التخفيف من أهوال زنازين سجن أولموس. وعلى خط الرصيف، كان يقف مالكو صالة كريستال بالاس مستندين إلى أبواب سياراتهم الفويترت، للذهاب إلى مأدبة نظموها في النادي الاجتماعي. كانوا يرتدون بدلات بيضاء وقمصاناً قاسية الياقات. وكان الجزع بادياً عليهم، وبين لحظة وأخرى يطلقون نفير السيارات. كانت دونيا خوانا تقف بين ماغالدي وبينهم، متقاطعة الذراعين. لقد بدت أنيقة جداً، تضع وردة كبيرة من الأورغنزا على فتحة صدر ثوبها. انتظرت دقائق قليلة ثم تقدمت من المغني. أمسكت بذراعه وحرفته عن طريقه. وكارينيو الذي كان متيقظاً، سمع الحوار السريع والجاف.

– تذكر ما وعدتني به: غداً ستتناولون الغداء مرة أخرى في بيتي، أليس كذلك؟ أنت ونودا ستأتيان كمدعوين مني.

– لا أدري إن كنا سنستطيع ـ تفاداها ماغالدي ـ فحفلة الغد ستكون بعد الظهر. لا تتيح لنا إلا وقتاً قصيراً.

– الحفلة في الساعة السادسة. لديكم ما يكفي من الوقت. لماذا لا تأتون في الساعة الثانية عشرة وتظلون حتى الثالثة؟

– لا بأس. الساعة الثانية عشرة والنصف.

– وقدّم لي جميلاً أخيراً يا ماغالدي. احضر في الساعة الحادية عشرة إلى الساحة، أتستطيع ذلك؟ لقد منحوا إيفيتا خمس عشرة دقيقة لتلقي أشعاراً عبر مكبر الصوت. إنها تموت لهفة لأن تسمعها حضرتك. هل أمعنت النظر فيها؟

– إنها جميلة ـ قال ماغالدي ـ لديها إمكانات.

– أليس صحيحاً أنها جميلة جداً؟ لقد قلتُ ذلك. هذه البلدة ضيقة عليها.

نفير سيارات الفويتريت أثقل عليهما. تخلص ماغالدي منها كيفما استطاع ودخل إحدى السيارات. ظل طيلة الليل مستغرقاً في أفكاره. مفلتاً بعض الكلمات الضرورية المقتضبة. لم يكد يأكل شيئاً، ولم يشرب سوى كأسين من الجرابّا، وعندما طلبوا منه أن يداعب الجيتار، تعلل بأنه لا يجد في نفسه الحماسة. وكان على نودا أن يغني وحيداً.

رجعوا إلى الفندق قبل قليل من بزوغ الفجر. وتشاغلوا في ردهة المدخل باهتزازات القطار السريع القادم عبر الصحراء. اقترح كارينيو أن يقوموا بجولة حول المبنى، وقبل أن يرد عليه أي منهم، اقتاد ماغالدي الذي كان ينصاع باستسلام. كان ذلك في شهر تشرين الثاني، وكانت السماء صافية، وفي الهواء يطفو شرر الندى. مرا أمام مجموعة بيوت متماثلة، تُسمع فيها قأقأة الدجاج. عبرا أرضاً خلاء، وحوشاً كبيراً، وبلاطاً غير منتظم في موقف للعربات. كانا يمشيان وأيديهما في جيوبهما، دون أن ينظر أحدهما إلى الآخر.

– ما الذي تنتظره كي تخبرني بما أصابك؟ ـ قال كارينيو ـ فلنر إن

كنتَ قادراً على الوثوق بأحد.

– إنني على ما يرام ـ أجابه ماغالدي.

– لا تزعجني بهذا الكلام. فقد ولدتُ وأنا أعرف الناس.

توقفا تحت عمود إنارة. كان الضوء يرسم دائرة مرتعشة. «شعرتُ ـ قال لي كارينيو ـ أن حواجزه الداخلية تنهار. لم يعد قادراً على تحمل روحه ويحتاج إلى الفضفضة عن نفسه».

لقد طلبت منه دونيا خوانا أن يكون عراب إيفيتا في بوينس آيرس، بعد أن ظلت تعارض سفرها منذ شهور. لم تكن تريد لابنتها أن تسافر وحدها، وهي في الخامسة عشرة، وأنهت لتوها المدرسة الابتدائية. ولكن إيفيتا، كما قالت، لا تتراجع. لقد ألحت عليها إلى حدّ كسرت معه إرادتها. إنها يتيمة، وليس لها هناك أي قريب سوى أخيها المجند في الجيش، وهي تحلم بأن تصير ممثلة. لقد مرّ من خونين مسرحيون مثل باكاريثا، ومغنون مثل تشارلو، وموسيقيون مثل بيدرو ميغيل أوبليغادو. وقد طلبت العون منهم جميعاً، وجميعهم رفضوا ذلك بحجة أنها مازالت طفلة ويجب أن تنضج. ولكن ماغالدي بالمقابل يرى أبعد من أي واحد منهم. ويفوقهم في الشهرة، وفي العلاقات، وفي الموارد. لا يمكن لأحد أن يرفض توصية منه. لقد قال هو نفسه إن لدى تلك الفتاة إمكانات. ولا يمكنه التراجع. أضف إلى ذلك، هناك مسألة البلبل. لقد حطّ على المائدة كي يضع علامة على قدره. وصم الأذن عن إنذارات بلبل هو استحضار لسوء الطالع.

كان الضياء قد بدأ ينتشر بسرعة. وفي الجانب الآخر من خطوط السكة الحديد، كانت السماء تتمطى وسط أبخرة برتقالية. وحين انعطفا عند الناصية، رأيا الفندق. توقف ماغالدي. قال إنه تردد طوال الليل ولكن هذه المحادثة أزالت الغشاوة عن عقله. وصار يعرف أخيراً ما عليه عمله. سيسافر مع إيفيتا إلى بوينس آيرس. وسيدفع لها نفقات الإقامة في نزل، وسيقدمها في الإذاعة. لقد صار الوقت متأخراً جداً، أو مبكراً جداً، ولم تعد لدى كارينيو قوى لصرفه عن ذلك.

- عمرها خمس عشرة سنة ـ كان هذا هو الشيء الوحيد الذي قاله ـ إنها في الخامسة عشرة فقط.

- ولكنها صارت امرأة ـ أجابه ماغالدي ـ أمها أخبرتني: لقد تحولت إلى امرأة بين يوم وآخر.

تلا ذلك يوم أحد غث، لا نهائي، من تلك الأيام التي يفضل المرء نسيانها. ألقت إيفيتا عبر مكبرات الصوت في دار الموسيقى قصيدة لآمادو نيرفو بمبالغة في الكركرة وبنطق كارثي للكلمات. ويتذكر كارينيو أنها حاولت محاكاة أسلوب غارديل: «إلى أين يذهب الموتى يا رب، أين يذهبون؟ ربما إلى كوكب مستحم بالظلمات...». صفقوا لها. واجتازت الساحة مع أخواتها، بينما كان مغني سوبرانو من البلدة يفتت *يا قديسة مريم* لشوبير. انتزع ماغالدي القرنفلة البيضاء من عروة ياقته وقدمها إليها. وقد كان ـ على حد قول كارينيو ـ قد وقع في غواية نأي إيفيتا، في الازدراء الذي تعبر هي فيه عن شيء ربما يكون تقديراً.

في تلك الليلة، بعد انتهاء الحفلة، صعدوا إلى القطار القادم من جهة الباسفيك. ودّعت دونيا خوانا وبناتها إيفيتا على رصيف المحطة وهن يبكين. وتحت أضواء المحطة الصفراء، بدت هي أشبه بطفلة ونصف نائمة. كانت ترتدي جوربين تافهين، وتنورة قطنية، وبلوزة من الكتان، وقبعة من القش، وتحمل حقيبة مخططة. دست أمها عشرة بيزوات في صدرها وظلت طوال الوقت إلى جانبها، تداعب شعرها، إلى أن ظهر القطار. لقد كان مشهد تمثيلية إذاعية، هذا ما قاله لي كارينيو: الأمير الأزرق ينقذ الريفية الفقيرة وقليلة الجمال من بؤسها.كل شيء كان يحدث بصورة مشابهة إلى هذا الحد أو ذاك لأوبرا تيم رايس ولويد ويبر، وإن يكن دون قرع صنوج.

كانت عربة القطار شبه خاوية. فضلت إيفيتا الجلوس وحدها، وأسندت جبهتها إلى النافذة، متأملة ظلال المشهد السريعة. وعندما توقف القطار في تشيفيلكوي أو في سويباتشا، بعد ساعة من المسير، اقترب

ماغالدي منها وسألها إن كانت سعيدة. لم تنظر إيفيتا إليه. قالت له: «أريد أن أنام»، والتفتت برأسها نحو ظلمة السهوب.

منذ تلك الليلة صار ماغالدي رجلاً منقسماً. يقضي الصباح وشطراً من المساء في نزل في شارع كايّاو، حيث تعيش إيفيتا. وهناك وضع ألحان أجمل أغانيه عن الحب، *من تكونين أنتِ* و*عندما تحبينني*، وهو جالس على مقعد من جلد عجل. وكارينيو الذي زاره مرتين، مازال يتذكر سرير الرهبنة الحديدي، وطست الغسل المقشر، وصور رامون نافارّو وكلارت غابل المثبتة بدبابيس على الجدار. كانت الحجرة الضيقة تعبق برائحة مبولة وصودا الغسيل، غير أن ماغالدي المستسلم لسعادة جيتاره كان يغني بصوت خافت، دون أن يضايقه شيء. كما أن إيفيتا كانت تبدو أبعد ما يكون عن أي بؤس. تتنقل متألقة، بمنشفة على رأسها، تضبط طلاء أظفارها أو تنزع شعر حاجبيها الزائد أمام مرآة منخورة.

ومع حلول المساء، يذهب ماغالدي إلى الإذاعة ليراجع مع نودا الألحان الخمسة أو الستة التي يغنيانها في برنامج الساعة التاسعة ليلاً. وبعد ذلك يلتقيان مع موسيقيين وكاتبي أغنيات من فرق موسيقية أخرى في 36 بلياردو أو في إميليانا، حيث يغادر كل يوم في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل. ولم يكن يتخلف قطّ عن قضاء الليل في بيت الأسرة الواسع في شارع إليسينا، حيث غرفته التي بلا نوافذ والمظللة باللبلاب والياسمين. وكانت أمه تنتظره مستيقظة، تقدم له بضع كؤوس من المتة وتخبره بأحداث النهار. لم يكن اسم إيفيتا يطل في تلك المحادثات. فإيفيتا، على حدّ قول كارينيو، شكلت على الدوام حملاً شديد الوطأة في حياة المغني، باعتبارها ذنباً اقترفه أو عاراً لا يمكن البوح به. لقد كان يكبرها بثمانية عشر عاماً: وهذا أقل ست سنوات من فارق العمر بينها وبين بيرون. ومع ذلك، كان ماغالدي يرى في ذلك استغلالاً.

وكان في تلك الشهور أن بدأ الحظ يجافيه. ففي الأيام الأخيرة من شهر تشرين الثاني، وقع خلاف بينه وبين خايمي يانكيلفيتش، قيصر محطات

الإذاعة: ففقد في يوم واحد عقده للعام 1935 وفرصة تقدم إيفيتا إلى اختبار في الإلقاء كانوا قد وعدوها به. فاضطر ماغالدي مكرهاً إلى قبول العمل في إذاعة باريس، لكن نوبة آلام كبد قاسية أجبرته على التأخر في البدء. وقد أدت هذه النوائب إلى الضرر بصداقته مع نودا وأغضبت إيفيتا التي أمضت أياماً لا تكلمه.

لقد حيرتني، منذ البدء، التواريخ في رواية كارينيو. فكاتبو سيرة حياة إيفيتا يتفقون على أنها ذهبت إلى خونين في الثالث من كانون الثاني 1935. لا يعرفون إذا ما سافرت مع ماغالدي أم بدونه، ولكنهم يلحون بعناد على الثالث من كانون الثاني. قلت ذلك لكارينيو. فسألني: «ما الدليل الذي يقدمونه ليكونوا متأكدين هكذا؟ هل هناك تذكرة قطار، أو صورة فوتوغرافية؟» وافقت على أنني لم أرَ أي دليل. فقال لي: «أنا أعرف ذلك من معايشتي له. وأنا لا أحتاج إلى المؤرخين كي يصححوا لي ذاكرة حياتي.»

وحسب قول كارينيو فإن إيفيتا أمضت معه عيد الميلاد عام 1934. كان أخوها خوان مناوباً تلك الليلة في معسكر مايو، وكانت قد أخفقت في اختبارات التمثيل في إذاعة فينكس، ولم يبق معها شيء من النقود التي أعطتها إياها أمها. كانت تشكو من أن ماغالدي يهجرها. وقالت له إنه رجل تسيطر عليه أسرته، وأنه لا يحب اللهو ولا الرقص. عندئذ نصحها كارينيو بأن تعود إلى خونين فواجهته بأشد رعب في حياته قائلة له: «أنت مجنون. لن يخرجني أحد من بوينس آيرس إلا ميتة».

منذ تعافى ماغالدي من نوبة آلام الكبد تحولت إيفيتا إلى ظله. كانت تنتظره في غرفة كونترول التسجيلات أو في مقهى من مقاهي شارع كانغايّو وسويباتشا، مقابل الإذاعة. بدأ هو بتجنبها ونادراً ما كان يزورها في النزل، وإن كان لا يزال يدفع النفقات. وكان قد أمضى أكثر من أسبوع دون رؤيتها عند العرض الأول لفيلم *روح الأكورديون* في سينما مونومينتال. كانت موجودة في ازدحام البهو، تطلب توقيع أوتوغراف من سنتياغو

آربتي ودوريتا دافيس. وكانت قد طلت ساقيها لتتظاهر بأنها تلبس جوربين حريريين. شعر ماغالدي مرة أخرى بخجل ساحق وانسل خافضاً رأسه بين الحشد، ولكن التصفيق ووميض مغنيسيوم آلات التصوير وصرخات المعجبات شقت له الطريق. كان يتقدمه نودا وكبير الأنف ديسثيبولو الذي وضع موسيقى الفيلم. ويمضي خلفه، بمشقة، كارينيو وليبرتاد لاماركي. لمحته إيفيتا من بعيد وتعلقت بذارعه. وتمكن ماغالدي من سؤالها: «ما الذي تفعلينه هنا؟». لم تجبه. تقدمت معه، حاسمة، ظافرة، ومواجهة ومضات أضواء المصورين.

تلك كانت هي النهاية. نهض ماغالدي من الصالة فور إطفاء الأنوار. فلحقت به متعثرة بحذاء ذي كعب عال جداً. تجادلا بشراسة. أو بعبارة أدق: كلمته هي بشراسة، واستمع هو باستسلام، كالعادة، وتركها تجتر غضبها في عدائية الليل. ولم يعودا للقاء.

«لقد أغوته بالازدراء وفقدته بتماديها في الجرأة»، قال لي كارينيو. ثم أضاف: «منذ زمن كان ماغالدي قد ضجر منها. فقد كانت غرامياته من زبد، مثل جميع الدونجوانات، ولكن لو أن إيفيتا عاملته بصبر، لكان تحمل تلك العلاقة حتى النهاية، بدافع المسؤولية أو الشعور بالذنب. ربما ما كان سيعطيها مكانتها، لأن المرأة إما أن تفرض احترامها منذ اليوم الأول وإلا لن تحصل عليه أبداً، ولكن ماغالدي كان رجل كلمات. ولولا الشجار في سينما مونومينتال، ما كان ليتركها بائسة في الحال التي تركها فيها.»

في أكثر من مناسبة كان على كارينيو أن يسعفها في عشيات ذلك الخريف المشؤوم. دفع لها أجور مبيت ثلاثة أيام في نزل في شارع سارمينتو، وتقاسم معها غداء من الشطائر على مناضد الرخام في الأتينيو ودعاها إلى حفلة المساء في إحدى دور سينما الأحياء. وقد كانت جزعة على الدوام، تقضم أظفارها، تترصد أي مناسبة لتتكلم في الإذاعة. لم تشأ إرسال رسائل ندم وتحسر إلى خونين خوفاً من أن تجبرها الأسرة على

الرجوع، ولم تكن تتقبل القروش التي يعرضها عليها أخوها خوان، لأنها تعرف أنه غارق في الديون حتى العظم. بعض كتّاب سيرتها يظنون أن ماغالدي هو من حصل لإيفيتا على أول عمل في فرقة إيفو فرانكو المسرحية. ولكن الأمر ليس كذلك، بل إنه لم يرها تمثل. من جعل حياتها تستوي وتنصب هو كارينيو. وقد روى لي هذه النهاية السعيدة للقصة في المساء الوحيد الذي التقيت به فيه. إنني أتذكر اللحظة بدقة. أتذكر العصافير التي كانت تغرد على الأشجار التي بلا أوراق، والأكشاك الصدئة في الحديقة المقابلة، حيث يبيعون كتباً مستعملة وطوابع نادرة.

«ذات ليلة، في منتصف شهر آذار، وجدتها في أحد مقاهي تقاطع سارمينتو وسويباتشا» قال لي، «كانت تحيط بعينيها زرقة شديدة، وكان كل شيء يسبب لها الغثيان، وبدت ساقاها مجرحة ببثور آثار حك. ففي الخامسة عشرة من عمرها كانت قد عرفت أسوأ ما في الحياة من سواد. وكنا نتبادل الوداع عندما انفجرت في البكاء. أذهلتني دموع تلك المخلوقة الشديدة البأس، والتي لا تهزمها التعاسات. أظن أنها لم تبك قطّ أمام أحد، اللهم إلا بعد زمن طويل من ذلك، عندما حزنت على الصحة التي فقدتها فانكسر صوتها في ساحة مايو. أخذتها إلى بيتي. وفي تلك الليلة بالذات اتصلت هاتفياً بإدموندو غيبورغ، كاتب المقالات في *كرونيكا*، والذي نحترمه نحن أهل المسرح جميعنا. كنت أعرف أين أجده، لأنه يظل مستغرقاً حتى الفجر في كتابة تاريخ أصول المسرح الأرجنتيني. وصفت له إيفيتا وطلبت منه إيجاد أي عمل لها. توقعت أن يجد لها وظيفة إرشاد المتفرجين إلى مقاعدهم في الصالة، أو عاملة مكياج أو مساعدة خياطة. لا أحد يدري بأية تحولات حظ انتهت للظهور كممثلة. بدأت التمثيل في الثامن والعشرين من آذار 1935، في مسرح كوميديا. وكانت تؤدي دور خادمة في مسرحية *السيدة بيريث*، مسرحية من ثلاثة فصول. تأتي من عتمة خلفية المسرح، تفتح باباً، وتتقدم نحو منتصف المنصة. ولن تغادر ذلك المكان إلى الأبد.»

«بعد موت غارديل ـ قال لي كارينيو بصوت ناءٍ، أذابه الإنهاك والنعاس ـ لم يعد لدينا نحن الأرجنتينيين إلا ماغالدي. ولم تتناقص شهرته حتى عندما تحول إلى التصنع ونظم أغنيات تشير إلى رعب سيبيريا، وهي أغنيات لم يجد أي مستمع نفسه فيها. وصارت تتناوب عليه بعض الأمراض بكثرة ويشفى منها باللبخات والمحاجم، وهو مختبئ في بيت الأسرة الكبير بشارع ألسينا، دون أن يتقبل رفقة أخرى سوى أمه. وفي المسارح، كان يرد على التصفيق بانحناءة قصيرة، وقد سها أكثر من مرة بخلط كلمات أغنية بموسيقى أغنية أخرى. وظن أن يشفى عندما تزوج من شابة من ريو كوارتو وأعلن أنه سيكون أباً. ولكن تلك السعادة قتلته. نزف صاعق في الغدة الصفراوية قضى عليه بين عشية وضحاها. كانت إيفيتا تعمل آنذاك في فرقة رافائيل فيرتوسو المسرحية. وفي ليلة السهر على جثمانه، ذهب زملاؤها بعد انتهاء العرض إلى لونا بارك لوداع ماغالدي. أما هي فرفضت الذهاب. انتظرتهم وحيدة، في بار قريب، حيث تناولت بفتور فنجان قهوة بالحليب».

كانت هناك عبارات أخرى في تلك الأمسية، ولكنني لا أريد تكرارها. ظللتُ لوقت طويل جالساً إلى جانب كارينيو وبعد ذلك مشيت باتجاه الحديقة العدائية، تجرجرني موجة من الأسئلة التي لا يمكن لأحد الرد عليها، وربما أنها لا تهم أحداً كذلك.

- 14 -

«الخيال الذي يمثّل»

في اليوم السادس من الإبحار، كان ضيق القمرة يخنقه. ومع ذلك، فإن الأمر المزعج إلى حدّ لا يطاق، هو إشفاق طاقم الملاحين عليه. ففي فجر كل يوم، كان الضابط الذي ينزل معه إلى العنابر يحييه بالسؤال نفسه:

– أتشعر بتحسن أيها السيد ماجيستريس؟ أتستريح جيداً؟

– أجل ـ يجيبه ـ *Mi sento bene*.*

كان يعاني، ولكنه لم يشأ قول ذلك. فحرقة الجرح توقظه في الليل. والرؤية بالعين اليسرى تسوء أكثر فأكثر: إذا ما غطى العين السليمة، فإن العالم يتحول إلى شبكة غيوم متبدلة، إلى نقاط مضيئة مضطربة، إلى ظلال مع نجوم صفراء. ومع ذلك لا يمكنه إظهار أي إنهاك. فما إن يراه العدو ضعيفاً حتى يوجه ضربة مخلبه. يمكن للعدو أن يختبئ في أي مكان: على متن السفينة، في محطات توقف السفينة في سانتوس وريسيفي، بين حمالي ميناء جنوى. كان يسمع أنفاساً منطفئة في الجانب الآخر من الباب، وفي الطريق إلى العنابر، يشعر بوقع خطوات تتبخر. هناك من يرصد تحركاته: إنه متأكد من ذلك. لم يهاجموه بعد ولكنهم سيفعلون:

---

* بالإيطالية: إنني على ما يرام.

مازال هناك وقت طويل على انتهاء الرحلة.

كان ينزل إلى العنبر بين الرابعة والسادسة صباحاً. ولكنه لم يتقيد بموعد محدد، ولا يتقيد كذلك بالذهاب عبر الممرات نفسها. كان تابوت ماريا ماغي يستند إلى قاعدة حديدية، بمحاذاة بدن السفينة، في المقدمة. تخفيه قطع أثاث مسافر دبلوماسي وأرشيف أرتورو توسكانيني، وقد حُملت إلى السفينة في سانتوس. كان يبقى من عشر دقائق حتى خمس عشرة دقيقة قبالة الصندوق، مطأطأ الرأس، ثم ينصرف. وفي كل فجر يزيد إمعاناً في التيقظ والانتباه. كان يخيل إليه أن جسد المتوفاة يناديه خفية، بسرية. ولو أنه مؤمن لأمكن له أن يقول إنه نداء خارق للطبيعة. وما إن يقترب من التابوت حتى تلامسه ومضة تنفس جليدي. وبخوف، كان يفتح قفلي الأرقام المشفرة ويرفع الغطاء: هذه هي الأوامر. لم يكن يجدها في الحال نفسها قط. فللجسد الغريب خلود قلق، غير مستقر. ولأن التابوت ضخم جداً، ولأنها تكاد تطفو فيه، فقد ثبتوها بقطع من الآجر. كان الغبار القرمزي يصبغ ببطء شعرها، وأنفها، وأهدابها. ولكنها كانت تلمع مع ذلك. لقد نبهه المحنِّط إلى الأمر، في الميناء، بجملة مكتوبة: «هذه المرأة تلمع مثل قمر أذنها اليمنى». قمر أو شيء أو نكبة، المرأة تشع فسفورية في عتمة عنبر السفينة.

وفي بعض الأحيان، من أجل تبديد كوابيس النزول، كان المسافر دي ماجيستريس يواصل الحديث مع الضابط الذي يرافقه حتى مدخل العنبر. لقد سأله الضابط، منذ اليوم الأول، عن موت زوجته. فردّ عليه بالرواية التي صاغوها في جهاز المخابرات، وتدرب هو عليها مرات لا حصر لها، أمام وزير الجيش وأمام قائده الجديد الكولونيل توليو ريكاردو كوروميناس. «كنا نمضي في سيارة شيفرليه جديدة ـ قال ـ وكنا نتجه نحو الجنوب. كان الوقت فجراً. وكانت زوجتي قد غفت. وعند لاس فلوريس انفجرت العجلة وخرجت السيارة عن السيطرة. اصطدمنا بعمود. انكسرت جمجمة زوجتي وماتت على الفور. أما أنا فطرت من خلال الزجاج الأمامي.»

كان دي ماجيستريس طويل القامة، مهيباً، وبه شيء من الانحناء. وكانت ندبة جرح طويل تشق جبهته وعينه اليسرى وخده. ويبدو التقعر في الشفة السفلى كأنه امتداد للندبة، ولكن لا: إنه الأثر الوحيد الإرادي. لقد حصل عليه من العزف على بوق الكلارينيت. ومازال أحد ذراعيه مضمداً بالجبس، وجسر أنفه مكسوراً. ولكن لا وجود لألم، كما قال، يعادل ألمه لفقدان امرأته. لقد ولدا كلاهما في جنوى. وهاجرت أسرتاهما في السفينة نفسها إلى بوينس آيرس. ترعرعا معاً، في بيراثاتيغي. وكلاهما كان يحلم بالعودة ذات يوم إلى المدينة التي لم يرياها، ويعرفان مع ذلك كل ساحة وكل نصب فيها: كنيسة يوحنا المعمدان، وادي بيساغنو، برج أجراس القديسة ماريا دي كارينيانو، حيث يمكن من هناك رؤية التحصينات والميناء وزرقة بحر تيرينو. وقد قرر أن يدفنها هناك، بين تلك المناظر.

وكان دي ماجيستريس يكرر القصة بنبرة حزينة، قابلة للتصديق. لقد وقع الحادث بالطبع، ولكنه لم يكن نتيجة المصادفة، وإنما هو، ربما، من تدبير كوماندو الانتقام. وفي الأحداث الواقعية لا وجود للحب الذي يتحدث عنه: لا وجود لغير الحقد.

بعد الاعتقال المخزي لوري كينيك، وضعَ مصيرُ إيفيتا الحكومةَ العسكرية على أحرّ من الجمر. فقد حذر المساعدون من أنه إذا أقدم أحدهم على نشر قصة انتهاك حرمة الميتة، فإن البلاد ستشتعل. ولا بد بالتالي من دفن ذلك الجسد البارودي بأسرع ما يمكن.

وصلت الأوامر خطياً إلى مكتب النقيب غالارثا ذات ليلة من شهر تشرين الثاني. وكانت مكتوبة بيد الرئيس، في رسالة مقتضبة تحمل الشعار الوطني وتقول: «لن أتسامح مع مزيد من التأخير. اعملوا بأسرع ما يمكن على دفن تلك المرأة في مقبرة مونتي غراندي.»

وفكر غالارثا في أن تلك المهمة ستكون مهمة حياته. أمر بنقل التابوت إلى شاحنة عسكرية. وأمن له حماية من جماعة تضم ستة جنود. كان

فيسكيت قد عرض عليه مرافقته، ولكنه رفض ذلك. فهو يفضل الوحدة والسرية. قاد السيارة ببطء، وبأقصى ما يمكن من الحذر بسبب الحفر والشقوق المفاجئة في الشوارع المرصوفة. اجتاز منطقة الثلاجات، وشاطئ مناورات قطارات الجنوب، وضاحيتي بانفيلد وريميديوس دي إسكالادا. وقدر أنه في نهاية العام، سيكون قدره مختلفاً: سيترفع إلى رتبة رائد، وسينقلونه إلى فيلق بعيد. ولن يعيش أبداً شيئاً مماثلاً لما يعيشه الآن، ومع ذلك، لن يكون بإمكانه أن يرويه. التاريخ سيخرج من يده، ولكن دون أن يخلّف أي أثر على يده.

بالقرب من محطة لوماس، خرجت سيارة صهريج من الظلام وصدمته. أحس بالصدمة القوية التي انتزعت الواقية الخلفية وغرست مقدمة السيارة في عمود نور. تمكن من إخراج مسدسه من قرابه والنهوض. إذا ما انتزعوا منه المتوفاة فستكون نهايته وربما نهاية الأرجنتين. كان الدم يعمي بصره. والخوف من أن يقضي الألم عليه قاده حتى باب الشاحنة الخلفي. فتحه بقوة اليأس أو الغريزة، وفقد الوعي.

استيقظ في المستشفى. قيل له إن اثنين من الجنود قد ماتا. وإن اثنين آخرين أُصيبا بجراح أسوأ من جراحه. أما «شخص»، وخلافاً لهم، فخرجت سليمة: بلا أي جرح، غير متأثرة بين حُجب الكفن المنشاة.

عاد ليجدها في مكتب رئيس جهاز المخابرات، في المكان الذي أخذها منه، دون تكتم، في ليلة الحادث. كانت ترقد في صندوق خشب الصنوبر نفسه الذي يحمل حروف التعليب ـ «أجهزة راديو. ل. ف. 2 صوت الحرية» ـ، تحت مجموعة أجهزة غرينديك. لم يكن ضوء النهار يدخل الآن إلى المكتب. فمن أجل الحيلولة دون أية هجمات، أمر كوروميناس بختم النوافذ المطلة على الشارع بصفائح من الفولاذ. كان على جانبي المكتب علمان كبيران. وبدلاً من الرسم الذي يمثل كانط يمر في كينيكسبرغ، هناك حشد من شخصيات الاستقلال في لوحة جدارية طويلة على الجدران. ومن أجل تحاشي إغواءات التخيل، لم يكن القائد الجديد يبقى

على انفراد مع الجثة: كان أحد أبنائه يدرس أو يرسم خرائط معارك على منضدة الاجتماعات. فإذا ما جاء أحد الضباط لتلقي أوامر، ينسحب الفتى إلى الحجرة المجاورة. وكان كوروميناس، المنهجي والمدقق، يعطر حجرة المكتب بالخزامى كي يبطل مفعول عطر الجسد المخبأ، ويقاوم الضياء الأزرق الذي يبدو أنه ينبعث من التابوت ببروجكتور مسرح قوته خمسمائة فولت، يُفرغ على مجموعة غرينديك ضوءاً أصفر طاغياً.

بين شهري كانون الأول وشباط، أُخضع غالارثا لعدة عمليات جراحية متتالية. ولم يكن قد تحرر من جبائر الجبس بعد عندما حدد له كوروميناس موعداً ذات يوم أحد في مقر المخابرات. كان الخريف يعلن عن نفسه بتموجات من ورق الشجر الضارب إلى الحمرة وبأمطار عنيفة. كانت المدينة كئيبة وكانت جميلة. فالكآبة جمالها. لم يكن هناك من يمشي في شارع كايّاو أو شارع بيامونتي اللذين يغصان بالناس عادة. وباستغراب، سمع في تلك الضفة المتوسطية من بوينس آيرس صفير سفينة.

في ومضة الحادث، فقد غالارثا مهنته وصحته والثقة بنفسه في آن واحد. لقد شوه زجاج واجهة السيارة وجهه. وأدى جرح عميق في العضلات القابضة إلى فقدانه القدرة على تحريك يده اليسرى. وزوجته التي كان يشفق عليها ويزدريها، صارت تشفق عليه الآن. ولم يتحقق أي من الأقدار التي حلم بها. فهو لم ينل الترقية إلى رتبة رائد، واضطر إلى الاستقالة من الجيش، وصارت أشباح هنود توبا وموكوبي الذين قتلهم في كلوريندا تعذب لياليه. لقد كان يكره بيرون حتى قبل تحوله إلى بيرون، وقد تآمر لقتله في يوم خزي من عام 1946. أما الآن فلم يعد يفكر فيه. إنه لا يكره الآن سوى«شخص»، لأنها هي من حاكت شبكة نكبته.

فاجأه وجود فيسكيت في الاجتماع. لم يكن قد رآه منذ عشية الحادث. كان الملازم الأول قد نحل كثيراً، ويستخدم نظارة ذات إطار معدني، ويطلق شارباً عريضاً. أما كوروميناس فكان واقفاً ويستند إلى عكاز. وكان درع من الجبس يجعل سترته العسكرية ضيقة ومشدودة عليه.

فتح خريطة. ثلاث مدن أوربية كانت معلّمة بالأحمر. وعلى مدينة أخرى، جنوى، توجد دائرة زرقاء. كانت عينا الكولونيل ـ هذا الكولونيل ـ عابستين ونظرته حادة.

– سوف ندفن المتوفاة إلى الأبد ـ قال ـ فقد حانت ساعتها.

– لقد فعلنا ذلك ـ قال غالارثا ـ أردنا فعله أكثر من مرة. إنها لا تسمح بذلك.

– كيف لا تسمح؟ إنها ميتة ـ قال كوروميناس ـ. إنها ميتة مثل أي ميتة أخرى. لقد رتبت لها طائفة سان بابلو مدفناً بعيداً من هنا.

– ستبقى على كل حال نُسخ الجثة الأخرى ـ قال فيسكيت ـ. إنها ثلاث نسخ مقلدة، وهي متطابقة تماماً.

– بقيت نسختان فقط ـ صحح كوروميناس ـ. البحرية نبشت القبر في مقبرة فلوريس وأخرجتها خارج البلاد.

– إنها نسختي ـ قال غالارثا ـ إنها النسخة التي دفنتها أنا.

– لابد أنها صارت الآن في لشبونة ـ واصل القائد، وأشار إلى النقاط على الخريطة ـ النسخة المقلدة الثانية ستخرج إلى روتردام آخر الشهر. مثل الأولى، بهوية زائفة ولكنها قابلة للتصديق. الوثائق نظامية. وفي كل ميناء هناك أقرباء ينتظرون. لا نريد أخطاء هذه المرة، ولا نريد تطيراً من الخرافات.

– بقي علينا أن نعرف ما الذي سيفعله كوماندو الانتقام ـ قال غالارثا.

– لقد ظهر اثنان من هذا الكوماندو في لشبونة ـ قال كوروميناس ـ وكانا يريدان التابوت، دون أن يعلما أن الميتة ليست سوى نسخة مقلدة. كانت لديهم هم أيضاً وثائق نظامية. لكن الشرطة البرتغالية اكتشفت أمرهما. فهربا. لن يضايقونا بعد ذلك أبداً. فهم يتابعون أثراً زائفاً.

– لا تشعر بالثقة كثيراً ـ قال غالارثا ـ فهؤلاء الرجال يعرفون ما يبحثون عنه. وعاجلاً أو آجلاً سيصلون إلى هدفهم.

– لن يصلوا. هذا الذي تراه هناك هو جسد المتوفاة ـ قال كوروميناس. مدّ ذراعه وأطفأ الضوء المسرحي المسلط على مجموعة جهاز غريينديك ـ إنه الجسد الحقيقي. منذ حادثة شارع بافون لم يُحرك من هنا. أول البارحة فحصه المُحَنِّط من القدمين حتى الرأس. ظل هنا أكثر من ساعة. حقن الجسد بأحماض وجدد طلاءه بالمراهم. وكان دقيقاً إلى حدّ أنه اكتشف علامة لا تكاد تُرى، على شكل نجمة، خلف الأذن اليمنى. أنا رأيتها. لقد أُحدثت بعد انتهاء تحنيطها.

– إنه الكولونيل موري كينيك ـ توقع غالارثا.

– يجب أن يكون هو. فهوسه بالمتوفاة لم يهدأ. ولكنه بعيد الآن. لقد غادر في شهر شباط إلى بون. فالحكومة عينته ملحقاً عسكرياً في ألمانيا الاتحادية. مازال هناك جنرالات يدعمونه أو يخافونه. إنه شخص خطر. كلما أسرعنا بإبعاده عن العملية سيكون أفضل. إذا ما عاد إلى الإزعاج، فسأتولى أنا وفيسكيت إعادته إلى الطريق السوي.

قاطع فيسكيت ساقيه ثم باعد بينهما بضيق. أشعل الكولونيل سيجارة. بدأ الثلاثة التدخين في فراغ صمت أخرق، أحدي.

– موري كينيك مريض ـ قال فيسكيت ـ ابتعاده عن المتوفاة أصابه بالمرض. كان يهددني. أراد مني أن أرسل إليه الجسد.

– لماذا لا ترسله إلى الجحيم؟ ـ قال غالارثا.

– كانت تهديداته خطرة جداً ـ أوضح كوروميناس ـ عمليات ابتزاز. حالات ضعف من الماضي يريد إخراجها إلى العلن.

– لا تسمح له بتخويفك يا فيسكيت.

– سوف أنهي هذه المهمة ثم أتقدم باستقالتي بعد ذلك ـ قال الملازم الأول. وبدأ شحوب مفاجئ يبدل مظهره. حياته كلها كانت هناك، في العراء، بين ذينك الرجلين اللذين ربما كانا متصلبين، واللذين لا ينتظر منهما الصفح. إنه لا يحتاج إليه. وما يريده هو المغادرة وحسب.

– هذا أفضل ما يمكنك عمله ـ قال كوروميناس ـ ستغادر الجيش مرفوع

الجبين.

هكذا بدأت الرحلة. كان على غالارثا أن يُبحر مع الجثة في الثالث والعشرين من نيسان، في السفينة *كونت بيانكامانو*. وأن يتظاهر بأنه جورجيو دي ماجيستريس، أرمل ماريا ماغي المحزون. أما فيسكيت فسيغادر في الليلة التالية في السفينة *كاب فريو* إلى هامبورغ. وسيكون اسمه إينو كيبين والمتوفاة المزيفة ـ النسخة الأخيرة من «شخص» ـ ستذهب مهربة في صندوق أجهزة الإذاعة حيث تقبع الآن النسخة الحقيقية. سوف يغطونها بكابلات وميكروفونات وأشرطة تسجيل. وسوف يكرر الدكتور آرا في الجسد المصنوع من راتينج وشمع ندبة كالندبة التي لها شكل نجمة وراء الأذن وسيرسم على الرقبة وشماً قصيراً لوريد شعري.

لقد كانت «شخص» على ما يرام، ولكن ما يحدث معها نادراً ما يكون كذلك. فالتابوت الذي اشتروه لها من أجل رحلة عبور المحيط كان كبيراً جداً، ووصل إلى مقر المخابرات متأخراً. كان له قفلا أرقام مشفرة، مما يجعل استبداله مستحيلاً. فكان الجسد يطفو فيه بين أقمشة البطانة الفاخرة.

– حركة البحر ستزعزعها ـ قال غالارثا ـ. وسوف تصل متأذية جداً.

حاولوا تثبيتها بصحف وأوراق تغليف، ولكن فيسكيت انتبه في الوقت المناسب إلى أن هذا التابوت هو الأخير: سترقد وهي فيه، مجهولة، في ضريح أبدي. عندئذ أمر غالارثا ضباط صف الحراسة أن يأتوا بأحجار وبلاط من أي متجر للمواد. لم يجدوا ما طلبه في دائرة تمتد لعشرة شوارع حول المقر. فاستسلموا أخيراً وأحاطوا الجسد بحشوة فظة من قطع الخشب والآجر. وقد اكتفى كوروميناس الذي يتعافى من عملية جراحية في العمود الفقري بمراقبة توازن الأثقال. أكمل فيسكيت العمل وحده، بخراقة، دون أن يدري كيف يغطي الفراغات التي يخلفها بناؤه المهلهل.

– إنه لأمر لا يُصدق ـ قال كوروميناس ـ هذا الجهاز هو مفخرة الجيش، ولكن حين يجب القيام بعمل مهم، يضطر ثلاثة مشلولين إلى

إنجازه.

ملأ غبار الآجر الأرجواني الناعم جو مكتب القائد الجديد وتأخر عدة أيام في الركود. كان مطر الغبار البطيء، الخفيف والحريف، يذكرهم بأنها قد رحلت أخيراً، وأن رحيلها قد يكون إلى الأبد.

كانت الساعة قرابة السابعة مساء عندما وصل غالارثا وحيداً إلى الميناء، في عربة جنائزية. وكان ينتظره، بعصبية، القنصل الإيطالي وكاهن يضع شال الصلوات المحاط بحاشية الحداد.

– *questo era il suo padre?** ـ سأله القنصل مشيراً إلى النعش.

– بل زوجتي، فلترقد روحها بسلام ـ أجابه غالارثا.

– *Che grossa era!*** ـ قال ـ غير معقول.

قُرعت أجراس السفينة، وأطلقت صافرتها أنيناً سريعاً وعميقاً. أمر مفتشا جمارك بوزن التابوت، وبسبب ضيق الوقت، رتل الكاهن الصلاة بينما هم يضعون النعش على الميزان. أشارت الإبرة إلى أربعمائة كيلوغرام.

– هذا كثير ـ قال أحد مفتشي الجمارك ـ فنادراً ما يتجاوز وزن هذه الصناديق مائتي كيلوغرام. هل كان بديناً جداً؟

– بل بدينة ـ أجابه القنصل.

– الأمر يصبح مريباً أكثر إذا كانت امرأة. ستضطرون إلى فتح الصندوق.

غطى البياض عيني الكاهن وهو يرفع ذراعيه نحو قباب رصيف المرفأ الحديدية.

– لا يمكنكم عمل ذلك ـ قال ـ سيكون انتهاكاً لحرمة الميتة. أنا كنت أعرف هذه السيدة. الكنيسة المقدسة تقدم الضمانة.

– إنها الأنظمة ـ أصر المفتش ـ وإذا لم ننفذها سيطردوننا. بيرون وإيفا لم يعودا في الحكومة. ولا مجال للتجاوزات الآن.

---

* بالإيطالية: أهو أبوك؟

** كم كانت بدينة.

أطلقت صفارة السفينة أنيناً آخر، أكثر حدّة وأطول من السابق. أضيئت كافة أنوار حافة السفينة. وفي المرفأ كان بعض الناس يلوحون بمناديل. وكان مئات المسافرين يطلون من فوق السطح. بدا أن *كونت بيانكامانو* على وشك الانطلاق، ولكن الحمالين مازالوا يحملون صناديق إلى العنابر.

– لا تفعلوا ذلك ـ كرر الكاهن بنبرة مسرحية ـ. أطالبكم باسم الرب. ستكون فعلتكم تدنيساً للمقدسات. ستُعاقبون على ذلك بالحرمان الكنسي.

كان يتكلم بتفخيم لا يمكن معه إلا أن يكون، كما توقع غالارثا، مبعوثاً من جهاز المخابرات. وربما يكون هو نفسه من رتب مع طائفة القديس بابلو أمر دفن الجسد «بعيداً من هنا، في الجانب الآخر من العالم».

– لا تقلق يا أبتاه ـ قال المسافر ـ فمفتشو الجمارك أناس متفهمون.

مشى معهما نحو منضدة مخلعة وقدم إليهما بوليصة الرحلة: رقم 4، الوجهة النهائية شارع ميركالي 23، ميلان. ودس تحتها ورقتين من فئة الألف بيزو قائلاً:

– مقابل ما سببناه لكما من إزعاج.

أخذ المفتش ذو الصوت المغنى الورقتين النقديتين وقرر، دون ارتباك:

– إذا كان الأمر كذلك، فتفضل. سنسمح لك بالمرور هذه المرة فقط.

– لن تكون هناك مرة أخرى ـ قال غالارثا، دون أن يتمكن من مقاومة إغراء مزحة أخيرة ـ فزوجتي لن تموت مرة ثانية.

وفكر، بينما هو يصعد إلى السفينة، في أن إيفيتا قد مرت بعدة ميتات في الشهور السبعة عشر الأخيرة، وقد تجاوزت جميع تلك الميتات. تجاوزت التحنيط، عمليات الاختطاف، والسينما حيث كانت دمية، وحب الكولونيل وشتائمه، وهذيانات أرانثيبيا الجنونية في عليّة شارع سافيدرا. فكر في أنها تموت في كل يوم تقريباً، مثل يسوع في قرابين القداديس. ولكنه لا يفكر في تكرار ذلك مع أحد. فكل ظلامات الإيمان، حسب اعتقاده، لم تفد إلا في جعل العالم أسوأ حالاً.

إنه يستيقظ الآن كل صباح بكوابيس رهاب الأماكن المغلقة. الراحة الوحيدة من قسوة روتين رحلة اجتياز المحيط هي ديسكوتيك القبطان، حيث تختلط ألعاب البوب بوسطن النارية مع مقطوعات صغيرة لبورشيل كان غالارثا قد عزفها ذات مرة على الكلارينيت. وفي الحاكي العتيق الذي جاؤوه به إلى القمرة، كان يسمع كل مساء سيمفونية بتهوفن السابعة. وحين ينطفئ اللحن يعود لسماعه من جديد، دون نزق ولا تعب: طيران تلك الموسيقى الاحتفالي يتهيج فيه مثلما ينمو جسدها، في الأسفل، ويزداد عذوبة ويرتعش بالغطرسة المهيبة نفسها.

في ميناء سانتوس، نقل وفد من الجمعية الفاغنرية إلى السفينة صندوقاً خشبياً طويلاً يضم مخطوطات توسكانيني. إنها مدونات وصور كان المعلم قد تركها عند مروره من البرازيل، قبل سبعين عاماً. جرى احتفال سريع على سطح السفينة، إلى جانب مدخل العنابر: عزفت فرقةٌ موسيقية مرتجلة المارش الجنائزي في *إيرويكا* وموسيقى «حررني» لفيردي. وبينما غالارثا يقف أمام تابوت إيفيتا، لم يضيع تفصيلاً من حفل التكريم. كان يحمل مسدس بريتا في جيبه ويفكر في استخدامه دون تردد إذا ما اقترب منه أحدهم بشمعة مشتعلة أو باقة أزهار. لقد ملّ من الخدع التي استخدمها كوماندو الانتقام لتكريم المتوفاة. أطبق يده على المسدس عندما فتح الموسيقيون علب آلاتهم وتفحص الوجوه بحثاً عن دليل شبهة. لم يحدث أي شيء، ومع ذلك، فإن الألحان، غير المكتملة، تبخرت سريعا في الهواء الخانق.

وما كاد المدعوون يغادرون، حتى حاصرت غالارثا فكرة أن قنبلة حارقة قد خُبئت في صندوق الوثائق. وكان على القبطان نفسه أن ينزل ويفتح الصندوق، حين كانت السفينة تبحر باتجاه ريو دي جانيرو. لم يجدا سوى نوتات موسيقية مدونة، ورسائل مراهقات وصوراً صفراء.

في تلك الليلة، خلال تناول الطعام، روى القبطان أن توسكانيني قد دُفن في جنازة عظيمة في الثامن عشر من شباط. أكثر من أربعين ألف

شخص انتظروا مرور الموكب الجنائزي أمام سكالا دي ميلان. وقال: «كنتُ واحداً منهم. وقد بكيت كما لو أن الميت أبي». بعد القداس الجنائزي، فُتحت أبواب المسرح وعزفت أوركسترا سكالا الحركة الثانية من *إرويكا*، وهي المقطوعة نفسها التي كرمه بها، بلباقة، موسيقيو سانتوس. وقد تبع عربة الدفن المزدانة بالسعف ورياش الحداد موكبٌ مهيب، حتى أروقة مقبرة مونومينتال.

– هل تتذكر كم كان وزن التابوت؟ ـ سأله غالارثا فجأة.

احتجت إحدى المدعوات. فليس هذا بالموضوع المناسب للحديث على الطعام، قالت. ودون أن يهتم القبطان باحتجاجها، أجاب بجدّ:

– مائة وثلاثة وسبعون كيلوغراماً. لقد نشرت ذلك كل الصحف. لم أنسَ الرقم لأنه يوم عيد ميلادي: اليوم السابع عشر من الشهر الثالث.

– لابد أنه كان نحيلاً جداً ـ قال غالارثا.

– جلد وعظم ـ ردّ القبطان ـ تذكر أنه مات وهو في التسعين تقريباً.

– في مثل هذه السن لا يعود المرء قادراً على التفكير ـ أشارت إحدى السيدات.

– توسكانيني كان يفكر كثيراً ـ صحح له القبطان ـ لقد أصيب بجلطة دماغية. ومع ذلك يا سيدتي، استعاد الوعي. وخلال احتضاره كان يتحدث إلى موسيقيين متخيلين. يقول لهم: *Più morbido prego.Ripetiamo. Più morbido. Ecco, bravi, così va bene,* مثلما كان يقول وهو يقود الأوركسترا في *إرويكا*.

بعد اجتياز خط الاستواء بدأ غالارثا يشعر، دون أي سبب، أنه أقل وحدة. لم يكن يحب القراءة، ولا تلفت انتباهه المناظر، ويكره الشمس. كانت تسليته الوحيدة النزول إلى عنبر السفينة والتحدث إلى «شخص». يصل قبل الفجر ويظل، في أكثر من مناسبة، إلى ما بعد شروق الشمس. يحدثها عن أمراض زوجته التي لا حصر لها وعن تعاسة الحياة بلا حب. «كان يمكن لكَ أن تنفصل عنها» تقول له «شخص»، «كان يمكن لكَ طلب

المعذرة.» يسمعُ انسياب الصوت فوق أكوام الشحنات أو في الجانب الآخر من بدن السفينة، في البحر. ولكنه حين يرجع إلى القمرة يكرر لنفسه أن الصوت لا يمكن أن يكون إلا في داخله، في إحدى فجوات الكائن الذي يجهله. ويفكر عندئذ: ماذا لو كان الرب امرأة؟ ماذا لو أن الرب يحرك صدره بعذوبة ويكون امرأة؟ من يهمه ذلك. فالرب يمكنه أن يكون ما يشاء. وهو لم يؤمن يوماً به، أو بها. ولم يعد الوقت مناسباً للبدء بالإيمان.

في يوم السبت الثاني من شهر أيار لمحوا من بعيد ساحل كورسيكا. كانت الرحلة تصل إلى نهايتها. بعد منتصف الليل بقليل، حمل غالارثا الحاكي إلى عنبر السفينة، وضعه تحت القاعدة التي يستقر عليها التابوت، واضطجع في الوضع نفسه الذي تضطجع فيه المتوفاة، بيدين متشابكتين على الصدر. اجتاحته الموسيقى الخفيفة بسلام يعوض عن كل أحزان الماضي، رسمت الموسيقى سهولاً وبحيرات وغابات مطيرة في صحراء مشاعره. إنه يحبها: قال. يحب «شخص» ويكرهها. ويجب ألا يكون في ذلك أدنى تناقض.

رست *كونت بيانكامانو* في جنوى الساعة الثامنة صباحاً. كان قصر سان جيورجو مزداناً بحشد من الشعارات والرايات؛ وكان ضوء الفنار مضاءً بلا جدوى. وبينما هم يضعون سلّم النزول الجانبي ويُفرغون الأمتعة، لمح غالارثا، في ساحة الجمارك، تشكيلاً عسكرياً. فارسان يرتديان الزي العسكري وقبعة ذات قرنين ورياش، يشهران سيفين أو عصوين إلى جانب عربة تجرها خيول. وفرقة برساغلير الموسيقية تعزف نشيد «*Va, pensiero*»، من أوبرا *نابوكو* (*نبوخذنصّر*)، ويغنيها كورال غير مرئي. وبين تماثيل الساحة تذهب وتجيء زمر راهبات بقلنسواتهن المتصلبة بالنشاء. وكاهن به شحوب مثير للذعر يتفحص سطح السفينة بمنظار مسرح ذي عدستين. عندما اكتشف وجود غالارثا أشار إليه بسبابته وأعطى المنظار لإحدى الراهبات. ثم ركض باتجاه رصيف المرفأ وصرخ بجملة ضاعت في صخب حملة الحقائب. ربما قال: «*Noi siamo*

«*dell'Ordine di San Paulo*»*، أو ربما: «*Ci vediamo domain* *a Rapallo*». كان المسافر دائخاً، مضطرباً. فقد أعد نفسه لرحلة عبور المحيط ولكن ليس لمفاجآت الوصول. سَمِعَ فجأة قرع طبول. وتلت ذلك لحظة صمت. تجمد الكاهن مكانه. الفارسان بقبعتي القرنين رفعا العصوين بحركة حربية. أحد ضباط السفينة، وكان يمر قرب غالارثا، كبح مشيته وانحنى باحترام.

– ماذا يحدث؟ ـ سأله المسافر ـ لماذا كل هذا الصخب؟

– *Zitto!* ـ قال الضابط ـ ألا ترى أنهم على وشك إنزال مخطوطات المعلم؟

انطلق سيل ترومبيتات تعزف مارش الانتصار من أوبرا *عايدا*. وكما لو أنه ينصاع لإشارة النغمات الأولى، راح تابوت إيفيتا ينزلق نازلاً ببطء على الحزام المتحرك من عنبر السفينة إلى رصيف المرفأ. انطلقت رشقة بنادق. ثمانية جنود بخوذات حداد عالية حملوا الصندوق ووضعوه بمشقة في العربة، وهناك غطوه بالعلم الإيطالي. أرخى الفارسان الأعنة وبدأت العربة تبتعد. حدث كل شيء بسرعة، وكانت الموسيقى طاغية وصاخبة إلى حدّ لم ينتبه معه أحد إلى تلويحات غالارثا اليائسة، ولم يسمعه أحد وهو يصيح:

– إلى أين تحملون هذا؟ هذا ليس لتوسكانيني! إنه لي!

وكان الكاهن والراهبات قد تبخروا أيضاً بين الحشود. ولم يكن غالارثا قادراً على شق طريقه وهو محتجز على سطح السفينة ومحاصر بكراس ذات عجلات، وعلب وصناديق تُنقل نحو سلم النزول ببطء يبعث على اليأس. رأى القبطان في مكان بعيد، على جسر القيادة، يودع قطيع المسافرين، وحاول أن يستدعي انتباهه. ولكن صوته لم يخرج.

بعد ثلاث أو أربع دقائق أبدية، عاد التابوت للظهور بين عنابر

---

* بالإيطالية: نحن من أتباع مذهب سان باولو.

المستودعات العامة في المرفأ. كانت تزينه باقات زهر قليلة، وباستثناء ذلك، بدا كل شيء مثلما كان في السابق، كما لو أنه يعود من جولة عادية. غالارثا وحده كان مضطرباً، مريضاً من الهلع. وكان أحد الفارسين فقط يقود العربة، بينما الفارس الآخر في الخلف، يرفع عصاه عالياً، إلى جانب الكاهن وموكب الراهبات. لدى دخولهم إلى الرصيف، عاد جميع الشخوص إلى الأمكنة نفسها التي كانوا يشغلونها أثناء مناورة رُسو السفينة: فرقة برساغلير الموسيقية، والجنود، وحمالو الصناديق. وحدهم بعض المسافرين، غير العابئين، كانوا يخرجون مبتعدين من أسرهم. حدث فاصل صمت غريب، وقبل أن يتعالى، نابضاً، مارش الانتصار من أوبرا عايدا، سُمع أحد الضباط يهتف:

Peccato! 'Avuto un strafalcione! –

– أجل، إنه خطأ جسيم ـ أكد أحد ملاحي السفينة، وكان يقف وراء غالارثا.

عشرة أو اثنا عشر بحاراً رصيناً سحبوا تابوت إيفيتا من العربة. نزعوا عنه العلم ووضعوه بازدراء على بلاط الرصيف، بينما كان صندوق مخطوطات توسكانيني ينزل بوقار على الحزام الدوار. استغل غالارثا الارتباك الذي تلا تحية إطلاق رصاص البنادق كي ينزل راكضاً على السلم الجانبي.

وقبل أن يتمكن من الاقتراب من التابوت الذي أوشك على فقدانه، خرج الكاهن من مكان تخفيه العربة ووضع يده على كتفه. أزاحها غالارثا عنه بمرفقه السليم، وحين التفت، التقى بملامح متدينة.

– إننا ننتظرك ـ قال الكاهن ـ أنا الأب جيليو مادوريني. ما رأيك بما حدث. لولا قليل لانهار كل شيء.

كان يتكلم بلهجة أرجنتينية لا تشوبها شائبة. ساور الشك غالارثا. فقال له:

– الرب؟ ـ وكان جهاز المخابرات قد قرر استخدام كلمة سر الكولونيل

نفسها، وهي كلمة سر الانقلاب ضد بيرون أيضاً.

- عادل ـ أجابه الكاهن والراهبات في كورال، وبنبرة من يرتلون صلاة.

لا بد أن الراهبات يشكلن أيضاً جزءاً من الحبكة التي حاكها كورومیناس، لأنهن تولين مسؤولية كل شيء. فقد أخرجن أمتعة غالارثا وتعاقدن من فريق حمالين لنقل التابوت إلى حافلة تابعة للأبرشية. وعلى الرغم من حجم التابوت، فقد دخلت «شخص» دون صعوبة في الفراغ الفسيح تحت المقاعد.

- يا للحجم ـ قال الكاهن بإعجاب ـ لم أكن أتصورها بهذه الضخامة.

- ليست هي ـ أوضح غالارثا ـ لقد اضطررنا إلى حشو الصندوق بأحجار وقطع آجر.

- هكذا أفضل. تبدو كأنها ذكر. رجل ضخم وقوي.

وعن قرب، كان لمادوريني شبه مفاجئ بالبابا بيو الثاني عشر: البشرة التي بلون الخوخ نفسها، والأصابع الطويلة والدقيقة التي تتحرك بحركة كاميرا بطيئة هي نفسها، والأنف الصقري الذي تستند عليه نظارة ذات إطار معدني وعدستين مستديرتين هو نفسه أيضاً. استقر وراء مقود الحافلة وأشار إلى غالارثا كي يحتل المقعد المجاور. وتكومت الراهبات على المقاعد الخلفية. كان يبدو عليهن الانفعال. ولم يتوقفن عن الكلام.

- ظننتُ أنهم قد سرقوني ـ قال غالارثا براحة ـ لقد جف حلقي.

- كان خطأً غبياً ـ قال الكاهن ـ ولم يكن هناك مذنب. فبصندوق بمثل هذا الحجم، يمكن لأي شخص أن يخطئ.

- لم أتركها تغيب عن نظري طيلة الرحلة. ومن كان سيفكر أنه في لحظة سهو، في نهاية...

- لا تزعج نفسك أكثر. لقد أوقفت الأخوات العربة وأوضحن لهم كل شيء.

بعد اجتياز الممرات الوعرة في جبال أبينينو، انحرف الكاهن في طريق ترابي. كانت تمتد على جانبيه حقول قمح ومزارع أزهار. وبعض المطاحن

القليلة في البعيد تطحن ظلالها الشبيهة بهياكل عظمية.

– هل تبعك أحد يا أبتاه؟

– اسمي أليساندرو. جماعة جهاز المخابرات أرسلوا إليّ وثيقة مزيفة. وإلى أن تنتهي هذه القصة سيكون اسمي أليساندرو أنجيلي.

– وأنا أدعى دي ماجيستريس ـ قال غالارثا ـ. جورجيو دي ماجيستريس

– لقد تعرفت إليك فوراً، بسبب أثر الجرح. إنه جرح مؤثر.

وصلوا إلى بافيا قبل الساعة الثانية عشرة بقليل. توقفوا نصف ساعة في نزل بمحاذاة محطة القطارات حيث تبول الكاهن وسط تنهدات، ثم التهم طبقين كبيرين من الشعيرية مع الفطر. وعلى إثر ذلك توارى بالحافلة في حقل أرز ليرجع بعد قليل محمراً.

– لا يوجد أي خطر ـ قال ـ هل تبعكَ أحد في السفينة يا جورجيو؟

– لا أظن ذلك. لقد كنت متيقظاً. لم ألحظ شيئاً غريباً.

– ولا يوجد أحد الآن أيضاً. بقي أمامنا أربعون كيلومتراً في أرض مستوية. علينا أن نجتاز غابة.

– إلى أين سنذهب الآن؟ ـ سأل غالارثا. وأراد أن يتأكد.

– بوليصات الشحن تقول إنه يجب تسليم المتوفاة إلى جوسبينا أيرولدي، في شارع مركالي 23، بميلان. والأخت جوسبينا تجلس هنا وراءنا، وعنوانها في هذه الحافلة. يمكننا أخذ الجسد إلى حيث نشاء.

كان يوم سبت دافئاً. وفي الشوارع الضيقة القريبة من بوابة غاريبالدي، في ميلان، نساء يمشين بأثواب بيتية، ويجرجرن أخفافاً، ووجناتهن تهتز بمروحة تجعدات صغيرة. بعد الساعة الثانية بقليل توقفوا أمام أعمدة مقبرة مونومينتال. ومن خلال قضبان السياج الحديدية تظهر قبور الفاميديو: في الوسط، تمثال مانزوني يتنهد بين ملائكة سود بأجنحة مكسرة.

مشوا بين صفوف من أشجار السرو حتى الحد الغربي للمقبرة. وكانت التماثيل تنحط من المرمر إلى الحجر ومن قباب قوطية متغطرسة إلى صلبان

بلا أية بهرجة. وفي الحديقة 41 لم يعد يوجد على القبور سوى ألواح حجرية. كان مادوريني قد ارتدى في الحافلة مسوحه الكهنوتي والزينات الجنائزية وهو يصلي الآن، بصوت رتيب، مردداً التراتيل. وكانت إحدى الراهبات تهز المبخرة. حُشرت «شخص» بمشقة في حفرة أبديتها القادمة الإسمنتية. وبينما عمال الدفن يحشرون التابوت، همس مادوريني في أذن غالارثا:

– عليك أن تبكي يا جورجيو، فأنت الأرمل.

– لا أدري كيف أبكي، هكذا، فجأة.

وعلى القبر المجاور كانت تستند لوحة الرخام الرمادية التي ستنصب فوق القبر. وقرأ غالارثا عليها: *ماريا ماغي دي ماجيستريس 1911 - 1941. تقدمة جورجيو إلى زوجته الغالية*.

لقد انتهى كل شيء، هذا ما فكر فيه غالارثا. لن أراها مرة أخرى. شعر بالراحة، شعر بالأسى، وتسارع النحيب دون جهد إلى حلقه. لم يبك مذ كان طفلاً، وحين داهم البكاء عينيه الآن بظمأ حريف ومؤلم، بدا له مباركة إلهية.

منذ نحو شهر والكولونيل ينتظر الجسد. ففي ليلة يوم أحد، استرد فيسكيت وضابطا صف معه النسخة المدفونة في كنيسة أوليفوس، واستبدلوها بالأصلية. «في الرابع والعشرين من نسيان ستغادر هذه المرأة في السفينة *كاب فريو*»، أخبره الملازم في برقية مشفرة. «وستصل في العشرين من أيار إلى ميناء هامبورغ. وستكون مرسلة إلى كارل فون موري كينيك، هاوي أجهزة راديو. تذكر أن الصندوق من خشب الصنوبر، يحمل الكتابة: ل. ف. 2 صوت الحرية.» ولكن الرسالة التالية أقلقته: «سأبحر في السفينة *كاب فريو*. أنا نفسي سأجيء بالجسد».

لقد كان سعيداً، من جهة أولى، لأن تهديداته لفيسكيت قد أعطت مفعولاً. فقد كتب إليه أكثر من مرة بأنه مستعد للوشاية به، أمام مجلس حربي، بأنه مخنث. ولم يكن يتبجح: كان مستعداً لعمل ذلك. ولكن

الأمور، من جهة أخرى، مضت بعيداً جداً. ففيسكيت قد استقال من الخدمة. بإذن من إذاً سيسافر في *كاب فريو*؟ ربما أصابه اليأس بالجنون. أو أنه يتظاهر بالمرض. من يدري، من يدري، أصاب القنوط الكولونيل. لم يعد بإمكانه حتى أن يوقفه أو أن يأمره بالرجوع: لقد صار خارج متناول يده. ومن يدري الآن، في حافات اليأس القصوى هذه، إن كانت مدارك فيسكيت لا تزال سليمة. أرسل إليه في السفينة *كاب فريو* برقيتين، بالرموز المشفرة، يسأله فيهما: هل تنبه إن كان هناك من يتعبه؟ هل اتخذ الاحتياطات للحيلولة دون اقتراب أحد من التابوت في مستودع السفينة؟ أيرغب في أن يحصل له على تقرير طبي كي يتمكن من العودة إلى الخدمة في الجهاز؟ كرر إرسال البرقيتين خلال ثلاثة أيام، ولكن أحداً لم يرد عليه.

حياته كلها كانت في تلك السفينة. أما مدينة بون بالمقابل، فتبدو له إضاعة للوقت. كان قد استأجر الطابقين العلويين من مبنى فخم تجاوز دمار الحرب. جيرانه في الطوابق السفلى كانوا من موظفي السفارة أيضاً. إنه يعيش في عالم مغلق، لا مهرب منه، حيث يعرف كل شخص مسبقاً جميع العبارات التي سيقولها الآخرون. كان الكولونيل يتخفف في بعض الأحيان من واجباته ـ وهي تتمثل، بصورة خاصة، في ترجمة الأخبار العسكرية من الصحف الألمانية وإرسالها إلى بوينس آيرس كما لو أنها تعكس تقصيه وأبحاثه الخاصة ـ، ومقابلة تجار أسلحة سراً ومخبرين سريين من البلدان الشرقية. يشربون معاً ويتحدثون عن معارك قديمة خاسرة، دون أن يتذكروا متى وقعت. يتكلمون عن كل شيء، إلا عن الحقيقة.

ولعدم وجود تسلية أخرى، كان الكولونيل يحضر، بإذعان، حفلات الدبلوماسيين شبه اليومية. يسلي السيدات بقصص وقحة عن «الطاغية الهارب»، والذي يظن أنه يزداد بدانة في حرّ فنزويلا. ويبدي استغرابه من أنه مازال يوقظ العواطف: فالأخيرة من زوجاته انضمت إليه في بنما

ومازالت تلاحقه في كاركاس. وقد كانت راقصة فلامنكو، تصغره بخمسة وثلاثين عاماً، وتعزف البيانو في ثنائي مع روبرتو غالان.

لم يكن الكولونيل يتسامح في أن إيفيتا قد أحبت ذلك العجوز بجنون: *إنه شمسي، سمائي، وكل ما أنا عليه يخصه هو*، هذا ما تقوله في وصيتها. *كل شيء له، بدءا بحياتي نفسها، وقد سلّمتها إليه بحب وإلى الأبد، وبصورة مطلقة*. كم كانت عمياء، قال الكولونيل في نفسه، كم هي عمياء أو يتيمة أو مخذولة كي تلحس بكل ذلك الظمأ اليد الوحيدة التي داعبتها دون أن تمتهنها. وكان يكرر: يا للمسكينة، كم هي بلهاء وكم هي عظيمة. *أريد أن تعرفوا في هذه اللحظة كم أحببتُ بيرون وكم أُحبه من أعماق روحي*. وما نفع هذا كله؟ لقد خانها، لقد تركها بين يدي المُحَنِّط عندما هزموه. إنه المذنب في أن جسدها يمضي مرتحلاً عبر العالم، مشتهى، غير مدفون، بلا هوية ولا اسم. ما هي حال «شخص» الآن في السفينة *كاب فريو*؟ مجرد سقط متاع. الزعيمة الروحية للأمة هي الآن أجهزة إذاعة. وإذا ما غرقت السفينة فلن يفكر أحد في إنقاذها. ستكون السخرية الأبدية من المستبد السابق. كانت هذه الأفكار تعذب الكولونيل، ولكنه لا يتحدث عنها. فهو لا يريد في الحفلات سوى إظهار عدم اهتمامه.

وفي أيام الآحاد، من أجل الهروب من تأفف ابنتيه، يناوب في السفارة، حيث يتلقى التقارير من العملاء الذين يراقبون منفى دونيا خوانا. ففي حدادها، واضطرارها إلى أن تعيش حياة منغلقة في سنتياغو دي تشيلي، لم تكن الأم تخرج إلا لزيارة كازينو بينيًا دل مار، حيث يتعرف إليها المشرفون على موائد القمار من بعيد، ويفسحون لها مكاناً على موائد اللعب. كانت قد صبغت شعرها الأبيض بومضات سماوية خفيفة، وتقضي فترة الصباح في استجواب منجمي حي العناية الإلهية. فهناك ثلاثة ألغاز في حياتها لا تتيح لها النوم مطمئنة: مستقر ابنتها إيفيتا، واسم القاتل الذي قتل ابنها خوان عام 1953، وعدد المرات التي ستتكرر فيها

الدزينة الثانية في لعب القمار تلك الليلة.

أحد أولئك المنجمين كان مخبراً عند الكولونيل. وقد تمكن من كسب ثقة دونيا خوانا حين قرأ لها، في ورقتي آس بستوني وورقة بنت ديناري، أن إيفيتا تستريح أخيراً في أرض مقدسة. «ابنتك ترقد تحت صليب من المرمر»، قال لها وهو مستغرق في شبه غيبوبة. بعد ساعات قليلة من هذه النبوءة، قطع الرئيس الأرجنتيني صمته الذي استمر سنتين تقريباً، وردّ على توسلات الأم: «السيدة الموقرة، أعرف أن ابنتك قد تلقت يوم أمس دفناً مسيحياً. لم يعد لدى حضرتكِ ما تخشينه. وبإمكانك العودة إلى بوينس آيرس متى رغبتِ في ذلك. لن يزعجك أحد. وهذا وعد شرف مني».

ولكن التقارير المشفرة التي كان يرسلها ذلك الجاسوس التشيلي إلى السفارة في بون كانت جميعها تافهة وغير ضرورية. فهي تكرر مونولوجات دونيا خوانا حول طفولة إيفيتا في لوس تولدوس، لأن ذاكرة الأم توقفت في ذلك المقطع من الحياة ولم يكن هناك محرض قادر على تحريكها من هناك. وهي مونولوجات تتحدث عن أشجار تين وجنان حيث كانت «شخص» تتظاهر بأنها لاعبة سيرك بهلوانية، وعن إطارات أوراق توت تربي فيها دود القز. لماذا كل هذه القصص غير المجدية، يقول الكولونيل. فما كانت عليه هي ليس تلك المواضي. بل ليس في أي ماض لأنها كانت تنسج نفسها بنفسها كل يوم. إنها موجودة في المستقبل وحسْب: هذا هو ثباتها الوحيد. والمستقبل يقترب الآن في *كاب فريو*.

أول ما يفعله الكولونيل في كل الصباح هو مواصلة تقدم السفينة على خريطة. لقد أضاع أثرها في جواو بيساوا وعاد ليجدها في جزر الآزور. وكان يؤشر بخط أحمر على أيام الشحن والتفريغ، وبخط أخضر على أيام الإبحار. ويسبب الجنون للقناصل ببرقياته وطلبه معلومات عن المسافرين الأرجنتينيين الذين على متن السفينة والسرعات التي تنتقل بها *كاب فريو* من مرفأ إلى آخر. وكاد يمرض من الجزع عندما توقفت السفينة ثلاثة أيام

في بيغو لإصلاح عطل في المروحة وكذلك عندما أضاعت صباحَ يوم كامل في الهافر بسبب سوء تفاهم بشأن التصاريح الجمركية. وفي الثامن عشر من أيار تلقى، أخيراً، هذه البرقية المشفرة من الملازم فيسكيت: «سترسو *كاب فريو* في هامبورغ يوم الثلاثاء 21 الساعة الثالثة بعد الظهر. سأنتظرك منذ الخامسة والنصف على الرصيف رقم 4 في محطة باولي. اتخذ الاحتياطات. إنهم يلاحقونني».

وبدلاً من القلق المنتظر، غمره إحساس عميق بالأمان. لقد صارت «شخص» في متناول يدي، قال لنفسه، ولن نفترق أبداً مهما كانت الأسباب. بل إنه لم يتوقف للتفكير في ما سيفعله بها، في أي حياة ترحال أو فيافي سيتورطان كلاهما. يريد امتلاكها فقط، العودة لرؤيتها.

استأجر، لمدة ثلاثة أشهر، سيارة إسعاف ماركة أوبل مزودة بأحزمة معدنية في أرضية كابينة القيادة مع مقعد قابل للفتح يمكن له الجلوس عليه وتأمل التابوت لأي وقت يشاء. وكان هناك بين بيته ومبنى السفارة أرض خلاء يركن فيها الدبلوماسيون وضباط الشرطة سياراتهم أحياناً. أمر الكولونيل بأن يُعلِّم، بخط من الطلاء الأبيض، الحيز الذي تحت نافذة غرفة نومه وغرس لوحة كتب عليها عبارة تحذير: *Krankenwagen. Parken verboten* «*سيارة إسعاف. ممنوع الوقوف*». وذات ليلة، في وقت متأخر، سألته زوجته عما سيفعلونه لمواجهة كل تلك النفقات الكبيرة. وقالت له:

– لا أحد يمارس مثل هذا الترف. سيارة إسعاف. لماذا نحتاج إليها. إننا أشخاص أصحاء.

– ليس هذا شأنك ـ أجابها الكولونيل ـ اذهبي للنوم.

– ما الذي حدث يا كارلوس ـ ألحت المرأة ـ لماذا لا تخبرني بما يصيبك؟

– لا شيء مما يهمك. إنها أسراري.. أسرار العمل.

توجه إلى هامبورغ يوم الاثنين 20 صباحاً. كان يتلهف للوصول باكراً

إلى هدفه، ودراسة مخارج المدينة، وطبوغرافية الميناء، وعادات حركة النقل. سجل نفسه باسم كارل جيلبتر في فندق متواضع في منطقة ماركس باوير آليه، قبالة محطة ألتونا. ووقع في السجل بخط يميل بتحبب إلى اليمين، وردد موظفو الاستقبال اسمه بمفاجأة: جيلبتر *Geliebter*، (العاشق). كان الوقت ربيعاً، وحتى في أنفاق المترو المغلقة، كان يجري تنفس اضطراب غبار الطلع وأمجاد أشجار الغار والكستناء. وكانت المدينة تعبق برائحة بحر وللبحر رائحة «شخص»: رائحة حياتها المالحة، الكيميائية، المتسلطة.

«اتخذ الاحتياطات. إنهم يلاحقونني»، هذا ما كتبه له فيسكيت. لم يستعد الكولونيل من قبل قط مثلما استعد هذه المرة لمواجهة الخصم. لقد صار يعرف عن ظهر قلب استراتيجياته في الخداع. وهو يحمل مسدس فالتر في حزامه، وفي جيبه مخزنان احتياطيان. وإذا ما كان فيسكيت يسافر أعزل من السلاح، فسوف يسلمه مسدس بريتا.

عند حلول الليل تاه في متاهة أزقة لها تسميات من نوع درب العذراوات، بحر الملذات، هضبة فينوس. ومن جوف تلك البيوت كان يخرج بحارة وسائحون بسراويل قصيرة ومسنون يرفعون أنوفهم نحو النوافذ المخططة بأنوار النيون. وصل دون أن ينتبه إلى ريبيربان، حيث تتمشى سيدات وكلاب. السيدات يتعمدن إسقاط السجائر وينحنين لالتقاطها، فتنكشف مؤخراتهن. عاهرات، كان الكولونيل يردد. فلنر إذا كنت سأخرج من هذا الفوران. ولكنهن كن يقطعن عليه الطريق ويدعونه: تعال يا حبي، تعال يا كنزي.

وأخيراً وجد ميدان هانز ألبرس، وبينما هو يستند إلى مقعد حجري، تذكر الرائحة. كانت العتمة باردة وكانوا يطهون طبيخاً في مدخل أحد البيوت.

وفي محيط الساحة كانت تبهت ألوان لوحات الفنادق القديمة بنوافذها التي تنسل منها أضواء حمراء. إلى جانب باب فندق كيلر، كانت ثلاث

نساء يسندن أقدامهن بلا مبالاة إلى قاعدة العمود. وثلاثتهن كن يشهرن مباسم تدخين فارغة وينظرن بازدراء إلى لا شيء. ما كن يتحركن، ولكن الكولونيل أحس أن عيونهن الكبيرة الثابتة ترصد حركة ذهاب الضحايا وإيابهم. يبدون كما لو أنهن خرجن من المشيمة نفسها، وربما مهزومات في الحياة نفسها. كان لهن، من بعيد، شبه بها: إنهن يذكّرن بها. ربما يمكنه التحدث إليهن، ومعرفة أية تعاسات أوصلتهن إلى هناك.

إلى يسار فندق كيلر، غمرت أضواء صفراء واجهة زجاجية. كانوا يعرضون هناك قفازات ذات أشواك معدنية، وسياطاً، وأجهزة جنسية تعمل بالبطارية، وآلات لذة اصطناعية. مرت سيارة فولكسفاغن أمام فندق كيلر وشدت مكابحها بفظاظة. اختبأ الكولونيل وراء إحدى الأشجار وراقب المشهد.

من يقود الفولكسفاغن كان رجلاً شاباً، شعره مقصوص دائرياً، مثل مظلة مفتوحة. أخرج ذراعه وأشار إلى أطول النساء الثلاث قامة. لم تتنازل هي بالنظر إليه. ظلت غارقة في صمتها، وأحد قدميها عالياً، فوق قاعدة العمود، كاشفة عن ركبتيها المغزليتين. شخصان مربوعان، لا بد أنهما قوادان، اقتربا من السيارة. بدأا حواراً من كلمات قليلة تذهب وتجيء كأنها صفعات. لم تُبد أي من النساء اهتماماً بالمساعي: إنهن هناك غير عابئات بندى الليل وبالعواطف التي يوقظها. وأخيراً، سلّم الرجل ذو قصة الشعر الدائرية إلى القوادين حزمة كبيرة من الأوراق النقدية ونزل من السيارة. تفحص لبرهة قصيرة المرأة التي اشتراها، شدّ تنورتها وأنزل كأبٍ ساقها المنحنية. ثم حملها بين ذراعيه، ودون مشقة، مددها على المقعد الخلفي. حدث كل ذلك بسرعة، وكان مشحوناً بعنف غير مرئي. أحس الكولونيل بالخوف من إضاعة الليل، فابتعد بخطوات سريعة.

قال لنفسه: لقد حان موعد العودة إلى الفندق. سأطلب عشاء خفيفاً في الغرفة وأراجع تحركات اليوم التالي. إذا خرج كل شيء على ما يرام، فسأتمكن من الوصول إلى بون قبل منتصف الليل. سأنتظر حتى فجر

الثلاثاء في سيارة الإسعاف. ولن أبتعد بعد ذلك عن إيفيتا إلى الأبد.

أراد العودة إلى ريبيربان ولكنه لم يجد الطريق في دلتا الشوارع المظلمة. رأى سوراً عالياً ينفتح فيه باب مستتر من قضبان حديدية. وعند المدخل يتمشى مارد يرتدي، بالرغم من الهواء الدافئ، معطفاً مطرياً وقبعة فطر. نادى الكولونيل بصوت خافت عدة مرات:

– *Komm her! Komm her!* ـ له صوت ناعم، صوت أنثوي رنان، يبدو أنه دخل حنجرته بطريق الخطأ.

– لا أستطيع ـ اعتذر الكولونيل ـ أريد الوصول إلى ريبيربان.

– تفضل ـ قال المارد ـ من هنا تختصر الطريق.

في ما وراء الباب الحديدي ينفتح شارع ضيق، شارع هيربرت شتراسيه، وعلى جانبيه شرفات ونوافذ عبارة عن أحواض مائية. وخلف الزجاج تبحر نساء بصدور مكشوفة. جميعهن يبدون مشغولات جداً بخياطة حواش من الدانتيلا المطرزة لسراويلهن التحتانية الصغيرة جداً والتي تخفي مفاتنهن، ولا يلتفتن إلى المارة إلا عندما يضيق هؤلاء عيونهم، وهم يبتعدون، ويدرسون تفاصيلهن التشريحية. وفي هذه الحالات، تدير تلك الهيئات الشبحية رؤوسها ببطء وتمد أيديها في حركة توسل أو توعد. وعلى الأحواض المائية تنسكب أضواء فوق بنفسجية وأغنيات لوثرية بالألمانية القديمة. *Alles geht und wird verredet,* * هذا ما خُيل للكولونيل أنه يسمعه. *Alles geht.* فإذا ما اقترب أحد المارة من النوافذ ليتكلم، تفتح النساء أبواباً صغيرة غير مرئية في الواجهات الزجاجية وتطل شفاه وأصابع شبحية.

بعد اجتياز الشارع كله، حاول الكولونيل المرور من بوابة قضبان حديدية ثانية، ولكن مارداً آخر سدّ الطريق أمامه. وكان يرتدي كذلك معطفاً مطرياً وقبعة فطر. ولولا أن أرنبة أنفه غائرة لكان مماثلاً للمارد

---

* بالألمانية: كل شيء سينقضي ويُنسى.

السابق تماماً.

- *Du Kannst nicht* -** حذره بالصوت الرنان نفسه.

- ولماذا لا يمكنني المرور؟ إنني ذاهب إلى ريبيربان. قيل لي إنه الطريق المختصر الأقرب.

- نحن لا نحب البصاصين - قال المارد - من يأتي هنا يأتي للتمتع وليس للنظر.

تفحصه الكولونيل من أعلى إلى أسفل برباطة جأش، ثم أزاحه جانباً بازدراء ودون أي تفكير في النتائج. خشي للحظة أن يضربه المارد على مؤخرة رأسه، ولكن لم يحدث أي شيء: لم يكن هناك سوى أضواء النيون في الجادة، وموجات بحارة ينزلون إلى شواطئ العاهرات والسعادة التي لا يمكن وصفها بأن اليوم التالي صار قريباً جداً.

نام براحة كبيرة عاد معها ليرى من جديد أحد أحلام مراهقته المنسية. حلم بأنه يمشي على قمر رمادي تحت سماء تلمع فيها ستة أو سبعة أقمار أخرى، رمادية أيضاً. يجتاز في بعض الأحيان مدينة أبراج وجسور فينيسية، وفي أحيان أخرى يركض بين هاويات صخور صوانية وكهوف خفافيش وبروق، دون أن يدري عمَ يبحث ولكنه راغب في العثور بأسرع ما يمكن على هذا الذي لا يدريه.

استيقظ قبل الفجر، اشترى الصحف وقرأها في أحد مقاهي محطة القطارات. وفي صفحة قدوم السفن وانطلاقها كانوا يعلنون عن *كاب فريو*، ولكن مواقيت وصولها التي تُذكر لا علاقة لأحدها بالآخر: صحيفة تقول إن موعد الوصول هو الساعة 7,55، وصحيفة أخرى 4,20؛ أو 11,45؛ ولا تذكر أي صحيفة إن كان التوقيت مساء أم صباحاً. من غير المحتمل أن تكون السفينة قد وصلت، ولكن، في الوقت نفسه، لم تكن فكرة حدوث كارثة طارئة تتيح له الشعور بالأمان. هرع إلى الفندق، دفع الحساب وقاد

** بالألمانية: لا يمكنك المرور.

سيارة الإسعاف نحو المرفأ. لم يكن لديه وقت لحلاقة ذقنه أو الاستحمام من أجل استقبال «شخص». ولم يبق أثر للسكينة في قلبه.

أوقف السيارة في شارع هافن، قبالة الرصيف رقم أربعة. وجد صعوبة في التوجه في ذلك الأفق المحبوك من رافعات وصوار في حركة دائمة. ركض باتجاه الأقواس الرومانية العالية، عند مدخل الرصيف، بحثاً عن مكاتب يمكن لأحدهم فيها أن يحل لغز أرقام التوقيت غير الواضحة. كان هناك شرطيان نعسان يتحدثان إلى جانب رفوف العدّة، ويتأملان تيار النهر الهادئ. بزغ الفجر بسرعة وكان ضوء الإلبا الأبيض في كل الأنحاء، ولكن الشمس، بعد أن بلغت موقعها الإمبراطوري، ظلت ثابتة في السماء، دون أن تسمح للصباح بالتقدم. سأل الكولونيل إن كانا يعرفان شيئاً عن السفينة *كاب فريو*. فأجابه أحد الرجلين بجفاء:

– يُنتظر وصولها الساعة الثالثة ـ وأدار له ظهره.

رجع إلى سيارة الإسعاف. كان الوقت ما يزال مسمراً إلى مفترقه، دون مبالاة. لفتت دوريات الشرطة انتباهه مرتين وطلبت منه أن يغادر. فعرض عليهم الكولونيل وثائق اعتماده الدبلوماسية.

– يجب أن أكون هنا ـ قال لهم ـ إنني أنتظر ميتاً.

– في أي ساعة؟ ـ سألوه.

– الساعة الثانية عشرة ـ كذب عليهم أول مرة. ثم مرة ثانية :ـ الساعة الثانية عشرة والربع.

استنفد بسرعة حصته من الجن. بدأ الظمأ يعذبه ولكنه لم يكن يفكر في التحرك. وخلال لحظاتٍ نوّمه النعاس. كانت السفن تذهب وتجيء بين أسراب النوارس، وبين حين وآخر تطل رؤوس المداخن أعلى من قباب الرصيف. وفي وسنه، لمح صارياً متكبراً وقاسياً مثل صيف بوينس آيرس وسمع أنين صفارة سفينة. سيارة أوبل زرقاء عليها صلبان سيارة إسعاف توقفت فجأة أمام الرصيف رقم أربعة. رجلان ضخمان، يعتمران قبعتي فطر أيضاً تركا بابي السيارة مفتوحين ورفعا عن شاطئ مناورات السفن

حزمة طويلة، ووضعاها بحذر في السيارة. حدثت الأمور ببطء، كما لو أنها تتردد في الحدوث، وكان الكولونيل يراها تمر دون أن يدري في أي ضفة من كيانه هو موجود، أهو في الأمس أم في اليوم التالي. رأى الواحدة والنصف في ساعة الهافنتور ورأى في الوقت نفسه فيسكيت تحت قوس الرصيف الروماني. كان الملازم أول غوستافو أدولفو فيسكيت ينظر إلى هذه الجهة وتلك الجهة من الشارع بملامح فقدان أو هزيمة. كان الشخوص والزمن خارج المكان؛ وشعر الكولونيل أيضاً أنه غريب، عند منعطف من الواقع ربما لا يعود إليه ولا يتوافق معه. ركض نحو الرصيف بذاكرة ممتلئة بصور غير مجدية: عظام، كرات أرضية، عروق معادن منجمية.

– ما الذي تفعله هنا في هذا الوقت المبكر يا سيدي الكولونيل؟ ـ حياه فيسكيت. وبدا أشد نحولاً. وكان شعره مصبوغاً بالأشقر.

لم يجبه الكولونيل. بل قال:

– أنت جئت في سفينة أخرى أيها الملازم. لم تأتِ في *كاب فريو*.

– السفينة *كاب فريو* موجودة في المرسى. انظر إليها. دخلت الميناء منذ ساعة. لقد جرى كل شيء بصورة سيئة.

– لا يمكن أن يكون قد جرى بصورة سيئة ـ قال الكولونيل ـ أين هي؟

– لقد أخذوها ـ تلعثم فيسكيت ـ إنها كارثة. ماذا سنفعل الآن.

وضع الكولونيل يديه على كتفي فيسكيت، وبصوت جليدي، ونقي بصورة غريبة، قال له:

– لا يمكن أن تكون قد أضعتها يا فيسكيت. إذا كنت قد أضعتها، فأقسم لك إنني سأقتلك.

– حضرتك لم تفهم ـ أجابه الملازم ـ أنا لا علاقة لي بما حدث.

وأوضح له فيسكيت أنه لا بد أن أحداً كان يعدّ العدة لكل شيء منذ زمن، لأن الأحداث جرت بصورة نظيفة وغير متوقعة. فقبل أن ينزل المسافرون من السفينة، أمر القبطان بإنزال الأمتعة أولاً. وكان أول ما خرج من عنابر السفينة صندوقان خشبيان وصندوق المعدات الإذاعية. لا أحد

يدري من ولا كيف أخذ الصندوق. ولم يكن بإمكان ضباط *كاب فريو* أن يساعدوه إلا بعد إنجاز معاملات الرسو البيروقراطية.

– لا بد لنا من التمتع بالصبر ـ قال فيسكيت ـ وانتظار القبطان.

غرق الكولونيل في ذهول يتنبأ بأسوأ العواصف. كان يراقب صف المسنين المتثاقل على سلم النزول من السفينة، وخفق أجنحةِ النوارس المتلعثم، وصدأ القيلولة، ويكرر بين حين وآخر، بصوت متعب، لا يتدفق نحو الخارج وإنما إلى داخل جسده:

– لقد أضاعها. لقد أضاعها. سأقتله.

كان مشهداً غبياً من تلك المشاهد التي لا يريد الواقع لها الحدوث أبداً: الكولونيل يسند جسده الثقيل إلى أعمدة الرصيف، وفيسكيت ينظر إليه بشفقة لا بد أنه لا يشعر بها، وهو جامد، ويداه في جيبيه.

وأخيراً اقترب القبطان وطلب منهما أن يرافقاه إلى المكاتب. وبينما هم على الدرج كرر باستياء:

– أجهزة إذاعية، أجهزة إذاعية. لقد أخذتها المافيا.

وصلوا إلى عنبر من زجاج ودعائم حديدية يعبق برائحة سمك جاف. ووجههما القبطان إلى مناضد تتكدس عليها قوائم شحن السفن الآخذة بالوصول. إنه كابوس أوراق مزرية بالخط الدقيق الذي يكتب به الألمان. احتاجوا لوقت لا بأس به إلى أن عثروا على تصاريح الجمارك الخاصة بالسفينة *كاب فريو*، وإلى وقت أطول من أجل معرفة المحتال الذي استلم الصندوق: «شتراس هيربرت، بطلب من كارل فون موري كينيك».

– أنا موري كينيك ـ قال الكولونيل ـ، ولكنني لا أعرف شيئاً عن أحد يدعى شتراس.

وقد بدا له مع ذلك أنه سمع بهذا الاسم، ليس من زمن بعيد، في مكان ما.

– هذا هو كل ما يمكن معرفته ـ قال القبطان ـ يمكنكما التقدم الآن بشكوى إلى الشرطة.

خبأ الكولونيل رأسه مثل سلحفاة. عليه أن يعوّد تفكيره على الواقع المعادي. قال:

– لماذا إضاعة الوقت. أنا أعرف من أخذ الصندوق.

نظر إليه فيسكيت بارتياب.

– إنها سيارة الأوبل الزرقاء. كانت تحمل صلباناً بيضاء مرسومة على الأبواب كأنها سيارة إسعاف. وإذا ما فكرنا بمنطقية، فلا بد أنهم الآن في الطريق إلى الحدود.

كان يتكلم الألمانية والإسبانية في آن واحد، في تراكيب ليست من أي لغة. ومن يدري ما الذي كان يفهمه قبطان السفينة *كاب فريو* والملازم فيسكيت: لم يعد يهم الكولونيل شيء من ذلك.

– يجب اللحاق بهم ـ قال فيسكيت.

وكرر قبطان السفينة:

– هيربرت شتراس. ربما ليس اسم شخص. قد يكون قرية في فيستفاليا. أو شارعاً في ألمانيا.

– إنه شارع في هامبورغ ـ قال الكولونيل فجأة.

– *Was nimmt man hinüber?* * ـ قال القبطان ـ ما الذي سيحمل المرء إلى ذلك المكان، هيربرتستراش؟ توجد فيه عاهرات، دمى. لا أحد يحتاج هناك إلى أجهزة إذاعة.

ظل الكولونيل ينظر إليه. أحس ببرودة مسدسه الفالتر في أضلاعه. قال:

– أعرف أين هو ذلك الشارع. سأذهب للبحث عنه. هل ستأتي معي يا فيسكيت؟ أحضر أمتعتك.

تأخرت سيارة الإسعاف في الانطلاق. وفوق النهر، تحولت الشمس الصفراء إلى حمراء. كان الوقت لا يزال باكراً، غير أن أفواج العاهرات

---

* بالألمانية: لماذا تظن ذلك؟

البطيئة كانت تعرض نفسها في كل ناحية. ولكن عاهرات بعد الظهر كن قويات ومتحديات ولا يخشين شدة الضوء. قاد الكولونيل السيارة عبر المشهد الذي لا يشبه في شيء مشهد الليل: فريبيربان التي كانت شديدة التفلت قبل ساعات، تخرج على الدوام الآن لاعتراضه. وأخيراً وصل إلى ساحة هانز ألبرس. وكانت الأوبل المعادية الزرقاء مركونة قبالة فندق كيلر.

– إنهم هم ـ قال الكولونيل.

– ربما يكونون في الفندق ـ قال فيسكيت.

– لا. إنهم في شارع هيربرتشتراس. لقد تركوا السيارة هنا لأنهم لا يستطيعون التوقف في ذلك الشارع. إنه أشبه بفناء بيت. وعند المدخل يوجد رافع أثقال. أتريد سلاحاً؟ ربما سنضطر إلى خوض صراع.

– أتظن أن كوماندو الانتقام قد أخذها؟

– إنهم هم بالتأكيد. الأشخاص الذين نزلوا في روتردام. يجب الإسراع.

توقف فيسكيت في منتصف الساحة ونظر إلى الكولونيل بعينيه الواسعتين الحزينتين.

– لماذا تكرهني؟ ـ قال له فجأة.

– لستُ أكرهك. ولكنك ضعيف أيها الملازم. ولا يمكن للضعفاء أن يكونوا في الجيش.

– إنني قوي. لقد أحضرتها. ما كان بمقدور أي شخص آخر أن يُحضرها.

– لست قوياً بالقدر المناسب. فقد انتزعوها منك ـ قال الكولونيل ـ ماذا تريد الآن؟

– الرسائل، الصور، الأدلة التي تدينني.

– لا توجد أدلة. الشيء الوحيد المتوافر هو وشاية من حشري، في توكومان، ومنذ زمن بعيد. وهي موجودة في ملفك أيها الملازم، وكل ما فعلته أنا هو طرح الأسئلة التي كان عليّ طرحها. هل ستأتي معي أم لا؟

– أعطني السلاح ـ قال فيسكيت.

كان الكولونيل يمضي مستعداً لمواجهة المارد الذي يحرس مدخل هيربرتشتراس، ولكن لم يكن هناك أحد. كانت البوابة الحديدية مفتوحة وعدد قليل من الرجال اليائسين يتمشون بين الواجهات الزجاجية، حيث لم تستيقظ الحياة بالكامل بعد. بعض الأحواض المائية مازالت الستائر مسدلة عليها، ومعظم الزبائن يتأملون خنثيين ترتديان جلود فهود، وتضربان الهواء بسوطين من أشواك وجلد خام. كان الكولونيل جزعاً، وقد نظر إلى المشهد بازدراء. بينما كان فيسكيت يردد مبهوراً:

– شيء لا يُصدق. يبدو أنه عالم آخر.

عندما اقتربا من المخرج سرّعا خطواتهما. كان الكولونيل يتفحص مداخل البيوت ويقرب وجهه من المسارح الزجاجية الضخمة كما لو أنه يريد اختراق سماكة مادتها. وأمام الواجهات الزجاجية الأخيرة كان يقف فضوليون. وفي إحداها، كانت النساء يحكن أثواباً وأخفافاً لأطفال حديثي الولادة، بينما صدورهن مكشوفة. وفي الواجهة الزجاجية المقابلة توجد فالكيريا لها رقبة ثور ترقص دون حماسة، بينما امرأة أخرى شقراء، ترتدي ثوباً أبيض طويلاً، مستسلمة لمرور الوقت. وكلتاهما كانتا مغمضتي العينين، وتبدوان تحت الضوء فوق البنفسجي أشبه بشبحين.

توقف الكولونيل فجأة.

– إنها هي! ـ قال بصوت مخنوق.

لم يكن من السهل التعرف إليها في ذلك الحوض المائي الفاسد والغريب. لقد مددوها على أريكة لها شكل زورق فرعوني، محمول على قوائم تمساح: كانت موضوعة على جانبها، في وضع لا يناسب الموتى، ووجهها متوجه إلى الشارع وأصابع يديها متشابكة على خصرها. قرع الكولونيل الزجاج بقوة. فانسلت الفالكيرا في الداخل ببطء مبالغ فيه وفتحت قليلاً الباب غير المرئي في الزجاج.

– أين هم من أحضروا هذه المرأة؟ ـ سألها بالألمانية وهو يُدخل يده من فتحة الباب ليحول دون إغلاقه.

- إنها دمية ـ أجابت الفالكيرا ـ أنا لا أعرف شيئاً. من يبيعون الدمى لم يحضروا بعد.

- أريد هذه ـ قال الكولونيل.

- هذه ليست للبيع. إنها للعرض فقط. في الخلف توجد كثيرات مثلها. هناك صينيات، وأفريقيات، وربات إغريقيات. ولكنني أفضل منهن. أنا أعرف أشياء لا تعرفها الدمى.

صوب إليها الكولونيل المسدس.

- افتحي الباب ـ قال ـ أريد رؤية هذه المرأة عن قرب.

- سأفتحه ـ قالت الفالكيرا ـ ولكنهم إذا أمسكوا بك فستكون وقعتك سيئة.

سُمع أزير قفل واكتشف الكولونيل وجود دهليز ضيق، مبطن بمخمل أسود. وكانت صالة الحوض المائي إلى اليمين.

- تعال يا فيسكيت! ـ نادى الكولونيل ـ ساعدني على حملها!

ولكن فيسكيت لم يكن في هيربرتشتراس ولا يظهر له أثر في أي مكان.

وبينما هو يرفع المسدس عالياً، قفز الكولونيل من الدهليز إلى الحوض المائي وسقط في تيه الضوء فوق البنفسجي. تراجعت الفالكيرا المرتبكة إلى أحد الأركان. وقد أحس الكولونيل أيضاً بالضياع الآن، بعد أن صارت «شخص» في متناول يده. كل ما جرى في هامبورغ بدا له غير واقعي، كما لو أنه شخص آخر. ودون أن يهمل جانبيه أو ظهره، بانتظار أن يهاجموه في أي لحظة، تفحص علامات الجسد: الفقرة المبتورة من الإصبع الوسطى لليد اليمنى، وشحمة الأذن اليسرى المقطوعة. ثم رفع بعد ذلك الأذن الأخرى وبحث، بجزع، عن الندبة النجمية. إنها هي. العلامة موجودة. رفع الجسد وحمله على كتفه، مثلما فعل رجل الفوكسفاغن في الليلة السابقة. توجه نحو مخرج هييربرتشتراس ولكن أحد الماردين اللذين يضعان قبعات فطر ويرتديان معاطف مطرية، وقد عرفهما من قبل، اعترض طريقه وصرخ به بصوته الغريب: *Komm here! Du kannst*

nicht!، «تعال إلى هنا! لا يمكنك المرور!». كل شيء كان يحدث مرتين: الواقع الذي لم يحدث قطّ من قبل يستنسخ ذاته مع ذلك، الحياة التي سيعيشها في عدم عيش للمرة الثانية. تراجع عندئذ نحو ساحة ألبرس، حيث يمكن لفيسكيت أن يكون بانتظاره، ولكنه لم ير فيسكيت ولا المارد الآخر: لا أحد سوى المارد الأول يلحق به. استدار الكولونيل وواجهه، بينما هي على كتفه (كان ثقلها من تول، من هواء: تعرف إليها من خفتها)، هدد المارد بمسدسه الفالتر. ورأى مطارده يختبئ، سريعاً، في أحد الدهاليز، ولم يشأ رؤية المزيد. أطلق رصاصة في الهواء. جمد الدوي الجاف الزمن واختفت الشمس. وضع الكولونيل «شخص» بعذوبة في سيارة الأوبل البيضاء، وانطلق بها، أدرك أن فيسكيت لن يأتي وربما قد ابتعد عن طريقه إلى الأبد.

وصل إلى بون، مثلما كان قد قدّر، قبل قليل من انتصاف الليل. توقف على الطريق السريع مرتين ليتأملها: لقد كانت إنجازه، انتصاره، ولكن من يدري إذا ما كان ينقذها بعد فوات الأوان، يا للمسكينة، يا قديستي، يا حبيبتي، لقد أهملوكِ كثيراً حتى جردوكِ من كل نور، لقد فقدتِ عطرك، ما الذي أفعله من دونكِ يا طوباويتي، يا أرجنتينيتي.

لم يتحرك تلك الليلة من جانبها. فتش في كابينة السيارةِ بين الأمتعةَ التي تركها فيسكيت: وجد قميصين فقط وبعض مجلات الثقافة البدنية. وقبل الفجر، صعد بصمت إلى بيته، حلق ذقنه واستحم، دون أن يتوقف عن مراقبة سيارة الإسعاف. المراقبة كانت جيدة، اللهم إلا من الصالة، فموقف السيارات يُرى من كافة النوافذ. سيارتا دورية شرطة كانتا متوقفتين بالقرب من ويبرشتراس، وفوكسفاغن حارس السفارة الليلي كانت تبتل بالندى، وحيدة، على ضفة البونغاسيه.

لم يكن يدري إن كان عليه أن يعمل أم لا هذا الصباح في مكتبه الكريه. فهو لا يريد، من جانب، أن يبتعد عنها؛ ولكنه يخشى، من جانب آخر، أن يستثير هذا الغياب الطويل عن السفارة سلسلة تساؤلات لا

يستطيع الإجابة عليها. نظر إلى المرآة. كان وجهه معكراً. وكان ألم أصم، عنيد، يُثقل على عضلات ظهره ويجبره على المشي منحنياً: الجسد ينتقم من ساعات العذاب التي أمضاها وراء المقود. حضّر فنجان قهوة كثيفاً بينما كانت الشمس تشرق على الراين الكالح.

لم يكن بحاجة إلى رؤية زوجته كي يتصور أن أخباراً سيئة تنتظره. سمع وقع قدميها الحافيتين، وحفيف قميص نومها، والصوت المتعثر والغاضب:

– إنك تختفي مثل شبح دون أن تعلم بما يجري لأسرتك ـ قالت له.

– ماذا يمكن أن يحدث ـ أجاب الكولونيل ـ لو أن شيئاً خطيراً قد حدث، لما استيقظتِ متأخرة هكذا.

– اتصل السفير. عليك العودة إلى بوينس آيرس بأسرع ما يمكن.

انهار شيء في رأسه: الحب، الغضب، الإيمان بنفسه. كل ما له علاقة بالمشاعر سقط وتهشم إلى فتات. وهو وحده من سمع الدوي.

– لماذا؟ ـ قال.

– وما أدراني أنا. لقد هيأت لكَ الحقيبة. عليك السفر غداً، في طائرة الليل.

– لا يمكنني ـ قال ـ لن أقبل هذه الأوامر.

– إذا أنت لم تذهب غداً، فسنضطر إلى الذهاب جميعنا في الأسبوع القادم.

– براز ـ قال ـ الحياة براز. ما تعطيكَ إياه من جانب تنزعه منك من جانب آخر.

اتصل هاتفياً بالسفارة وأخبرهم أنه مريض. وأوضح: «كان عليّ أن أسافر إلى الشمال. أمضيت ساعات طويلة جالساً. وقد رجعتُ مشلولاً. لا أستطيع التحرك.» فرد عليه السفير بصوت فارغ الصبر: «عليك أن تغادر غداً إلى بوينس آيرس حتى ولو محمولاً على نقالة يا موري. الوزير يريد رؤيتك بأسرع ما يمكن.» وسأله الكولونيل: «ماذا حدث؟». فرد الصوت:

«لا أدري. شيء رهيب. لقد قالوا لي فقط إن الأمر رهيب».

إنها «شخص»، هكذا فكر الكولونيل عندما أغلق الهاتف. لقد اكتشفوا أن فيسكيت قد أخذ الأصلية وترك لهم نسخة مقلدة. سيعينونني على رأس التحقيق، قال لنفسه، هذا مؤكد. ولكنني لا أستطيع أن أمنحهم هذه المرة ما يأملون بالحصول عليه.

عليه أن يسافر، أن يجتاز البحر. وحين يذهب، ماذا سيحل بها هي، من سيعنى بها؟ لم يُتح له الوقت حتى لتزويقها وشراء تابوت جديد لها. وهذا، في نهاية المطاف، هو أهون الشرور. فالأصعب هو إخفاؤها خلال فترة غيابه. تخيلها وحيدة في مستودعات السفارة، أو في قبو بيته، أو في سيارة الإسعاف التي يمكن له أن يتركها مغلقة حتى عودته. لا شيء من ذلك يقنعه. ففي وحشة تلك الأمكنة العمياء، سيأخذ الحزن بإطفائها مثل شمعة. وفجأة تذكر باباً سرياً في سقف المطبخ. زوجته تخزن هناك صناديق، وحقائب، وثياباً شتوية. ذلك هو المكان، قال لنفسه. فهناك سماء تطرق السطح بفقرات أصابعها؛ والشمس تسقط مواربة، ويُسمع الوقع العذب والمتوحد لمطر البشر. النكبة الوحيدة تتمثل في أنه لا بد للزوجة من أن تعرف أنها هناك.

– يجب أن تعلمي شيئاً ـ قال لها.

كانت في المطبخ، ومربع الباب السري فوق رأسها. وكانت الزوجة تغمس قطعة معجنات في القهوة.

– لقد أحضرتُ صندوقاً من هامبورغ. وسأحتفظ به فوق، بين الحقائب.

– إذا كانت متفجرات فلا تفكر في ذلك مجرد تفكير ـ قالت له. وكان ذلك قد حدث في مرة سابقة.

– ليس الأمر كذلك. لا تقلقي. ولكنك لن تستطيعي الصعود هناك إلى أن أعود.

– البنتان تصعدان إلى هذا المكان في كل وقت. ماذا أقول لهما. ماذا أفعل.

– قولي لهما ألا تصعدا وكفى. عليهما أن تنصاعا.

– هل ستخبئ سلاحاً؟

– لا. بل امرأة. تلك الميتة، المُحنطة. إنها المرأة التي كانوا يهددونها بسببها. هل تتذكرين؟ السيدة.

– تلك الفرس؟ أنت مجنون. إذا جئت بها فسوف أغادر وآخذ البنتين معي. وإذا ذهبتُ فلن أغادرِ بصمت. الجميع سيسمعونني.

لم يرها هكذا من قبل قطّ: شرسة وغير قابلة للترويض.

– لا يمكنك أن تفعلي هذا بي. إنها بضعة أيام قليلة فقط. عندما أرجع من بوينس آيرس، لن تعودي لرؤيتها أبداً.

– تلك المرأة، هنا في بيتي، فوق رأسي. مستحيل.

– انتهى الأمر ـ قال ـ لقد دمرتِ نفسكِ بنفسك.

– فلينتهِ ـ قالت ـ وهذا هو الأفضل.

كان الكولونيل شبه عاجز عن الحركة، بخصره المختنق بالألم والعجز. حبس نفسه في حجرة مكتبه، وشرب بنهم بقايا زجاجة جن وابتلع عدة أقراص أسبرين. وبعد ذلك، وبلا انصياع لاحتجاجات فقرات ظهره، أخرج من الخزائن رزمة الدفاتر المدرسية التي سلمها القهرمان رينزي لدونيا خوانا مع أصول *رسائلي* التي كتبتها إيفيتا قبل قليل من موتها. دسها في حقيبة مع غيار ملابس داخلية وقميص نظيف. وهكذا خرج من جديد إلى ضوء الصباح. فتح باب سيارة الإسعاف. وبدا له مذهلاً أن تكون هي مازالت هناك وأن تكون له.

– فلنذهب ـ قال لها.

اجتازت سيارة الأوبل أحد الجسور فوق الراين واتجهت نحو الجنوب أو نحو لامكان.

- 15 -

«مجموعة بطاقات بريدية»

قاد السيارة طيلة ذلك الصباح عبر كآبة الطرق السريعة دون وجهة محددة، وانعطف عند ماينز لشراء زجاجة جن وفي هيدلبرغ من أجل الوقود للسيارة. إنني أرجنتيني، كان يقول لنفسه. إنني فراغ بلا امتلاء، مكان بلا زمان لا يدري أين يذهب.

كرر مرات كثيرة: هي من تقودني. إنه يشعر الآن بذلك في فقرات عظامه: هي طريقه، وحقيقته، وحياته.

عندما كان في السادسة من عمره، أخذه أبواه إلى آيشتات، في بافيرا، كي يتعرف إلى جديه. إنه يتذكر وجه العجوزين المخطط بنجوم، وصمتهما الدائم؛ ويتذكر قبور المطارنة تحت بلاط الكنائس، وسكون نهر ألتميل عند الغروب. وقبل عودته إلى بوينس آيرس، أرته الجدة الكوخ الذي إلى جانب النهر، حيث ولدت هي. كانت الأرض رطبة، طرية، وأسراب من الحشرات الطيارة الظامئة تحلق على مقربة من سطح الأرض. سمع أصوات حيوانات لم يكن يعرفها، وبكاء طويلاً، عميقاً، يبدو كأنه صادر عن امرأة. ولكن الجد قال له: «إنها القطط. وهي الآن في موسم التكاثر.» إنه يتذكر على الدوام تلك اللحظة كما لو أن حياته بدأت آنذاك فقط، ولم يكن هناك من قبل واقع ولا أفق وإنما مجرد باب مغلق لا يؤدي إلى أي مكان.

ولأنه عليه أن يذهب إلى مكان ما، فقد قرر الذهاب إلى آيشتات. وبالقرب من دُومبل أوقفته دورية شرطة.

– هل معك مريض في حالة حرجة؟ ـ سألوه ـ إلى أي مستشفى أنت ذاهب؟

– لستُ ذاهباً إلى أي مستشفى. إنني أحمل إحدى مواطناتي ميتة. وعليّ أن أسلّم الجثة في نورنبيرغ.

– افتح سيارة الإسعاف ـ قالوا له ـ لا يمكنك المضي هكذا، على الطريق السريع، ومعك ميت. إنك بحاجة إلى إذن خاص.

– لدي وثائق اعتماد. إنني دبلوماسي.

– ليس مهماً. افتح الباب.

نزل مستسلماً. فالكذبة الوحيدة في قصته هي ذكر مدينة نورنبيرغ. وإذا ما أجبره رجال الشرطة على تغيير وجهته فسيفعل. فائدة الحرية هي في إمكان تحويل الأكاذيب إلى حقائق ورواية حقائق يبدو كل شيء فيها كذباً.

دخل أحد رجلي الشرطة إلى سيارة الإسعاف بينما ظل الآخر يراقب الكولونيل. امتلأت السماء بغيوم وعلى الفور هطل رذاذ مطر غير محسوس.

– هذه ليست ميتة ـ قال الشرطي من داخل سيارة الأوبل ـ إنها دمية من الشمع.

وللحظة، أحس الكولونيل بإغواء أن يكون متعجرفاً ويوضح له من تكون هي، ولكنه لم يشأ إضاعة مزيد من الوقت. وعادت ومضة تشنج تنغرس في خصره.

– من أين حصلت عليها؟ ـ قال الرجل وهو ينزل من السيارة ـ إنها متقنة الصنع.

– من هامبورغ. من بون. لم أعد أتذكر.

– فلتستمتع بها ـ ودّعه الشرطي الآخر ساخراً ـ وإن أوقفوك ثانية، فلا تقل إنك تحمل ميتة.

خرج من الطريق السريع عند بلدة أنسباخ واتخذ الطريق رقم ثلاثة

عشر، باتجاه الجنوب. كانت تنفتح في الأفق شبكة بحيرات وأنهار زرقاء صغيرة تلمع مياهها تحت المطر. وبالقرب من ميركندورف اشترى نعشاً. وبعد مسافة حصل على رفش ومجرفة. كان يشعر بتوعد الليل، بالوحدة، بالعراء، ولكنه قبل أن يواصل قُدماً يحتاج إلى التكلم معها، ويعرف إن كانت تعاسة معرفتها بأنها ستظل مهجورة ستملؤها بالدموع وتمحو جسدها. أوقف الأوبل إلى جانب حقل شعير. مددها بعذوبة في التابوت وبدأ التحدث إليها. وبين وقت وآخر كان يرفع زجاجة الجن، وينظر إليها بذهول على الضوء الآخذ بالتناقص، ويشرب جرعة من الخمر. «فراشتي»، قال لها، ولم يكن قد استخدم هذه الكلمة من قبل قط. «سأضطر إلى تركك.» أحس بصدره فارغاً، كما لو أن كل ما هو عليه وكل ما كانه قد نزف من خلال جرح هذا القول اليقيني: «سأضطر إلى تركك. سوف أذهب. إذا لم أذهب سيبحثون عني. جماعة جهاز المخابرات، وجماعة كوماندو الانتقام. الجميع يلاحقونني. وإذا وجدوني سيجدونكِ أنت أيضاً. لن أتركك وحيدة. سوف أدفنك في حديقة جدتي. وستتولى هي والجد العناية بكِ. كلاهما ميت طيب. عندما كنتُ صغيراً قالا لي: عدّ إذا شعرت بالحاجة إلينا يا كارل. وأنا الآن بحاجة إليكما. أيتها الجدة، أيها الجد. شخص ستبقى معكما. إنها مهذبة، هادئة. تتدبر أمورها بنفسها. لاحظا كيف خدعت دورية الشرطة. لقد حوّلتِ نفسكِ يا فراشتي. خبأتِ الأجنحة وحوّلتِ نفسك إلى خادرة. محوتِ كل أثر لعطر الموت. لم تسمحي بأن يروا الندبة النجمية. لن تضيعي الآن. ففور تمكني سأعود بحثاً عنكِ. لا تعاني أكثر. فقد حان الوقت لأن تستريحي. لقد جلتِ كثيراً في هذه الشهور الأخيرة. أيتها الرحالة. في كم من الأراضي والمياه والفضاءات ضعتِ».

لدى الدخول إلى آيشتات أحس بسعادة غير متوقعة لعودته إلى منزل، بالرغم من أنه يكاد لا يعرفه. الشوارع المنحدرة والمقفرة، القصور الديريّة، كل شيء بدا له أليفاً. من يدري كم من المرات كان هناك في الأحلام دون

أن ينتبه إلى ذلك إلا الآن. كوخ الجدين يقوم في مكان ما على ضفة نهر ألتميل، باتجاه الشرق، باتجاه بلونز. اجتاز جسرين أو ثلاثة جسور قبل أن يجده. لم تبق منه سوى أطلال: جذوع الواجهة وبقايا موقد. ربما صار للأرض مالك آخر. المشهد لم يكن هو نفسه الذي في ذاكرته: رأى من بعيد أشباح أبقار غائمة وعنق طاحونة. بدأ الليل يخيم سريعاً، نهماً. غرس المجرفة إلى جانب الموقد، وبدأ الحفر فوراً. كان غضب الضربات يطفئ شكوى فقرات ظهره ولكنه يعلم أن آلام الظهر ستكون فظيعة حين ينتهي. ربما لن يستطيع التحرك. ربما لن يستطيع العودة. كان يسمع، على بُعد خطوات، خرير التيار الأسود والكثيف المتدفق في النهر. لم يتوقف المطر عن الهطول. ولأن الأرض طرية ومرحبة، فقد احتاج إلى أقل من ساعة لشق حفرة بطول متر ونصف حددها بألواح خشب عتيقة وأحجار. ستكونين على ما يرام هنا يا «شخص»، كان يردد. ستسمعين شخير الحصاد وثغاء الربيع. لن أدعك تنتظرين مبحرة. سأذهب ثم أعود.

وفي حوالي منتصف الليل قبّل جبهتها، ووضع تحت قدميها الحافيتين حزمة الدفاتر المدرسية ومخطوطة *رسالتي* وثبت غطاء التابوت بصف من المسامير ليحميها من الضواري تحت الأرضية ومن فضول القطط. في البدء، حين وضعها في القبر، بدأ يغطيها ببقايا الموقد ـ حطب متعفن، آجر، عجلات، وحتى طقم أسنان ربما كان فيما مضى للجد ـ، أحس برغبة في البكاء وطلب المعذرة للمرة الأخيرة. ولكن سرعان ما انفتحت فيه واحة طمأنينة. ما عاد بمقدوره مواصلة حمايتها، ستكون إيفيتا أحسن حالاً هكذا. إنه هو وحده من يعرف المخبأ الآن، وهو وحده من يعرف كيف ينقذها، ويمكن لهذه المعرفة أن تكون درعه الواقي. فإذا ما أرادوا في بوينس آيرس رؤيتها ثانية، عليهم أن يطلبوا منه ذلك وهم يجثون على ركبهم.

عند الفجر وصل إلى كولينز، إلى الجنوب من بون. استأجر غرفة في موتيل، فاستحم وبدّل ثيابه. بدأت آلام العض في ظهره تتبدد بما يشبه

المعجزة، وكان للشمس التي أطلت من النافذة لون غير معروف، بريء، من عالم آخر. عندما يبزغ النهار مرة أخرى وتكون هناك شمس أخرى، سيكون في بوينس آيرس. ومن يدري بأية مدينة سيلتقي هناك. من يدري إن كانت المدينة لا تزال في المكان الذي تركها فيه. ربما تكون قد رحلت عن سهلها الرطب وراحت تنمو الآن إلى جانب الموقد، على ضفاف نهر ألتميل.

ألدو ثيفوينتس هو من روى هذه الحركات الأخيرة من القصة. ففي صباح يوم أحد، في بيته، نشرنا معاً فوق منضدة المكتب بطاقات موري كينيك وأوراقه، ودرسنا تحركات ذهابه وإيابه على طبعة 1958 من أطلس هاموند حصل عليها ثيفوينتس من معرض سان تيلمو. وعندما رسمنا طريق رحلته بخط أحمر، أذهلني التأكد من أن الكولونيل قاد سيارة لأكثر من عشرين ساعة على طرق ألمانيا دون أن يستسلم لآلام فقرات ظهره.

– لم يكن يهمه أي شيء آنذاك ـ قال ثيفوينتس ـ فقد تخلى عما كان عليه. تحول إلى ناسك. وعندما كنت ألتقي به، في السنوات الأخيرة، كان يردد: «شخص هي نور لا يمكن لأحد أن يدركه. وكلما فهمتها أقل، آمنت بها أكثر». الجملة ليست له. إنها للقديسة تيريسا.

– مات دون أن يدري، آنذاك، أنه لم يدفن إيفيتا وإنما إحدى النسخ المقلدة.

– لا. لقد أخبروه بكل شيء. كانوا قساة معه. عندما وصل من بوينس آيرس، كان بانتظاره كوروميناس وفيسكيت ومبعوث من وزير الجيش. اقتادوه إلى مكتب في المطار، وهناك أخبروه بأنه وقع في فخ. فقد موري كينيك، في البدء، توازنه. كاد يغمى عليه. ثم قرر عدم تصديق ذلك. وقد منحته تلك القناعة الحماسة على مواصلة العيش.

– وما الذي كان يفعله فيسكيت هناك؟ – سألتُه.

– لا شيء. كان شاهداً وحسب. لقد كان ضحية الكولونيل. وانتهى إلى أن يكون من يعاقبه. ففور تمكنه من الهرب من هيربيرتشراس، ركب أول

طائرة إلى بوينس آيرس. وقد كان هنا عندما أرسل وزير الحرب البرقية إلى موري يأمره بأن يعود.

– لا أفهم لماذا قاموا بكل ذلك اللف والدوران. ولماذا لم يزيحوا الكولونيل دفعة واحدة وينهوا كل شيء. ولماذا أرسلوا له الدمية.

– كانوا بحاجة إلى كشفه. فقد كان موري قد نسج شبكة تآمر في الجيش. وكان يعرف الكثير من الأمور المشينة ويهدد على الدوام بإخراجها إلى النور. لقد أخبره كوروميناس في المطار بأنهم اكتشفوا الندبة التي وراء أذن المتوفاة، وأن الدكتور آرا قد وشم تلك العلامة نفسها على إحدى النسخ المقلدة. وفي تلك اللحظة، لم يكن بإمكان موري أن يعرف إن كانوا يكذبون عليه. كان مستنفداً، مرتبكاً، مريضاً بالإذلال والحقد. يريد الانتقام، ولكنه لا يعرف كيف. كان بحاجة إلى معرفة الحقيقة أولاً.

– ربما كانوا مخطئين ـ قلت ـ ربما كان الجسد الذي دفنه الكولونيل في الكوخ هو جسد إيفيتا، ولم تعد بعد ذلك ثمة قصة. لماذا تضحك يا صاحبي. سيكون اختلاطاً أرجنتينياً بامتياز.

– لا يمكن لكوروميناس أن يقترف مثل ذلك الخطأ الخطير الذي قد يكلفه وظيفته. تصور الفضيحة: الجيش يتخلى عن جثة إيفيتا في واجهة عاهرات، في الجانب الآخر من الأطلسي. لو حدث ذلك لظلت أصداء قهقهة موري كينيك تتردد حتى يوم القيامة. لا، لم يكن الأمر كذلك. لقد حبك كوروميناس كوميديا خدع متداخلة ولكنها ليست التي تفكر فيها أنت. ومن يدري لماذا فعل ذلك. من يدري أية حسابات سرية صفاها في تلك اللحظة مع الكولونيل. لم يتلفظ أي من الاثنين قط بكلمة واحدة ضد الآخر.

– إنني مثل القديسة تيريسا: أصدقك ولكنني لا أفهمك. ماذا حدث للآخرين: للفالكيريا والماردان ذوي قبعات الفطر؟

– جميعهم كانوا ممثلين في الاستعراض نفسه: الرجل الذي تظاهر بأنه قبطان السفينة *كاب فريو*، ولصوص الأوبل الزرقاء، وحراس الهيربيرتشتراس. لقد اشتروهم جميعاً بمبلغ صغير من الماركات.

– يمكن أن يبقى للكولونيل، على الأقل، عزاء أنهم ألحقوا به الهزيمة بضربات تخيل. من الذي كتب السيناريو؟

– كتبه كوروميناس. ولكن موري لم يشأ تصديق ذلك قطّ. كان يصر على إيمانه بأن إيفيتا هي المدفونة قرب نهر ألتميل، وأنه فقدها مرة أخرى. بعد حادثة المطار اضطر إلى العودة إلى بون، وكان قد استُبدل بموظف آخر، كي يأخذ أوراقه وينقل بيته. لقد عاش آنذاك لحظة جدارة، وربما عَظَمَة، أخيرة. لم يكلم أحداً. قدم لزوجته التعليمات والنقود الضرورية للعودة، ووضع في صندوق الوثائقَ التي تراها في هذه الحجرة، ورجع إلى الكوخ الذي كان ملكاً لجدَّيه، بين آيشتات وبلونز، للبحث عن إيفيتا. ولم يجدها.

نهض ثيفوينتس واقفاً.

– إنه جسد إيفيتا المتهرب ـ قلت ـ الجسد الجوال. وكان هذا هو قدر الكولونيل المحتوم.

– ربما ـ قال ثيفوينتس ـ ولكنه لم يكن: لا تنسَ ذلك. ولم يجد المكان أيضاً. والأصح أن قدره كان التشبث بأمكنة تختفي. فعندما وصل، لم يكن حقل جديه شيئاً: مجرد وحل وبعوض. كانت المياه قد أزالت كافة العلامات. ولم يكن قد صمد سوى جذعي الواجهة ودعائم الموقد الصدئة. جعلته عجلة ممتلئة بالأحجار يتوقع أن تكون تلك هي البقعة التي حفر فيها القبر. عندئذ عاود الحفر للمرة الثانية، بيأس، إلى أن التقى بالتيار تحت الأرضي لنهر ألتميل. وهناك كان التابوت غارقاً، بلا غطاء، ودون الجسد بالطبع. عندما أراد استخراجه انهارت الحفرة التي شقها. وظل هيكل التابوت واقفاً، في وضع عمودي، وطرفه المقوس بارز بين الجذور والطمي.

تركني ثيفوينتس وحدي في بيته واستطعت قضاء بقية الصباح في قراءة التقارير التي كان جاسوس الكولونيل ـ ويمكن تسميته *النجم* أيضاً ـ يرسلها من سنتياغو دي تشيلي إلى بون. وكان أول ما لاحظته أن تلك

الأوراق تتضمن قصة. هذا يعني، أصل الأسطورة: أو بعبارة أدق حادث على الطريق، حيث الأسطورة والتاريخ يفترقان وتبقى في الوسط مملكة التخييل المتحدية وغير القابلة للتقويض. ولكن ذلك لم يكن تخييلاً. لقد كان بداية قصة حقيقية تبدو، مع ذلك، خرافة. عندئذ عرفت لماذا كان الكولونيل يستخف بتلك التقارير، فلا يصدقها، ولا *يراها*. الشيء الوحيد الذي كان يهمه هو الابنة، وليس ماضيها.

«تذكر أيها الكولونيل شفتي دونيا خوانا»، يكتب المنجم. «تصورها تتكلم. تذكر الشعر الأبيض مع انعكاسات سماوية، والعينين المدورتين المتيقظتين، والخدين المتهدلين. لا يوجد أدنى شبه بينها وبين إيفيتا، لا شيء، كما لو أن الابنة قد أنجبت نفسها بنفسها.»

رتبتُ الأوراق وبدأتُ باستنساخها. استبعدت تقارير سنتياغو دي تشيلي، وكان موري قد راكم الكثير من تقولات مشرفي مناضد القمار، ومحاضر السجل المدني والتحريات التاريخية لصحفيي لوس تولدوس. وأخيراً، استنسختُ فقط بعض الفقرات القليلة بنصها. وأخذتُ من وثائق أخرى ملاحظات موجزة وأنقذت مقاطع من حوارات. بعد سنوات من ذلك، عندما أردتُ تبييض تلك الملاحظات وتحويلها إلى بداية لسيرة حياة، انحرفت نحو صيغة المتكلم الغائب (الشخص الثالث). فحيث تقول الأم: «مذ جاءت إيفيتا إلى الدنيا عانيتُ كثيراً». رأيت أنا أن أكتب: «مذ ولدت إيفيتا عانت أمها، دونيا خوانا، كثيراً». لم يكن الحال نفسه. بل العكس تقريباً. فمن دون صوت الأم، دون وقفاتها، دون طريقتها في النظر إلى القصة، لا يعود للكلمة أي معنى. قليلةٌ هي المرات التي ناضلت كثيراً ضد كينونة النص الذي يريد أن يروى بالتأنيث بينما أقوم أنا، بقسوة، بليّ طبيعته. ولم أُخفق قط كما في هذه المرة. وقد تأخرت طويلاً في تقبل أنه لن تكون ثمة قصة ما لم يلوِ صوت الأم إرادتي. عندئذ تركتها تتكلم من خلالي. وبهذه الطريقة فقط، سمعتُ نفسي أكتب:

«مذ جاءت إيفيتا إلى الدنيا عانيتُ كثيراً. فزوجي دوارتي الذي كان

حتى ذلك الحين رجلاً خدوماً ومحترماً، تحول إلى متهرب. كان لدينا، مثلما تعرف حضرتك، أربعة أبناء آخرين، وكنتُ أنا من أصررت على أن تولد هذه الابنة الأخيرة، وليس هو. كان يقول: "لم تأتِ عن حب، بل أتت بحكم العادة." ربما أنني بالغتُ في الخضوع والإذعان أثناء سعيي لاستبقائه. وربما أنه لم يعد يحبني أو جعلوه يعتقد أنه لم يعد يحبني. صار يمر في لوس تولدوس في أوقات متباعدة فقط، في رحلات عمل. وكان يطلب الإذن للدخول إلى البيت كما لو أنه غريب، ويتقبل، بصمت، تناول كوبين من المتة. وبعد هنيهة يبدأ بالتنهد، ثم يسلمني مغلفاً فيه نقود ويمضي وهو يهز رأسه. دوماً على هذا المنوال. وكان يرى إيفيتا قليلاً جداً، إلى حدّ لو أنه التقى بها في الحقول ما كان سيتعرف إليها.

«كان له في تشيفيلكوي بيت آخر: زوجة شرعية جميلة جداً وثلاث بنات. وكانت الزوجة من أسرة متنفذة، تملك مزارع وطواحين. وكان ذلك ملائماً لدوارتي، لأن الفقر يرعبه. أما أنا فلم يكن بإمكاني أن أقدم له شيئاً سوى أعباء المسؤولية والنفقات. فالسعادة لا تُأخذ في الحسبان في مثل هذه الأمور. السعادة أمر ينساه الرجال على الدوام.

«ذات يوم جمعة من شهر تشرين الثاني، مرّ دوارتي من لوس تولدوس يقود قطيعاً من الخيول. كان ذاهباً لوسمها في المزرعة التي يتولى إدارتها، مزرعة أونيون، وبما أنه أُعلن عن إقامة حفل شواء، فقد بدا لي أنها فرصة مناسبة من أجل تعميد إيفيتا التي صارت في الشهر العاشر من عمرها، وكذلك خوان الذي كان قد أكمل الخامسة من العمر. فأرسلتُ إليه أُخبره بأن يحضر إلى دار الأبرشية في الساعة الحادية عشرة، ولكنه لم يُبدِ ما يشير أنه موجود ولم يعتذر. وعند الظهر، أنجز الكاهن عمليات التعميد بتعجل لأن عليه أن يقيم بعد ذلك قداساً. طلبتُ منه أن أبقى لحضور القداس، فقال لي: "غير ممكن يا خوانا. ستكون فضيحة. فالناس المحترمون لا يريدون أي علاقة مع امرأة تعيش كخليلة". فأجبته: "هذا غير عادل. فجميعنا سواء أمام عيني الرب". "صحيح - قال الكاهن، ثم

أضاف: ولكن الناس حين يرونكِ يسهون عن الرب." وبالرغم من أن الإهانة أصابتني في الصميم، إلا أنني انفجرت في الضحك، وأجبته: "لم يخطر ببالي قط أنني في نظر الناس أشد لفتاً للأنظار من الرب".

«خرجتُ من الكنيسة عازمة على عدم الرجوع إليها بعد ذلك اليوم. ذهبتُ مشياً مع أبنائي إلى مزرعة أنيون، كي يفسر لي دوارتي سبب تغيبه عن التعميد، ولكنه أنكر ذلك. لقد وقعتُ في حبه عندما كنت طفلة تقريباً دون أن أعيٍ ما الذي كنت أفعله. وبعد ذلك كان عليّ أن أدفع ثمن ذلك الجهل حياة من التعاسة.

«كان ثمة صباح مشؤوم آخر، في العام 1923. كانت السماء تلتهب. وضعت زيتاً على النار كي أقلي بعض البطاطا، وجعلتني شدة الحر أسهو. استسلم لتيار أفكاري. فقد ابتلعت الأرض دوارتي، وبدأ الرجال الآخرون الذين يرونني وحيدة بملاحقتي. لم أكن أدرِ ما الذي ستصير إليه حياتي، لم أكن أعرف باسم أية لعنه أهدر شبابي ورغبت في الذهاب بعيداً، ولكن دون أن أدري إلى أين وبأي نقود. وبينما أنا في هذه المرارات سهوت. وفجأة، سمعت ولولة مدوية. إنها إيفيتا، هكذا فكرتُ. وكانت هي حقاً. فقد اجتذبتها فرقعة الزيت وهو يغلي، واقتربت لتنظر. فانقلب القدر عليها، من يدري كيف، وغطت تلك الحمم جسدها. غيّبتها حدة الحروق عن الوعي. ركضت بها إلى المستوصف. لم أكد أتجرأ على لمسها، فقد كانت تفلت ألياف من جلدها عند أدنى ملامسة. عالجوها بزيت جيري وضمدوها. سألتهم إن كانت ستظل عليها آثار. فقالت لي المرضة "نسيج سلحفي. يمكن أن يتشكل على جلدها نسيج سلحفي.". سألتُ ما هو ذلك. فأجابتني بحسم: "ستبدو مثل سلحفاة. ستكون في الجلد تفرعات، وضفائر، وتملؤه القروح."

«نزعوا عنها الضمادات بعد أسبوع. وكان لديّ آنذاك قديسيي الخاصون وعذراواتي الخاصات: كل ليلة كنت أركع على حبوب ذرة وأتوسل إليهم أن يعيدوا إليها العافيةَ وجمالاً صار يبدو مستحيلاً. غطت قشور الحروق

الحمراء وجهها ورسمت خرائط على صدرها. وعندما انطفأت آلام الحروق، صارت تؤرق إيفيتا حكة جنونية. ولأن القشور كانت توصلها إلى اليأس، فقد أرادت انتزاعها، واضطررتُ إلى تقييد يديها. وظلت مقيدة على تلك الحال أكثر من شهر، بينما كانت القشور تتحول من الحمرة إلى السواد. صارت تبدو أشبه بيسروع ينسج شرنقة حداد سوداء. وذات صباح، قبل انتشار الضياء، سمعتها تنهض من نومها. كان المطر يهطل في الخارج، والريح تعصف بقوة، في هبات متتالية، مثل نوبات سعال. خشيتُ عليها من الإصابة بمرض أسوأ ونظرتُ من النافذة. كانت إيفيتا تقف دون حراك في الفناء، وجهها مرفوع إلى أعلى بينما هي تفتح ذراعيها معانقة المطر. كانت قشور القروح قد انفلتت عنها. وبدلاً من القروح أطلت هذه البشرة الناعمة، الشفافة، كأنها المرمر، والتي سيُغرم بها رجال كثيرون في ما بعد. لم يبق على بشرتها أي أثر أو لطخة. ولكن لا وجود لمعجزة بلا جزاء. وقد كان على إيفيتا أن تدفع ثمن خلاصها بإساءات أخرى من الحياة، وبخدع أخرى، وتعاسات أخرى.

«ظننتُ في العام 1923 أننا قد سددنا ديوننا من المرارة. ومع ذلك، كان العام 1926 أسوأ بكثير. كانت ابنتي الكبرى بلانكا قد تلقت شهادة معلمة. وكنت أود التخفف من وطأة أعمال الخياطة، فبدأت أبحث لها عن عمل. كنا نخرج كلتانا في الصباح الباكر لنطرق أبواباً في مدارس القرى الكئيبة: سان إميليو، إلتيخار، لاديلفينا، باياوكا. كل شيء كان غباراً ورياحاً وشمساً قاتلة. وعند العصر أجلس في أرجوحة النوم المعلقة في الفناء، مستنفدة، وبكاحلين متورمين. كانت أوردتي تتفجر، وبالرغم من أنني كنت أقول لنفسي: اهدئي يا خوانا، دعكِ من هذا المشي الكثير، إلا أن كل يوم كان يأتي على الدوام بأمل جديد يضطرني إلى المشي. لقد ذرعنا تلك الدروب الترابية مئات المرات، ودائماً دون جدوى. وكان لا بد من موت دوارتي كي يشفقوا علينا.

«وحدث، وهو ما يمكن أن أكون قد قلته، أنه في يوم جمعة من شهر

كانون الثاني. سمعنا في موعد القداس عدو حصان. أخبار خبيثة، هذا ما فكرتُ فيه. فعندما يكون الحر جهنمياً وتدفع حصاناً إلى الجري بأقصى سرعة، فإنما تفعل ذلك لتنقل خبر نكبة ما. وهذا ما حصل. كان الفارس واحداً من العاملين في مزرعة أونيون. وقد جاء يحمل خبر موت دوارتي. قال إن الأمر حدث عند الفجر. كان دوارتي خارجاً من تشيفيلكوي إلى براغادو ليتابع العمل في بعض حقول الذرة، وفي اختلاط عتمة الفجر، انقلبت سيارة الفورد التي يقودها في الهاوية. يبدو أن حيواناً مر أمامه. أو ربما يكون قد غفا في الطريق. ولكنني قلت لنفسي: لا شيء من هذا، ما قتل دوارتي هو الحزن. فالرجل الذي يهجر رغباته مثلما هجرها هو، يعني أنه لا يريد مواصلة العيش. فينهزم أمام أي مرض أو يغفو في الدروب.

«كنت قد توقفتُ عن حبه منذ زمن طويل. كان قلبي مقفراً منه ومن أي حب آخر باستثناء حبي لأبنائي. شعرت أن الموت يمكن أن يأتيني أنا أيضاً في أي لحظة وتصورتُ الحياة الفظيعة التي سيعيشها أيتامي، يستعبدهم أرباب عمل معادون أو كهنة معتوهون. هيمن عليَّ الغم. وقبالة الفناء، في حجرة النوم، كانت توجد خزانة بمرآة. وهناك رأيتُ انعكاس صورتي، كنتُ شاحبة مثل ملاءة بيضاء، بينما ساقاي لا تقويان على حملي. انهرتُ مطلقة صرخة مدوية. ساعدتني بلانكا على النهوض. وهرع ابني الذكر، خوان، إلى الصيدلية. أرادوا أن يحقنوني بمسكِّن كي أنام، ولكنني لم أسمح لهم بذلك. لا يا سيدي، قلت. وإذا كان دوارتي قد مات، فإن مكان أسرتي معه. تقصيت حول إن كانوا يسهرون على الجثمان في أونيون. فقال لي العامل لا، إنهم سيدفنونه في تشيفيلكوي غداً عند الغروب.

«أحسست بضربة طاقة مجهولة. لقد كان قهر إرادتي صعباً على الدوام. لم تهزمني الأحزان ولا الأمراض ولا خيبات الأمل ولا الفقر. ولكنني في تلك اللحظات لم أملك حتى ما أقاتل به.

«اشتريتُ بالدين بعض ملابس الحداد وجوربين أسودين. وخطتُ لابني

خوانثيتو عصابة سوداء على كمّ قميصه. كانت البنتان الكبيرتان تبكيان. أما إيفيتا فلم تبكِ. كانت تلعب غير مبالية.

«ركبنا حافلة من لوس تولدوس إلى براغادو، ثم حافلة أخرى تخرج عند الفجر من براغادو إلى تشيفيلكوي: رحلة من عشرين فرسخاً. الحياة القادمة كانت قاتمة، خاوية، ولم أكن أدري أية أحقاد سأواجهها. ولكني لم أهتم بذلك. طالما أبنائي معي، أشعر بأنني عصية على الهزيمة. لم أحبل بأي منهم بالخداع أو المكايد وإنما بمشيئة الأب الذي فقدوه للتو. ولن أسمح بأن يكبروا بإحساس بالعار وبأنهم لا أحد، ولا أن يعيشوا متوارين، كما لو أنهم ظهروا من المصادفة.

«وصلت إلى بيت دوارتي في حوالي التاسعة صباحاً. وكانت نواقيس كنيسة السانتيسيمو روساريو تُقرع حداداً، ويطفو في هواء تشيفيلكوي الخانق غبار طلع الأزهار. وكانت الأكاليل الجنائزية تُرى من بعيد. فقد صفوها في الشارع على حمالات من كرتون بنفسجي. وعلى أشرطتها تُقرأ أسماء مدارس رسمية، وأندية روتاريو، وأعضاء مجالس بلدية وكهنة لم يذكر دوارتي أسماءهم من قبل بحضوري. وعلى الرغم من ارتباك الوصول، لاحظت أنني لا أتعرف في ذلك الميت على والد أبنائي الخمسة. فقد كان صموتاً وهو معي، ومتواضعاً، ودون تخيلات. بينما حياته الأخرى، بالمقابل، تكشف عن شخص متنفذ وواسع العلاقات الاجتماعية.

«لا بد أن هناك من تعرف علينا وأخبرهم بأنا نقترب، فقد اعترض طريقنا عند زاوية البيت رجلان عجوزان أثارا شكوكي. أشدهما حداداً، وله شارب رفيع، خلع قبعة القش وكشف عن صلعة متعرقة.

«- أنا أعرف من تكونين ومن أين أنت آتية يا سيدتي - قال دون أن ينظر إلى عيني - إنني أتفهم حزنكِ وحزن أبنائك. ولكن عليكِ أن تأخذي في الاعتبار أيضاً الحزن الذي تشعر به أسرة خوان دوارتي الشرعية. إنني ابن عم المتوفى. أرجوكِ ألا تقتربي من بيت الحزن. وألا تجلبي لنا الفضائح.

» لم أتركه يواصل الكلام.

»- إنني آتية مع هؤلاء الأبناء من بعيد جداً. وهم لهم الحق أيضاً بأن يودعوا أباهم. وعندما ننتهي مما جئنا من أجله سنغادر. واطمئن، لن أتسبب في أية فضيحة.

»- أظن أنكِ لم تفهميني ـ ألح ابن العم. وكان يتعرق بغزارة. ويخفف عن نفسه بمنديل مضمخ بعطر ـ لقد حدثت الوفاة بصورة مفاجئة والأرملة متأثرة جداً. وإذا عرفت أنكِ دخلتِ بيتها لن يكون ذلك جيداً لها. أنصحُ بأن تذهبوا إلى الكنيسة وتصلوا هناك من أجل راحة نفس خوان الأبدية. وعلى سبيل الإحسان، خذي هذا المبلغ من النقود لتشتري بعض الزهور من أجله.

»مدّ لي ورقة نقدية من فئة المائة بيزو، وكان في ذلك الحين مبلغاً رهيباً. لم أتنازل بالرد عليه. أزحته جانباً بيدي وواصلت طريقي. وحين انتبه العجوز الآخر إلى تصميمي، ابتسم مواربة وسأل بازدراء:

»أهؤلاء هم أبناء الزنا؟

»- أبناء أمك ـ أجبته مشددة على «أمك»، كي أرد له الإهانة – وأبناء خوان دوارتي. هكذا هي الأمور. فاللص يرى الجميع مثله.

»لم أستطع التقدم سوى خطوات قليلة. فقد خرجت من البيت فتاة شابة، أكبر قليلاً من ابنتي بلانكا. وكانت شاحبة الشفتين وآثار البكاء بادية على عينيها. شقت طريقها بين الأكاليل الجنائزية باندفاع أسقطت معه إكليلين أو ثلاثة عن المساند التي تحملها. كانت متشنجة. وفكرتُ في أنها ستضربني.

»- كيف تتجرئين على المجيء؟ ـ قالت ـ لقد عانينا طيلة حياتنا بسببك أيتها السيدة. انصرفي من هنا، انصرفي. أي نوع من النساء أنتِ، رباه؟ يا لإساءة الاحترام.

»لم أفقد هدوئي. وفكرت: إنها ابنة دوارتي. ولا بد أنها هي أيضاً، على طريقتها، تشعر بالفقدان.

»– لقد جئت إلى هنا احتراماً للميت ـ قلت لها ـ. فقد كان في حياته أباً طيباً. ولا أرى سبباً لأن تكون الأمور غير ذلك الآن بعد موته. فلا تسببي لأبنائي الأذى الذي لن يسببوه لكِ.

»– انصرفي الآن فوراً! ـ ردّت عليّ. ولم تدرِ إن كان عليها أن تهاجمني أم تنصرف باكية.

»ومن يدري لماذا وردت إلى ذهني في تلك اللحظة محطة القطار حيث انتظرتُ دوارتي مرات عديدة دون طائل، وعربة أبي وهو يجرها بين سرابات الحقول الجافة، وولادة ابنتي الأولى، ووجه إيفيتا المشوه بالحروق. وبين كل تلك الصور وجدتُ أيضاً صورة سيد نحيل وشاحب. كان يرتدي السواد وقد تقدم دون أن ننتبه إليه، في كنف انعكاس الضوء. ظننتُ أنه شخصية أخرى من شخصيات ذكرياتي، ولكن لا: إنه يقف أمامي في واقع ذلك اليوم الشديد البعد عني، يقف ثابتاً، يشهد سورة الغضب الهستيري لتلك الشابة التي هي عملياً، نصف أخت لأبنائي. وضع السيد النحيل يديه على كتفيها، وبهذه الحركة البسيطة أطفأ غلواء حقدها، أو كبحه على الأقل.

»– فلنسمح لهم بالدخول لحظة يا إلويسا ـ قال لها ـ. يجب ألا يعود هؤلاء الناس إلى لوس تولدوس بالأسى نفسه الذي جاؤوا به.

»رجعت الشابة إلى البيت منتحبة. وعندئذ تكلم الرجل إليّ، بلا غضب ولا شفقة:

»– كل شيء في هذا الموت كان مفاجئاً لنا. كان من الأفضل عدم مجيئكم. ولكنكم صرتم الآن هنا في تشيفيلكوي، وكلما كان عدد الناس الذين يعلمون بالأمر أقل سيكون أفضل. كان بإمكان دوارتي أن يفعل كل ما يحلو له في لوس تولدوس. أما هنا فيجب الحفاظ على المظاهر. إذا سأل أحدهم من تكونين، سأقول له إنك الطاهية في مزرعة أونيون. لا تكذبيني. فإما أن تدخلي بهذا الشرط، أو تنسحبي من هنا. لن يوجه إليك أحد أي كلمة. ولا أريدك أيضاً أن تكلمي أحداً. سأمنحك خمس عشرة دقيقة كي

تودعي الميت، وتصلي وتغادري. وستكون الأرملة خلال هذا الوقت في مكان آخر من البيت، وربما يرغب جميع من جاؤوا لتقديم العزاء في أن يكونوا بعيدين. لن يكون هناك أحد في حجرة التسجية. سأكون أنا فقط، كي أراقب تنفيذك هذا الاتفاق.

«- تظل مسألةُ المقبرة - قلتُ له. وكنت أشعر بجفاف في حنجرتي، ولكنني لم أشأ إبداء الضعف - فقد وعدتُ دوارتي بأن يمشي أبناؤه في موكب جنازته عندما يموت، ويضعوا له أزهاراً.

«ظل الرجل صامتاً لحظة. وكان صمته أشد توعداً من كلماته.

«- مازالت أمامنا ثلاث ساعات من أجل الدفن. ولا أدري ما الذي ستفعلونه خلال هذا الوقت، ولكن لا يوجد مسوغ لبقائكم هنا. فمن سيرافقون النعش هم الأقارب، وضباط الشرطة، وأعضاء المجلس البلدي، ومعلمو المدرسة الرسمية، وأعيان المزارع الذين كانت لهم علاقات عمل مع المتوفى. إنهم أشخاص كثيرون، وأنتم لا تعرفون أحداً منهم. لا يمكنني أن أمنعكم من المشي خلف الموكب. ولكن لن يفسح لكم أحد مكاناً.

«اختفى السيد النحيل في بيت الميت، وبعد هنيهة استدعانا بإشارة مزدرية بإصبعه السبابة. أتذكر أنني لدى المرور بين صفي أكاليل الزهور، نسيتُ نفسي ونسيت تسميات كل ما أراه. شموع، سياج، عيون، بلاط، كان الواقع في مكان آخر. وكذلك جسدي. لم أعد أشعر بألم الدوالي. كان في حجرة تسجية الميت بيانو كبير بذيل، وإلى جانب المنضدة الصغيرة يوجد كلبا صيد محنطان.

«وبالرغم من أن قول ذلك يحزنني، إلا أن الميت لم يكن يغادر هذا العالم بهيئة شديدة التأنق. كان قد مضى علينا قرابة السنتين دون أن نلتقي، وقد أهمل خلال هذا الوقت الاهتمام بطعامه. كان بديناً. وبطنه منتفخاً كثيراً، حتى إن رؤية ظله منعكساً على الجدار توحي بوجود بيانو آخر هناك، لكن ذيله مرفوع إلى أعلى. كان رأسه متأذياً من الحادث مع خطين من الدم عند فتحتي الأنف. فكرتُ في أنهم تركوه على تلك الحال

متعمدين، كيلا يتذكره أحد كشاب وسيم. اقتربنا لنقبّله، ولكننا لم ندرِ أين نطبع قبلاتنا. فمن أجل عدم تهدل فكه السفلي، ربطوا منديلاً يكاد يغطي وجهه بالكامل. داعبت بلانكا أنفه الحاد والشفاف. وأمسكت أنا بيديه المتشبثتين بمسبحة. وتساءلتُ ما هي الأفكارٍ التي كانت تدور في رأسه عندما انقلبت السيارة في الوهدة. لقد كان جباناً، ولا بد أنه لم يتجرأ على التفكير في شيء. وأنه كان يشعر فقط بذهول النهاية ورعبها.

»لم تكن إيفيتا قادرة على رؤية الجسد، فحملتها بين ذراعي. وعندما قرّبتها من التابوت، لاحظت أن شفتيها مطبقتان بشدة ونظرتها قاحلة. قلت لها "إنه أبوكِ" فاستدارت نحوي وعانقتني دون أي تعبير، لمجرد أنه عليها أن تعانق أحداً ولا تريد لمس رفات ذلك المجهول.

»رافقنا السيد النحيل حتى الباب. أظن أنه قدم لي بطاقة ولكنني لم أستطع قراءتها. فقد أرسلت الشمسُ في ذلك الصباح حراً لا رحمة فيه، وكل ما أتذكره كان أصفر.

»التجأنا إلى نزل، بالقرب من محطة الحافلات، وفي حوالي الساعة الواحدة توجهنا نحو المقبرة. وصلت حين وصل الموكب. رأيت زوجة دوارتي الأخرى تبكي على كتف ابنتها التي أهانتني؛ ورأيت السيد النحيل يحمل النعش إلى جانب نقيب يرتدي في ذلك الحر الخانق عباءة وشرائط رتبته. شعرتُ بالأسى على المتوفى وهو يودع هذا العالم محاطاً بأشخاص يجهلون حياته وما كانوا يحبونه مثلما هو على حقيقته. كنا نعاني من حدة الشمس، وبدا لي، من أجل الصغار، أنه لا حاجة بنا إلى متابعة طقوس الجنازة. لم يعد هناك مسوغ للبقاء ولم يكن ثمة مبرر للعودة مرة أخرى.«

واصل صوتُ الأم الكلام ولكن كتابتي لم تعد تسمعه. وبين الكلمات التي تركتُها تضيع، توجد أبيات شعر ألقتها إيفيتا في فناء مدرسة لوس تولدوس المختلطة، ودوي آلة الخياطة ماركة سنجر، وصورتان لفتاة حزينة، بلا ابتسامة، وصباح اليوم الذي قالت هي فيه: «سأصير فنانة».

كانت صور بطاقات بريدية ربما يجب أن تُضَمَّن هنا. ولكن طيران جناح وحيد وأصفر في هواء الصفحة أصابني بالصمم. رأيتُ الجناح يطير إلى الوراء، وعندما اقتربت لم أعد أراه. فقلت لنفسي: هكذا ينطفئ الماضي. فالماضي يجيء ويذهب على الدوام دون أن يهتم بما يخلّفه.

- يمكن لكِ أن تتصور الأزمنة المريعة التي مرّ بها الكولونيل عندما رجع إلى بوينس آيرس - قال لي ثيفوينتس. وكنا معاً من جديد، مع بداية مساء يوم الأحد ذاك نفسه. كنت آكل تفاحة، وكان يدخن بشراهة، متكبراً وضئيلاً - لقد خلّف وراءه، في ألمانيا، كل ما تبقى له من الكبرياء والفطرة والقوة والرغبة. كان يعيش وحيداً في نزل عند تقاطع شارعي أريناليس وكورونيل دياث. لا شيء لديه يعمله، ولا أحد يفكر فيه، يجتر صور الجثة الضائعة. في أواخر ذلك العام اتصلوا من المستشفى العسكري لأنهم أدخلوه في حالة سبات غيبوبة وكان الأطباء يعتقدون أنه ما عاد بمقدوره رواية القصة. كانوا يعذبونه بعمليات غسل معوية وبأنابيب الغلوكوز. وكانت تظهر على جسده البائس ندوب طفح جلدي وكدمات وآثار التهاون والإهمال. ومن هاتف المستشفى اتصلتُ بزوجته وطلبت منها أن تساعده. فقالت لي: «ومن يدري إن كان راغباً في رؤيتي». فأجبتها: «يا لهذا القول. لن يستطيع صدك. إنه يحرق أنفاسه الأخيرة بجهد للبقاء حياً».

-- وقد ظل حياً - قلتُ له - لم أسمع عن أحد سقط وعاد للنهوض مرات عديدة مثله.

- أنت لا تدري كم ظل حياً.

بقينا أنا وثيفوينتس دون حراك لوقت طويل في يوم الأحد ذاك بالذات. كان هناك ضباب في الخارج، ورذاذ مطر، وهبّات ريح رطبة. كل سوءات مزاج مناخ بوينس آيرس تمر من هناك دون أن تثير اهتمامنا. وحسب عادته، كان ثيفوينتس يُخرج من جراب قطع خبز صغيرة جداً ويأكلها. ويظل بعض الفتات الناعم عالقاً في لحيته المدببة.

– قبل النهاية، تصالح موري مرة أخرى مع زوجته – قال لي ثيفوينتس – وعاد للعيش في شقة شارعي كايّاو وسانتافي. كان يداعبه الوهم بأن يعيدوه إلى الجيش ويرقوه إلى رتبة عميد، ولكن أصدقاءه كانوا قد فقدوا نفوذهم وكان الجيش نفسه في حالة جنون من الصراعات الفئوية، بحيث لا يمكن لأحد الاهتمام به. وفي تلك الشهور بالذات زاره رودولفو والش وروى له الكولونيل أنه دفن إيفيتا واقفة في حديقة أمطار لا تهدأ. وكان يتوقع أن المتوفاة مازالت تجول عبر العالم، في أيدي قوة خفية ما. وذات يوم قال لي: «فلنذهب للبحث عنها يا عقلة الإصبع». فحاولت، للمرة الوحيدة في حياتي، أن أعيده إلى رشده، وقلت له: «من دفنتها في آيشتات كانت نسخة مقلدة يا موري. لقد خدعوك. ومن يدري ما الذي فعلوه بإيفا. ربما يكونون قد دفنوها في البحر.» وقد ندمت فوراً لأنني كلمته بتلك الطريقة. وجرى بيننا شجار شرس. وقد رأيته يمدّ يده إلى مسدسه الفالتير. أظن أنه كان على وشك أن يقتلني. وظل لعدة شهور لا يكلمني. ففي نظر الكولونيل، لم يكن هناك واقع آخر غير إيفيتا. ويبدو له أن العالم من دونها لا يطاق.

في بعض الأحيان كنا نصمت لفترات طويلة، إلى أن يستقر الصمت تماماً في داخلنا. وفي بعض الأحيان نتذكر الكلام ونكرر ما قيل كما لو أننا قد نسيناه. مازلتُ أفكر في أن يوم الأحد ذاك لم يكن يوماً واحداً وإنما عدة أيام، وأن ثيفوينتس، عند حلول الليل، ابتعد نهائياً عن حياتي.

ولكنني لم أنته من رواية بعض القصص التي ظلت، منذ ذلك الحين، في داخلي.

ومثلما هو محتم، قال لي ثيفوينتس، سمح الكولونيل لحمى شرب الكحول أن تلتهمه من جديد، وعاد إلى معاناة نوبات الهذيان. أسراب فراشات تدفنه تحت نسيج شموع مشتعلة وزهور برية. وفئران الكوابيس تفكك عظامه وتحرق عينيه. أدخلته زوجته مرتين إلى المستشفى، وعاد بعد المرتين إلى سابق عهده. وواصل كوماندو الانتقام إرسال التهديدات إليه

وسؤاله عن مكان وجود إيفيتا بالكتابة إليه: *أعد جسد القديسة إلى الشعب. سوف نقطع أذنك مثلما قطعتَ أذنها. سنسمل عينيك. أين خبأت رفات أمنا المحبوبة القدس؟*

في فجر أحد الأيام حضر الكولونيل إلى بيت ثيفوينتس. كان يحمل صندوقين مترعين برسائل ووثائق وبطاقات تتضمن روايات مشفرة. قال له إنه سيرجع لأخذها عندما يهدأ الماضي.

- إنهم يتبعونني خطوة خطوة يا عقلة الإصبع - أوضح له - وسوف يقتلونني في لحظة لا تخطر على بال. ربما يكون ذلك راحة، وربما يكون الأفضل.

ترك الصندوقين هناك إلى الأبد. وكلما احتاج إلى مراجعة الكتابات، كان يدخل إلى حجرة مكتب صديقه، في النهار أو الليل، وبمساعدة عدسة مكبرة يتفحص الأوراق، على خلفية ضوء، بحثاً عن ملاحظات بحبر سري. لم يعد هناك من يتذكره ككائن حي، قال لي ثيفوينتس. «لم يعد موري، في النهاية، هو الكولونيل. لقد صار مرضه، إدمانه، عذابه».

في العام 1965 ابتعد آخر مرة عن زوجته، وترك الشرب كذلك لبعض الوقت. أسس وكالة صحفية عبر أميركا تبث إشاعات حول مؤامرات عسكرية وأعمال تمرد في المصانع. كان يكتب الأخبار هو نفسه وينسخها على آلة ناسخة تعود للعام 1930، لا تتوقف عن السعال والتلعثم. وقد تدبر الأمر من أجل انبعاث اسمه في الصحف. وفي مطلع العام 1967 أجرت مجلة *بريميرا بلانا* المشهورة مقابلة معه. وهو يبدو في الصورة بديناً، وأصلع، وبأنف أحمر ومشقق خلّفه له الكحول، وابتسامة شبحية، بلا أسنان. وقد سُئل إن كان صحيحاً أنه «دفن جثة إيفيتا في الظلمات». فقال: «لن أجيب على هذه المكيدة. إنني أُعدّ كتاباً حول القضية. وهل تدري من يساعدني في ذلك؟ مفاجأة: الدكتور بيدرو آرا والسيدة خوانا إبارغورين دي دوارتي».

إنه يكذب طبعاً، دون أن يدري أنه يكذب. فقد اخترع واقعاً، وضمنه

كان هو الرب. كان يحاكي مخيلة الرب في تلك المملكة الافتراضية، في ذلك العدم غير المملوء إلا به هو نفسه، وكان عصياً على التأثر، ويشعر أنه لا يُهزم، وأنه كلي القدرة.

كان لابد للفقاعة من أن تنفجر عاجلاً أو آجلاً. وقد حدث ذلك في إحدى ليالي شهر آب. كان الكولونيل قد تواعد مع مخبر في محطة لينيرس. وحين تقدم على الرصيف، ظن أنه قد رجع إلى أحد كوابيسه. فبين مقاعد الألواح الخشبية وكوى بيع التذاكر المغلقة، رأى أصحاب نذور يقاطعون أذرعهم كصلبان، ويرفعون قناديل مضاءة وأكاليل من زهر الأقحوان. بعضهم يرفعون على حمالة صورة منحوتة لقديس غير معروف ومستغرق في حركة توزيع خبز بلاستيكي ونقود وهمية. وآخرون يوقرون صورة ظافرة لإيفيتا وهي بتنورة من طراز ماري أنطوانيت ظهرت بها في سهرة مسرح كولومبس. كانت الأغنيات تختلط، *تعالوا أيها المسيحيون، القديس كايتانو يصلي من أجلنا، قلبكِ يا إيفا بيرون/ يرافقنا على الدوام*. وتختلط عطور اليأس وزهر الباتشولي والبخور. قبالة قبة كوة التذاكر، اقتربت امرأة ترتدي معطفاً يصل حتى الأرض، وقدمت للكولونيل باقة من زهر الجلبان البري ودفعته نحو المذبح حيث تبتسم هي منذ ليلة حفلها الساهر البعيدة.

– هيا – قالت المرأة ـ ضع لها مئة بيزو.

– من أنت ـ قال لها الكولونيل ـ أنت من كوماندو الانتقام.

– وماذا سأكون أنا ـ ردّت عليه، ربما دون أن تفهم ما قاله ـ إنني إيفيتيه، من الميليشيا الملائكية. ولكن هنا، في هذه الاحتفالات، لا فرق بين الديانات. ضع لها المائة بيزو.

أعاد إليها الكولونيل الباقة، وخرج برعب إلى الليل. كانت تزدهر حول المحطة مذابح صلوات كأنها أقراص العسل. وكان تماوج شموع يُبهت أشباح المصلين والحجاج. وبروفيل إيفيتا يُنزل مباركته من أعلى الرايات. وعلى الشرفات تطل تماثيل أخرى لإيفيتا منحوتة من الجبس، وقد زُينت بملامح من مريم العذراء. وجميعها تشهر ابتسامة تحاول أن تبدو حانية

ولكنها تبرز مائلة، ماكرة، متوعدة.

ابتعد كيفما استطاع. وسمع عدة مرات، خلال الطريق، من يقول له من مداخل البيوت: «سنقتلك. سوف نقطع خصيتيك. سوف نسمل عينيك». ومن أول متجر مفتوح صادفه اشترى زجاجة جن وشربها هناك بالذات، بظمأ لم يرتوِ منذ سنتين. ثم اعتكف بعد ذلك في مكتبه وواصل الشرب إلى أن انسحبت إيفيتا من هذياناته وأبقته أشباح أخرى أشد رهبة مسمراً إلى الأرض، وسط مستنقع من البول والبراز.

في هذه المرة أنقذه عمال التنظيفات. وكانت الأضرار في جسده كبيرة إلى حدّ أن الأطباء لم يسمحوا له بالخروج من المستشفى إلا بعد ستة شهور. وشاء القدر المشؤوم، لدى وصوله ناقهاً إلى مكاتب الوكالة عبر أميركا ـ حيث صار بيته الآن ـ، أن يدس أحدهم من تحت الباب مغلفاً مختوماً بالشمع الأحمر، يتضمن هذه الرسالة المقتضبة: *ساعتك تقترب. كوماندو الانتقام*.

خرج يائساً إلى الشارع، بلا قميص. كان ذلك في بداية الخريف، وكان يهطل مطر قاس. وقد التقت به في ميدان مايو يومئذ الكاتبة تونونا ميركادو، وكان من عادتها الخروج مع كلبها في مثل تلك الساعة كل يوم. «ظننتُ أنه مريض هارب من أحد الملاجئ»، أخبرتني بعد سنوات طويلة من ذلك. وأضافت: «فكرتُ: لا يمكن إلا أن يكون مريضاً بائساً. إلى أن تعرفت إليه من خلال صوره في الصحف. ركض حتى تمثال أوهيخينس وتوقف أمام قاعدته متقاطع الذراعين. سمعتُه يصرخ: ‘‘لماذا لا تأتون مرة واحدة وتقتلونني؟’’ وراح يكرر: ‘‘لماذا لا تأتون’’. لم أكن أعلم لمن يتوجه بكلامه. نظرتُ في كل الاتجاهات. ولم يكن هناك أحد. لا شيء سوى الصمت وضوء مصابيح الإنارة الحليبي. ‘‘ما الذي تنتظرونه يا أبناء العاهرة’’، عاد يصرخ ‘‘أقتلوني، اقتلوني! ’’ وفجأة، دفعه شيء ما إلى الانهيار. وانفجر في البكاء. فاقتربتُ منه وسألته إن كان يحتاج إلى مساعدة، وإن كان يريد أن أستدعي له طبيباً.»

كانت تونونا تتأثر على الدوام لرؤية الرجال الذين يعيشون في تلك

الساحة، في العراء. وكانت على وشك العبور إلى قصر بيزورنو لتطلب مساعدة الحراس الليليين عندما ظهر رجل أصلع، له أنف صقري، ولحية فارس.

«إنه ثيفوينتس» قلتُ لها. «إنه ألدو ثيفوينتس».

«من يدري»، ردّت عليّ تونونا التي تثق ثقة مطلقة بمشاعرها ولكن ليس بحواسها. وواصلت قائلة: «كان الرجل القصير الأصلع يبحث عنه. وقد قال له بعذوبة عجيبة: "هيا بنا يا موري. ليس لديك ما تفعله هنا". فتوسل إليه الكولونيل: "لا تطلب مني هذا يا عقلة الإصبع". وقد فوجئتُ بأن شخصاً بمثل تلك الفجاجة، وبمثل ذلك المظهر المزري، يذكر اسم شخصية من قصصي للأطفال. "أريد أن أموت". لف الصديقُ الكولونيلَ بدثار واقتاده، وهو يكاد يحمله على كتفه، إلى سيارة. لقد ظللتُ جامدة لوقت طويل تحت المطر، وفي تلك الليلة لم أستطعٍ النوم.»

بنكران للذات، وبإصرار عنيد، كان ثيفوينتس دليلاً وراعياً للكولونيل حتى عشية موته في العام 1970. هناك كائنات، ودون أي سبب، يحمون آخرين بشفقة مؤثرة، كما لو أن العناية بتلك المصائر الأخرى تتيح لهم التكفير عن هزائم أخرى وواجبات لم ينجزوها. وقد طبق ثيفوينتس هذا العمل دون مباهاة. وفي مذكراته التي نُشرت بعد موته يكرس للموضوع فقرة فاترة: «كان موري كينيك شقيق روحي. أردت إنقاذه ولم أستطع. لقد سقط في المحنة لأسباب غامضة. يمكن لكثيرين أن يتحدثوا عن سكره، وعن خدعه وأكاذيبه الصغيرة. أما أنا فلم تكن تهمني سوى أحلامه».

سوف أترك هذا الجزء الأخير من القصة، إذاً، يستريح على صدر حلم.

مثلما قلت من قبل، كان الكولونيل يحلم كل ليلة تقريباً بالقمر. يرى نفسه ماشياً في صحار بيضاء ومشققة من «بحر الصفاء» الذي تلمع فوقه ستة أو سبعة أقمار زائغة ومتوعدة. كان يشعر في الحلم أنه ذاهب للبحث عن شيء، ولكنه كلما لمح بصيصاً، أو رعشة في المشهد، يتلاشى الوهم قبل أن يتمكن من الوصول إليه. صور العدم والصمت تلك كانت تظل في داخله لساعات، ولا تتلاشى إلا مع أول جرعات الجن.

عندما عُرف أن ثلاثة من ملاحي «ناسا» سيحطون على القمر، فكر الكولونيل، براحة، أن ذلك الحلم المكرور سيفقد مسوغ وجوده ـ مثل جميع الأحلام التي ينتهي بها المطاف، بعد إلحاح شديد، إلى الظهور في مكان ما من الواقع ـ وأنه سيحصل بعد ذلك على حريته في الحلم بأشياء أخرى. فقرر مع ثيفوينتس أن يريا معاً في التلفاز الساعات الأخيرة من الرحلة الفضائية الطويلة. وعلى هذا الأساس استقرا ذات يوم أحد أمام الجهاز مع لعبة نرد لتزجية الوقت ومؤونة سخية من السجائر. كان البث يبالغ في عرض صور من مركز التحكم في هوستن ومقابلات مع الفنيين الذين يتحكمون بسير المركبة الفضائية. تلك الاستطرادات المطولة سببت لهما النعاس.

كانا قد تعهدا بمقاومة إغراء الخمر إلى أن تنهي المغامرة. وأخيراً ظهر في الفضاء الفسيح قرصٌ مدور عجيب، مترع بالضوء. استمر المشهد قليلاً. وغار بطن القرص في الحال، وراح يرسم في الفضاء الخاوي قوساً مقعراً آخذاً في التناقص.

– إنه القمر ـ قال الكولونيل.

– بل هي الأرض ـ قال ثيفوينتس ـ إننا نحن. يبدو أن عصابة كانت على عيوننا، مثل الراهبات.

لم يحدث أي شيء آخر خلال ساعات. الهواء في الخارج كان مفعماً بأصوات المدينة، ولكن الأصوات بدأت تنأى كذلك ولم يبق سوى خواء الشتاء القاسي. وبالرغم من أن برودة البيت صارت لا تطاق، إلا أن الكولونيل لم يكن يشعر إلا بالحر والظمأ. وعند انتصاف الليل، كسر تعهده وشرب جرعة من الجن. وحين رجع كانت الكآبة تثقل عليه. كانت العربة الفضائية التي انفصلت عن المركبة الرئيسية تُنزل أذرعها على حفرة معفرة. لقد وصل البشر إلى القمر، ولكن الكولونيل لم يعد يشعر بشيء، باستثناء دوي طبول جحيمه الخاص.

– من الذي أخذها يا ترى يا عقلة الإصبع، ما رأيك أنت؟

– أتعني إيفيتا؟ وما أدراني. يا للأفكار التي تخطر لك في مثل هذه

الساعة.

كان ثيفوينتس مستاء. فالأنفاس العابقة برائحة الجن ملأت الهواء.

– من يدري إن كانوا يعتنون بها يا عقلة الإصبع. ومن يدري ما الذي يفعلونه بها.

– دعك من التفكير في هذا الأمر. لقد وعدتني بذلك.

– إنني أفتقدها. أشتاق إليها. أود عدم التفكير، ولكنني أشتاق إليها.

ناما هناك بالذات، على كرسييهما. وعندما استيقظ ثيفوينتس، بعد ظهر اليوم التالي، كان الكولونيل قد شرب أكثر من نصف زجاجة جن، وكان يبكي وهو يرى صوراً غير متناهية لبطحاء الرماد. كانت تُسمع أصوات مكابح الحافلات في الشارع. وبدا أن كل شيء قد عاد إلى طبيعته، وإن كانت تنفتح بين حين وآخر معترضة صمت. وكان السواد يخيم حينذاك على شاشة التلفاز، كما لو أن العالم قد حبس أنفاسه بانتظار ولادة استثنائية، مفرطة في الضخامة.

وفي الساعة الحادية عشرة من ليل يوم الاثنين. وطأ نيل أرمسترونغ سطح القمر ونطق الجملة الخطابية التي تدرب عليها طويلاً: *That's one small step for man*. تجمدت صورة التلفاز على أثر فردة جزمة، الفردة اليسرى، على غبار القمر الرمادي.

– يا للغرابة: كم هي كثيرة النقاط السوداء – قال الكولونيل – ربما يوجد ذباب في ذلك المكان.

– لا يوجد شيء ـ قال ثيفوينتس ـ لا توجد حياة.

– يوجد ذباب، وفراشات، ويرقات ـ أصر الكولونيل ـ انظر إليها في التلفاز. إنها في كل مكان.

– لا وجود لها يا موري. إنه الخمر الذي شربته. توقف عنه وكفى. لا أريد أن ننتهي مرة أخرى في المستشفى.

كان أرمسترونغ يقفز من حفرة إلى أخرى، وفجأة اختفى في الأفق وهو يحمل رفشاً صغيراً. قال، أو أن الكولونيل ظن أنه سمع: «لا أستطيع رؤية

ما أفعله حين أصل إلى الظل. أحضر الآلة يا بوز. أرسل لي الآلة».
- سيعملون بآلات ـ قال الكولونيل.
- لقد ذُكر ذلك في الصحف ـ تثاءب ثيفوينتس ـ سوف يحفرون. عليهم أن يلتقطوا بعض الأحجار.

بدا أرمسترونغ والرجل المدعو بوز كما لو أنهما يطيران فوق ذلك العالم الطري الميت. كانا يرفعان أذرعهما ويطيران فوق جبال هشة وبحار راكدة. أضاعتهما الكاميرا عن مجال الرؤية، وعندما رجعت إليهما، كانا يطفوان معاً، ويمسكان بمقبضي صندوق معدني مطموس الحواف.

- انظر ذلك الصندوق ـ قال الكولونيل ـ إنه تابوت.
- بل صندوق عدة ـ صحح له ثيفوينتس ـ سوف ترى ذلك عندما يبدأان العمل.

ولكن الكاميرا ابتعدت عن رائدي الفضاء في اللحظة التي انحنيا فيها فوق شيء يبدو مسيلاً، أو شرخاً، وانشغلت بمناظر أخرى. وفي البياض الرهيب كانت ترتسم دوائر، وزرقة، وومضات ريش، ونوازل، وجائحات شمس. وبعد ذلك ساد الفضاء صمت لا يشوبه أي تبكيت، إلى أن عاد للظهور بروفيل أرمسترونغ وحيداً وهو يحفر.

- هل رأيتَ هذا ـ قال الكولونيل. وكان متصلباً وإحدى يديه على جبهته، شاحباً قبالة الصور المنعكسة.
- ماذا ـ ردّ عليه ثيفوينتس متعباً.
- لقد أخذوها إلى هنا.
- إنها راية ـ قال ثيفوينتس ـ سيغرسون راية.
- ألا تلاحظ؟

أمسكه ثيفوينتس من ذراعه.

- اهدأ يا موري. لم يحدث أي شيء.
- كيف لم يحدث أي شيء؟ لقد أخذوها يا ثيفوينتس! إنهم يدفنونها في القمر!

«يمكنكم رؤية الراية»، أعلن أحد الفنيين في هوستن. *Naw, you can see the flag.* «أليست رائعة؟».

– إنها رائعة ـ قال الكولونيل ـ إنها أروع شخص في هذا العالم ـ وانهار على الصوفا وردد دون عزاء، مئات المرات، الكشف الذي سيستهلك ما تبقى من حياته ـ: إنها هي. لقد دفنها أبناء القحبة في القمر.

\- 16 -

«عليَّ أن أكتب مرة أخرى»

«يمكن للتاريخ أن يأخذنا إلى أي مكان،
شريطة أن نخرج منه»
كلود ليفي شتراوس، *الفكر المعجمي*

في الأيام الأخيرة من شهر حزيران 1989، وبينما أنا أرزح تحت وطأة نوبة من الاكتئاب، استلقيتُ مصمماً على عدم النهوض من الفراش إلى أن يغادرني الحزن من تلقاء ذاته. ظللت على تلك الحال وقتاً طويلاً. وراحت الوحدة تحولني إلى ما يشبه نسيج شرنقة. وذات يوم جمعة، قبل قليل من منتصف الليل، رن الهاتف. وبسبب الارتباك أو السبات، رفعتُ السماعة.

– ماذا تريد؟ ـ سألتُ.

– لا شيء ـ قال صوت حاد وآمر ـ ألم تكن حضرتك من تحاول معرفة شيء ما؟ إننا الآن جميعنا معاً ويمكننا التحدث.

– لا أريد التحدث إلى أحد ـ قلت ـ لقد أخطأتَ في الرقم.

وكدت أقطع المكالمة. ولكن الصوت أوقفني.

– توماس إيلوي؟

هناك قلة من الناس يعاملونني بهذا الاسم: الأصدقاء المقربون فقط، ممن كانوا في المنفى. وكذلك أبنائي في بعض الأحيان.

– إنني هو ـ قلت ـ ولكنني لا أبحث عن أحد.

– كنت تود الكتابة عن إيفيتا.

– كان ذلك منذ زمن طويل. وما كنت أريد قوله صار في رواية. وقد صدرت منذ أربع سنوات.

– لقد قرأناها ـ ألح الصوت ـ أفلتت منك أخطاء كثيرة. نحن وحدنا نعرف ما الذي حدث.

كانت تُسمع في الخلفية شذرات أصوات: أحاديث غير مفهومة، ضوضاء أوانٍ زجاجية وخزفية. بدت كما لو أنها أصداء غائمة لمطعم.

– من المتّكلم – قلت.

– سننتظرك حتى الساعة الواحدة في مقهى تاباك عند تقاطع شارعي ليبرتادور وكورونيل دياث. الأمر يتعلق بالجثة، أتدري؟ نحن من قمنا بالعمل.

– أية جثة؟

في تلك الأزمنة، كانت إيفيتا بالنسبة إليّ شخصية تاريخية خالدة. ولم يكن يخطر ببالي كونها جثة. كنت أعرف بالطبع صروف ضياعها ثم إعادتها إلى الأرمل في مدريد، ولكنني استبعدت تلك الأمور من ذاكرتي.

– يا للسؤال. إنها جثة إيفا بيرون.

– من المتكلم؟ ـ كررت السؤال.

– أحد الكولونيلات ـ قال الصوت ـ من جهاز استخبارات الجيش.

حين سمعت هذا الاسم، أنشبت جميع ضباع الماضي أنيابها في جسدي. فمنذ ست سنوات فقط انسحب العسكريون من السلطة في الأرجنتين، مخلفين وراءهم آثار مذبحة مروعة. كان من عادتهم الاتصال هاتفياً في منتصف الليل ليتأكدوا من أن ضحاياهم موجودون في بيوتهم، وبعد خمس دقائق من ذلك ينقضّون عليهم، يجردونهم من ممتلكاتهم باسم

الرب ويعذبونهم من أجل خير الوطن. يمكن للشخص أن يكون بريئاً من أي ذنب، اللهم إلا التفكير، وهذا يكفي لأن ينتظر، في كل ليلة، مجيء فرسان القيامة ليطرقوا باب بيته.

– لن أذهب ـ قلت ـ أنا لا أعرفك. وليس هناك ما يدعوني للذهاب.

كان الزمن قد مضى. ولم تعد تلك الإساءات ممكنة الآن.

– كما تشاء. إننا نناقش الأمر منذ شهور. وهذه الليلة قررنا، أخيراً، أن نروي القصة كاملة.

– أخبرني بها في الهاتف.

– إنها طويلة جداً ـ ألح الصوت ـ إنها قصة عشرين عاماً.

– اتصل بي غداً إذاً. ألا تدرك كم هي الساعة الآن؟

– في الغد لا. هذه الليلة. حضرتك من لم تدرك ما الذي نتحدث عنه. إنها إيفا بيرون. تصور. الجثة. لقد قال لي أحد رؤساء الجمهورية: «هذه الجثة هي نحن جميعنا. إنها البلاد».

– لا بد أنه مجنون.

– لو كنت تعرف عن أي رئيس أتكلم لما قلتَ ما قلته.

– غداً ـ كررت ـ ربما في الغد.

– سوف تضيع القصة إذاً ـ قال.

هجستُ أنه هو من سيقطع المكالمة الآن. لقد أمضيت حياتي متمرداً على السلطات التي تمنع أو تبتر قصصاً، وضد المتواطئين الذين يشوهون القصص أو يسمحون بضياعها. والسماح لمثل هذه القصة أن تمر عليّ مرور الكرام هو فعل خيانة عظمى ضد ضميري.

– حسن ـ قلتُ ـ انتظرني. خلال أقل من ساعة سأكون هناك.

ما كدتُ أغلق الهاتف حتى شعرت بالندم. أحسست أنني عارٍ، أعزل، ضعيف، مثلما كنتُ في الليلة السابقة لخروجي إلى المنفى. شعرتُ بالخوف، ولكن مهانة الخوف حررتني. فكرت في أنني إذا شعرت بالخوف فإنني أتقبل أن الجلادين لا يمكن هزيمتهم. وهم لم يكونوا

كذلك، قلت لنفسي: الشمس / بصمتها / الجمال / دون غضب / جمال المهزومين / ألحق بهم الهزيمة.. نظرتُ إلى المدينة من خلال الستائر. كانت تهطل ذرات خفيفة من الصقيع. ارتديت المعطف المطري وخرجت.

أحد امتيازات مقهى تاباك هو أن واحات خالية من الصوت تنبثق بصورة لا تفسير لها بجوار النوافذ. فالضوضاء الباعثة على الجنون التي تتعالى بجوار منضدة الكونتوار وفي الممرات تنطفئ، باحترام، عند حدود تلك المناضد المتميزة، حيث يمكن الحديث دون أن يسمعه من هم على الطاولات المجاورة. ربما هذا هو السبب في أن أحداً لا يشغلها. عندما وصلت، كان حزام الصمت ناشزاً، دون مبالاة، عن ضوضاء المقهى الساهر. يوجد أناس، في بوينس آيرس، لا يستيقظون من قيلولتهم الطويلة إلا في منتصف الليل، ويخرجون عندئذ إلى الحياة. وبعض تلك المخلوقات كانت تتمطى في مقهى تاباك.

لم يومئ إليّ أحد عندما دخلت. تفحصت الوجوه بتشتت. وأحسستُ، فجأة، بملامسة إصبع على كتفي. الأشخاص الذين اتصلوا بي هاتفياً كانوا يجلسون خلفي. كانوا ثلاثة: اثنان منهم يجب أن يكونوا قد تجاوزوا السبعين. والثالث أصلع، له وجنتان عاليتان وشارب رفيع، مرسوم بدقة، إنه نسخة كربون عن خوان دوارتي، شقيق إيفيتا الذي فقد حظوته عند بيرون في العام 1953، وبسبب اليأس أو الشعور بالذنب، أطلق رصاصة على رأسه. بدا لي كما لو أن الماضي شخصياً قد جاء يبحث عني، متعسفاً، ومتصلباً لا يلين.

– أنا الكولونيل توليو ريكاردو كوروميناس ـ تكلم أحدهم. وكان منتصباً، متيبساً، وربما متضايقاً. حتى إنه لم يمد لي يده للمصافحة ولم أمد أنا يدي أيضاً ـ سيكون من الأفضل أن نجلس.

توغلت نحو حزام هدوء الأصوات. ولاحظت براحة أن اكتئابي كان يفارقني من تلقاء ذاته. عدت لرؤية الواقع كحاضر فسيح حيث كل شيء ممكن في نهاية المطاف. جلس أطول العسكريين الثلاثة إلى جانبي وقال،

بصوت أبح ومتعثر:

– لم أكن ضمن الفريق الذي أخذ الجثة. أُدعى خورخي روخاس سيلفيريا، وأنا من أعدتها.

تعرفت إليه. ففي العام 1971، منحته الحكومة العسكرية تفويضاً كاملاً للتفاوض مع بيرون في مدريد. وقد رجع إلى بوينس آيرس بيدين خاويتين، ولكنه سلّم بيرون هديتين مسمومتين: جسد إيفيتا الذي لم يكن يدري ما الذي يفعله به، وخمسين ألف دولار كرواتب رئاسية متأخرة، وهو مبلغ أحرق يدي بيرون.

ضرب الأصلع كعبيه بحركة عسكرية.

– وأنا أدعى ماجي، مثل ماركة الحساء ـ قال ـ وقد كنتُ في إحدى وثائقي، ذات يوم، كارلوس ماجي.

– لقد جئت لأن هناك قصة ـ ذكّرتهم ـ أخبروني بها وسأنصرف.

– قرأنا روايتك عن بيرون ـ أوضح كوروميناس ـ ليس صحيحاً أن جسد تلك الشخص كان في بون.

– أي شخص؟ ـ سألتُ بخبث. وكنت أريد أن أعرف كيف كانوا يسمونها.

– هي ـ أجاب ـ الإيفيتا ـ ورفع يديه إلى غبغبه المتكبر، المتدلي، ثم صحح على الفور: ـ إيفا بيرون.

– إنها رواية، مثلما قلت حضرتك – أوضحتُ – وما هو حقيقي في الرواية يكون كذباً أيضاً. فالمؤلفون يشيدون في الليل الأساطير نفسها التي كانوا قد حطموها في الصباح.

– هذه مجرد كلمات ـ أصر كوروميناس ـ ولا يمكن لها أن تقنعني. الشيء الوحيد الذي يُعتدّ به في نهاية الأمر هو الوقائع وأي رواية هي واقع. ولكن جسد تلك الشخص لم يكن في بون قطّ. وموري كينيك لم يدفنه. بل إنه لم يستطع معرفة مكان وجوده.

– ربما كانت لديه نسخة مقلدة وظن أنها الجسد الحقيقي ـ جازفتُ

بالقول. وكانت قد ظهرت مقالات تشير إلى نسخ مقلدة مبعثرة في العالم.

– لم تكن ثمة نسخ مقلدة ـ قال كوروميناس ـ كان هناك جسد واحد. وقد دفنه النقيب غالارثا في ميلان، وظل هناك منذ ذلك الحين إلى أن استعدته أنا.

وخلال ساعتين روى بإسهابٍ عالم تشريح نكبات ترحال المتوفاة: إخفاق الكولونيل في قصر المياه، وليلة العاصفة الهائجة في سينما ريالتو، وجريمة أرانثيبيا في العليّة بشارع سافيدرا، وارتكاب موري كينيك ما أسماه «تدنيس المقدسات» التي لم يعلم هو بها، كما قال، «إلا من خلال الإشاعات والوشايات المغفلة». وتكلم كذلك عن قرابين الأزهار والشموع اللجوجة. ثم عرض عليّ حزمة من الوثائق.

– انظر ـ قال ـ هنا المحضر الذي وقّع عليه بيرون حين تسلم الجسد. لاحظ الفاتورة التي أعطتني إياها الجمارك عندما شحنا المتوفاة بحراً إلى إيطاليا. وهذا هو صك ملكية المدفن. ألق عليه نظرة.

مدّ لي ورقة صفراء مهترئة، لا نفع فيها.

– صك الملكية منته ي الصلاحية ـ قلتُ مشيراً إلى التاريخ.

-- ليس مهماً. هذا دليل على أن المدفن كان لي ـ خبأ الورقة وكرر ـ كان لي.

طلبتُ فنجان قهوة آخر. أحسست أن عظامي قد تبلورت أو مُلِست تحت وطأة تلك الذكريات الغريبة عني. جميعهم كانوا يدخنون بكثرة ولكنني كنت أتنفس هواء آخر: هواء الشارع الجامد بلا حراك وبلا ضوء، أو هواء النهر القريب.

– أنت تظن أنها كانت لك يا كوروميناس؟ ـ قلت ـ لقد كانت على الدوام، بطريقة أو بأخرى، للجميع.

– لم تعد لأحد الآن ـ قال ـ إنها الآن، أخيراً، حيث كان عليها أن تكون دائماً.

تذكرتُ المكان: أعماق سرداب في مقبرة ريكوليكتا، تحت ثلاث صفائح

من الفولاذ بسماكة عشرة سنتيمترات، وخلف سياج قضبان حديدية، وأبواب مصفحة، وأسود من رخام.

– لن تظل هناك إلى الأبد ـ قلت ـ لديها الأبدية لتقرر ما تريده. ربما تكون قد تحولت إلى حوراء تنسج شرنقتها. وربما ترجع ذات يوم وتكون ملايين.

عدت إلى بيتي، وظللتُ حتى الفجر أفكر في ما أفعله. لا أريد إعادة سرد القصة التي رووها لي. فأنا لم أكن واحداً منهم.

بقيتُ على تلك الحال ثلاث سنوات، منتظراً، مجتراً. أراها في أحلامي: القديسة إيفيتا، بهالة نور وراء عقيصة شعرها وبسيف بين يديها. بدأت أشاهد أفلامها، وأسمع تسجيلات خطاباتها، وأسأل في كل الأنحاء عمن كانت وكيف ولماذا. «لقد كانت قديسة، ونقطةً وكفى»، هذا ما قالته لي ذات يوم ممثلة قدمت لها ملجأ عندما جاءت إلى بوينس آيرس. وأضافت: «لقد أدركتُ ذلك أنا التي عرفتها منذ البداية. لم تكن قديسة أرجنتينية وحسب. بل كانت كاملة أيضاً.» راكمتُ أنهاراً من البطاقات والروايات التي يمكن لها أن تملأ كل الثغرات الغامضة في ما سيصبح روايتي فيما بعد. ولكنني تركتها هناك، خارج القصة، لأنني أحب الثغرات الغامضة التي لا تفسير لها.

كانت هناك لحظة قلت فيها لنفسي: إذا أنا لم أكتبها سأختنق. إذا لم أحاول التعرف إليها بكتابتها، فلن أتعرف إلى نفسي أبداً. وفي عزلة هايلاند بارك، جلستُ وسجلت هذه الكلمات: «عند استيقاظها من غيبوبة استمرت أكثر من ثلاثة أيام، أيقنت إيفيتا أخيراً أنها ستموت». كان مساء خريفياً هادئاً، وكان الطقس الجيد يغني نشازاً، والحياة لا تتوقف للنظر إليّ.

ومنذ ذلك الحين جذفتُ بالكلمات، حاملاً سانتا إيفيتا في سفينتي من شاطئ إلى الشاطئ الآخر للعالم الأعمى. لا أدري في أي نقطة من القصة أنا. أظن أنني في المنتصف. وأواصل، منذ زمن طويل، في المنتصف. عليّ الآن أن أكتب مرة أخرى.

الفهرس

سانتا إيفيتا

"ها هي ذي، أخيراً، الرواية التي لطالما رغبتُ في قراءتها"

غابرييل غارسيا ماركيز

"إنها أفضل رواية تصل من أميركا اللاتينية منذ مئة ((عام من العزلة))".

ألبيرتو مانغويل الاندبندنت

"بكتابتها، وتقنيتها، وأصالة موضوعها، تعتبر هذه الرواية من أعظم الروايات التي كتبت في أميركا اللاتينية في السنوات الأخيرة"

جون بات، تايم ليتراري سوبلمنت.

"بهذا الكتاب، رسخ توماس إيلوي مارتينث مكانته بين أفضل كتاب أميركا اللاتينية"

ذي نيويورك تايمز ريفييو.

* * *

هذه هي سانتا إيفيتا: الأسطورة الحية، المرأة الفاتنة، الأم والمحسنة والأنموذج كما ينظر لها كثيرون، والأمية الجاهلة، الحاقدة والمتسلقة، العادية والمجنونة ورئيسة ديكتاتورية المتسوّلين، في نظر آخرين.

إنها إيفا دوارتي دي بيرون ذات الحسن الأبدي الباهر التي حُنّط جثمانها، وَصُنِعتْ على شاكلته نسخ عديدة، وكان من خلال ترحاله المجنون عبر العالم يقلب حياة كل من يقترب منه، ويمتزج بشعب تائه لم يفقد الأمل بعودة حلمه وأسطورته: سانتا إيفيتا.

أما الكاتب الأرجنتيني توماس إيلوي مارتينث فقد أبدع في هذه الرواية الاندغام الفريد للتخييل والواقع، للتاريخ والأسطورة، كي تنسرب روايته بين أضواء ما لم يكن، وظلمات ما كان يمكن أن يكون.

دار الحوار للطباعة والنشر والتوزيع
سوريا ـ اللاذقية ـ ص.ب 1018 هاتف 422339
9789933432614